

أَيْتَانِ
الْمُتَّبِعِي

بَيْنَ الْبِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ

لِطَفَى حَبْرٍ الْفَنَاءِ شِعْرُ

الإهداء

* إلى أصلي وفرعي أبويّ الكريمين ، وأبنائي الأربعة

إيمان ، أحمد ، إسلام ، إيناس

* وإلى التي غمرت حياتي نورا و مودة و رحمة

فاطمة

* وإلى الذين ساعدوني بمودة خالصة ...

والعالم الجليل : أ . د عبد الله التطاوي

والكاتب والمحلل السياسي: أحمد عز الدين

الإعلامي الصديق : حسن سليمان

والمخرج الصديق : أيمن عبد الغفار

مع خالص حبي وامتناني

لطفي عبد الفتاح شمعون

أيام المتنبي

بين البداية والنهـاية

* مقدمة

كنا نسمع في قريننا ونحن أطفال .. ممن هم أكبر منا سناً عندما تدور (حواديت) أحداث العنف والمشاجرات الدامية بين العائلات ، التي يسقط فيها قتلى ، أن القتل يظهر له (عفريت) في المكان الذي قُتل فيه ، كان هذا الأمر يُرعبنا ، ويمنعنا من الخروج ليلاً ، حتى لا نلتقي بهذا العفريت ، أو يلتقي هو بنا ، وعندما كبرنا أكثر ، تغير الأمر بعض الشيء ، وأصبح العفريت ليس عفريتاً بل (روح) للقتيل تهيم بالمكان الذي قُتل فيه ، وعندما كبرت أكثر عرفت أن هذه الحواديت ليست حكراً على قريننا أو القرى المجاورة ولكني وجدتها تتجاوز البلاد وتعبّر البحار والمحيطات ، فقرأتها في هاملت شكسبير وشاهدتها أفلاماً سينمائية ... ويبدو أنها قديمة قدم قابيل وهابيل ...

الأمر إذاً حاضر في الوجدان البشري ومستيقظ في الضمير الجمعي الإنساني .. المقتول روحه لا تهدأ وكأنه لم يكمل عُمره بشكل طبيعي لذلك فهو يبحث عن امتداد ، أو يسعى للانتقام . قد تضاف تفاصيل هنا أو هناك . كأن يَخْصُون ذلك الحال بالشخص المقتول ظلماً ، وأن روح القتل تطارد القاتل حتى تقتص منه ، أو يأخذ عدلُ الناس حقَّ القصاص من القاتل .. فتستقر الروح وتسكن ثائرتها ... ولعل ثأر الصعيد يدين بعصبيته لهذه المأثورة

لا أعرف لم خطر هذا خاطر ببالي عندما قرأت كلمة الأديب الكبير (مصطفى صادق الرافعي) تعليقا على عدد المقتطف الذي صدر أول يناير عام 1936 الموافق 6 شوال 1354هـ (بمناسبة مرور ألف سنة على مقتل أبي الطيب المتنبي (354هـ) . وقد وقع هذا العدد في يدي أثناء رحلة بحثي عن هذا الشاعر العظيم ، كتب يقول :

(وقد بدأ المقتطف مجلده الثامن والثمانين بعدد ضخّم أفردّه للمتنبّي ، ولئن كانت الأندية والمجلات قد احتفلت بهذا الشاعر العظيم ، فما أحسب إلا (روح الشاعر العظيم) قد احتفلت بهذا العدد من المقتطف

ولست أغلو إذا قلت : إن هذه (الروح) المتكبرة قد أظهرت كبرياءها مرة أخرى ، فاعتزلت المشهورين من الكتاب والأدباء ، ولزمت صديقنا المتواضع الأستاذ محمود محمد شاكر مدة كتابته هذا البحث النفيس الذي أخرجه المقتطف في زهاء ستين ومئة صفحة ، تدلّه في تفكيره ، وتوحي إليه في استنباطه ، وتنبهه في شعوره ، وتبصره أشياء كانت خافية وكان الصدق فيها ، ليردّ بها على أشياء كانت معروفة وكان فيها الكذب ، ثم تعينه بكل ذلك على أن يكتب الحياة التي من تلك النفس ذاتها ، لا الأشياء التي جاءت من نفوس أعدائها وحسادها .⁽¹⁾ تعمّدت أن أنقل هذا المقطع من تعليق الرافعي على كتاب (المتنبّي) لمحمود شاكر والذي لمس فيه مباشرة هذه المأثورة الإنسانية ، لألتقط وتلتقط معي هذا الخيط المرتبط (بروح المتنبّي الهائمة) والذي قتل عدوانا وظلما ، وسالت دماؤه هناك حِيال الصافية بالقرب من (دير العاقول) في الثامن والعشرين من شهر رمضان عام 354 هـ ⁽²⁾ ومثل به وألقي بعدها على قارعة الطريق . ليس هذا فحسب بل إن بعض مؤرخيه قد ظلّمه وأضاع حقه تقرّبا وزلّفي لأعدائه من أولي الأمر والنهي في حياته و بعد مقتله .

إن هذه الروح الوثابة ، عانت حياة صعبة ، فقد عاش أبو الطيب مفزعا مطارداً وثائرا في معظمها ، ومظلوماً، حتى وهو تحت الثري ، فأنّى لها أن تستقر وهي تعاني كل هذا العدوان .

لئن كان المتنبّي قد عاش فترات من الزهو والاستعلاء على عدد غير قليل من شعراء ذلك العصر ومن كبرائه ، أمراء كانوا أو خلفاء ؛ وأقصد الخليفة العباسي في بغداد وأمير أمرائه معز الدولة ووزيره المهلب ، فبما استحققه من فحولة في الشعر لاتبارى ، ومن شهرة

⁽¹⁾ محمود شاكر ، المتنبّي ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ط 1987 ، ص 578 ، 579 .

⁽²⁾ د. عبد الوهاب عزام ، ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام ، دار المعارف ، ط 3 / 1968 ص 187 وما بعدها

طبقت الآفاق لتمييزه وتفرده ، وقد جاء ذلك تعويضا نفسيا طبيعيا ، عن فترات القهر والفرار من القتل التي عاشها بعد أن أصبح مطلوبا لا طالبا ، من مريديه وشاننيه على السواء ...!

وكان حياة هذا الشاعر الكبير قد اختارت خاتمتها في أرفع قمة وصلت إليها من حيث الشهرة والمجد ؛ وإن كانت بالقتل بغيا وعدوانا ، علي يد قطاع طريق من القرامطة والأعراب ، لتظل روحه هائمة سادرة ثائرة تبحث عن الثأر، لمّا لم تدركه من القتلة ، أو لعلها أدركته ونحن لا ندري ! فمن يدري كيف مات (ضبة) أو كيف مات خاله (فاتك الأسدي) الذي حشد اللصوص لقتل أبي الطيب ؟

لم تذكر كتب التاريخ أيّا من هذه النكرات ، ولعل شهرة أبي الطيب قد مستهم حين قتلوه فعرفنا عنهم بعض الشيء ، ولكن شتان بين شهرة وشهرة .

لم يبق لهذه الروح إذاً ، إلا أن تبحث عن يُميط اللثام عن حقيقتها وجوهرها النقي ولتمحو به كل زيف التصق بها من حسادها ومبغضيها على مدى التاريخ ، ولعلها وجدت ضالتها في أمثال العلامة ابن جني والربعي والبصري والمعري وعبد الوهاب عزام ومحمود شاكر وطه حسين ومصطفى الشكعة وعبد الله التطاوي وأمثالهم ، وحتى من الغربيين المستشرقين أمثال مسنيون وبلاشير ، فكانت تلك الجدليات الرائعة حول كل صغيرة وكبيرة في حياة شاعر يستحق ذلك وأكثر من أمثال هؤلاء الكبار .

إن أحدا لم يقتص من قاتليه ، ولم يسع الولاء وراء القتلة وقد عُرِفوا ، حتى إن شعرا قيل ليحث عضد الدولة على القصاص من قاتليه ، وقد كان أبو الطيب عائدا من زيارته وهو ملك الملوك الشاهنشاه ..! لكنه لم يحرك ساكنا ...!!

ولعل قتلَه على هذا النحو أثلج صدوراً كثيرة مريضة وحاقدة ، فلم السعي إذا وراء ضبة وشركائه من قتلة المتنبي .

إن من يقرأ سيرة هذا الشاعر العظيم يدرك مدى المعاناة التي عاناها طفلا يتيما ماتت أمه وكفلته جدته ، تلك المرأة الكوفية الصالحة ، بشهادة أعدائه ، فقامت على تربيته على

أحسن ما يكون رغم ضيق ذات اليد ، فنشأ فقيراً إن لم يكن معدماً ، في ظروف اجتماعية وسياسية غاية في القسوة ، وظروف ثقافية وفكرية ، غاية في الثراء .

في ظل هذا التناقض الشديد والعجيب ، ظهر هذا الشاعر الفذ الذي (ملأ الدنيا وشغل الناس) كما قال ابن رشيق القيرواني ، فكانت أحداث حياته ملحمة درامية من الطراز الأول .
أعترف بدايةً بأن الفكاك من أسر هؤلاء الكبار الذين كتبوا في المتنبي أمرٌ في غاية الصعوبة من نواح شتى ، بدءاً من الأسلوب ، فطريقة العرض والتقديم ، فدوران القضايا الخلافية ، وما أكثر ذلك في حياة المتنبي ، وأظن القارئ الذي يريد أن يعرف من هو المتنبي ، لا يحتاج كل هذا الكم من التفاصيل الخلافية ، ولعله أيضاً يحتاج إلى من يدلّه مباشرة على الأرجح ...

وعليه فهذا ما قصدته مباشرة في هذا البحث ، وإن كنت لم أعتمد الشكل التاريخي التقليدي الذي يعتمده البُحاث عادةً ، إنما اعتمدت شكلاً يمكن أن يُطلق عليه (التأريخ الفني) بمعنى أنه من حيث التأريخ ، يعتمد على ما يذكره الرواة ويرجح الأقوى والأقرب إلى منطق الأشياء ، ويبدى شواهد وأسباب اعتماده رأياً دون غيره .

ومن حيث هو فني ، فإنه يستخدم أسلوباً فنياً في تناول موضوع الدراسة ، وهو هنا استحضار بطل الدراسة - إن صح التعبير - استحضاراً فنياً على صفحات الكتاب ، ليُدِير معه حواراً جدلياً فكرياً ، وي طرح معه قضايا عصره وأحداثه ليبُلور معه أسباب توجُّه ما في حياته دون غيره ، لتأتي محصلة الحوار ما استقر عليه الرأي بحسب ما يراه الباحث ، اعتماداً على ما بين يديه من مراجع ، وما طرح فيها من آراء في موقف ما ...

يبقى أن يتحول ما يسمى بالحاشية إلى جزء لا يتجزأ من العمل باعتباره المكان المناسب لتوثيق كل ما يدور وإحالاته إلى مصدره مباشرة ، سواء كان ما يدور على لسان الشخصية أو الكاتب أو الآراء الأخرى المؤيدة أو المخالفة ورأى الكاتب فيها وأسبابه حتى

يشارك القارئ . إن شاء . في هذه الجدليات بعيدا عن الخط العام الذي تسير فيه الأحداث التي تؤرخ للشخصية ...

ويبقى السؤال الذي يطرح نفسه والذي ظل يلح عليّ كيف انتج هذا العصر .. عصر المتنبي هذا الشاعر العظيم ...؟! لقد كانت أحداث التاريخ في هذه الفترة أحداثا فارقة ، تشكل في تتبعها منحنى خطيرا أدّى إلى غروب شمس الدولة العباسية و سطوع شمس الدولة الفاطمية التي كانت قد أشرقت في الغرب العربي قبل سنوات معدودة ، هل كان لهذه الأحداث التاريخية تأثير على حياته وشعره ؟ وكيف عاش هذه الحياة ، هذا هو ما قصدته في الصفحات التالية في رحلتي للبحث في أيام هذا الإنسان الشاعر العبقرى ، أبي الطيب المتنبي ، رحمه الله .

والله ولي التوفيق

لطفى عبد الفتاح شمعون

لقاء مع أبي الطيب

دعونا نسأل صاحبنا بداية ...

الكاتب : من أنت ؟

المتنبي : تسألني من أنا ...!! هه ... (في سخرية وتهكم) .. من أنا ...!!

من أنت لكي تسألني من أنا ؟!

الكاتب : شاعر مصري ...

المتنبي : من أنت في دنيا الشعر والأدب ..؟! هه ...!! (في تهكم)

الكاتب : ليس هذا موضوعنا ..أنا أقصد (المتنبي يقاطع)

المتنبي : من أنا ... !!؟؟ (في تكبر)

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي * وأسمعت كلماتي من به صمم

أنام ملء جفوني عن شواردها * ويسهر الخلق جراها ويختصم

من أنا ...!!؟؟

الخيْلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني * والحربُ والضربُ والقرطاسُ والقلمُ⁽¹⁾

صحبتُ في الفلواتِ الوحشَ منفرداً * حتى تعجّب مني القورُ والأكمُ

(1) (هذا البيت فيه خلاف في بعض مفرداته ، في نسخة ابن جني (والطنن والضرب) بدلا من (والحرب والضرب) ، أما في

شرح البرقوقى فيأتي البيت :

فالخيْلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني * والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ

راجع معجز أحمد - شرح أبي العلاء المعري - دار المعارف ط2 ج3 ص256 ، وديوان أبي الطيب المتنبي - تحقيق د. عبد الوهاب عزام - سلسلة الذخائر 1 - هيئة قصور الثقافة - ص324 الهامش ؛ شرح ديوان المتنبي - عبد الرحمن البرقوقى - دار الكتاب العربي - بيروت ، لبنان ، ج4 ص85 ؛ ديوان أبي الطيب المتنبي - شرح مصطفى سببتي - دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط 1/ 1986 ص 83 ج2 ؛ وفي كتاب ديوان شيخ شعراء العربية أبي الطيب المتنبي - د. عبد المنعم خفاجي وآخرين (الخيل والليل) بدون الفاء - مكتبة مصر ص326) .

قال ابن جني : قد سبق بجميع هذه الأمور في بيت واحد ، ولم يجتمع مثله في بيت فيما أعلمه ، الأقرب إليه قول البحري :

اطلبا ثالثا سواي فإني * رابع العيس والدجى والبيد

وحكى أن سيف الدولة قال لما أنشد هذا البيت : والله لو قال هذا البيت فيّ ، لشاطرته في ملكي . (معجز أحمد ص 256 ج3)

من أنا ...؟؟؟!!

أنا شاعرُ العرب ، وأشعرُ الشعراء ، ونديمُ الملوك والأمراء ...

إني وإن لمت حاسديّ فما * أنكر أني عقوبة لهم
وكيف لا يحسد امرؤ علم * له على كل هامة قدم
يهابه أبسو الرجال به * وتتقي حد سيفه البهم

من أنا ...؟؟؟!!

أنا من تجله الملوك والأمراء وترفعه فوق قمة المجد ، بأعظم حفاوة وأجلّ ترحيب ...
وأعظم اصطفاء وأفخم عطاء .!
- هونا (1) يا أبا الطيب ... ما هذه النعرة وما هذا التكبرُ والاستعلاء والغرور ...؟؟؟!!
أنت الآن تحت التراب ...

(طأطأ المتنبي رأسه وصمت قليلا) ثم قال :
يرحمك الله ، لم ذكّرتني؟! ... ماذا تريد مني؟
- أريد أن استجلي بعض ما غمض من سيرتك ، فقد تضاربت فيك الآراء والروايات . والبعضُ
أساءَ إليك بقصدٍ أو بدون قصد .. وأولها نسبك .. لذلك سألتك من أنت ؟
أنا ... أنا

أنا ابن من بعضه يفوق أبا الد*باحث والنجلُ بعضُ من تجله
وإنما يذكر الجدود لهم * من نفروه وأنفدوا حيله

ألم تقرأ قولي :

ما أبعد العيب والنقصان عن شرفي * أنا الثريا وذان الشيبُ والهرمُ
- تعود ثانية لهذا يا أبا الطيب ...! سامحك الله ..
- لا .. لا ... سأقول لك :

(1) الهون : الرفق ، لسان العرب لابن منظور ، ج6 ص4724 دار المعارف

أنا أبو الطيب أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار الجُعفيّ
أنا المتنبي الشاعر المعروف
- ومن (عيدان) هذا ؟⁽¹⁾
- أبي وكانت هذه شهرته ، (عيدان السقا).
وإن أردت أن تعرف شيئاً عن البداية أقول لك :

سنة ثلاثٍ وثلاثمائة الكوفة والخروج إلى الدنيا

..... طفلٌ يتيم من أطفال العراق من أصولٍ يمانية ، ولد بالكوفة سنة 303 هـ في فترة
اضمحلال الدولة العباسية وظهور عوامل انهيارها ، جاء إلى الدنيا ففارقَتْها أمه ولم يزل
رضيعاً ، فتركته بين يدي جدته لا حولَ له ولا قوة ، وأين الرضيعُ من الحول والقوة .؟!
ويبدو أن هذه الجدة الهمدانية كانت تمتلك شخصية قوية ومكانة بين نساء الكوفة ، لم
يكن المالُ أساسَها مع صعوبة ذلك في هذا العصر، إنما كان أساسُها الشرف والأصل العريق ،
يبدو أنها كانت على علاقة وثيقة بالعلويين ، وإن كانت الخلافات بينهم وبين الشيعة العلوية -
الذين غلبوا على سكان الكوفة في ذلك الحين - ما تلبث أن تثور من حين لآخر فيشتد أوارها
ويمتد لهيبها .

(1) (شاكر ، المتنبي ، ص 55 ، 137 ، 138 / 1 عن ابن عساكر عن الربيعي ، ترجمة بن العديم ، وحاشية معجز أحمد ص 79
هامش المقدمة حيث تم حَسْمُ الخلاف بين عيدان وعبدان . { تعليق : والغريب أن يصمم د. مصطفى الشكعة بعد ذلك على أن
يرويه عبدان بالباء ، انظر أبو الطيب المتنبي في مصر و العراقين مصطفى الشكعة ، المصرية اللبنانية ، ص 27 عن الصباح
المنبي ص 20 ، والأكثر غرابة أن شاهده الصباح المنبي يذكر عيدان بالعين المكسورة ثم الياء وليس عبدان بالباء كما يقول
!!! وظننت أنه خطأ طباعة لكنه تكرر - ص 27 ، 28 ، 30 ، 31 انظر الصباح المنبي عن حيثة المتنبي - يوسف البديعي -
تحقيق مصطفى السقا - دار المعارف 1994 ط 3 نفس الصفحة التي أشار إليها الشكعة . وكتاب الشكعة أحدث في الصدور
(2004 ط 2) عن معجز أحمد دار المعارف (1992 ط 2) والصباح المنبي - دار المعارف (1994 ط 3 ... !)

ذهبت هذه الأمُ المكلومة في ابنتها ، دامعة العينين تبحثُ عمن ترضع يتيماًها ، وها هي تجدُ ضالتها في سيدة كريمة من آل بيت عبيد الله بن يحيى .

بيتٌ شريفٌ وأمٌ شريفةٌ لها رضيع يقارب سن اليتيم ، وكانت بينهما علاقاتٌ جيرة ومودة ورحمة ، فتلتقت هذه السيدة الشريفة بقلب الأم المملوء بالرحمة والعطف اليتيم الذي فقد أمه ، يتلوى بين يدي جدته جوعاً ويطما ، أرضعته هذه السيدة الشريفة فوضع منها كمن عادت إليه أمه بعد غياب طويل ؛ وأنسى لأمّه أن تعود ؟! .

ومن يومها أصبح أبو الطيب ترب ابنها وأخاه في الرضاعة ، ويبدو أن هذه العائلة الكريمة الشريفة لم تكتف بذلك ، بل أسبغت عطفها ورعايتها على اليتيم وعلى جدته ، تلك السيدة المشهورة بالصلاح والتقوى وحبها الشديد لآل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، لقد كانت من قبيلة همدان وهي القبيلة الشيعية قلباً وقالبا ، كانت هذه الجدة تبكي بكاءً مرّاً وتنوح نواحا في ذكرى مقتل الحسين (يوم عاشوراء) حبا في الحسين وحزنا عليه ، قبل أن يقرر (معز الدولة) ذلك كعيد رسمي للشيعية بسنوات طويلة في عام 352هـ ، كان آل عبيد الله يعرفون عنها ذلك ويقدرونه لها ويعتبرونها واحدة منهم .

وها هو ابنهم أبو الحسين محمد ، واليتيم أبو الطيب أحمد بن الحسين يكبران معا ، ويلهوان معا كما يلهو الأطفال في هذا الحي (كندة) بالكوفة مدينة العلم والعلماء ، الكوفة التي وصفها محمد العطاردي في مجلس عبد الملك بن مروان قائلا :

(الكوفة سفلت عن الشام ووبائها ، وارتفعت عن البصرة وحرّها فهي مريئة مريعة ، إذا أتتنا الشمال ذهبّت مسيرة شهر على مثل رضراض الكافور ، وإذا هبّت الجنوب جاءتنا ريح السواد وورده وياسمينه وأترنجه ، ماؤنا عذب وعيشنا خصب) (1)

في هذه البيئة الجميلة كانت النشأة .

(1) المتنبي ، سلسلة نوابغ الفكر العربي 15، د.زكي المحاسني ، دار المعارف ط6 - 2007 ص 22

ثم يمتد فضل هؤلاء الأشراف على هذا اليتيم وجدته ، وكأنه أصبح واحدا من أبنائهم ، فيقبلونه في مدرستهم - مدرسة الأشراف - مع تربيته وأخيه في الرضاعة أبو الحسين محمد ، فأخذ أبو الطيب يتعلم مبادئ اللغة ويحفظ القرآن والشعر ومبادئ النحو والحساب و يدرس مع ذلك المذهب الشيعي . وأظهر حبا وولعا بالشعر والشعراء .

أظهر هذا اليتيم ذكاءً نادرا وقدرة رائعة على الحفظ ونهما شديدا للعلم بكل فروع ، فلم يكتف بالذهاب إلى مدرسة الأشراف ، بل كان يتردد على دكاكين الوراقين بالكوفة ، حتى شهد بعضهم بقدرته الحادة على الحفظ ، ونهمه الشديد للعلم والمعرفة ، مما ينبئ بمستقبل مرموق . وأبو الطيب اليتيم يلمح نظرات الإعجاب والتقدير في العيون ، فيستعيز بها عن يتمه وفقره ، ويزداد بها سعادة ، فيدفعه ذلك دفعا للمزيد والمزيد ، خاصة مع امتلاكه القدرة على هذا المزيد ، هبة من الله ولعل ذلك كان عوضا عن يتمه .

كانت الجدة تتابع هذا في أبي الطيب وترعاه وتزكّيه وتسعد به وتفاخر .

- يقال يا أبا الطيب إن أحداث الزمان في فترة صباك كانت قاسية ، مع بدايات انهيار الخلافة العباسية..!

- كل القسوة ...

أذكر مثلا وأنا في حوالي السابعة من عمري أن جاءت أخبار من البصرة تقول :

دخل أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي ، أمير القرامطة في ألف وسبعمائة فارس إلى البصرة ليلا ، ونصب السلاسل الشعر في سورها فدخلها قهرا ، وفتحوا أبوابها وقتلوا من لقوه من أهلها ، وهرب أكثر الناس ، فألقوا بأنفسهم في الماء فغرق كثير منهم ، ومكث بها سبعة عشر يوما يقتل ويأسر من نساءها وذرائعها ، ويأخذ ما يختار من أموالها ثم عاد إلى بلده (هجر) .

ودخلت سنة عشرٍ وثلاثمئة القرامطة حديث المدينة

..... كان ذلك عام 310 هـ ، كنت في السابعة اسمع هذه الأحداث وانفعل بكل تفاصيلها ،
ثم أعلم من أبي وجدتي أن القرامطة دخلوا البصرة من قبل ، دخلوها عام 307 هـ كنت صغيرا
وقتها لم أكن تجاوزت الرابعة ، وفعلوا بها مثل ذلك .⁽¹⁾
قلت في نفسي ...

ما هذا الهم ، إنهم قد يخطفونني أو يقتلونني ... ولكني لاحظت ، أن الأمور مازالت
مستقرة في الكوفة . وإن كانت غير مأمونة ، كالهدوء الذي يسبق العاصفة الهدوء المشوب
بالحذر ، كما تقولون الآن ... خاصة وأن تجمع القرامطة في (هجر) يجعلهم أكثر قربا من
الكوفة عنها من البصرة والتي هاجموها حتى ذلك الحين مرتين .

توالت الأخبار عن هجوم متكرر من القرامطة على مدينة البصرة ، وما خلفوه من دمار
وخراب في هذه المدينة والتي تمثل حاضرة من حواضر العلم والمعرفة مثلها مثل الكوفة ، ثم
هذه البلدة التي أقاموها بالقرب من الكوفة وأسموها (هجر) أو (مهماباد) واعتبروها دار
هجرتهم وإن كان مُستقرهم الدائم بالبحرين ، سألت نفسي : أي هجرة هذه ..؟ وأي مذهب هذا
..؟! غريب هذا الحديث !! إذًا الخطر محيط بنا هنا في الكوفة وربما يتربص القرامطة
وينتظرون الوقت المناسب والظروف المواتية .

حياة من القلق يعيشها الكوفيون ، دارت بها أحاديثهم هل تدرك معي حجم الكارثة التي
لحقت بالبصريين؟! البصرة مستباحة لهم سبعة عشر يوما ...!

وعندما أفاق الخليفة في بغداد وأرسل قواته للدفاع عن البصرة ، كان القرامطة قد قضوا
مأربهم منها وتركوها خربة مشتعلة بيوتها ، ليس في خرائبها إلا البوم ، وعادوا إلى (هجر)

(1) البداية والنهاية ، ابن كثير الدمشقي ، تحقيق: عبد الله التركي ، دار هجر ، ط1 1998- أحداث 307هـ ، 310

هذه الأحداث والحكايات ، كانت ترعبنا وتوغر صدورنا على هؤلاء القتلة سفاكي الدماء . ثم تكثر الأسئلة ..

لماذا ؟ .. لماذا يفعل القرامطة كل هذه الجرائم ؟!..

ثم من هم هؤلاء القرامطة ؟ ومن أين أتوا ولماذا اختاروا هذه البلاد . وأين الأمراء والوزراء ؟ .. أين الخليفة ...؟ وأين جيوش الخليفة ..؟؟

مازلت أذهب إلى المكتب العلوي ، أتعلم القرآن والحديث وأقرأ هناك أشعار البحري وأبي تمام بل و المعلقات ، وقفت على نماذج من البطولة والفروسية والعزة من هذه الأشعار فشعرت بالراحة والتوازن ، إن هذه المعاني تلبي حاجة في نفسي إلى البطولة والفروسية حتى أدفع عن نفسي وعن جدتي وأبي ..

وإن كان أبي (عيدان) (¹) لا يشغل باله كثيرا بهذه الأمور وإنما يعيش طوفا يزور مقامات الأئمة وأعتاب آل البيت الطاهرين (²)

(¹) ويقول شوقي ضيف : وما يكاد الفتى يبلغ التاسعة من عمره (312 هـ)، حتى يغزو القرامطة الكوفة ، ويسفكوا الدماء ويسبوا النساء ، ويفر الناس منها جزعا وفزعا ، ويفر به أبوه إلى بادية السماوة بين العراق والشام .

تاريخ الأدب العربي ، د . شوقي ضيف ، عصر الدول والإمارات ج 5 ص 342 دار المعارف ط 4 - 1996 والشكعة ص 28 عن الثعالبي في يتيمة الدهر 128/1 ، يقول : ويزيدنا الثعالبي معرفة بالمتنبي وأبيه - وهو أكثر مؤرخي الأدب معاصرة له - فيقول : إن أباه سافر به إلى بلاد الشام فلم يزل ينقله من باديته إلى حضرها ومن مدرها إلى وبرها ، ويسلمه في المكاتب ويردده في القبائل ، ومخايله نواطق الحسنى عنده ، وضوا من النجج فيه ، حتى توفي أبوه وقد ترعرع أبو الطيب وشعر وبرع .

[يرى شاكر في كتابه المتنبي ص 171 / 3 حاشية ، أن عيدان ليس أبا المتنبي بل قد يكون جده لأمه - وأنا أختلف معه في ذلك لسبب منطقي : كيف يترك عيدان هذا إن كان جد المتنبي لأمه كيف يترك زوجته (جدة المتنبي لأمه) وقت غارة القرامطة على الكوفة سنة 312 هـ ويهرب بالصغير أبي الطيب وإنما يقبل هذا التصرف منه إن كان عيدان هذا هو والد المتنبي وهو حينئذ زوج الابنة المتوفاة ، وليس بمستجهن أن يفعل ذلك خوفا على ابنه وعلى نفسه وباعتبار أن الجدة في حمى العلويين ، أما المستجهن أن يترك زوجته في الكوفة تواجه القرامطة ويهرب! وهذا بالطبع يضعف هذا الفرض الذي يفترض أصلا إلى دليل.]

(²) والأستاذ (مسينيون) يحدثنا في بحثه عن (المتنبي إمام العصر الاسماعيلي للإسلام) بقوله (بالنسبة للمتنبى إن محلته المولدية كندة ، كانت شيعية ، وكان جعفيا من جهة قبيلة أبيه (عيدان) السقا ، والذي كان تعلقه مشهورا بالأئمة ، وأخيرا فإن جدته العضو الوحيد من أسرته الذي لم يأنف من ذكره كانت بشهادة أحد العلويين - الذي هو مرجعنا الوحيد لهذه الفترة -)

ويقول ما دام القرامطة لم يدخلوا بعد الكوفة ، فلماذا نستحضر البلاء قبل وقوعه ، كان هذا منطق أبي الذي لم يُعرّ الدنيا كثير اهتمام ، إن الشعور بالقلق والخوف من عدوان القرامطة لم يصله بعد .

كان كل اهتمامه بعد الأئمة والأعتاب ، هذا الصغير الذي هو أنا ، رأى في عوضا عن الدنيا بكل زخارفها ومتعتها . لقد كان يعلم أن جدتي تحفظني في سويداء قلبها ويثق في حكمته ورجاحة عقلها وخوفها الشديد عليّ ، فأنا أيضا عوضٌ عن حبة قلبها أبنيتها التي فقدتها وهي في زهرة شبابها .

مر أبي (عيدان) بـ دكان أحد الوراقين فاستوقفه قائلا : أتعرف يا عيدان ماذا فعل ابنك أبو الطيب اليوم عندي ... ؟ ⁽¹⁾
يرد عيدان : ماذا فعل !؟

قال الوراق : : كان اليوم عندي ، وقد أحضر رجلٌ كتابا من كتب الأصمعي في نحو ثلاثين ورقة لبيعه ، فأخذ ينظر فيه طويلا

أمرأة تقيّة ورعة) من قبيلة همدان ، العشيرة الشيعية قلبا وقالبا ، حيث النساء العربيات يجرؤن على البكاء على الحسين في السنة التالية لموته ذاتها (

في عالم المتنبي ، د. عبد العزيز الدسوقي ، دار الشروق ، ص 162 ، 163) عن بلاشير ، حياة أبي الطيب المتنبي وشعره ترجمة الدكتور أكرم فاضل نقلا عن مجلة المورد المجلد السادس العدد الثالث ص 62 (⁽¹⁾

يقول عباس محمد العقاد : بولغ في قدرته على الحفظ ، روى أبو الحسن العلوي عن وراق كان يجلس إليه المتنبي قال : ما رأيت أحفظ من هذا الفتى (ابن عيدان) قلت له : كيف ؟ قال : كان اليوم عندي) المختار من شعر المتنبي مقدمة العقاد مكتبة الأسرة 2001 - ص 11 - 12

فقال الرجل لابنك : يا هذا أريد بيعه وقد قطعتني عن ذلك ، فإن كنت تريد حفظه في هذه المدة فبعيد ! فقال أبو الطيب : وإن كنت حفظته فما لي عليك ؟ قال الرجل في تحدٍ : أهب لك الكتاب ! فأخذت الدفتر من يده كي أختبره ، حفظه أم لم يحفظه .

فأقبل يتلوه عليّ إلى آخره ، ثم استلبه فجعله في كمّته ، فعلق به صاحب الكتاب وطالبه بالثمن ، فقال أبو الطيب : ما إلى ذلك سبيل قد وهبته لي ...

يقول الوراق : فقلت أنا ومن كان واقفا معنا وشهد الواقعة للرجل : أنت شرطت على نفسك هذا للغلام ، فتركه...

قال (عيدان) متعجبا : حفظه .. حفظه ... ؟!! (وهو ينظر بدهشة وإعجاب) قال الوراق : نعم وإلا ما أخذ الكتاب . يا عيدان ابنك هذا عبقرى وسيكون له شأن عظيم فاحرص عليه . لقد سمعته يقول شعرا اليوم يرد به على أحد أترابه بالمكتب ، حين قال له : ما أحسن وفرتك ؛ هل تعرف ماذا قال له شعرا ؟

قال عيدان : لا .

قال الوراق : قال له :

لا تحسن الوفرة حتى تُرى * منشورة الضفرين يوم القتال

على فتى معتقل صعدة * يُعلّها من كل وافى السبّال (1)

قال عيدان : هل قال هذا الشعر ؟!

قال الوراق : نعم يا عيدان وألقاه كفارس في ميدن القتال يلقي شعرا حماسيا أو شاعر أريب يلقي أشعاره في سوق عكاظ ، إن صبيا في مثل سنه يقول هذا الشعر لعبقري حقا وسوف يكون له شأن عظيم ، حفظه الله لك وبارك فيه .

قال عيدان : بارك الله فيك وحيّاك الله .

(1) أنظر ما رواه شوقي ضيف * : وقد تفتحت موهبته الشعرية مبكرا ، وهو في نحو الثامنة من عمره ، واتفق أن قال له

بعض رفاقه من الصبية ، ما أحسن وفرتك وشعرك ؛ وفوجئ الصبي برده : لا تحسن الوفرة حتى تُرى (.....)

راجع شوقي ضيف - ج5 عصر الدول والإمارات ص 342

ويبدو أن كثرة الحديث عن القرامطة وأفعالهم أثارت في نفسي ما أثارت فدفعته إلى قول هذه الأبيات لقد اعتبرها أبي رائعة حقا من صبي في مثل سني وتنم عن رجولة وبطولة

وتمر الأيام والأسابيع و يمر الشهر تلو الشهر ولم يهاجم القرامطة الكوفة ، ولكن أخبارهم تأتي تباعا ومذهبهم يتسرب إلى بيوت الكوفة ، بيتا بيتا ... فهرع إليهم عدد غير قليل من المعدمين من أهل الكوفة ، ويبدو أن هذه كانت سنتهم قبل دخول المدن حتى يجدوا العون من بعض أهلها .

جلس الشيخ الكبير في المسجد الجامع بالكوفة بعد صلاة العصر ، وقد كثر اللغط حول القرامطة و التفت الناس حول الشيخ يسألون من هؤلاء وما أصلهم وما فصلهم تنهد الشيخ الكبير ، وبدأ حديثه وقد جلسْتُ إلى جوار أبي احتمي به والجميع أصاح السمع إلى الشيخ .. قال : هل تريدون معرفة الحكاية.....⁽¹⁾

وأخذ الشيخ يوضح لنا أصلهم وفصلهم ، ولماذا يفعلون ما يفعلون وحدثنا من الاستماع لدعاتهم .⁽²⁾ لأنهم إذا دخلوا مدينة لا يفرقون بن عاطل وباطل ولا غني ولا فقير ، وأنا يجب

⁽¹⁾ (إن الشيعة كانوا فرقا ، وظلت هذه الفرق نشطة حتى العصر العباسي الثاني ، وأهم هذه الفرق فرقة الزيدية التي حملت السلاح دائما في وجوه العباسيين ... ثم فرقة الإمامية التي كانت على التقية وتعمل سرا ضد العباسيين ، وانقسمت مبكرا إلى اثني عشرية .أمنت بأن الإمامة توالى في اثني عشر إماما آخرهم (محمد المهدي المنتظر) المتوفى سنة 260هـ . وإلى إسماعيلية نسبة إلى اسماعيل بن جعفر الصادق ، وكان قد توفي قبل أبيه فقالوا إن الإمامة انتقلت إلى ابنه محمد ، لأنها حتما تنتقل إلى الابن الأكبر حتى لو مات في عهد أبيه .

تاريخ الأدب العربي ، شوقي ضيف ، دار المعارف ، ج3 ص 28 - 29

⁽²⁾ لقد أخذت تتكون سريعا حول محمد الحركة الإسماعيلية ، كان الذي نظمها ووضع مبادئها (عبد الله بن ميمون القداح) وهو فارسي كان واسع المعرفة بجميع المذاهب والأديان ، وأخذ في سرعة يكوّن حول (محمد بن اسماعيل) جمعية سرية تعمل على تقويض الدولة العباسية ، وكان يستعين على جذب الناس إليه بطرق تتناسب مع كل شخص ، أشخاص يجذبهم بالسحر والشعوذة وأشخاص يجذبهم بإظهار التقوى والنسك ، وكان يزعم أن دينه دين النور الخالص ..

ودعا كل أعضاء الجمعية إلى الاشتراك في كل ما يكسبون مقيما بينهم نوعا من المشاركة في الطعام والشراب والأموال والمتاع . [يجعلون الناس شركاء في النساء بحجة استئصال أسباب المباغضة فلا يجوز لأحد أن يحجب امرأته عن إخوانه ،

أن نكون صفا واحدا في مواجهتهم وأن أي ضعف أو خور معناه دمار للجميع ، وأننا يجب أن نعتبر بما حدث للبصرة ...

خرج الناس من المسجد وقد علاهم الهم والغم أن الكوفة أصبحت هدفا للقرمطي يمكن أن يقتحمها في أي وقت ، والحامية التي فيها لن تقف دقائق في مواجهة قوات القرمطي وجنوده من الفلاحين والأجراء والفقراء الذين يريدون التشفي بعد الانتقام من أغنياء الكوفية ،

وأشاعوا أن ذلك يعمل على زيادة الألفة والمحبة (وهذا ما كان عليه المزدديون والفارسيون من قبل] .. وبدأ بدعوته في موطنه (الأهوازي) ثم تركها إلى البصرة ومعه رفيقه الحسين الأهوازي .

وأحس بمطاردة والي البصرة لهما ، فهرب مع رفيقه إلى (سلمية) بقرب اللاذقية في الشام ، ومن هنا أخذ يرسل دعاته إلى العراق . كما أخذ ينظم الدعوة الإسماعيلية باثا فيها تعاليم (مانوية) فارسية وفلسفية يونانية ، غير بعض تعاليم جلبها من فرق الشيعة الغالية كفرقة الخطابية ، ودعا في قوة إلى فكرة التأويل في القرآن حتى يمكن فهم معانيها الباطنة المستترة وزعم أن تاريخ الأمم ينقسم إلى حلقات ، كل حلقة يمثلها سبعة من الأنمة ، سابعهم هو الإمام الناطق الذي ينسخ بشريته ما قبله من الشرائع ، أما الأنمة الستة قبله فصامتون .

وزعم أيضا أن أنمة الدعوة قسمان ، أنمة حقيقيون مستورون أو مستقرون ، وأنمة بجانبهم مستودعون وهم رؤوس الدعاة المسمون (بالْحُجَج) ، وبذلك أصبح هو نفسه إماما مستودعا ، وتبعه في ذلك أبنائه ..

وجعل ابن ميمون الدعوة مراتب يصعد فيها التابعون ، وهي سبع مراتب ، مرتبة العامة ، ومرتبة لمن فوقهم ، ومرتبة لمن مر عليه عام ، ومرتبة لمن مر عليه عامان ومرتبة لمن مر عليه ثلاثة أعوام ومرتبة لمن مر عليه أربعة أعوام ثم المرتبة السابعة .

وما يلبث عبد الله بن ميمون - وقيل بل ابنه أحمد خلفه - أن يرسل الحسين الأهوازي إلى الكوفة وسوادها ليدعو إلى الجمعية ، فالتقى في السواد بنبطي يحمل بعض الغلال على أثوار له ، اسمه (حمدان) كان أهل قريته يلقبونه لقباً نبطياً هو (قرمط) لاحمرار عينه الدائم ، ويقال إن معنى هذا اللقب هو المعلم السري وكأنما وجد الأهوازي في هذا الرجل طلبته فدعاه إلى مذهبه فاستجاب له في حماسة بالغة ، وأحس الأهوازي بدنو أجله ، فعهد إليه برياسة الدعوة .

وجدَ فيها حتى أصبحت له فرقة كبيرة ، ودعيت جميعها باسم (القرامطة) نسبة إليه ، وكان داهية فأخذ في تنظيم الحركة .

وفرض على أتباعه أن يدفع كل منهم سنويا درهما واحدا ثم جعله دينارا تأهبا إلى الانتقال إلى دار الهجرة ، وفرض على أهل المرتبة السابعة سبعة دنائير .

ولم يلبث أن فرض على كل انسان من أتباعه أن يؤدي إليه خمس ماله . وأخيرا فرض عليهم جميعا الألفة وهي الشركة في الأموال . يشترك في المال الجميع الغني والفقير والكل في هذا المال سواء ...)

تاريخ الأدب العربي ، شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ط 12 ، ص 33 - 34 دار المعارف .

وإن كانوا وقتها لن يفرقوا بين غني وفقير في هذا الاقتحام ، لقد طلب قائد حامية الكوفة (أبو الهيجا عبدالله بن حمدان) مزيدا من القوات من بغداد ، ولكن لا حياة لمن تنادي !.
أحاطني (عيدان) بيده ونحن منصرفان إلى البيت ، وأحس بالخوف الشديد على فأننا ولده الذي يبشرُ مستقبله بشاعر كبير قد يكون في قامة أبي تمام أو البحتري ، لم لا ..
وأحسست من أبي هذا القرب المفاجئ وسعدت به ، لقد كنت أشتاق إلى هذا العطف الأبوي ،
وهأنذا أشعر به ، ليس كلاما بل فعل ..

مرّ هذا اليوم ولم أنس هذا الحنو المفاجئ من أبي ، وأحسست كذلك باهتمام أبي وكثرة سؤال الجدة عني وكيف حالي في المكتب ، ورغم الجو المشحون في الكوفة وشوارعها والقلق والتوتر والخوف الذي ينتابها ، فإنه كان على العكس من كل الناس ، كان مطمئنا هادئا ، لا أعرف من أين جاءته هذه الطمأنينة .

إن أبي أصبح أكثر قربا مني عن ذي قبل ، وهذا يكفيني كي أهدأ حتى لو كان القرامطة على الأبواب ، لن أكون وحدي ، سوف أشكل أنا وأبي قوة تقف في وجه القرامطة ، ولن يجروا أحداً منهم على إقتحام بيتنا ولا الدخول على جدتي أو إيدائها ، لن أدعو نفسي رجلا إن حدث هذا .

مر الشهر والشهران والثلاثة ولم يأتِ القرامطة ... ما هذا ؟! ألم يحذرنا الشيخ الكبير ، ربما خاتنه التوقع ، أو انصرف القرامطة إلى بلد آخر

أسئلة تتردد في عقلي ثم أقول لنفسي : ألم يتجاوز القرامطة معنا ثلاثين عاما بل أكثر من ثلاثين عاما كما قال الشيخ ولم يهاجمونا ... أليس هذا دليلا على أنهم لا ينوون للكوفيين سوءا ؟.

- كم كان عمرك وقتئذ يا أبا الطيب ؟
- شارفت على التاسعة من عمري وازددت نضجا وفهما للحياة والناس والأحداث . إنها تسع سنوات لكنك تستطيع أن تضيف إلى عقلي عددا آخر من السنين وأنت مستريح الضمير. فقد كنت كذلك وكان من حولي يرددون ذلك .

ودخلت سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة هجوم القرامطة والفرار إلى السماوة

- إذا نحن في عام 312 هـ ⁽¹⁾

- نعم وما أدراك ما سنة 312 هـ ما تكاد تمضي الأيام والكوفة في انتظار العائدين من أداء فريضة الحج فنحن في شهر المحرم ... وما حدث في هذا الشهر لم يكن يخطر ببال أحد .. أدى حجاج بيت الله الحرام مناسك الفريضة وبدأوا شد الرحال إلى بلادهم يحملون إلى أهليهم وذويهم الهدايا ونفحات الحرم والروضة الشريفة وغذوا السير شوقا إلى ديارهم وأهليهم وأحبابهم ... وينتصف طريقهم .. وفي جوف الصحراء يخرج عليهم القرمطي برجاله ... وصلت الأخبار إلى الكوفة ، جاء أحد الذين أفلتوا من القتل يحكي ما حدث قال وهو يلتقط أنفاسه ويكاد يسقط من كثرة الإعياء :

اعترضنا القرمطي أبوطاهر الحسين بن أبي سعيد الجنابي - لعنه الله ولعن أباه - ونحن عائدون من بيت الله الحرام ، وقد أدينا فرض الله علينا ، فقطع علينا الطريق ، فقاتلناه دفاعا عن أموالنا وأنفسنا وحريمتنا ، فقتل منا خلقا كثيرا لا يعلمهم إلا الله ، وأسر من نساءنا وأبنائنا ما اختاره ، واصطفى من أموالنا ما أراد ، فكان مبلغ ما أخذه من الأموال ما يقارب ألف ألف دينار ومن الأمتعة والمتاجر نحو ذلك ، وترك بقية الناس ، بعدما أخذ جمالهم وزادهم ، وأموالهم ونساءهم ، وأبناءهم على بعد الديار ، في تلك الفياfi والبرية ، بلا ماء ولا زاد ولا محمل .

⁽¹⁾ ويقول شوقي ضيف :

* وما يكاد الفتى يبلغ التاسعة من عمره (312 هـ) ، حتى يغزو القرامطة الكوفة ، ويسفكوا الدماء ويسبوا النساء ، ويفر الناس منها جزعا وفزعا ، ويفر به أبوه إلى بادية السماوة بين العراق والشام ، ويظل المتنبئ نحو عامين أو ثلاثة يتردد في القبائل ويتغذى بلغتها ، تتغذى فتوته الجائمة بين ضلوعه ، (شوقي ضيف ، ج 5 - ص 342)

وقد جاءت كتيبة من الجند على رأسها البطل الحمداني ، نائب الكوفة (أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان) ... دافعوا واستبسلوا في الدفاع عنا ، فهزمه القرمطي - لعنه الله ولعن أباه - وأسر أبا الهيجاء ، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

— هل كان عددهم كبيراً يا أبا الطيب ؟

— كان عددهم قرابة ثمانمائة مقاتل ، هذا القرمطي شاب صغير... وعمره لا يتجاوز سبع عشرة سنة - قصمه الله - كيف انقادت له هذه القوات ؟!! لا أدري .
أخذ الرجل يردد : حسبي الله ونعم الوكيل . حسبي الله ونعم الوكيل..⁽¹⁾ حتى سقط مغشياً عليه ...

— الكوفة إذا بلا حامية...!!

— فعلا .. جاء عيدان إلى المكتب نظرت إليه في تعجب شديد إنه لم يفعل هذا من قبل مطلقا ...
نادى عليّ نداءً فيه تعجل وخوف فخرجت إليه ...

ماذا يا أبي ..؟!

هيا يا بني أسرع ...

ماذا حدث ؟...

لا وقت للسؤال ... سوف أحكي لك ونحن في الطريق ...

إلى أين ؟!

إلى الشام ... إلى السماوة

...السماوة !! الشام!!!؟

نعم يا بني

لماذا؟؟!!

القرامطة ... !!!

سمعت كلمة (القرامطة) فألجمتُ وأندحتُ مع أبي كالحمل الوديع المطيع

(1) البداية والنهاية أحداث سنة 312 هـ

توقفت فجأة .. لقد تذكرت جدتي ... تعجب عيدان..

ماذا يا بني ؟!! ...

جدتي ... جدتي يا أبي ..؟؟

يا بني جدتك عجوز .. لا تملك مالا ولا متاعا ، ليس لهم فيها مأرب ، ثم إنها هي التي تريد ذلك

.

إطمئن لن يصيبها سوء ثم إنها في حمى الأشراف هل نسيت ... وهم قوم ذووا بأس
نحن فقط يا بني هنا بلا حماية .. ليس أماننا إلا الفرار أسرع يا بني لا وقت لدينا
القرامطة على أبواب الكوفة ⁽¹⁾...
هيا

انطلقت مع أبي عيدان وبعد مسافة توقفت فجأة مرة أخرى وقد سالت دموعي على خدي ...

- ماذا يا أبا الطيب ...؟

- لن أذهب قبل أن أرى جدتي وأقبلها .. وأودعها ...

- لك ذلك أبا الطيب لك ذلك

تفلت من يد أبي وانطلقت كالسهم

لم أنس هذا الموقف طول حياتي ، يوم ألقيت بنفسي بين أحضانها وانهمرت الدموع من
كلينا فامتزجت حارة ساخنة وكان كلاً منا يُودّع الآخر إلى الأبد .. كفكت جدتي دموعي ومسحت
دموعها هي الأخرى ونصحتني أن أكون في طوع أبي ولا أعصي له أمرا وودعتنا بدعوات

(¹) الأحوال في الكوفة :

أما الشنون السياسية في (الكوفة) وقد ولد فيها الشاعر (المتنبي) وهي التي طبعت شبابه بطواعها وكان لها الأثر
الأول فيه ، فلم تكن مأمونة هادئة . وكان يسكنها جماعة من العلويين ذوي البأس وكثرت فيها الغزوات القرمطية ، وقد
استفحل أمر القرامطة حتى أقاموا البلاد العربية وأقعدوها . وبلغ من طغيانهم أن استولوا على الحجاز وقطعوا الحج على
الحجاج ، وكانوا يصادرون أموال كل بلد دخلوه ، ولا يتخرجون من أي عدوان أو شغب ، وقد كثرت الحزازات في الكوفة بين
الشيعة والعلويين ، ودامت الخصومة بينهما وحي وطيسها .

(المحاسني - ص 8)

حارة بأن يحفظنا الله ، وأخذت دموعها تتفلت منها وهي تكافح ألا أراها ولكني لمحت هذه الدموع تُهرهر من عينيها ، ثم غبنا عنها و غابت واختفت عن نواظرنا ...
- إذا كنت من الذين فرّوا من وجه القرامطة :

- صبي في التاسعة ماذا تنتظر مني ..؟! ومع ذلك لو بقي عيدان في الكوفة لحاربت معه القرامطة بكل ما أوتيت من قوة ... أما سمعت شعري منذ قليل ... ولكن من أين لي بهذه الصعده التي أعلاها من كل وافي السبال

بادية السماوة بين العراق والشام ، كانت هي الملاذ لنا ولأمثالنا من الهاربين من وجه القرامطة ، لأن بادية السماوة كانت تستعصي على القرامطة بما فيها من قبائل قوية الشوكة مثل بني كلب وبني كلاب وغيرهما
- كم من الزمن مرّ عليك هناك يا أبا الطيب ؟

- ثلاث سنوات أو يزيد أتردد أنا وأبي بين القبائل ، استقام لساني وتغذيت بلغتها، وازددت فتوة .
- إذاً أستطيع أن أقول :

غادرت يا أبا الطيب فاراً أنت وأبوك من جحافل القرامطة ...

- انتظر .. أراك تكرر كلمة الفرار ألم تقرأ أن جيوش الخليفة وهي مسلحة وتعتلي الخيل تفر من وجه هؤلاء القرامطة .. وقواتهم التي لا تبقي ولا تذر ؟! ماذا نفعل نحن العزل ..؟!!

- لا تغضب يا أبا الطيب فلنقفز فوق هذه النقطة ، كيف مرت رحلتك الى السماوة ؟

- ... مضيت شارد الذهن في طريقي إلى السماوة ... لا أنتبه إلى حوار عيدان ولا تصل كلماته في معظمها إلى أذني وكأني في عالم آخر ... أراد عيدان أن يخفف عني بعض ما أصابني من الفزع جرّاء ما حدث في الكوفة .. لقد لحقت بنا الأخبار والأهوال التي لحقت بالكوفة وأهلها، خاصة من لم يسعفه الوقت في الفرار بنفسه وماله وأهله ..

فرح عيدان بالنجاة ، وأظهر ذلك لي ليخرجني مما أنا فيه .. لأنه أدرك أن فراقني لجدي وأصحابي وذكرياتي في الكوفة وراء مسحة الحزن التي تعلو وجهي .. ولم يفلح عيدان طوال

الطريق إلى (السماوة) ونحن نغذ السير سراعا خوفا أن يلحق بنا القرامطة ، لم يفلح في إزالة هذا الحزن عني .. فأنصرف عن ذلك ولعله قال في نفسه : الأيام سوف تتكفل بالأمر ...

أما أنا فقد أضيفَ إلى حزني على تركي الكوفة بكل ما فيها من أحباب وذكريات ، هذا الهمّ المتمثل في المجهول الذي أقبلنا عليه أنا وأبي .. ما هذه السماوة ..؟ وكيف ناسها؟ وكيف العيش فيها ؟

وهل يعرف عيدان أحدا هناك ..؟ ربما ...!

إن الفرع الذي أحدثه القرامطة لم يترك لأبي فرصة تدبير شيء ... لقد كان الفرار ولا شيء سوى الفرار . تصارعت كل هذه الأفكار في رأسي وتأبّت على المهادنة .. وأنى لها والمجهول يحدونا إلى السماوة .

حاولت أن أظهرَ شجاعةً وجلداً لأثبت لعيدان أنني أصبحت رجلاً يمكن أن يُعتمد عليه ، لقد مال أبي إلى بئر في الطريق يلتمس لنا الماء والراحة . فأخذت القربة وذهبت لأملأها من البئر ، وعدت إلى أبي الذي أعدّ مكاناً تحت شجرة لنتناول بعض الطعام .. وضعت كسرة الخبز في فمي ، وما لبثت الدموع أن تفلتت من عيني ؛ لقد تذكرت جدتي التي كانت لا تأكل حتى أعود إلى البيت فنأكل معا ، حاولت أن أخفي دموعي عن عيدان ولكنه لمحها .. فأخذني في حضنه وضمّني إليه .. وقال لي يا بني لا تحزن سوف نكون بخير بإذن الله ، السماوة الآن خير لنا من الكوفة

قلت : كيف ؟! والكوفة فيها جدتي وليس لنا أحد في السماوة هذه .. ثم إن القرامطة ربما يؤذون جدتي .. كيف لم نأخذها معنا ... ؟!

يا بني لقد رأيت كيف كان فرارنا .. هل كنا نستطيع أن نأخذها معنا ... ثم إنها هناك في حمى الأشراف وهم عزوة لا يستطيع القرامطة أن يتعرضوا لهم كما قلت لك ، إنهم من أهل البيت إنهم علويون ... عندما تهدأ الأمور ويخرج القرامطة من الكوفة سوف نعود بإذن الله .. هل سيخرجون يا أبتى .؟!

نعم يا بني ... لن يتركهم الخليفة هكذا ، سوف يرسل قواته لطردهم من الكوفة ، سيعودون إلى البحرين أو إلى (هجر) .

مضغت كسرة الخبز ومضغت معها ذكريات الطفولة في حي كندة بالكوفة .

ومضت الأيام بي وعيدان في هذه البادية ، تأتينا الأخبار من حين إلى حين من الكوفة ، واطمأننا على سلامة الجدة ، وتأكدت توقعات الأب رغم أن القرامطة فعلوا بالكوفة الأفاعيل وأشعلوا بها الحرائق وتركوا معظم أحيائها مدمرة .

— يبدو تعلقك شديدا بجذتك ..؟

- كان جلُّ انشغالي وخوفي على جدتي ... أنت لاتدري ماتمثله لي ... انها أمي ... أنا لم أر أمي لقد ربنتي وغمرتني بحنانها كنت أدعوها أمي ، هل تصدق ...!! كنت إذا مرضت وعُقت الطعام كانت لا تأكل ... كانت لا تأكل إلا معي ... وإلا تظل صائمة كنت إذ استيقظت ليلا أسمعها وهي تتهدد ... تدعو لي دعاء طويلا ... كنت أشعر بغبطة شديدة وأذهب إليها وأقبلُ يدها وهي تصلي فكانت تبكي وأبكي أنا أيضا ...
- كما بكيما عند خروجك من الكوفة

- نعم ... نعم ، سنة حافلة بالأحداث تلك السنة 312 هـ هذه .⁽¹⁾

- أين الخليفة مما حدث بالكوفة يا أبا الطيب !؟

- تواترت الأخبار قادمة من الكوفة وبغداد .

لقد أمر الخليفة في بغداد مؤنس الخادم ، بأن يسير إلى الكوفة أميرا على الجيش ، لقتال القرامطة ، وأنفق على خروجه ألف ألف دينار ، فأطلق القرمطي من كان أسره من الحجيج ، وكانوا ألفي رجل وخمسائة امرأة ، وأطلق أبا الهيجاء نائب الكوفة معهم أيضا ، وكتب إلى الخليفة يسأل منه البصرة والأهواز ، فلم يُجب إلى ذلك ، وركب المظفر مؤنس في جحافل إلى بلاد الكوفة ، فسكن أمرها ، ثم انحدر منها إلى واسط ، واستتاب على الكوفة ياقوت الخادم فتمهدت الأمور ، وانصلحت .

(1) انظر البداية والنهاية لابن كثير - أحداث 312 هـ

ويبدو أن هذا العام عام الشغب بين جيش الخليفة والأمصار :

ففي هذه السنة أيضا ظهر رجل ، بين الكوفة وبغداد ، فادعى أنه محمد بن اسماعيل بن محمد بن محمد بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وصدقه على ذلك طائفة من الأعراب والطغام ، فالتفوا عليه ، وقويت شوكته في شوال من هذه السنة ، فأرسل الوزير إليه جيشا ، فقاتلوه ، فهزموه ، وقتلوا خلقا من أصحابه ، وتفرق بقيتهم .

- هل كان من السهل أن يخرج رجل مجهول يدعي النسب الشريف ويصدق الناس هكذا ؟!!!
- نعم بل كان هذا الأمر يتكرر في الأمصار ، لقد أختفي المنسبون المعارضون وانتشروا في كافة الأنحاء منذ عهد بني أمية وحتى عصر العباسيين هذا .. فكان ظهور بعضهم من حين لآخر أمرا متوقعا ، وركب الأفاقون الموجة فظهروا مدعين النسب الشريف ودعوا لأنفسهم . وليس هذا فحسب بل ظهرت فلول من أتباع (الحلاج) من جديد وطارت أخبارهم في الأنحاء ...
وظفر نازوك صاحب الشرطة بثلاثة من أصحاب الحلاج وهم (حيدرة ، والشعراني ، وابن منصور) ، فطالبهم بالرجوع عن اعتقادهم فيه ، فلم يرجعوا ، فضرب رقابهم وصلبهم في الجانب الشرقي ...

أما من كان يراودهم الشوق إلى الحَج وبعد ما رأوا ما حل بأهلهم وأقربائهم وذويهم في العام الفائت ، لم يجروا أحد منهم على ذلك ، فلم يحج في هذه السنة أحد من أهل العراق ، لكثرة خوف الناس من القرامطة .⁽¹⁾

تصل أخبار هذه الأحداث إليّ في غربتي فتشكل وجداني تشكيلا جديدا قلت في نفسي : لقد ولّت أيام الطفولة والمرح يا أبا الطيب ويبدو أنها لن تعود ، فلتوطن نفسك على الخشونة والصلابة والرجولة ؛ والرجولة ليست كلاما ؛ الرجولة فعل جاد لا هزل فيه ، وإذا كنت أنت هنا في البادية بعيدا بعض الشيء عن ساحات الحروب ، فمن يدري أين ساحة الحرب القادمة ، قد تكون هنا تحت أقدامك ..

(1) (انظر البداية والنهاية ج 11 - ص 130 ، 131 - طبعة مكتبة الصفا)

قلت لأبي : .. لقد استقرت الأمور في الكوفة وآن الأوان لنا أن نعود . لقد مضى عام علينا هنا و لقد فرَّ القرامطة ولن يعودوا ، إن حامية الكوفة الآن قوية ولن يجروُ القرمطي على فعلته تلك مرة أخرى ، لقد وضع مؤنس الخادم على الكوفة ياقوت الخادم ، والأمور عادت إلى نصابها لماذا لا نعود .!؟

- سوف نعود يا بني ولكن انتظر حتى تهدأ الأمور بعض الشيء . القرامطة على مقربة منها ...!

ودخلت سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة القرامطة يستبيحون الكوفة

— اطمأن الناس على الأحوال..؟؟

— بعض الشيء فقد جاء موسم الحج سنة 313 هـ وخرج الناس للحج في ذي القعدة ، فاعترضهم أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي القرمطي ، فرجع أكثر الناس إلى بلدانهم ، ويقال إن بعضهم سألته الأمان ، ليذهبوا فأمنهم . وقد قاتله جند الخليفة ، فلم يفد ذلك شيئا ، لتمرده وشدة بأسه . فانزعج أهل بغداد من ذلك ورحل أهل الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي ، خوفا منه .

ودخل القرمطي إلى الكوفة ، فأقام بها وقال لأصحابه : الكوفة مستباحة لكم شهرا من الآن ، فشرعوا يأخذون من أموالها ، ونسائها ، ما يختارون .⁽¹⁾
قلت في نفسي :

وا أسفاه عليك أبا الطيب ، لم تسعد بالأمل في العودة إلى الأحباب ، حطم القرامطة هذا الأمل بداخلك . وازداد قلقي على الجدة ... وها هو الحزن يعود من جديد ، بل والخوف من هؤلاء القرامطة السفاحين .

استسلمت لهمي وعيشي في آن واحد في هذه الغربة حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا .
عشت أيامي في البادية أنتقل بين القبائل مع تنقل أبي أكتسب صحيح اللغة ، وأحفظ ما يقع بين يدي من أشعار وحكمة وأخبار القبائل وأصولها وفروعها ، ويتكسب أبي أسباب العيش ، وأعاونته في ذلك .

و لقد اتخذت لي أصحابا من أسناني البدويين .كنت ألوفا ولوفا خفيف الظل محبوبا من كل من يعرفني .

⁽¹⁾ (انظر البداية والنهاية ج 11 - ص 132 - الصفا أحداث 313 هـ)

كان ما يحزنني ألا يجد القرامطة رجالا يصدونهم من أهل هذه المدن ، لا ينتظرون جنود الخليفة ويقفون هم في وجه هؤلاء اللصوص والسفاحين ... ولكن وا أسفاه أين الرجال ؟! رأيت اثنين من هؤلاء الذين يُسمون رجالا ، يتفاخران أنهما قتلا (جرذا) وخرجا يعلنان ذلك بسعادة غامرة على الملاء ، وكأنهما صداً جحافل القرامطة .. فتوهجت قريحة الشعر لدي فقلت :

لقد أصبح الجرذ المستغير * أسير المنايا صريع العطب

رماه الكنانى والعامري * وتلاه للوجه فعل العرب

كلا الرجلين اتلى قتله * فأيكما غلّ حرّ السلب

وأيكما كان من خلفه * فإن به عضة في الذنب

- أي تهكم هذا وأي سخرية من هذه البطولة التي تدعو إلى الأسى والحزن ؟
- نعم ... بطولة في غير وقت ولا محل ، وليتها في وقتها وفي محلها ، وعلى قدر ما فيها من السخرية على قدر ما فيها من الألم ، علّ هؤلاء العرب أن يفيقوا من هذا الهراء الذي يعيشون فيه ، إلى عدو حقيقي يقتل منهم كل حين ما يشاء ويسلب من أموالهم وأولادهم ونسائهم كل حين ما يشاء ، وما زالوا هم في غفلتهم وحمقهم ، بعضهم يتنافس في قتل (جرذ) ويتركون من يستحق القتل ...!!

كيف يترك العربي العربي فريسة للصوص وقطاع الطرق ؟

وكيف يتعامل الخليفة في بغداد مع القرامطة بهذا الوهن ...؟!

ماذا أصاب الخليفة ... ؟!

- ولكن الخليفة أرسل جيشه ..

- أي جيش هذا الذي لا يستطيع القضاء على قطاع الطرق هؤلاء من القرامطة ...!

سؤال ألح عليّ مع غيره من أسئلة كثيرة لا أجد لها إجابة .. وتظل تعتمل في عقلي حتى تتحول إلى هم يؤرّقني . وترسّخ في وجداني بغض الخليفة وكره الحكام من هؤلاء الموالى الذين لا همّ لهم سوى اكتناز الأموال بالباطل قبل الحق ، فاكتظت خزائهم وبات الناس جوعى ، بل لا يأمنون على حياتهم .

وتمر الأيام بي في البادية بطيئة ، وبدأت أفقد الأمل في أن أعود إلى الكوفة في وقت قريب ،
لقد ازدادت الأمور سوءا ، ولم أعد أملك إلا أن أتعيش مع ظروفي الجديدة في البادية ، لعل الغد
يأتي بجديد .

- استقر بك المقام يا أبا الطيب في السماوة ؟

- نعم وبدأت أنسجم مع الصبية من أترابي كما قلت لك، من أبناء هذه البادية .

ولأجل ما تحليت به من صفات ، قبلتني هذه الأسر البدوية كواحد من أبناءهم فلم أعد
أشعر بالغربة ، وإن كان الحنين إلى الكوفة يراودني من حين إلى آخر ، ولكني مازلت صبيا
وفي سني هذه كانت تأخذني أشياء أخرى كثيرة .

- أشرفت يا أبا الطيب في هذه البادية حينئذ على المراهقة ؟

- نعم ... وبدأت عيناى تتفتح على الجمال البدوي ، وأخذت مشاعري تستجيب إلى الانجذاب
إليه ، ولكن لم تكن الأعراف البدوية تسمح بالتمادي في ذلك ، وعيدان لم يكن ليترك لي الحبل
على الغارب ، بل تعهدني بالرعاية والتوجيه .

- لاشك أن كل ذلك ساهم في تشكيل وجدانك كفتى يافع ، وضبط إيقاع مشاعرك تجاه الفتيات من
بنات الأعراب...

- ولكن أئى لفورة المراهقة أن تخمد دون أن تجد لها منفذا تمر منه ، فتخرج هذه الأبيات :

بأبي من وددته فافترقنا * وقضى الله بعد ذاك اجتماعا

فافترقنا حولا فلما التقينا * كان تسليمه عليّ وداعا

- كنت فتى شاعريا يتلمس خطواته الأولى في درب العشق والهوى ، وتأبى ظروف البادية .

- كما تقول ظروف البادية .!!! لقاء فوداع ووداع فلقاء ، هي ظروف البادية ، و ظروف البدو

التي يغلب عليها الارتحال إلى مناطق الرعي والكلأ ، هذه حالهم ، وهذا نصيبي من الحب .⁽¹⁾

- عرفت بكلماتك على أوتار الهوى الذي تفتحت أزهاره بقلبك ...

(1) (يرى شاكر أن هذه الأبيات قيلت في الكوفة ، وأرى أنها قيلت في البادية فمعانيها تشي بذلك .)

- كانت الأحوال في البادية قاسية وكانت حياتهم حياة الكفاف ، وإذا كان العيش صعبا في المدن فما بالناس بالبادية .

- كنتَ نحيلًا في هذه الظروف المعيشية الضامرة ؟

- لقد ألفت عليَّ البادية صبغتها ، هوى ولغة ونحولا ، لقد تعايشت مع هذه الظروف .

- لقد أرجعتَ ذلك النحول إلى العشق والهوى ، وليس ظروف البادية الصعبة ؟

- ولم لا .. لعلك قرأت تلك الأبيات الرقيقة المعبرة عما يعمل بقلبي الشفيف :

أبلى الهوى أسفا يوم النوى بدني * وفرق الهجر بين الجفن والوسن

روح تردد في مثل الخلال إذا * أطارت الريح عنه الثوب لم يبين

كفي بجسمي نحولا أنني رجلٌ * لولا مخاطبتي إياك لم ترني

ذكريات لا تنسى أرجعتني إلي ذكريات الصبي الجميلة !...

- تعال معي يا أبا الطيب نرصد معا سنوات الصراع والقلق والحروب التي عاصرتها ومرت

بالخلافة العباسية ..

ودخلت سنة خمس عشرة وثلاثمائة سنوات في السماوة

- تذكر سنة 315 هـ ؟

- نعم أذكرها جيدا ...

تقبل سنة 315 هـ عليّ ومازلت في السماوة ، وقد أخذت في الانسجام بعض الشيء ،
لقد تلمّست مشاعر جميلة ورائعة تصبرني على همومي التي كادت تنال مني في هذه الغربة
وكنا نتلقي الأخبار.

تأتي الأخبار فيقول الرواة :

كانت بين يوسف ابن أبي الساج ، وبين أبي طاهر القرمطي ، في هذه السنة عند الكوفة
، موقعة فسبقه إليها أبو طاهر فحال بينه وبينها فكتب إليه يوسف بن أبي الساج : اسمع
وأطع ، وإلا فاستعد للقتال ، يوم السبت تاسع شوال ، فكتب إليه : هلم . فصار إليه ، فلما تراءى
الجمعان ، وجد يوسف جيش القرمطي قليل العدد !.....

وكان مع يوسف بن أبي الساج عشرون ألفا ، ومع القرمطي ألف فارس وخمسمائة
رجل ، فقال يوسف وما قيمة هؤلاء الكلاب ؟ وأمر الكاتب ، أن يكتب بالفتح ، إلى الخليفة قبل
اللقاء ، فلما اقتتلوا ثبت القرامطة ثباتا عظيما ، ونزل القرمطي ، فحرض أصحابه ، وحمل بهم
حملة صادقة ، فهزموا جند الخليفة ، وأسروا يوسف بن أبي الساج ، أمير الجيش ، وقتلوا خلقا
كثيرا من جند الخليفة ، واستحوذوا على الكوفة (1)

(1) يقول شوقي ضيف : (وأكثر القرامطة من غاراتهم على الكوفة في سنوات 315 و316 ، 319 فرأى الفتى أن يبرح مسقط
رأسه إلى بغداد) شوقي ضيف - تاريخ الأدب العربي ج 5 ص 342 - 344)
[ملحوظة : لم يدخل القرامطة الكوفة عام 316 هـ ولم يغز القرامطة الكوفة في العام 319 على قول ابن كثير في البداية
والنهاية أحداث 316 ، 319 هـ .

وذهبت الأخبار بذلك إلى بغداد ، و شاع بين الناس أن القرامطة يريدون أخذ بغداد .
فجهز (أي الخليفة) جيشا من أربعين ألف مقاتل مع أمير يقال له بلبق ، فسار القرمطي نحوهم ، فلما سمع الجيش به ، أخذوا عليه الطرقات ، فأراد القرمطي دخول بغداد ، فلم يمكنه .
ثم التقى الجمعان ، فلم يلبث بلبق ، وجيشه أن انهزم ، وأخذوا يوسف بن أبي الساج معهم مقيدا في خيمة ، فجعل ينظر إلى محل الواقعة ، ولما انتهت المعركة رجع القرمطي إلى يوسف وهو أسير لديه وقال له : أردت أن تهرب ؟ فأمر به ، فضربت عنقه ، ورجع القرمطي من ناحية بغداد إلى الأنبار ثم انصرف إلى (هيت)

- موقف غريب من القرمطي يا أبا الطيب ؟!
- جدا ..! فبغداد طريقها مفتوح أمامه ... ومع ذلك تركها وانصرف إلى (هيت) !! لذلك أكثر أهل بغداد من إخراج الصدقات وكذلك الخليفة والوزير شكرا لله على صرفه عنهم ⁽¹⁾.
- مالك ساهم هكذا ؟!

- الخليفة والوزير يتضرعان لله شكرا ويخرجان الصدقات تعبيرا عن هذا الشكر العميق ، أن صرف الله عنهم القرامطة ...!!!! ألا يدعو هذا إلى السخرية من تفاهة هؤلاء ؟؟!
هذا بدلا من أن يعرفوا أسباب ضعف عساكرهم على كثرتهم ، وقوة عسكر القرامطة على قِلَّتِهِمْ ... ويعالجوا ذلك ثم يشكروا الله أن وفقهم ونصرهم لا يريدون أن يكلفوا أنفسهم شيئا ...
يكفيهم شكر الله .. !

- هناك خلل ما ، ويبدو أن هذا الخلل في دار الخلافة نفسها ؟؟
- الحق .. رغم كرهى لهذا القرمطي الذي فزَّعني من الكوفة ، إلا أن بطولته وصلابته في مواجهة الخليفة وجيوشه التافهة على كثرتها أعجبتني!!
الغريب أن هذا القرمطي يكتب على أعلامه البيضاء آية من القرآن ،

تعليق : لا أعتقد أن أبا الطيب المتنبى الذي فرَّ هو وأبوه من القرامطة سنة 312 هـ عاد إلى الكوفة وسنه اثنتا عشرة سنة لأن ذلك يعني عودته عام 315 هـ وهذا العام دارت حروب شرسة حول الكوفة - حرب يوسف ابن أبي الساج وانهزم فيها هزيمة منكرة - بل إن القرامطة أفتحموا الكوفة فعلا واستباحوها كما يفعلون دائما ، فكيف يعود إليها .
⁽¹⁾ (انظر البداية والنهاية ج11 أحداث 315 هـ)

(ونريد أن نمّن على الذين استضعفوا ...) (1)

هل يريد أن يشبّه أتباعه بالمستضعفين في الأرض كاليهود أيام موسى التي تتحدث عنهم الآية ، أم بصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل هجرتهم إلى المدينة ، لعلها الأخيرة بدليل أنه اتخذ لأصحابه دار هجرة (مهماباد) .

ثم كيف يرفع آية قرآنية على أعلامه ثم يأمر أتباعه بالاتجاه في الصلاة إلى المسجد الأقصى ، بل والحج إليه وليس إلى الكعبة ... ثم ما يلبث أن أسقط عنهم تكليف الصلاة المعروفة ، ثم يقرر لهم صلاة أخرى في الشكل والعدد ، فقد جعلها خمسين صلاةً ، والصيام الذي جعله يومين فقط في العام ، يوم عيد النيروز ويوم عيد المهرجان ، وهما عيدان فارسيان ، ويحل لهم شرب الخمر ، ويحرم عليهم النبيذ .. والنساء مباحة للجميع عجباً عجباً !!!
— القرمطي يشرع ديناً على هواه .

— هذا قاطع طريق غسل عقل أتباعه وأغراهم بمتاع الدنيا وأموال الناس التي حرّمها الله إلا بالحق ، واستغل جهل العامة بالدين ، تبا له ، لكنه مازال بمقياس القوة .. بطلا ..!
- يبدو أن عودتك وأبوك إلى الكوفة الآن غير مأمونة ..!
- نعم ويبدو أنه مازال لنا عيش في هذه السماوة .
عدت أمارس حياتي هناك في الغربة والشوق والخوف على جدتي يقتلاني ..

(1)(آية 5 من سورة القصص .)

ودخلت سنة ست عشرة وثلاثمائة انكسار القرامطة والعودة إلى الجدة

- هل تذكر شيئا يا أبا الطيب من أحداث سنة 316 هـ وما تناقله الرواة من أخبار ؟
- نعم تفاقم أمر القرمطي وكثر أتباعه ، فصاروا يكسبون القرية من أرض السواد ، فيقتلون أهلها وينهبون أموالها ، ورام في نفسه دخول الكوفة وأخذها مرة أخرى ، فلم يطق ذلك .

- كيف يا أبا الطيب ..وقد دخلها من قبل مرارا ...؟!
- لقد جهز الخليفة جيشا كثيفا ، مع مؤنس الخادم ، فاقتتلوا مع القرامطة ، فقتلوا من القرامطة خلقا كثيرا ، وأسروا منهم طائفة كثيرة من أشرفهم ، ودخل بهم مؤنس الخادم بغداد ، ومعه أعلام من أعلامهم ، منكسة ، مكتوب عليها :

(ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ⁽¹⁾)
ففرح الناس بذلك فرحا شديدا ...

وفوض القرامطة أمرهم بعد هذه الهزيمة ، إلى رجل يقال له (حريث بن مسعود) ، ودعوا إلى المهدي ، الذي ظهر ببلاد المغرب جد الفاطميين .⁽²⁾
- أخبار عظيمة ...!!

- نعم فرحت بها فرحا شديدا ، كان القرامطة كابوسا جثم على صدر العراق كله ، وعلى صدري ... لقد فرّعتني عن الكوفة بلدي الحبيب مرتع صباي .. ماذا فعل بك القرمطي ، لعنة الله عليه ؟.
- ليس هناك الآن ما يمنع من عودتكما إلى الكوفة ، ولقاء الجدة والأصحاب ...!!!
عدتما إلى الكوفة ???

(¹) سورة القصص (آية 5)

(²) (انظرالبداية والنهاية ، أحداث 316 هـ)

- نعم...حزم عيدان وأنا معه متاعنا وشددنا الرحال إلى الكوفة انكسر القرامطة واستقرت الأحوال ، ويبدو أن مؤنس الخادم أصبح بطلا قوميا ، سنوات وسنوات والقرامطة يصلون ويجولون وليس لهم رادع ، لم يكسر شوكتهم إلا البطل مؤنس الخادم وقواته ، يحق له أن يُرفع فوق الأعناق ، ويكون الأمر الناهي ، لقد دخل بأسراه من القرامطة ، بغداد منكسة رؤوسهم وأعلامهم ، وفرّ الباقيون بعد أن قُتل منهم الكثيرون ، فروا إلى الصحراء وأظنهم لن تقوم لهم قائمة .

هكذا قلت في نفسي ، أو هكذا تمنيت ، لقد شَغَلت بطولهُ مؤنس الخادم جانبا كبيرا من تفكيري ، خاصة والجميع ممن حولي تدور به أحاديثهم .

الغريب أن تصل إلى مسامعنا ونحن في الطريق إلى الكوفة ، أخبار قادمة من بغداد تفيد أن هناك جفوة وخلافات بين مؤنس الخادم والخليفة ، لم أصدق الأخبار .. كيف !!؟ وهذا القائد العظيم تمكن من دحر القرامطة الذين دحروا الآلاف المؤلفة من قوات الخليفة ، تلك القوات التي لو وُزِعَ ما أنفق عليها على أهل العراق لأصبحوا جميعا أغنياء . ومع ذلك هُزموا أمام القرامطة وفروا كما الفئران ... قلت في نفسي...لا لا لا أصدق هذه الروايات . وسرعان ما أكّدها البعض ..

هي حقيقة إذا !!.

مرت سنوات ثلاث بل أكثر على غربتي في البادية ، بادية الجزيرة المفضية إلى نجد ⁽¹⁾

⁽¹⁾يقول شوقي ضيف :

* وما يكاد الفتى يبلغ التاسعة من عمره ، حتى يغزو القرامطة الكوفة ، ويسفكوا الدماء ويسبوا النساء ، ويفر الناس منها جزعا وفزعا ، ويفر به أبوه إلى بادية السماوة بين العراق والشام ، ويظل المتنبي نحو عامين أو ثلاثة يتردد في القبائل ويتغذى بلغتها ، تتغذى فتوته الجائمة بين ضلوعه ، ويعود إلى الكوفة في مستهل سنته الثانية عشرة ، لا ندري هل كان أبوه لا يزال حيا ؟

(شوقي ضيف تاريخ الأدب العربي ج5 - دار المعارف ص343)

إلى المدة التي قضاها المتنبي في البادية محل خلاف بين الرواة والمحدثين ، والرأي عندي أنها أكثر من ثلاث سنوات وذلك ربطا بأهم الأحداث السياسية والحروب التي دارت على أرض الكوفة والتي لا ترجح مطلقا عودة المتنبي أثناءها إلى الكوفة إذا ما علمنا أنه غادرها وهو ابن تسع سنين أي سنة 312 هـ هربا من الحروب (انظر أحداث هذه السنة في البداية والنهاية وما وقع

وبعدما تألفت مع أتراب لي هناك أجد نفسي أغادرها ، غيرَ كارهٍ للبادية بل مشوقاً للكوفة ومن فيها ... وما أدراني ما فيها الآن بعدما سمعته من أفعال القرامطة .

عدنا نغذ السير إلى الكوفة وها هي أسوارها تطالعنا من بعيد ويشتعل الحنين إلى الجدة ، وددت لو كنت أملك أجنحة الطير كي تحملني سريعا إلى جدتي .

دخلت وعيدان الكوفة فعلا وجوهنا الحزن والخوف على الأحباب أن يكون قد أصابهم ما أصاب هذه البيوت المحترقة الخاوية من أهلها .

وأصبحت خطواتي متندة أن نفاجأ بصدمة في أحبابنا ، رغم أن الأخبار كانت تأتينا بين الحين والحين تطمئننا على الجدة ، لكن ما شاهدناه لم يكن يبشر بخير ، فكان سعيانا المتوجس عبر شوارع المدينة وكأنها مدينة الأشباح .

ألمح البيت من بعيد ولمحتها ، لمحت جدتي ، واقفة على الباب تتفحص وجوه العائدين . انطلقت إليها كالسهم رغم مابي من تعب ونصب ، ولكني نسيته عندما لمحتها ... انطلقت إليها وسبقني دموعي ، فتلفقتني في أحضانها كأنها تتلقف روحها عادت إليها ، واختلطت دموعنا

منها في الكوفة وما جاورها) لذلك رجحنا عودته إلى الكوفة بعد انكسار شوكة القرامطة على يد الأمير مؤنس الخادم وكان ذلك سنة 316 هـ ، وعلى ذلك يكون أبو الطيب الذي فر هو وأبوه من وجه القرامطة عام 312 هـ بقي على الأقل في البادية بين ثلاث إلى أربع سنوات ، والذي يؤكد رأينا أن أحد الرواة ذكر أنه قد عاد من البادية وقد فصح لسانه واكتسب صفات البداوة من خشونة وصلابة ، ولا يستقيم ذلك بمرور سنة أو سنتين ، هذا ما أرجحه والله أعلم (

- (ويرى محمود شاكر أن المتنبّي بقي في الكوفة إلى حدود سنة 317 هـ ، ثم تركها إلى بغداد ثم عاد إلى الكوفة وما لبث أن غادرها إلى بادية الشام ، - يقول : وقد بقي في الكوفة على ذلك - فيما نرى - إلى سنة 317 ثم خرج إلى البادية القريبة ، بادية الجزيرة المفضية إلى نجد، وفيها قبائل من كلب ، فالتقى بهم وأخذ يتنقل بينهم ، ليسمع ما بقي من العربية المبرأة على ألسنة هؤلاء القوم الذين قلّت بينهم الأعاجم ، ولم يظفر هناك بطائل ، إلا ما مرّن عليه من مشقة السفر ، واكتساب الصديق واختبار الخلق).

انظر ، المتنبّي ، شاكر ص 197)

[تعليق : ولا شك أن ابن تيسر سنيين أشد تأثرا من ابن أربع عشرة سنة (سنة 317) وأن من بقي في صغره ثلاث سنوات في البادية يكون أشد تأثرا فيظهر عليه ذلك حتي يلفت ذلك نظر الراوي فيذكره]

مع اللقاء كما اختلطت من قبل عند الفراق ، لكنها في هذه المرة لم تحاول إخفاء دموعها ، إنها دموع فرح باللقاء ، سنوات ثلاث مرت كدهر من الحزن والغم والخوف ، لكنه كما يقولون :
(دوام الحال من المحال) .

— لا شك يا أبا الطيب أن هذا اليوم قد حفر في وجدانك نقوشا ...!!

— نعم ... وهدأت نفسي عندما اطمأنتت على جدتي

أما عيدان فما كاد يستقر وتهذاً نفسه بعودته إلى الكوفة وعودتي إلى جدتي حتى ألم به المرض وكأن شقائه ثلاث سنوات في البادية ، لم يتركه يمر سالماً إلى الكوفة ، بل أثر أن يصيبه بداء لم يُفلته ، فما هي إلا أيام حتى لبى (عيدان) نداء ربه ، وهو مطمئن النفس أني في كنف هذه السيدة العظيمة .

حزنت حزناً شديداً عليه ، وحزنت الجدة عليه وزاد حزنها على حالي ، حيث اكتمل بوفاة عيدان يُنمي ، فمازلت ابن الثالثة عشرة ، نعم صرت رجلاً يعتمد عليه ، لكن جدتي تعتبرني صغيراً ما زلت ،

الحق أنني شعرت بئتم حقيقي بفراق عيدان السند الفعلي لي ، خاصة بعدما شعرت به وبقربه الشديد مني في السماوة ، عرفت مدى طيبته وتسامحه وحبه الشديد لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومدى خوفه عليّ وحرصه على صحتي ، وكيف أنه كان يعاملني كرجل يُعتمد عليه ، وأخطر من ذلك ، عرفت منه كيف أن العباسيين خطفوا من آل البيت حقهم في الخلافة ، بالمكر والدهاء ، وكيف أن هذا الحق يجب أن يعود لآل البيت أبناء الحسين رضي الله عنه

أخذتُ الجدة تُسرّي عني ، ولم تكن التسرية سوى هذه الأحاديث المأساوية التي حدثت للناس في الكوفة مع غزوات القرامطة لها ، وكذلك ظلت لفترة ليست قصيرة أحاديثي هي ذكرياتي في البادية ، وكان كلما تذكرت مواقف لعيدان ، اغرورقت عينايا بالدموع ، فتكفكفُ الجدة دموعي وتخرجني من حزني بحديث آخر .

مرت الأيام بي في الكوفة وقد خرجت من حالة الحزن كما خرجت الكوفة واستعادت انفاسها التي ظلت لفترة متلاحقة لاتهدأ ، خرجت كذلك من هذه الحالة بالاستغراق في الدرس والتحصيل فأكبت على حلقات العلم بالمسجد الجامع ، وجلست إلى شيوخ الكوفة في اللغة والنحو والصرف والأدب والحديث والقرآن حتى الفلسفة ، لم أترك بابا من أبواب العلم إلا دخلته .⁽¹⁾

أخذت أقلب في أوراقى ، التي تركتها في بيتنا قبل الفرار وجدت هذا الكتاب الصغير الذي يتكلم عن الفلسفة ، كتاب الأصمعي ، ثلاثون ورقة تقريبا ، تذكرت كيف وصل إليّ هذا الكتاب ، ورغم أنه يتكلم عن هذا العلم الذي شهد رواجاً مؤخراً ، في الكوفة وفي غيرها ، علم الفلسفة الذي يجد الكثيرون صعوبة في فهمه ، ولكنه لا يصعب على أبي الطيب
لقد قرأت غيره الكثير والكثير في هذا الباب من أبواب العلم ، وأستطيع أن أعرف من يدعيه بهتاناً ومن هو ماهر به ، تعجبت من هذا الرجل الذي يدعي العلم بالفلسفة ، وقد جاء بأخلاق من الكلام ما أنزل الله بها من سلطان ، والذي يدعى أبا الفضل الكوفي ،
- يقال إنه كان نصرانياً وأسلم ، وهو يتكلم بالفلسفة ...
- هو كذلك ... قالت لي جدتي :

يا أبا الطيب أراك تكثر من الذهاب إلى هذا الرجل الذي يدعى أبا الفضل ، يا بني يقولون إن هذا الرجل مهووس ، وأنا أخشى عليك من أفكاره .

(1) يقول شوقي ضيف : ويعود إلى الكوفة في مستهل سنته الثانية عشرة [الرأي أنها في مستهل الرابعة عشرة أواخر سنة 316 هـ] لا ندري هل كان أبوه لا يزال حياً أو أنه توفي قبيل عودته بقليل ، ونظن ظناً أن أمه فارقت الحياة قبل أبيه ، بل لعلها فارقتها وهو لا يزال رضيعاً ، ويكتب على كل ما في الكوفة من ثقافات ، فإذا هو يلتهم كتب اللغة التهاماً ويلتهم أيضاً كتب النحو ، ويتعرف على كتب الفلسفة عن طريق ممدوح كوفي له يسمى أبا الفضل .

(تاريخ الأدب العربي - شوقي ضيف ، عصر الدول والإمارات ج 5 ص 342 دار المعارف)

(راجع كذلك الديوان بتحقيق عبد الوهاب عزام ، سلسلة الذخائر 1 ص 8 الحاشية)

- يا جدة .. أتحسبن أنني أذهب إليه لأتعلم منه ..؟ كلا ..إنما أجلس إليه أجاريه في علمه حتى أعرف مداه ، وأتبين هل ماجاء به علم كالفلسفة ، أم مجرد أخلاط من هنا ومن هناك ، ولا تمت للفلسفة بصلة والأهم أنني أطالع ما لديه من كتب فهي كثيرة ...
عموما .. سوف ينكشف لي أمره عندما أنشده هذه القصيدة التي أمدحه فيها ، ولسوف أعرف من رده وتعليقه عالم هو أم مدَّع .⁽¹⁾
ماذا تقول فيها يا أبا الطيب ؟
أقول :

كفي أراني ويك لومك ألوما * هم أقام على فؤاد أنجما
وخيال جسم لم يخل له الهوى * لحما فينحله السقام ولا دما
وخفوق قلب لو رأيت لهيبه * ياجنتي لظننت فيه جهنما
وإذا سحابة صد حب أبرقت * تركت حلاوة كل حب علقما
يا وجه داهية الذي لولاك ما * أكل الضنا جسدي ورض الأعظما
إن كان أغناها السلو فإنني * أمسيت من كبدي ومنها معدما
غصن على نقوي فلاة نابت * شمسُ النهار ثقل ليلا مظلما
لم تجمع الأضداد في متشابه * إلا لتجعلني لغرمي مغنما
كصفات أوحدا أباي الفضل التي * بهرت فأنطق واصفيه فأفحما
يعطيك مبتدئا فإن أعجلته * أعطاك معذرا كمن قد أجرما
نصر الفعال على المطال كأنما * خال السؤال على النوال محرما
يا أيها الملك المصفي جوهر * من ذات ذي الملكوت أسمى من سما
نور تظاهر فيك لاهوتيَّة * فتكاد تعلم علم ما لم يعلما
ويهم فيك إذا نطقت فصاحة * من كل عضو منك أن يتكلما

⁽¹⁾ راجع مقدمة القصيدة في شرح ديوان أبي الطيب المتنبي لأبي العلاء المعري ، معجز أحمد ص 45 دارالمعارف ط2، وانظر ديوان أبي الطيب المتنبي ، سلسلة الذخائر رقم 1 تحقيق عزام ص 8 وفي الهامش في المصدرين: يقال إن هذا الممدوح كان نصرانيا فأظهر الإسلام وهو متهم بالتنصر فأراد أن يستكشفه عن مذهبه فأورد عبارات النصارى .

أنا مبصر وأظن أنني نائم * من كان يحلم بالإله فأحلما
كبر العيان عليّ حتي إنه * صار اليقين من العيان توهُماً
يا من لجود يديه في أمواله * نقم تعود عل اليتامى أنعماً

- يبدو يا أبا الطيب أن أبا الفضل كان كريماً معك وقربك إليه وخصك بمعارفه وما وصله من العلم .

- نعم .. خاصة وقد رأى في الذكاء والنهم إلى المعرفة و الخلفية الجيدة عن الفلسفة ، فضلاً عن براعة لاتبارى في الشعر ممن هو في مثل سني .

مدحته بتلك الأبيات ، ويبدو فيها جلياً هذه المفردات التي تتناسب مع فكر ومذهب أبي الفضل الكوفي

- تبدو كأنها استعراض بلاغي ومعرفي أكثر منها مديحاً وإطراء ، وربما كانت هذه القصيدة من أوليات القصائد التي أدت عليك عائداً .

- هي كما تقول ... كانت الحياة في الكوفة صعبة ، فقد ضاقت الأرزاق في الكوفة ، وأصبح عيشي وعيش جدتي كفافاً ... ولاحت في الآفاق بوادر مجاعة ، تكاد تطبق بأنيابها على الكوفة وأهلها، وقد دفعت هذه الظروف الصعبة أن يبيع البعض دينه وآخرته بدراهم معدودات .

وكان منهم هذا القاضي المسمى بالذهبي ، إنهم يصادرون أموال الورثة يضمنونها إلى بيت المال ولا يتركون إلا الفتات لهؤلاء الأيتام ، ويأتون بفتاوى ما أنزل الله بها من سلطان ، وإذا بهذا القاضي يقضي في قضية تخصنا ، بيننا وبين العلويين فيبدو الشطط واضحاً للعيان وصنع بقضائه مشكلة كبرى بيني وبين العلويين فوجدت نفسي أسلط قوافي عليه فأقول له :

لما انتسبتَ فكنتَ ابناً لغير أب * ثم اختبرت فلم ترجع إلى أدب
سميت بالذهبي اليوم تسمية * مشتقة من ذهاب العقل لا الذهب
ملقب بك ما لقبت ويك به * يا أيها اللقب الملقى على اللقب

- هل وصل خراب الذمم إلى القضاء يا أبا الطيب ؟ (1)

- في هذه الظروف الصعبة فيما فكرت ..؟

- فكرت في بغداد ... وسألت نفسي ...

كيف الحال في بغداد ، درة التاج وعاصمة الخلافة ؟، لا يمكن أن تكون الأحوال مثل

أحوال الكوفة التي توشك على المجاعة ، فمهما كان الحال هي العاصمة فهي معصومة - لاشك -

من هذه الأحوال السائدة في الكوفة وغيرها من المدن الأخرى

لم لا أذهب إلى بغداد ولأجرب حظي هناك ، إنني شاعر وللشعراء مكان ومكانة عند أولي

الأمر ، فلنذهب إلى بغداد ...

- وشددت الرحال إلى بغداد ، وأمر في طريقي ، بأطراف الكوفة ، (2) بشخص عزيز عليّ ،

تربي وأخي في الرضاة فضلا عن كونه علويا من الأشراف .

(1) (كثرت الآراء في الخلاف الذي كان قائما بين المتنبّي وجدته وبين العلويين في الكوفة وذهب محمود شاكر مذهباً (شاكر المتنبّي ، مرجع سابق ص 171 / 3) وفرض فروضا بنى عليها بنيانا ضخما في دراسته عن أبي الطيب المتنبّي مفادها أنه علوي مهضوم الحق من العلويين في نسبه للعلويين وهذا سبب خروجه من بلده الكوفة . [ولما تيقن الأمر أنه نسب بالرضاع فلا محل لنزاع حول هذا النسب يدفع المتنبّي دفعا إلى الخروج من الكوفة . وقد يكون الأمر أبسط من ذلك بكثير فقد تكون قضية إرث لأمه ، والمرجح أن أمه ماتت وهو صغير السن فوارد أن تكون قضية إرثها أو الوصاية عليه ، سببت جدلا فقهيّا ، ونزاعا بينه هو وجدته من ناحية ، وبين العلويين في الكوفة من ناحية أخرى ، فضلا عن أن بعض قضاة هذا العصر كانوا يصادرون التركات لصالح بيت المال أحيانا أو لصالحهم شخصا أو لصالح الأمير ويتركون الورثة في الخلاء (انظر موقف سيف الدولة من قاضيه أبي الحصين الرقيّ فكان يصادر بعض التركات ويدخلها بيت المال وهو يقول كلمته المشهورة (كل من هلك ، فلسيف الدولة ما ترك) حتى هلك هذا القاضي هو نفسه ، في واقعة من وقعات سيف الدولة مع أعدائه ، وحين جال سيف الدولة بعد هدوء المعركة يتفقد الضحايا من جنده وقواده وجد جثة أبي الحصين هذا بين القتلى فداسها بسنابك فرسه وهو يقول اذهب لاردك الله ، فقد كنت تزين لي وجوه الباطل . (المحاسني ، مرجع سابق ص 10) وابن رائق : فكان ابن رائق في العراق أيام الخليفة (الراضي) مستبدا بالرعية ، يداريه الخليفة حيناً وحيناً يزجره ، وحاول هذا الأمير أن يحتجّ بعض ما تركه موسر من الموسرين لورثته . (المتنبّي ، زكي المحاسني ، دار المعارف ، ص 10)

- لذلك لغت نظري هجاء المتنبّي للقاضي الذهبي في هذه السن . فافترضت قضية الإرث ولكني لا أبني عليها شيئا إلا أن أعتبرها نتيجة نزاع محتمل دفع المتنبّي للخروج من الكوفة فضلا عن ظروف الكوفة والتي كانت وحدها كافية في هذه الفترة للفرار منها ..)

(2) راجع الخلاف بين شاكر وطه حسين في هذه الجزئية

كانت سعادتي غامرة عندما التقيت رفيق طفولتي محمد بن عبيد الله ، وكذلك فرح بي محمد فرحا عظيما وأكرمني أيما إكرام ، وكان يغدق عليّ وعلى جدتي ، من قبل أن أترك الكوفة إلى البادية وبعدها عدت ، بل إن رعايته لجدتي لم تنقطع أبدا كانت هي تحبه مثلي تماما وكان هو يرى فيها أما حانية له ، لقد حكّت الجدة لي عن مآثر هذه العائلة الكريمة عليها حال غيابي وعيدان في البادية ، وها هو فضلهم مستمر لا ينقطع .

أسفَ محمد على وفاة عيدان ، ولكن كانت سعادته بي غامرة بهذا التقدم الذي حققته في قول الشعر ، لقد كانت قصيدتي فيه رائعة حقا ، خاصة وهي تحمل في مستهلها هواء البادية ، وكعادتنا نحن الشعراء استهلالات بالغزل والوقوف على الأطلال ، ثم العبور إلى صلب القصيدة وهدفها ، أنشدته هذه القصيدة :

أهلا بدار سبائك أغيدها * أبعد ما بان عنك خردها
ظلت بها تنطوي على كبِدٍ * نضيجه فوق خلبها يدها
يا حاديي عيسها وأحسبني * أوجدُ ميتا قبيل أفقدها
فقا قليلا بها فلا * أقلّ من نظرة أزودها
ففي فؤاد المحب نار هوى * أحرّ نار الجحيم أبردها
شاب من الهجر فرّق لمتّه * فصار مثل الدمقس أسودها
— غريب فعلا يا أبا الطيب هذه اللمة البيضاء في مفركك في هذه السن ...
أنت صغير جدا على ذلك ؟!

— عندك حق لم تكن سني وصلت إلى الخامسة عشرة بعد ، قد تكون الوراثة ، وربما الأيام شيبتني مبكرا

— ولكن ما هذا المطلع الذي ينم عن فتى مستغرق في حالة عظيمة من العشق والهوى ، يعتصر فؤادك ناي الحبيب ، أم أصبحت شاعرا متمكنا واثقا من صنعته وأدواته ؟!
- كلا الحالين يا صاحبي ثم تمضي القصيدة فأقول :

ليس يحيك الملام في همم * أقربها منك عنك أبعدها

بئس الليالى سهرت من طربي * شوقا إلى من يبيت يرفدها
أحييتها والدموع تنجدي * شؤونها والظلام ينجدها
لا ناقتي تقبل الرديف ولا * بالسوط يوم الرهان أجدها
إلى فتى يصدر الرماح وقد * أنهلها في القلوب موردها
له أيادٍ إلى سابقة * أعد منها ولا أعددها
يعطي فلا مطله يكدرها * به ولا منة ينكدها
خير قریش أبا وأمجدها * أكثرها نائلا وأجودها
أطعنها بالقناة وأضربها بالسيف * ججاجها مسودها
أفرسها فارسا وأطولها * باعا ومغوارها وسيدها
يا ليت بي ضربة أتيح لها * كما أتيحت له محمدها
أثر فيها وفي الحديد وما * أثر في وجهه مهندها
فاغتبطت إذ رأت تزينها * بمثله والجراح تحسدها

- يا له من جود وياله من سقاء ، إنك يا أبا الطيب لاتملك لهذا الجود إنكارا وإن حاولت فإن جلدك سيشهد عليك (شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم) (1)
- وقد قابلتُ الكرم بالكرم والمعروف بالمعروف لم يكن الكرم والمعروف وليد اللحظة بل كان تاريخا من الفضل لهذا الشريف أبي الحسين محمد ، عليّ وأهلي خاصة جدتي وكنت لا أنكر لأهل الفضل فضلهم وكان هذا البطل أبو الحسين وأمه وأهله جميعا أول أصحاب الفضل عليّ وعلى أهلي ، فجاءت الأبيات ترجمانا صادقا وإقرارا لأهل الفضل بفضلهم
- تلك كانت أطول قصائدك في صباك كما يقول الديوان يا أبا الطيب .
- نعم هذا ما سجلته في الديوان .. لقد قلت في هذه الفترة شعرا كثيرا ومدحت كثيرا من الناس الذين يستحقون من وجهة نظري ، ولكني أهملت معظم هذا الشعر وتعمدت عدم تدوينه ، حيث رأيت معظمه لا يستحق والبعض لم أسجله فنسيتة .

(1) سورة فصلت من آية 20

— ثم ذهبتَ بعد ذلك إلى بغداد ؟

— نعم ورأيتُ فيها عجباً

رأيتَ بعيني رأسي فساد الحكم وتسلبت الحكام الأعاجم على العرب ، وتألمت لما أصاب العرب من ذل وهوان ، رأيت القهر في عيون الناس والجبروت في عيون الولاة ، ويغلي صدري بمشاعر العروبة وتثور نفسي ثورة عاصفة فأصيح من أعماقي :

إلى أيّ حين أنت في زيّ مُحَرَّم * وحتى متى في شقوة وإلى كم

وإلا تمت تحت السيوف مكرّماً * تَمُتْ وتُقاسي الذل غير مكرّم

فثب واثقا في الله وثبة ماجد * يري الموت في الهيجا جني النحل في الفم

أحدث نفسي والعربَ من حولي أن يخلعوا زي المحرمين بالحج ، أقصد زي الاستسلام إزاء حكام بغداد ، نعم الخليفة عربي لكن الأمراء والمتحكمين في البلاد من الأعاجم الفاسدين ، أطلب من العرب أن يلبسوا مكانه دروع الحرب لمنازلتهم منازل لا تبقي منهم ولا تذر ، ولكني يئست ممن حولي أن يثوروا معي ضد الفساد والظلم والطغيان .⁽¹⁾

... حقا .. لقد كرهت في هذه الفترة كل ما هو رسمي وكل ما هو منتسب للخلافة .. الخلافة التي تركت الكوفة ومن قبلها البصرة وغيرها من القرى الكثيرة تحترق بنيران مجموعة من قطاع الطرق ، ولكنهم للأسف منظمون ، وعندما فكر الخليفة في ارسال جيشه أنفق عليه ألف ألف ، ولكن ما الناتج لقد كان جيشه أقرب إلى القروء من الجنود .!

- لا تنس يا أبا الطيب ما فعله مؤنس الخادم وكيف كسر شوكة القرامطة ..وهو الذي أرسله الخليفة ...

- ولا تنس أنت أيضا ما فعله الخليفة به لقد أنقلب عليه وصادر أملاكه وأمواله وضياعه بإيعاز من الحاقدين أعداء النجاح أقرأ ... إقرأ سوف تجد العجب ..

(1) (شوقي ضيف - تاريخ الأدب العربي ج 5 - ص 344)

ودخلت سنة سبع عشرة وثلاثمائة القرامطة يأخذون الحجر الأسود ويقتلون الحجيج في الحرم

— جاءت أحداث سنة 317 هـ عليك يا أبا الطيب وأنت تسعى في عاصمة الخلافة سعيًا ، وقد بدأ البعض يعرف عنك شاعريتك ، فتطوع بعضهم بتقديمك لبعض ذوي الشأن في المجتمع البغدادي ، هل تذكر ذلك يا أبا الطيب ؟

— نعم ذهبت في يوم من الأيام إلى جامع المنصور في بغداد ، وكان من أكبر مساجد بغداد ، وكانت الدروس العلمية تلقي فيه ويلتقي فيه أهل العلم وأهل الأدب ، وفي هذا اليوم كان بالجامع أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الشاعر المعروف ، وجلسنا نسمع منه ونكتب وندون كل ما يقول ، كان من يجلس بجواري يعلم أنني أقول الشعر وقد أسمعت هذا المجلس من قبل بعض أشعاري ، فتطوع قائلاً يخاطب أبابكر بن دريد : إن أبا الطيب هذا شاعركنت في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة على ما أذكر وكنتُ نحيفًا ، فقال ابن دريد : أنشدنا يا فتى شيئًا من شعرك ، فأنشدته : قصيدة أذكر منها

مِتْ إِنْ لَمْ تَأْخُذُوا بَدْمِي * يَا لِقُحْطَانِي وَيَعْرَبِيَّة

فمسح ابن دريد بيده على رأسي وقال يدا عيني : لا ، بل نأخذ بدمك وتبسّم وشجعني . (1)
- البعض ينسبك للعلويين ...؟ (2)

(1) (يقول محمود محمد شاكر : وابن دريد كان ببغداد سنة 321 هـ ، وكان دخول المتنبّي ببغداد سنة 319 أو 320 هـ . ومع أنه دخل بغداد وهو شاعر طموح يريد أن يتألق ، فإن عظمتها وفتنتها لم تأخذ بلبه ، ولم يفكر ساعة في المقام بها يزاحم شعراءها الكبار الذين حازوا مجدهم ببغداد ، وفارقها إلى الشام لا علويًا يطالب بإظهار نسبه فحسب ، بل فتىً عربيًا ثائرا منكرا للذي رآه في بغداد من استيلاء الأعاجم على سلطان الخليفة العربي وتخونهم له حتى تركوه بلا سلطان ، وكأنه بعدنذ جعل إظهار علويته وسيلة يتذرع بها لجمع الجموع ، ويشارك في هذا الصراع على السلطة ، فلعله يصيب نجاحا ، وهو لعرويته وعلويته ، أخلق من هؤلاء بالسلطان.

(محمود محمد شاكر ، المتنبّي ، مطبعة المدني ، ص 65 ، 66)

(2) (راجع محمود شاكر ، المتنبّي ، ص 167/ 3 وما بعدها، حيث يرى أن المتنبّي علوي الأصل وبنى على ذلك حياة المتنبّي .

- كيف ذلك ..! لو أنني ادعيت هذا النسب الشريف .. فلمن انتسبت؟! أليس على من يدعي النسب أن يذكر نسبه ؟ وأنا نسبي معروف ألم تعلم نسبي ، الذي قلته فقط وأنا صادق فيه ، أن امرأة علوية شريفة من بيت آل عبيد الله بن يحيى أرضعتني ، بعد وفاة أمي وأنا رضيع ، وهذا نسبي إليهم بالرضاع فقط لا غير ، أما نسبي عصبية فهذا شرف لا أدعيه ، ثم إنني لو نسبت نفسي للعلويين ما احتجت أن أقول إن امرأة علوية أرضعتني وهذا ثابت يقينا ..فأنا قلت هذا فعلا ... أليس كذلك ... أضف إلى ذلك أن نسبي معروف للجميع فأنا ابن الحسين بن عبد الجبار الجعفي الكندي والكل يعلم ذلك ، وقد ذكرت نسبي في أول الكلام ...هل نسيت ...!!؟

- ولكن الرواة ذكروا أنك كنت إذا سألك أحدً عن نسبك كنت تُخفي ذلك وبعض العلويين كان يخفي نسبه خوفا من العباسيين وجواسيسهم .

- لم يكن هذا حالي دائما ، ولكن ما حدث أحيانا عندما كنت مُطاردا ومُهددا بالقتل من بعض العلويين الذين شهّرتُ بهم وهددتهم في الكوفة قبل رحيلي عنها ... وأحيانا من أولي الأمر الذين رأوا في أشعاري ما يهدد سلطانهم ، وبعض من هجوتهم . فكنت أنكر نسبي وأتهرب من ذكر ذلك تحايلا للهروب ومرأوغة لمن يتتبعونني خاصة وأنا في أسفاري

- لم تستطع أن تنفصل عن أحداث عصرك وكانت الأحداث جساما خاصة في هذا العام 317هـ .
— نعم لم أستطع ... وعاصرتها بكل ما أملك من مشاعر وانفعالات ، وقد جعلتني هذه الأحداث اتخذ موقفا مختلفا عن معاصري من الشعراء وغيرهم ، وخاصة من ذوي الشأن في بغداد ، الذين يمجدون السلطان وأولي الأمر وإن اتخذوا مراكبهم أعناق العامة المطحونين تحت ذل الحاجة والعوز ، توشك المجاعة أن تقتلهم .

...كنتُ من هؤلاء الفقراء ، أشعر بما يشعرون وأعاني ما يعانون ، فلم أمدح في بغداد أميرا ولا وزيرا ولا حتي الخليفة الذي لم يكن له حول ولا قوة .

— يقول البعض إن الأمر لم يكن سهلا عليك كشاعر في حداثة سنك أن تصل إلى أولى السلطان وأولي الشأن

— ولكن أولي الشأن في هذا العصر يتباهون بكثرة مداحيهم ، ولن أعدم حيلة للوصول إلى هؤلاء بما لدي من ذكاء وموهبة ، ولكني أدت ظهري لِمَا وُجد في حلقي من الغصة جرّاء ما يعانيه الناس في مقابل هذا الثراء الفاحش الذي يعيشه الأمراء والحكام !!..

— لقد كان العصرُ مَوَّاراً بالأحداث الفارقة الرواة والمحدثون يقولون في هذه السنة - سنة 317 هـ - كان خلع المقتدر وتولية القاهر بن المعتضد بالله في المحرم منها .

- نعم فقد اشتدت الوحشة بين مؤنس الخادم ، والمقتدر بالله ، وتفاقم الحال ، وآل إلى أن اجتمعوا ، على خلع المقتدر ، وتولية القاهر محمد بن المعتضد ، فبايعوه بالخلافة ولقبوه بالقاهر بالله وذلك ليلة السبت النصف من المحرم ، وقلد هذا الخليفة الجديد علياً بن مقلّة وزارته ، ونُهبت دار المقتدر

- كنت يا أبا الطيب في بغداد في هذا التوقيت ...؟
- نعم ...

وأخرج المقتدر وأمه وخالته وخواصه وجواريه من دار الخلافة وولى نازوك الحجوبة ، مضافاً إلى ما بيده من الشرطة

فلما كان يوم الأحد السادس عشر من المحرم ، جلس القاهر بالله في منصب الخلافة ، وجلس بين يديه الوزير أبو علي بن مقلّة ، وكتب إلى العمال بالآفاق يخبرهم ، بولاية القاهر بالخلافة ، عوضاً عن المقتدر ، وزاد القاهر في إقطاع جماعة من الأمراء ، الذين قاموا بنصره منهم أبو الهيجاء بن حمدان ، فلما كان يوم الاثنين ، جاء الجند ، وطلبوا أرزاقهم ، وشغبوا ، وبادروا إلى نازوك فقتلوه ، وكان مخموراً ، ثم صلبوه

وهرب الوزير بن مقلّة وهرب الحجاب ، ونادوا يا مقتدر يا منصور ، ولم يكن مؤنس يومئذ حاضراً ، وجاء الجند إلى باب مؤنس ، يطالبونه بالمقتدر وقد علموا أنه مختبئ في دار مؤنس ، فأغلق بابه دونهم ، وجاحف دونه خدمه ، فلما رأى مؤنس ، أنه لا بد من تسليم المقتدر إليهم أمره بالخروج فخرج ، فحمله الرجال على أعناقهم ، حتى أدخلوه دار الخلافة ...

فسأل عن أخيه القاهر ، وأبي الهيجاء بن حمدان ليكتب لهم أمانا ، فما كان من قريب حتى جاءه خادم ومعه رأس أبي الهيجاء ثم استدعى بأخيه القاهر ، فأجلسه بين يديه ، واستدعاه إليه ، وقبله بين عينيه ، وقال : يا أخي أنت لا ذنب لك ، وقد علمت أنك مكره مقهور . والقاهر يقول : الله الله ! نفسي يا أمير المؤمنين ، فقال : وحق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا جرى عليك مني سوء أبدا ،

وعاد ابن مقلة فكتب للآفاق ، يعلمهم بعودة المقتدر إلى الخلافة وجعل محمدا أخاه - وهو القاهر - عند والدته بصفة محبوسا عندها ، فكانت تحسن إليه ، غاية الإحسان ، وتشترى له السراري ، وتكرمه غاية الإكرام .⁽¹⁾

ليس من المتصور أن تمر مثل هذه الأحداث علي مرور الكرام ولا على غيري من الخاصة والعامة ، إن الأمر مرتبط بالخليفة ، ومن في أرض الخلافة ، لا يتأثر بما يحدث للخليفة ؟ وإن ما يحدث لأمر جليل إنه خلُع الخليفة وتُصَيَّبُ خليفة آخر .

ماهذه الفوضى وما هذه الهمجية والعشوائية وما هذا التبجح من الجند والتجرو على مقام الخليفة ؟! ما يكون الحال إذا لو كان النصر حليفهم ؟!

لقد ذاقوا على يد القرامطة الأمرين وأولى بهم الخزي والعار وأن ينكسوا رؤوسهم لا أن يرفعوها في وجه الخليفة

- إن أمرك عجب يا أبا الطيب منذ قليل كنت تهاجم الخليفة والآن تدافع عنه !!
- أنت لم تفهمني أنا عندما أهاجم ، أهاجم الضعفاء الذين لا يستحقون مكانهم ، ولا يؤدون واجبه عليهم فأهاجم ضعف الخليفة وعدم قدرته على إدارة أمور الخلافة أما هنا فأدافع عن موقع الخليفة .. حيث يجب أن يكون لهذا الموقع هيئته وقدره .. ولا يجب التجرو عليه إلى هذه الدرجة وإلا أصبح الأمر غاية في التسبب .. وقد كان اقرأ التاريخ بين يديك وسوف ترى ... لقد جرت شائعات كثيرة تقول :

(1) (انظر البداية والنهاية ، ابن كثير ، أحداث 317 هـ)

إن مؤنس الخادم وراء هذا كله... فهو الوحيد الذي استطاع أن يكسر شوكة القرامطة ويدفعهم بعيدا عن بغداد و الكوفة ، وهو وحده القادر على ذلك .

— يبدو أن مؤنس الخادم هذا ذو سطوة عظيمة ويدير الأمور في بغداد كما يهوى بإشارة منه يثور الجند ، وبإشارة أخرى يهدأ الجند ...

— ما حدث لم يكن أمرا معقولا ، الخلافة تسقط في يوم وتقوم فيه خلافة أخرى لتسقط هذه الجديدة في اليوم التالي لتعود الخلافة السابقة ، والأمر ليس بسيطا ، لقد فرَّ الخليفة المقتدر ، ونهبت قصوره وأملاكه وطرد جميع حاشيته وأهل بيته أمه وخالته وخواصه وجواريه ، وها هم يعودون من جديد بعد فرار الخليفة الجديد القاهر ، والقاهر أخو المقتدر ، ولكن هكذا أراد من دبر الأمر وكأن كلا الخليفتين لاحول له ولا قوة .

— كيف عشت هذه الأحداث في بغداد ؟

— دارت كل هذه الأفكار والمساجلات والمحاورات في رأسي وكلما جاءت أخبار جديدة عما يحدث بدار الخلافة أو حولها ، خاصة التي سبقت ذلك والتي كانت تشير إلى حدوث جفوة بين مؤنس الخادم وبين المقتدر ، فكانت النتيجة كل هذه الأحداث

لم أنس هذا المشهد المؤلم عندما وجدت العسكر يطوفون برأس أحد ضحايا هذا الانقلاب ، ولم يكن هذا الرأس إلا رأس أبي الهيجاء بن حمدان ذلك البطل الذي دافع يوما ما عن الكوفة بكل ما أوتي من قوة ، حتى أسيرَ في المعركة ، أسره القرمطي لعنه الله ، ثم أطلق سراحه بعد ذلك ، عندما شعر بجدية المواجهة بينه وبين الأمير مؤنس الخادم .

ولكن ها هو رأسه يطوف شوارع بغداد بعد أن قتله الجنود ، ويقال إن المقتدر كان قد استدعاه ليعفو عنه وعن أخيه ، حيث أشيع أنه ساند القاهر بعد الانقلاب الذي حدث ولكن الجنود فعلوا ما فعلوا دون علمه ، حيث فوجئ بالجنود يدخلون عليه برأسه ؛ كان المقتدر يعلم أن مؤنس وراء ماحدث ، ولكن (سبق السيف العذل) .

ولم أنس كذلك هذا المشهد ! قائد الشرطة (نازوك) الذي كان يصول ويجول بسطوته وبطشه . وظن الدنيا أصبحت ملك يمينه ، فلم تمض ساعات ، حتى زرعه الجنود هنا في هذا الميدان مصلوبا مقتولا .

عُرُورة هي الدنيا ... غرّتك يا نازوك ... هكذا قلت في نفسي تلك الكلمات بصوت يكاد يكون مسموعا وأنا أنظر إليه معلقا أمام العامة والمستضعفين . والذين كانوا منذ ساعات قليلة يذوبون خوفا عند رؤيته قادما في صولجانه .

ويبدو أن هذا العام لا يريد أن يمر هكذا فتأتي الأحداث تباعا ، تأتي أخبار حُجاج العراق. فقد خرج ركب العراق لأداء فريضة الحج ، وأميرهم ، منصور الديلمي ، فوصلوا مكة سالمين وتوافدت الركوب هناك من كل مكان ومن كل فج ، فما شعروا إلا بالقرمطي قد خرج عليهم ، في جماعته ، يوم التروية فانتهب أموالهم واستباح قتالهم ، فقتل في رحاب مكة ، وشعابها ، وفي المسجد الحرام ، وفي جوف الكعبة من الحجاج خلقا كثيرا .

— قتل الناس في الحرم ..؟! —

— نعم .. وجلس أميرهم أبو طاهر - لعنه الله - على باب الكعبة والرجال تصرع حوله وهو يقول : أنا الله والله أنا ، أنا أخلق الخلق ، وأفنيهم أنا ..

... وهدم قبة زمزم وأمر بقلع باب الكعبة ، ونزع كسوتها عنها وشققها بين أصحابه ثم قلع الحجر الأسود ، وأخذ معه حين رحلوا إلى بلادهم ⁽¹⁾.

.... وقد كانوا ممالئين للفاطميين ، الذين نبغوا في هذه السنة ، ببلاد إفريقية من أرض المغرب ، ويلقب أميرهم بالمهدي وهو أبو محمد عبيد الله بن ميمون القداح .

وقد كان صباغا بسلمية ، وكان يهوديا ، فادعى أنه أسلم ، ثم سافر من (سلمية) ، فدخل بلاد إفريقية ، فادعى أنه شريف فاطمي ، فصدقه على ذلك طائفة كثيرة من البربر

⁽¹⁾ (يقول صاحب البداية والنهاية : فمكث عندهم اثنتين وعشرين سنة ، حتى ردوه ، كما سنذكر سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .)

وغيرهم من الجهلة وصارت له دولة ؛ فملك مدينة سجلماسة ، ثم ابتنى مدينة ، وسماها (المهدية) ، وكان قرار ملكه بها ، وكان القرامطة يرسلونه ، ويدعون إليه .⁽¹⁾

— هذه الأحداث يا أبا الطيب لا شك زلزلتك زلزالا شديدا ...

— فتنة كبرى تهب على الدولة العباسية ، بل على المسلمين جميعا ، لقد ظن الناس أن طيرا أبايل سوف تأتي لتنتقم من هذا السفاح كما حدث من قبل مع إبرهة ، وقد تصدى علماء الدين من الفقهاء المستنيرين ، أعجبني قول أحدهم : إن الطير الأبايل التي هزمت جيش إبرهة إنما كانت قبل البعثة حيث لم يك هناك هذه الآلاف المؤلفة من المسلمين ، غاب عنهم أن ما حدث من قبل كان تمهيدا لقدم النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم ، أما وقد جاء الإسلام وانتشر فيبقى على المسلمين حماية هذا البيت والدفاع عنه والحفاظ على أمن من دخله ، فعصر المعجزات قد ولى . عصر المعجزات قد ولى .

— نعم عصر المعجزات ولى ... ولكن هذا التكليف بالحماية ، يقع أولا على الخليفة الحاكم .. يقع على الأمراء والوزراء ...

ولكن كيف لهم الحفاظ على أمن البيت الحرام وأمن زواره ، والصراع على المال وشراء الجواري والعبيد قائم وكؤوس الخمر تدور في القصور فليفعل القرمطي وأعوانه ما يشاءون ، فقد خارت القوى وضعف سلطان الخليفة في النفوس ، فتجراً الباطل على الحق . كيف كانت أحوال معيشتك في عاصمة الخلافة ...

— كانت الأحوال صعبة فبعد يوم طويل شاق وجدت في جيبى خمسة دراهم .. دراهم وليست دنائير ...؟

كنت جائعا .. أخذت أبحث عن شيء آكله فوجدت بائعا لديه بطيخ في أول الموسم (باكورة) فأردت شراؤه ... أنظر ماذا حدث ..!

ساومت فيه صاحبه حتى عرضت عليه دراهمي الخمسة ، لكنني لم أبلغ منه شيئا ؛ ووقفت حزينا أنظر إلى البطيخ وإلى الدراهم وإذا تاجر يخرج من خان مقابل لبائع البطيخ

(1) (انظر البداية والنهاية ، ابن كثير ، أحداث 317 هـ)

فينهض البائع إليه متملقا مبالغاً في التملق ، ويعرض عليه بطيخه والتاجر يأبى ويمتنع والرجل يهبط بالثمن ، شيئاً فشيئاً حتى سمح وطابت نفسه عن شراء هذا البطيخ ، بدرهمين اثنين وأمر البائع أن يحمله إلى داره ، فلما انصرف التاجر أظهرت عجبي لصاحب البطيخ من هذه الحماسة التي حملته على أن يرفض خمسة دراهم كنت أعرضها عليه ويقبل من التاجر درهمين لم تطب نفسه عنهما إلا بعد المساومة والغناء ، فقال لي البائع : ويلك إنه يملك مائتي ألف دينار !!!⁽¹⁾ .

قلت في نفسي حينئذ ..

هو المال إذا!!

- ولكن هل نفع المال صاحبه ؟ ... هل هناك من هو أكثر ثراءً من الخليفة ... لم ينفعه المال !
- عندك حق ، لقد دار ذلك كله في عقلي ، وأنا أتأمل حكمة الأيام .. وكيف يغتر بها البعض ويظن أنه مخلد وما هو بمخلد

- ولكنهم اتهموك أنك من يومها وأنت تعشق المال بل واتهموك بالبخل ؟

- قل لي من لا يحب المال ؟!! ولكن .. هناك فارق بين الحرص والبخل ، ولو كنت بخيلاً ما اتخذت هذا العدد غير القليل من العبيد والغلمان والخدم عندما فتح الله عليّ ، وما تكلفت مؤنوتهم فضلاً عن شرائهم . واسأل الرواة كيف كانت قافلتني عند سفري من مصر إلى العراق ومن فارس إلى العراق .

- ولكن خبرني يا أبا الطيب كيف كانت حياة الناس حينئذ ؟

- هي حياة الأرقاء والأحرار . فكانت المرأة والفتى يباعان مثل المتاع . وقد بلغت أثمان

المستحسنات من الجواري ألوف الدنانير ، وأكثر القيان ثمناً هن اللواتي كن يحسن الغناء

والضرب على العيوان والمزاهر!!!

كانت بغداد أعظم سوق في الشرق لهذه التجارة في القرن الرابع الهجري .

(1) (انظر طه حسين ، مع المتنبي ، دار المعارف ، ص54 ، وقد روى معظم الكتاب هذه الرواية عن أبي الطيب مثل العقاد

وشاكر وعزام وغيرهم من القدماء والمحدثين)

لم يحالفني التوفيق في بغداد وجاءت هذه الأحداث لتطمر ما كنتُ أحمله من أمل حين جئت إلى بغداد .

— هل أتر هذا في شعرك الذي قلته في هذه الفترة ؟

— يجيب على ذلك ما قلته في الأبيات التالية :

مُحبِّي قيامي ، ما لذكَم النصلُ * بريئا من الجرحى ، سليما من القتل
أرى من فرندي قطعة من فرنده * وجودة ضرب الهام في جودة الصقل
وخضرة ثوب العيش في الخضرة التي * أرتك احمرار الموت في مدرج النمل
أمط عنك تشبيهي بما وكأنه * فما أحد فوقي ولا أحد مثلي
وذرنِي وإياه وطرفي وذابلي * نكن واحدا يلقي الورى وانظرنِ فعلي

ودخلت سنة عشرين وثلاثمائة الخروج إلى الشام

عدت من بغداد بخفي حنين ، عدت إلى جدتي أحمل هموما على هموم ، ووجداني يمور مورا على حال الخلافة وحال الإسلام الذي يدعو إلى الرثاء ، الخليفة لعبة في يد العسكر ، والعسكر طوع أمر مؤنس ، والقرامطة وصل فسادهم وضلالهم وتبجحهم إلى البيت الحرام ، والخليفة أضعف من أن يحرك ساكنا .

ثم هؤلاء المدَّعون الذين يظهر الواحد منهم من حين إلى آخر ومن مكان إلى مكان ، منهم من يدعي العلوية ومنهم من يدعي الفاطمية ، ومنهم من يدعي أمورا ما أنزل الله بها من سلطان .. هذا الذي يقال له (صالح بن محمود) الذي اجتمع عليه بنو مالك ثم سار إلى (سنجار) ، فحاصرها ودخلها وأخذ شيئا كثيرا من أموالها وخطب فيها خطبة ووعظ فيها ، وذكَرَ وكان من جملة ما قال : (نتولى الشيخين ، ونتبرأ من الحسين ، ولا نرى المسح على الخفين) ، ثم سار فعاث في الأرض فسادا ، فقام إليه ناصر بن حمدان فقاتله وأسرهُ .

وهذا الذي اشتهر ببلاد الموصل فاتَّبَعَهُ ألفُ رجل ، فحاصر أهل نصيبين ، فخرجوا إليه ، فاقتتلوا معه فقتل منهم مائة وأسر ألفا وصادر أهلها بأربعمائة ألف درهم ، فانتدب له ناصر الدولة فقاتله فظفر به وأسرهُ وأرسله إلى بغداد⁽¹⁾

... قلت في نفسي زادت الرُّقْعُ في ثوب الخلافة وما عاد الثوب يتحمل المزيد

— وكيف مرت أيامك بعد عودتك إلى الكوفة ..؟؟

— مضت بي الأيام في الكوفة ثقيلة .. ثقيلة ، يزيدُها ضيقا ضيق ذات اليد ، إلا ما يصل

إلينا من أخي في الرضاع أبي الحسين محمد بن عبيد الله ، والذي اشتهر بالمشطب بعد الإصابة التي أصابته في وجهه وزادته حسنا ...

(1) (انظر البداية والنهاية ، ابن كثير ، أحداث 320)

ليس إلا فضل هذا الشريف يأتينا من حين إلى آخر وكنا نقبله على استحياء .
مرّت عليّ فترة في الكوفة ، ومازال الخلاف قائما بيننا وبين العلويين ، ويزداد الخلاف اشتعالا
بعد تدخل أطراف أخرى سكبت الزيت على النار ، حتى أصبح تهديدهم لي تهديدا مباشرا ، فما
كان مني إلا أن توعدتهم توعدا مباشرا أيضا ...!
- كنت أرى أن من كان مثلي ويملك ذكائي وموهبتي يجب أن يكون في وضع غير الوضع الذي
أنا فيه ولكنها المقادير ، فعدت أخاطب نفسي :

إلى أي حين أنت في زي محرم * وحتى متى في شقوة وإلى كم
وإلا تمت تحت السيوف مكرما * تمت وتقاسي الذل غير مكرم
تأتي في هذه الفترة الأخبار من بغداد بمقتل المقتدر الخليفة ، وتمور الأحداث في
عاصمة الخلافة ليزداد الطين بلة ...
فأقرّر الرحيل وأخبرُ جدتي بذلك ، فتخشى عليّ من هذه الأحداث ، خاصة وقد لاحظت سخطي
على الأوضاع والأحوال ، ولمست الثورة المشتعلة بداخلي فازداد خوفها عليّ ، تحاول إثنائي
عما اعتزمته فلا تستطيع ، إنني مصمم على الخروج .
ولكنني لا أريد أن أغادر الكوفة وأترك جدتي باكية العينين وجلة القلب خوفا عليّ ،
فأردتُ أن أطمئنّها ، فأخبرتها أنني سوف أذهب إلى الشام لأبتعد عن أحداث بغداد ولأبحث عن
مكان يسمح بظهور شاعريتي ، ولعلني أجد مجدا وعزا لم أصادفه في بغداد ، وكانت الثورة
تشتعل بداخلي .

لم أستطع إقناعها ، ولكنني قد حزمت أمري فخرجت دون رضاها ...
مررت ببغداد مرورا واتجهت من فوري إلى الشام . بادية الشام فبلاد الشام (1)

(1) (المتنبّي شاعر ص 4/198) (المحاسني ، مرجع سابق ، ص 27)

خرجت إلى الشام بنفس مُهلّلة ، فأحوال المعيشة والحياة يُرثى لها ، فهل يُرجى من مثل هذا الخليفة خير كي يغير أحوال البلاد والعباد ؟! وا أسفاه على الخلافة والخليفة .

هكذا قلت في نفسي وأنا أجتُرُّ الذكريات ، والحزن يعصر قلبي وأنا أيمم وجهي شطر بادية السماوة ، تجرأ الجميع على الخليفة وأصبح أقوى منصب في البلاد أضعفها على الإطلاق . كيف السبيل إذاً لعودة المجد والعز للعرب ، وهل يترك الأعاجم هذا العز ؟ لابد أن يُنزع هذا الأمر نزعا ولكن كيف ؟! سؤال أخذ يتردد في عقلي ، فأصبح همّا يشتعل في صدري ، يفتش عن مخرج . يحتاج الأمر إلى بطل عربي أصيل يُعيد الأمور إلى نصابها ... أين هو ؟ وإلى جوار هذا الهم هم آخر ، هم المعيشة والرزق ولكنه عندي لم يكن في المرتبة الأولى ، لكنها الدنيا ويجب علي أن أسعى على الثانية وأسعى مع ذلك إلى الأولى . - ولكن يا أبا الطيب ما سبب مقتل الخليفة المقتدر ..؟

- كان سبب ذلك ، أن مؤنس الخادم ، خرج من بغداد في المحرم منها ، مغاضبا الخليفة ، في مماليكه وحشمه ، متوجها نحو الموصل ، وردّ اثناء الطريق ، مولاه (يسري)، إلى المقتدر ليستعلم له أمره ، وبعث معه رسالة يخاطب بها أمير المؤمنين ويعاتبه في أشياء ، فلما وصل ، أمره الوزيرُ الحسين بن القاسم وكان من أكبر أعداء مؤنس ، بأن يؤدي الرسالة إليه ، فامتنع من أدائها إلا إلى الخليفة ..

فشتمه الوزير وشتم صاحبه وأمر بضربه ومصادرته بثلاثمائة ألف دينار ، وأخذ خطة بنهب داره ، ثم أمر الوزير بالقبض على أقطاع مؤنس وأملاكه وأملاك من معه ، فحصل من ذلك مال عظيم وارتفع أمرُ الوزير عند المقتدر ولقبه عميد الدولة وضرب اسمه على الدراهم والدنانير وتمكن من الأمور جدا فعزلَ ووُلّي وقطع ووصلَ أيما يسيرة

صمم المظفر مؤنس في سيره فدخل الموصل وجعل يقول لأمرأء الأعراب : إن الخليفة قد ولاني الموصل وديار ربيعة ، فالتف عليه منهم خلق كثير ، وجعل ينفق فيهم الأموال الجزيلة ..

وقد كتب الوزير إلى آل حمدان _ وهم ولاية الموصل وتلك النواحي _ يأمرهم بمحاربته ، فركبوا إليه في ثلاثين ألفا وواجههم مؤنس في ثمانمائة من مماليكه وخدمه فهزمهم .. ودخل مؤنس الموصل فقصده العساكر من كل جانب يدخلون في طاعته ... حتى صار في جحافل من الجنود ، أما الوزير الحسين بن القاسم فإنه ظهرت خيانتة وعجزه فعزله المقتدر في ربيع الآخر من هذه السنة 320 هـ وولى مكانه الفضل بن جعفر بن محمد بن الفرات . وأقام مؤنس بالموصل تسعة أشهر . ثم ركب في الجيوش في شوال قاصدا بغداد . تواجه الفريقان ... هذه المواجهة بين مؤنس الخادم ومن معه من عسكر وبين الخليفة ومن معه من قوات انتهت بفرار قوات الخليفة ومقتله وتركه على نحو مزر في العراء مكشوف العورة حتى جاء رجل وغطى عورته ودفنه ، وحمل الجنود المغاربة من البربر رأسه إلى مؤنس الخادم الذي أظهر استياءً لمقتل الخليفة وأنه لم يأمر بذلك ولا يرضاه . ثم ركب مؤنس ووقف عند دار الخليفة حتى لا تنهب ، وهرب عبد الواحد بن المقتدر وهارون بن عريب وابناء رائق إلى المدائن ، وكان فعل مؤنس هذا سببا لطمع ملوك الأطراف في الخلفاء وضَعَفَ أمر الخلافة جدا ، مع ما كان المقتدر يعتمد منه من التبذير والتفريط في الأموال وطاعة النساء وعزل الوزراء حتي قيل إن جملة ما صرفه في الوجوه الفاسدة ما يقارب ثمانين ألف ألف دينار ⁽¹⁾ .

هل تصدق ... كان في داره أحد عشر ألف خادم خصي غير الصقالبة وأبناء فارس والروم والسودان !!

والغريب أنه كان كثير التنفل بالصلاة والصوم والعبادة ... قالوا عنه هذا .

— ولكنهم قالوا عنه أيضا كان مؤثرا شهواته مطيعا لخصايه كثير العزل والولاية والتلون ومازال ذلك دأبه حتى كان هلاكه ...

— نعم قالوا ذلك أيضا ...

(1) (انظر البداية والنهاية لابن كثير أحداث 320 هـ)

إنني لفي عجب من أمر هذا الشعب الذي يوشك أن تجتاحه المجاعة ، وهو صابر محتسب ويسمع هذه الأخبار التي تحرك الصخر حتى ينفجر . ثمانون ألف ألف دينار ، ما أعظم هذا الرقم لو سد به جوع الجائعين أو كسا به العرايا في أنحاء الخلافة أو عبّد الطرق والمسالك وأمنّها للعابرين . ولكنها تنفق بيد الخليفة ... فيم ؟!! في الوجوه الفاسدة وما كل هذا العدد من الخدم . أحد عشر ألفا من الخصيان ... ماذا يفعل كل هؤلاء ؟؟؟!! والناس يتضورون جوعا ...
— أتذكر أشعارك في هذه الفترة ؟

— نعم :

لم الليلي التي أخت على جدتي * برقة الحال واعذرنى ولا تلم
أرى أناسا ومحصولي على غنم * وذكر جودٍ ومحصولي على كلم
ورب مال فقيرا من مروته * لم يثر منها كما أثرى من العدم
سيصحب النصل مني مثل مضربه * وينجلي خبري عن صمة الصمم
لقد تصبرت حتى لات مصطبر * فالآن أقحم حتى لات مقتحم
— ولكن خبرني ما رأيك فيما فعله مؤنس الخادم ؟

— الخليفة الضعيف يستحق ذلك وأكثر ...

ولكن هذا الأمر سوف يُسهّل هذه الفكرة عند الكثيرين من أصحاب الهوى في السلطان ..
ولن تستقر الخلافة على حال بعد ذلك ... وسوف يزداد حال الناس سوءاً

— أصحاب الهوى في السلطان ...!! الفكرة تراودك ؟

— ولم لا ...

طافت هذه الأفكار برأسي وازددت عزما على المضي قدما في طريقي ، إن الأحداث تثبت لي كل يوم أن ما أراه هو الصواب وعليّ فقط أن أدبر الوسيلة وأشدّ الهمم ، ومن غير الشاعر يستطيع ذلك !.....

— وماذا عن ولاية الخليفة القاهر لأموار الخلافة العباسية في بغداد بعد مقتل الخليفة المقتدر ؟

- لما قتل المقتدر بالله عزم مؤنس على تولية أبي العباس بن المقتدر بعد أبيه ليُطَيَّب قلبَ أم المقتدر ، فعدل عن ذلك جمهور من حضر من الأمراء فقال أبو يعقوب إسحاق بن إسماعيل النوبختي : بعد التعب والنكد نبايع لخليفة صبي له أم وخالات يُطيعهن ويُشاورهن ؟ ثم احضروا محمد ابن المعتضد - وهو أخو المقتدر - فبايعه القضاة والأمراء والوزراء ولقبوه بالقاهر بالله واستوزر أبا علي بن مقلّة ... وشرع القاهر في مصادرة أصحاب المقتدر وتتبع أولاده

واستدعى أم المقتدر (شغب) وهي مريضة بالاستسقاء وقد تزايد بها الوجع من شدة جزعها على ولدها حين بلغها قتله وكيف بقي مكشوف العورة . فبقيت أياما لا تأكل شيئا استدعاها القاهر فقررها على أموالها فذكرت ما يكون للنساء من الحلي ولم تقر بشيء من الأموال والجواهر فأمر بضربها وعلقت من رجلها ، ومسها بعذاب شديد .⁽¹⁾ واستدعي القاهر جماعة من أولاد المقتدر منهم أبو العباس وهارون والعباس وعلي والفضل وإبراهيم ، فأمر بمصادرتهم وحبسهم وسلمهم إلى حاجبه علي بن بلبق . وتمكن الوزير علي بن مقلّة فعزل وولى وأخذ وأعطى أياما .⁽²⁾

ويذكر كذلك أن الخليفة عظم وزيره (علي بن مقلّة) وخاطبه بالاحترام والإكرام ثم إن الوزير ومؤنس الخادم وعلي بن بلبق وجماعة من الأمراء تشاوروا فيما بينهم على خلع القاهر وتولية أبي أحمد المكتفي وبايعوه سرا فيما بينهم

فبلغ ذلك القاهر فسعى إلي القبض عليهم ، فوقع في مخالفته الأمير المظفر مؤنس الخادم ، فأمر بحبسه وقبض على بلبق واختفى ولده علي بن بلبق وهرب الوزير بن مقلّة وأمر بتحريق دار بن مقلّة ووقع النهب ببغداد وقع علي بن بلبق (في يده) فذبح بين يديه كما تذبح الشاة ...

(1) (شغب أم أمير المؤمنين المقتدر بن المعتضد توفيت سنة 321

(تاريخ الأدب العربي ، شوقي ضيف ، دار المعارف ج 5 ص 233 ، 234)

(2) (انظر البداية والنهاية لابن كثير أحداث 320 هـ)

كذلك ذبح القاهر بلّيق ومؤنس الخادم ، وطيف بالرؤوس الثلاثة في بغداد ونودي عليهم هذا جزاء من يخون الإمام ويسعى في الدولة فسادا

- ما هذا الذي يحدث يا أبا الطيب ، ما هذه الرؤوس التي تطير ؟! ... الأمير المظفر مؤنس الخادم هذا البطل الذي كسر القرامطة .. يطوفون برأسه في شوارع بغداد ...!!
- نعم لقد فرّ الأمان من هذه البلاد ، لم يعد أحد يملك ذلك ولا حتى الخليفة ... أصبح من في القمة في لحظة من الزمن ذبيحا ، بل ويطوفون برأسه في الشوارع
- يقولون إنه في هذه السنة أيضا ظهر أمر بني بويه أمراء الفرس (1)

(1) البويهيون : اسرة فارسية تنسب إلى بويه ، وهو فارسي ديلمي ويقال إنه كان صيادا على بحر قزوين وكان وأبناؤه على والحسن وأحمد من حوله يحتطبون ، ونراهم حين صار إليهم الملك ينسبهم المؤرخون - ملقا لهم فيما يبدو - إلى الملك الساساني (بهرام جور) .

ومهما يكن فقد التحق (بويه) وأبناؤه بخدمة (ماكان بن كاكى) حتى إذا انتصر عليه (مرداويج الزيارى) صاحب جورجاني ، تحولوا إليه وأيدوه في حربه ضد الدولة العلوية الزيدية بطبرستان فولى عليا الكرج في الجنوب الشرقي من همدان سنة 320 هـ ، ولم يلبث علي أن استولى على فارس وأرجان واتخذ شيراز مقرا له ، وقتل مرداويج سنة 323 هـ فاستولى هو وأخوه الحسن على أصفهان والري اللتين كانتا تابعتين له ، وتولى الحسن شئونهما وشئون بلاد الجبل ، واستولى اخوهما أحمد على كرمان وظل يتقدم تدريجيا نحو الغرب حتى استولى على الأهواز سنة 326 هـ ومضى يتقدم حتى استولى على واسط ، وفي هذه الأثناء كانت المجاعة تهدد بغداد ، وكان الجند الأتراك ثائرين على الخليفة وقواده لعجزه عن دفع رواتبهم ...

فوجد أحمد الأبواب جميعا مفتوحة إلى بغداد فدخلها في جمادى الأولى سنة 334 هـ ورحب به الخليفة (المستكفي) منقذا ومخلصا ومنحه إمرة الأمراء ولقبه (معز الدولة) ولقب أخاه عليا صاحب فارس وشيراز (عماد الدولة) والحسن صاحب بلاد الجبل (ركن الدولة) وضربت ألقابهم على السكة ، وذكرت أسماؤهم وألقابهم مع الخليفة في خطبة الجمعة .

ومن هذا الحين بالغ البويهيون في الألقاب الفخمة يصفونها على أنفسهم وعلى وزرائهم ، ولم يكد الشهر التالي لدخول معز الدولة بغداد يتقدم حتى خلع المستكفي وسملت عيناه وولّى الخلافة بعده ابن عمه (المطيع لله) ولم يكن له ولمن تلاه من الخلفاء العباسيين في عهد البويهيين حول ولا طول ولا سلطان ، إلا من ذكر اسمائهم في خطبة الجمعة ، وعلى السكة المضروبة وكانما أصبحوا مجرد صنائع في أيدي البويهيين يسبغون عليهم رواتبهم بالمقدار الذي يريدون ، ولما أفضت الإمارة إلى (عضد الدولة) لقب بالملك ، وهو أول من خُوطب بهذا اللقب في الاسلام .

وظل (معز الدولة) يلي شئون بغداد والعراق والأهواز وكرمان إلى أن توفي سنة 356 هـ وخلفه ابنه بخيار ، وكانت ولاية فارس قد صارت إلى ابن عمه عضد الدولة ابن ركن الدولة منذ وفاة عمه عماد الدولة سنة 338 هـ إذ لم يترك ولذ فقد آلت ولايته إلى أخيه ركن الدولة فمنحها ابنه عضد الدولة . [ويقال إن عماد الدولة عندما شعر بدنو أجله استقدم عضد الدول وولاه

- نعم ببلاد فارس ، عماد الدولة أبو الحسن علي ، وركن الدولة أبو علي الحسن ، ومعز الدولة أبو الحسين أحمد أولاد أبي شجاع بويه كان لهم شأن عظيم في أحداث الخلافة بعد ذلك ...

ودخلت سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة تأثر في بلاد الشام

كانت أولى مدائحي في الشام عند مروري برأس عين حيث إلتقيت سيف الدولة الحمداني وكان بها هو وجيشه ... كان يخوض حربا مع بعض القبائل . سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وكان قد أوقع بعمر بن حابس وبني ضبة وهزمهم ⁽¹⁾ لخروجهم على بني حمدان ، فقلت أمدحه في قصيدة مطلعها :

ذكر الصبا ومراتع الآرام * جلبت حمامي قبل وقت حمامي
دمن تكاثرت الهموم عليّ في * عرصاتها كتكاثر اللوام
وكان كل سحابة وقفت بها * تبكي بعيني عروة بن حزام
ولطالما أفنيت ريق كعابها * فيها وأفنت بالعتاب كلامي
قد كنت تهزأ بالفراق مجانة * وتجر ذيلي شرّة وعُرام
ليس القباب على الركاب وإنما * هن الحياة ترحلت بسلام

مملكته راجع البداية والنهاية أحداث 338 | توفي ركن الدولة سنة 365هـ (راجع د. شوقي ضيف تاريخ الأدب العربي ج5 ص234 - دار المعارف ط 4)

(¹) (المتنبي ، شاعر 215 ، 6/216) (انظر البداية والنهاية أحداث 321 هـ) * يقول محمود شاعر :
. ولكن بعض رواة ديوان المتنبي أو شراحه يقولون إن المتنبي مرّ برأس عين في سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ، وقد أوقع سيف الدولة بعمر بن حابس من بني أسد ، وضبة وبني رياح من بني تميم فمدحه بقصيدته التي أولها :
ذكر الصبا ومراتع الآرام * جعلت حمامي قبل يوم حمامي
فبين أن لقاء سيف الدولة بهؤلاء الخارجين من بني أسد وبني ضبة وبني رياح كان على إثر قتلهم ابن عمه (أبا الأغر بن سعيد بن حمدان)

ليت الذي فلق النوى جعل الحصى * لخفافهن مفاصلي وعظامي

.....

أنت الغريبة في زمان أهله * ولدت مكارمهم لغير تمام
أكثر من بذل النوال ولم تزل * علما على الإفضال والإنعام
صعرت كل كبيرة وكبرت عن * لكأته وعددت سن غلام

.....

مهلا ألا لله ما صنع القنا * في عمرو حاب وضبة الأغتام
لمّا تحكمت الأسنة فيهم * جارت وهن يجرن في الأحكام
فتركتهن خلل البيوت كأنما * غضبت رؤوسهم على الأجسام
كان هذا الأمير في عجلة من أمره ، ويوشك أن يتابع مسيره لمهام حربية أخرى ، فدفعت إليه
القصيدة مكتوبة وقد تعارفنا تعارفا خاطفا ...

و كان في طريقي إلى الشام قبائل كثيرة ، فكان نزولي بكل قبيلة أمر بها بالنسبة لي
راحة ومدداً ومعرفة ومدحاً لكبارها وكسباً لشهرة تسبقني إلى غيرها من القبائل وصحبة
وأعوانا استطعت أن أقنعهم بضرورة التغيير وحتميته ، فلم يعد في القوس منزع ، أنترك نحن
العرب الأصلاء مجدنا لعبة في أيدي العبيد والجواري والجنود المرتزقة يعبثون به في كل وقت
وحين ؟!.

البعض كان يجاريني ، والبعض كان صادقاً في تأييدي بعد هذه الأهوال التي يراها الناس
على يد القرامطة والخارجين والوهن الذي عليه الخلافة ، كنت أعرف هؤلاء وهؤلاء ، فمن
كنت أراه صادقاً في حديثه كنت آخذ عهده على التأييد والمناصرة فقد نويت أن أحشد الحشود
لإعادة الأمور إلى نصابها.

فما أن وصلت إلى دمشق وأعمالها ، إلا وقد حصلت شهرة وحصلت مع الشهرة حسدا .

كنت محدثا بارعا لي من ملكة الاستحواذ على السامعين ما يسمح بالوصول إلى الإبهار
لما أملكه من علوم ومعارف لا تتوافر لأهل البادية ، فإذا ما أضفت إلى ذلك موهبتي الشعرية
وقدرتي على الحفظ ، فسوف تجدني حينئذ خير من يدعو لأمر مثل ذلك الذي أدعو إليه
وعلى سبيل كسب العيش جاءت مثل هذه القصيدة التي ذكرها الديوان في صدر شاميائي والتي
أمدح فيها سعيد بن عبد الله الكلابي في (منبج) والتي أقول في مطلعها :
أحيا وأيسر ما قاسيت ما قتلا * والبين جار على ضعفي وما عدلا
والوجد يقوى كما تقوى النوى أبدا * والصبر ينحل في جسمي كما نحلا
لولا مفارقة الأحباب ما وجدت * لها المنايا إلى أرواحنا سبلا
إلى أن أقول :

علّ الأمير يرى ذلي فيشفع لي * إلى التي تركتني في الهوى مثلا
أيقنت أن سعيدا طالب بدمي * لما بصرت به بالرمح معتقلا
وأنتي غير محص فضل والده * ونائل دون نيلي وصفه زحلا
ثم أتابع مديحه .. إلى أن أختمه بهذا البيت :
أرجو نذاك ولا أخشي المطال به * يا من إذا وهب الدنيا فقد بخلا
- ولكن قل لي يا أبا الطيب هل كانت أشعارك في هذه الفترة مدائح فقط ؟
- من قال هذا ألم تقرأ الديوان ؟! ألم تقرأ هذه الغزلية التي مطلعها :
كم قتيل كما قتلت شهيد * ببياض الطلا وورد الخدود
وعيون المها ولا كعيون * فتكت بالمتيم المعمود

.....

راميات بأسهم ريشها الهد * بـُ تشق القلوب قبل الجلود
يرتشفن من فمي رشفات * هن فيه أحلى من التوحيد
- يا أبا الطيب هل كانت الأمور تسير على هواك وأفكارك خاصة ما يتعلق بالأمراء والحكام
والخليفة والخوف من بطش الأمراء ؟

- نعم ... البعض يخشى بطش الأمراء .. والبعض كان يشجعني

أين فضلي إذا قنعت من الدهر بعيش معجل التنكيد

ضاق صدري وطال في طلب الرز * ق قيامي وقل عنه قعودي

أبدا أقطع البلاد ونجمي * في نحوس وهمتي في سعود

ولعلي مؤمل بعض ما أبـ*لغ باللفظ من عزيز حميد

أما هذا المبدأ فهو الذي أرسمه منهج حياة فأقول :

عش عزيزا أو مت وأنت كريم * بين طعن القنا وخفق البنود

فرووس الرماح أذهب للغيب*ظ وأشفى لغل صدر الحقود

لا كما قد حييت غير حميد * وإذا متّ متّ غير فقيد

فاطلب العز في لظى وذـ*ذل ولو في جنان الخلود

يقتل العاجز الجبان وقد يعـ*جز عن قطع بخنق المولود

ويوقى الفتى المخشّ وقد خـ*وض في ماء لبة الصنديد

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي * وبنفسي فخرت لا بجودوي

وبهم فخر كل من نطق الضـ*اد وعود الجاني وغوث الطريد

— ولكن قل لي يا أبا الطيب أراك تلوح بنسب شريف في هذين البيتين ؟؟

— ولم لا ألت شريفا بالرضاع .. إن كلّ من هبّ ودب كان يدعي نسبا شريفا زورا وبهتانا ،

ويجتمع الناس لهم على جهل ويثورون في وجه أمراء الخليفة ، ألم تقرأ منذ قليل عن هؤلاء

الخارجين في وجه السلطان ..؟ ألا يحق لي هذا الانتساب وأنا رضيعهم والكل يعرف ذلك . ؟!

قدّمت نفسي للناس في هذه الأثناء باعتباري شريفا علويا حسينيا فتبعني البعض ونفر

مني البعض الآخر خوفا من العباسيين وبتطشهم ، خاصة وأن العلويين كانوا يعملون سرا من

أجل عودة الخلافة إليهم ، وها هي أفكار الثورة تلقى تجاوبا ، وكان أتباعي - على ما

ذهبت إليه من علويتي وأهدافي الثورية - في تزايد مستمر

إن أكن معجبا فعجب عجيب * لا يجد فوق نفسه من مزيد
أنا ترب الندى ورب القوافي * وسمام العدى وغيظ الحسود
أنا في أمة تداركها الله * غريب كصالح في ثمود ⁽¹⁾

- وأقل ما يمكن أن نقرأه في أشعارك السابقة أن من أهل الشام من عرف لك قدرك ، قد تكون
هذه المعرفة من ناحية شعرك كشاعر فذٍ أخذ طريقه إلى الشهرة ، وسعى إليه الناس وأخذوا
أشعارك يحفظونها ويتناقلونها . وقد يكون من ناحية علويتك وقد صدّقك البعض على ذلك
فالتفوا حولك وآزروك ونصروك ، وربما دعوا لك مثلما تدعو أنت لنفسك ، عانيت في هذه
لفترة يا أبا الطيب ..؟

- نعم ... معاناة شديدةوها هي قصيدة ترسم صورة لما كنت أعانيه في أسفاري في بلاد
الشام ...

إقرأ معي ما قلته في (اللجون) ارتجالا وقد اصابني ومن معي مطرٌ وريح :
بقية قوم آذنوا ببوار * وأنضاء أسفار كشرِب عُقار
نزلنا على حكم الرياح بمسجد * علينا لها ثوبا حصا وغبار
خليلي ما هذا مناخا لمثلنا * شدا عليها وارحلا بنهار
ولا تنكرا عصف الرياح فإنها * قرى كل ضيف بات عند سوار
ومن سوار هذا ..؟

- رجل أعرابي بيته بجوار المسجد الذي نزلنا به ، وقد رآنا وعرف أننا أغراب وظروفنا سيئة
ولم يكلف نفسه شيئا من الضيافة لنا ، كُنّا في أمسّ الحاجة لها في مثل هذه الظروف الجوية
القاسية ...⁽²⁾

⁽¹⁾ قال ابن جني انه بهذا البيت سَمِيَ المتنبّي.

⁽²⁾ يقول الواحدي في شرح هذه الأبيات :

يقول تحكمت فينا الرياح بهذا المكان حتى سفت علينا من الحصى والتراب والغبار ما سترتنا به : لا تنكرا شدة هبوب الرياح
فإنها طعامٌ من بات ضيفا عند (سوار) وهو اسم رجل هجاه بهذا البيت لأن هبوب الرياح اشتد عليهم لما نزلوا بالمسجد الذي
عند داره ولم يقرهم بطعام.

ولكن هكذا الصحراء ، وهكذا طبائع الناس بين البخل والجود .

— ولكنك لا تنسى يا أبا الطيب أن تستهل قصائدك بالغزل ومعالجة الهوى والبكاء على الأطلال ، وأنت تمدح من تمدحهم

— هذا هو الطبيعي في الشعر العربي ...مثل هذه القصيدة التي أمدح فيها أبا المنتصر شجاع بن محمد بن أوس بن معن بن الرضا الأزدي ، أقول :

أرق على أرق ومثلي يارق * وجوى يزيد وعبرة تترق
جهد الصبابة أن تكون كما أرى * عين مسهدة وقلب يخفق
ما لاح برق أو ترنم طائر * إلا انثيت ولي فؤاد شيق
جربت من نار الهوى ما تنطفي * نار الغضا وتكلّ عما تحرق
وعذلت أهل العشق حتى ذقته * فعجبت كيف يموت من لا يعشق
وعذرتهم وعرفت ذنبي أنني * غيرتهم فلقيت فيه ما لقوا

- ويبدو أنك في الأبيات التالية لمحت في ممدوحك هذا ملامح الزهد ، فأردت أن تعزف له على الوتر الذي يشجيه فجاءت هذه الأبيات :

نبكي على الدنيا وما من معشر * جمعتهم الدنيا فلم يتفرقوا
أين الأكاسرة الجبابرة الأولي * كنزوا الكنوز فما بقين ولا بقوا
من كل من ضاق الفضاء بجيشه * حتى ثوى فحواه لحد ضيق

- لمحت سرا من أسرار صنعتي .. إنني لا أقول شعرا بداءة إلا نادرا عندما أكون على معرفة جيدة وسابقة بمن أمدحه ، أما في الظروف العادية ، فإني أجلس أولا إلى الرجل وألمح منه كل حركة وسكنة لأعرف مفاتيح شخصيته فأدخل منهاوكان من هؤلاء أبو شجاع هذا ...

أما بنو أوس بن معن بن الرضا * فأعز من تحدى إليه الأينق

كَبُرْتُ حَوْل ديارهم لما بدت * منها الشموس وليس فيها المشرق
وعجبت من أرض سحاب أكفهم * من فوقها وصخورها لا تورق

.....

يا ذا الذي يهب الكثير وعنده * أني عليه بأخذه أتصدق
كان ذلك من أسباب تميزي في هذا الفن وذيوخ شهرتي فيه فكل فن أدواته
وتمضي الأيام بي ، أجالس من أجالس وأمدح من أمدح ، فيزداد مريدو أشعاري ويزداد حُسّادي
كذلك ممن ظنوا أني أكلتُ أرزاقهم من صغار الشعراء
ومن القصائد التي قلتها في هذه الفترة ، قصيدتي في مدح عليّ ابن أحمد الخراساني أقول في
مطلعها :

حشاشة نفس ودعت يوم ودّعوا * فلم تر أي الظاعنين أشيعُ
أشاروا بتسليم فجدنا بأنفس * تسيل من الآماق والسمّ أدمعُ
حشائِ على جمر ذكي من الهوى * وعينا في روض من الحسن ترتع

.....

ألا أيها القيل المقيم بمنبج * وهمته فوق السماكين توضع
أليس عجيبا أن وصفك معجز * وأن ظنوني في معاليك تظلع
ودخلت بلاد التنوخييين وقد اشتهرت فيسعى إليّ من يطلب مني شعرا فقصدني أحد رجالاتهم
أن أقول شعرا على لسانه لا لساني فاستجبت لطلبه
فتأتي هذه القصيدة ومطلعها فخر مباشر دون موارد أو غزل أو بكاء على الأطلال :
قضاة تعلم أني الفتى الذي ادخرت لصروف الزمان
ومجدي يدل بني خندف * على أن كل كريم يماني
أنا ابن اللقاء أنا ابن السخاء * أنا ابن الضراب أنا ابن الطعان
وقلت في هذه الفترة أيضا قصائد ترسم مشاعري وأفكاري وأحاسيسي وهواجس
نفسي ، ما أضمره وأريد إعلانه من نفسي ومن الناس ومن الساسة والحكام ، ليس هذا فحسب

بل الذي أريد به إثارة الرياح العواتي رياح التغيير ، وأنا في هذه لا أبدا كما أبداً قصائد المدح بالغزل أو البكاء على الأطلال ، فالموقف لا يحتمل ، الثورة بداخلي لا تنتظر ، كما أن حسادي ولا مزيّ لا يهدأون ، ويبدو أنهم بدأوا في الازدياد فتجدي أقول :

قفا تريا ودقي فهاتا المخائل * ولا تخشيا خلفا لما أنا قائلُ
رمانى خساس الناس من صائب إسته * وآخر قطن من يديه الجنادل

.....

وما زلت طودا لا تزول مناكبي * إلى أن بدت للضيم في زلازلُ
فقلقلت بالهم الذي قلقل الحشا * قلاقل عيس كلهن قلاقل
إذا الليل واراننا أرتنا خفافها * بقدر الحصى ما لا ترينا المشاعلُ
كأني من الوجناء في ظهر موجة * رمت بي بحاراً ما لهن سواحلُ
يخيل لي أن البلاد مسامعي * وأني فيها ما تقول العواذل
ثم تصل الثورة بداخلي إلى ذروتها حيث يستوي الموت والحياة في سبيل تحقيق المجد ...
وضعت حسادي وشائني في نفس السلة التي وضعت فيها الحكام والأمراء والولاة الفاسدين ..
فأقول :

ومن يبيع ما أبغي من المجد والعلا * تساوى المحاني عنده والمقاتلُ
ألا ليست الحاجات إلا نفوسكم * وليس لنا إلا السيوف وسائل
- وأيضاً تشكوا يا أبا الطيب الواقع الممض وظروف حياتك القاسية فتقول :
لم الليالي التي أخت على جدتي * برقة الحال واعذرني ولا تلم
أرى أناساً ومحصولي على غنم * وذكر جودٍ ومحصولي على كلم
وربُّ مالٍ فقيراً في مروتِه * لم يثر منها كما أثرى من العدم

- نعم ... وتثور نفسي على الأوضاع وأجد أنه لامناص من السيف وأنه لم يعد للصبر مكان ، بل لم يعد له نفع في علاج آفات الناس والحكام ، فتجذني أرسم مشاهد من البطولة الفائقة في ميادين الشرف فاقراً معي ما أقول : ⁽¹⁾

سيصحب النصل مني مثل مضربه * وينجلي خبري عن صمة الصمم
لقد تصبرت حتى لات مصطبر * فالآن أقحم حتى لات مقتحم
لأتركن وجوه الخيل ساهمة * والحرب أقوم من ساق على قدم
بكل منصلت مازال منتظري * حتى أدلت له من دولة الخدم
شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة * ويستحل دم الحجاج في الحرم
وكلما نطحت تحت العجاج به * أسد الكتائب رامته ولم يرم
تنسي البلاد بروق الجو بارقتي * وتكتفي بالدم الجاري عن الديم

.....

أيملك الملك والأسياف ظامنة * والطير جائعة لحم على وضم⁽²⁾.
من لو رأي ماء مات من ظماً * ولو مثلت له في النوم لم ينم
ميعاد كل رقيق الشفرتين غداً * ومن عصى من ملوك العرب العجم
فإن أجابوا فما قصدي بها لهم * وإن تولوا فما أرضى لها بهم
— ما هذه الثورة يا أبا الطيب ، إنك تحمل بركانا ، إنك يا أبا الطيب تشعل ناراً وتعلم يقينا أنها
ليست من ثيابك ببعيد ، فهل أنت فدائي إلى هذا الحد ؟؟؟!!
— وهل تشك في ذلك ؟!!

⁽¹⁾ (انظر شرح الواحدي)

⁽²⁾ (انظر شرح الواحدي) شيخ بدل من منصلت يريد أنه يستعين بمثل هذا ممن لا يعتقد الدين حتى يزيل دولة الخدم
وقوله أيملك الملك استفهام معناه الإنكار يقول لا يملك الملك ضعيفاً لا يمنع ولا يدفع عن نفسه والأسياف عطاش إلى دمه
والطير لم تشبع من لحمه يعني أنه يقتل ويلقى للطيور ولا يملك .
[ولعله كان يقصد بهذا البيت الخليفة المقتدر وحادث مقتله مازال ماثلاً في الأذهان]

كان العام الأول لي في الشام عاما قاسيا جدا ، فأنا على مدى هذا العام لم يغمض لي جفن وما كنت آوي إلى فراشي إلا لمما ، أرتب وأخطط وأسافر من بلد إلى بلد آناء الليل وأطراف النهار ..

لقد طفتُ مدن الشام ، إن لم يكن كلها فمعظمها ، ووجدت تجاوبا وحماسا شديدين لدعوتي ، وزادني حماسة ما وجدته من تأييد ملوك التنوخيين لي ومساندتهم لدعوتي ورغبتهم في إعادة الخلافة للعلويين ...

كانت ظروف الخلافة غاية في السوء ، تبرر هذه الثورة في نفسي كشاعر عربي أصيل ، وأنا أرى هذا الذل العربي بعد عز ، وأرى الخلافة الإسلامية ممزقة إلى ممالك متنافرة متصارعة (1) كان الفرس الذين بسطوا نفوذهم على الجيش هم الذين ينصبّون الخليفة ، وكان أكثر الوزراء في هذا العهد لا يؤتمنون .(2)

وكان من مساوئ السياسة في هذا العصر وما بعده (التغريم بالمصادرات) إبان الفتن والانقلابات كانت تشقى بأسبابها نفوس وتذل رقاب ويدخل معها التشفي والخصام (3) - أراك تأتي بها يا أبا الطيب صريحة في وجه دولة الخدم و الأتراك الذين استولوا على مقاليد الأمور منذرا أنه لا مانع لديك أن تستعين في سبيل إزالة هذه الدولة التي سيطر فيها العبيد ، لا مانع أن تضع يدك في يد الشيطان الذي يستحل دم الحجاج في الحرم ..؟! إن هذين البيتين اللذين يقولان ذلك :

(1) لم يبق للخلافة من رونق . وكثر الأدعياء والثائرون وعمت الفوضى السياسية ، ففي النصف الأول من القرن الرابع الهجري - وهو عصر المتنبي - لم يكن في أيدي العباسيين إلا العراق والجزيرة. ولم يكن الأمر في هذه البقاع بأيدي الخلفاء ، بل كان السلطان للمتغلبين من القواد . وتغلب أصحاب الأطراف وزالت عنهم الطاعة . ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها . والحكم في جميعها لابن رائق ، وليس للخليفة حكم . (معجز أحمد ، دار المعارف ، ص 78 ، عن كتاب الكامل لابن الأثير حوادث سنة 324 هـ)

(2) (د . زكي المحاسني ، المتنبي ، دار المعارف ، نوابغ الفكر العربي 15 ، نص وهامش ، ص 7 ، عن طبقات السبكي ج 3 ص 25)

(3) (د . زكي المحاسني ، المتنبي ، دار المعارف ، نوابغ الفكر العربي ج 15 ص 8)

بكل منصلت مازال منتظري حتى أدلت له من دولة الخدم
 شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحل دم الحجاج في الحرم
 دليل واضح كل الوضوح على أنك يا أبا الطيب وضعت يدك في يد القرامطة أو في يد أحد
 دعائهم السريين في البادية . على أقل تقدير . إن لم يكن تلويح كاذب بذلك ، وهو ما لا أستبعده ..
 - لا لقد حدث ... إذا وضعت لنفسك هدفا فعليك أن تضع له أقصى ما تستطيع من إمكانيات متاحة
 للوصول إليه ، تعلم أن مثل هذا الذي لا دين له يقاتل بلا قلب ولا يقف عند حرام أو حلال ، وقد
 فعل فدمر جيوشا كثيفة للخليفة ولا زال يتهدد الجميع ، لا مانع من الاستعانة به أو الاتفاق معه
 . ولو كوسيلة ليعود الأمر لأهله ، للعرب الأمجاد من أبناء الحسين ، رغم أن هذا القرمطي
 أثار فتنة مثل جبال من ليل مظلم ⁽¹⁾

(1) وهنا لنا وقفة ... مع هذين البيتين بعينهما في القصيدة السابقة :

اقرأ معي شرح أبي العلاء المعري لهذين البيتين في معجز أحمد طبعة دار المعارف بتحقيق الدكتور عبد المجيد دياب.
 يقول : بكل سيف مجرد ، مازلت أنتظره ومنتظري . حتى انتقلت له من الخدم الذين استولوا على الملك وسلبته الملك
 وأعطيت دولة الخدم من يستحقها .

ما رأيك في هذا التفسير ، سيف ينتظري وأنتظره حتى انتقلت له - أي لهذا السيف - من الخدم الذين استولوا على الملك
 وسيطروا على الخلافة ... بالطبع هو من الناحية البلاغية فيه تشخيص للسيف ، وهذا يعطي الفكرة جمالا فنيا .
 ولكن أبا العلاء يعرض شرحا آخر ...

وقيل : أراد بهذا المنصلت : الرجل الماضي في الأمور ، أي أفعل ذلك بكل رجل ماضٍ في الأمور مازال ينتظرنى لمحاربة
الأملاك ، حتي أعطيته دولة الخدم الذين هم ملوك اليوم ، والأصح : أنه صفة للسيف . (إذا أبو العلاء يرجح أنه صفة للسيف)
 والمقصود ينصرف إلى كلمة المنصلت (انظر معجز أحمد) .

وبالطبع لا يمنع أن تكون كلمة (المنصلت) صفة للسيف في الأصل الصحيح وتتسحب على الرجل الماضي في الأمور . لا مانع ،
 واتساق المعنى العام هو الحاكم وشرح البيت الثاني سوف يرجح رأيا على رأي ...
 أما شرح البيت الثاني فيقول أبو العلاء :

شيخ : بدل من كل .

يقول : بكل سيف يرى الصلوات الخمس نافلة [سيف كافر إذا وهذا تشخيص أيضا] ويستحل دم الحجاج في مكة ، لأنه
 لا يخشى ولا يعقل ولا يعرف الشرع ، وإنما وصفه بكونه شيخا ، إما لبياضه ، وإما لكونه قديما ، وذلك مدح للسيف .

وقيل أراد بالشيخ : الرجل الماضي الذي يطلب الملك . يعني أنه لا يبالي بالحرام والحلال ، ولا يردده التحرز الذي يوجبه الدين ،
وذلك أصلح للحرب والقتال .

[ولعل المعني ينصرف مباشرة في هذه الحالة إلى القرمطي أو أحد من أتباعه]

في حاشية هذه الصفحة إشارة إلى أن المقصود بدولة الخدم أي الأتراك الذين تملكوا العراق . وكانوا عبيدا وهو ما يتفق مع رأى الواحدي .

وإنما اختلفَ معه في تفسير شيخ في البيت الثاني واعتبر أن المقصود هو السيف وأنه سُمي كذلك لتقديمه . وهذا هو أيضا رأي القطاع في التبيان 42 / 4 .. والرأي الثاني في شرح كل من البيتين عند أبي العلاء المعري أكثر انسجاما من وجهة نظري ، خاصة مع الربط بينهما وبين الأحداث التاريخية المعاصرة للقصيدة .

يقول طه حسين في كتابه مع المتنبي :

وعندي أن المتنبي حين ارتحل إلى البادية إنما اتصل فيها لا بالبيئة القرمطية العادية ، بل بداع من دعاة القرامطة الذين كانوا يجولون في البادية . ومن يدرى ! لعل المتنبي لم يعد إلى الكوفة من البادية مستصحبا أباه أو جده ، وإنما عاد مستصحبا رجلا آخر أو قوما آخرين ، يريدون أن يستقروا في الكوفة وأن يدعوا فيها لمذهب القرامطة . [ملحوظة : المتنبي عندما عاد في هذه الفترة لم يكن جاوز الثانية عشرة ، فكيف يصحب هذا الصبي رجلا أو قوما آخرين . إلا إذا كان طه حسين يقصد أنه كان في زمرة مثل هؤلاء ، ولكن طه حسين لا يترك اللفظ يمر هكذا ... فكلمة مستصحبا غير كلمة في صحبة] يتابع طه حسين :

ومهما يكن من شيء ، وسواء واتتنا النصوص التي بقيت لنا أم لم تواتنا ، فإني أجد في نفسي شعورا قويا جدا بأن المتنبي قد نشأ نشأة شيعية غالية ، لم تلبث أن استحالت إلى قرمطية خالصة .

.. ثم هو لا يقف عند هذا الحد ، بل يتجاوزه إلى الجهر بالقرمطية الصريحة التي تجدد الصلوات الخمس ، وتستحل دم الحجاج في الحرم ، وذلك في ميميته التي أولها :

ضيف ألم برأسي غير محتشم السيف أحسن فعلا منه باللمم

(ص97 نفس المرجع السابق)

ويذكر طه حسين فيما يذكر من القصيدة البيتين اللذين أشرت إليهما .

والسؤال لماذا هذان البيتان ؟!

والإجابة : هذان البيتان يدلان دلالة صريحة على علاقة مباشرة وارتباط ما، بل تعهد واتفاق بين المتنبي وأحد دعاة القرامطة ، يتولى فيه أبو الطيب تمهيد الأجواء في البادية لثورة على الأوضاع ضد الخليفة في بغداد ، وفي اللحظة التي يشتعل فيها فتيل الثورة يجد القرامطة إلى جواره كتفا بكتف ، بغض النظر عن النتائج .. وإن كانت في معظمها في صالحهم ...

وليس ضروريا أن يكون المتنبي قرمطيا ، أو أحد دعاة القرامطة في الشام ، أو جاسوسا من جواسيسهم يعمل لصالحهم في الخفاء . لأن هذا يتعارض مع ادعائه العلوية ، وهم دعوا فيما بعد كما سنعرف للفاطميين الذين ظهروا بالمغرب ، أما هو فيدعو لنفسه ، وقد كان القرامطة يحاولون بكل الطرق استمالة العلويين إلى الدعوة الفاطمية التي ظهرت بالمغرب تمهيدا لاكتساحها مصر ثم بلاد الشام ، إذا فالمتنبي يفضي اتحاد الهدف وهو قلب نظام الحكم ، وتأتي دعوته خلال ذلك لنفسه وهو كفيل بها كشاعر مفوه يتناقل الناس أشعاره .

فليس المتنبي من السذاجة إذا كان بالفعل جاسوسا أو حتى داعية من دعائهم وقد كانوا يدعون لأنفسهم في الخفاء . أقول ليس من السذاجة أن يقولها صراحة :

بكل منصلت مازال منتظري حتى أدلت له من دولة الخدم

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحل دم الحجاج في الحرم

ليس ساذجا وليس جاسوسا وليس داعية من دعائهم ! لأنه معلوم من هو الذي يرى الصلوات الخمس نافلة ومن الذي استحل دم الحجاج في الحرم .

والسؤال : لماذا أعلن ذلك صراحة ؟؟!

أعلن ذلك صراحة حماية وإرهابا .. حماية له ، فيقولها صراحة إن خلفي القرامطة وما أدراك ما القرامطة ، من المؤكد أنهم سمعوا أخبارهم بل إنهم يتوجسون خيفة من هجومهم في أي لحظة وقد حدث بعد ذلك بسنوات ، فهم يعتبرون من ليس معهم فهو عدوهم ؛ وإرهابا لأعدائه وحساده القرييين وتشجيعا لكل من يفكر في الدخول حليفا معه بهدف تغيير الأوضاع الاجتماعية والسياسية ، ويضمن بموالاة أبي الطيب مخاطر القرامطة إذا ما اجتاحتوا الشام .

وقد تحالف معه بالفعل قبائل كلب وكراب والتتوخيون وشجعوه على ما يريد . أولا تأييدا له في دعوته لنفسه كعلوي وتأمينا لديارهم إذا اقتحم القرامطة الشام بعدما أعلنها أبو الطيب صراحة شعرا .

والسؤال التالي : وهل يمنع هذا أن يكون قرمطيا حقيقيا . !!؟

الذي يمنع أن يكون قرمطيا حقيقيا، شواهد حياته بعد ذلك التي لا تؤكد هذا الاحتمال ، وأول هذه الشواهد هذان البيتان اللذان تدور حولها كيف يكون قرمطيا ويذكر مأخذهم والأولى أن يذكر محاسنهم ، أو على أقل تقدير يخفي مساوئهم الممثلة في كفرهم واسقاطهم أركان الإسلام ركنا ركنا إنه يقول :

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحل دم الحجاج في الحرم

هل هذا داعية قرمطي ؟! لا . هل هذا جاسوس من جواسيس القرامطة ؟!... لا ، فالجاسوس لا يعلن عن نفسه .

هذا مستعين بالقرامطة لتحقيق أهدافه ، وهم كذلك مستعينون به لتحقيق أهدافهم . خاصة وأن البادية كانت صعبة المراس تستعصي على القرامطة . كلاهما اتخذ الآخر وسيلة ؛ فلما فشلت العهود في تحقيق النتائج انحل الارتباط وذهب كل إلى حال سبيله ، هو إلى السجن وهم إلى محاولاتهم الأخرى ، ومنها الدعوة سرا للفاطميين الذين ظهروا بالمغرب .

لذلك لم يكن عجباً أن نجد أبا الطيب في آخر عهده بالكوفة ينبري مدافعا هو وغلماؤه وعبيده عن مسقط رأسه الكوفة ، ضد من ؟ ... ضد القرامطة !! ويعمل فيهم القتل ويهزمهم ويردهم عن الكوفة بمساعدة الكوفيين ؛ وكذلك لم يكن عجباً أن يذكر بعض الكتاب (طه حسين) أن القرامطة هم قتلة أبي الطيب عند دير العاقول .! جزء ما قدمت يداه .! وجزء هجانه المقذع لضبة الكلابي وأمه وذلك على رؤوس الأشهاد .

ويقول الدكتور عبد العزيز الدسوقي في كتابه (في عالم المتنبي) :

... عرفت فعلا أن الحياة السياسية في القرن الثالث الهجري والقرن الرابع كانت مسرحا للفتن والاضطرابات والثورات واقتسام الخدم والعبيد للدولة الإسلامية وفي أواخره (القرن الثالث) اشتعلت (ثورة القرامطة) وظلت مشتعلة إلى القرن الرابع . وألهبت هذه الثورات النار في النفوس والعقول ، وأشعلت كثيرا من الفتن . وأشاعت جوا من الخراب والدمار كان يصل في بعض الأحيان إلى الاعتداء على الأماكن المقدسة . وإشاعة فتن طائفية وجو من الإلحاد والزندقة . وفي اللوحة الأولى التي لا تزال معها يشير المتنبي إلى بعض هذه الطوائف وشيوخها :

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحل دم الحجاج في الحرم

أبو الطيب إذن كان يجهز لثورة تقضي على دولة الخدم والعبيد . وتقضي أيضا على كل هذه التيارات المذهبية المنحرفة التي تغير شرع الله وتستحل دم الحجاج الآمنين في الحرم .
[عفوا دكتور عبد العزيز ...!]

أنا معك أن أبا الطيب كان يجهز لثورة تقضي على دولة الخدم ، وأن الإشارة في البيت لشيخ من شيوخ هذه الطائفة .
ويبدو من البيت الثاني استهجان واضح لهؤلاء الذين يستحلون الحرمات ، أما أن يكون الاستشهاد بالبيت فيه إشارة إلى أن من أهداف ثورته القضاء على (كل التيارات المذهبية المنحرفة التي تغير شرع الله وتستحل دم الحجاج الآمنين في الحرم) فهذا ما لا يحتمله البيت ، بل إن البيت يحمل المعنى العكسي في أن أبا الطيب سوف يستعين بشيخ القرامطة الذي لادين له في ثورته ضد الخلافة التي نخر السوس عظامها وقد خَبَرَ بأسهم في كسر جيش الخليفة أكثر من مرة .

قد يأتي القضاء على مثل هذه التيارات المنحرفة في مرحلة تالية في تفكيره ربما ، ولكن هذا ما لم يشر إليه أبو الطيب في هذا البيت ولا في غيره . وإن كان يسلخ عنهم الدين في هذا البيت بغرض الترهيب لأعدائه والاحتماء بهم ، لا أكثر ولا أقل .
ويقول ابن سيدة (ت 458 هـ) في كتابه شرح المشكل من شعر المتنبي الهيئة المصرية العامة للكتاب (1976) في هذا البيت (شيخ يرى ...) يعني بالشيخ هنا : المجرب إذ لا تكون التجربة لغير ذوي السن والحنكة يرى الصلوات الخمس نافلة : أي أنه لا يعنى بمفروضات الدين ، ولا تمنعه مما يشاء إذا أمكنه ما طلبه . ويستحل دم الحجاج في الحرم : أي أنه مبالغ في المضاء والنفاذ ، حتى لا يردُّه التحرُّج الذي يوجبه الدين فضلا عما سواه (المرجع المذكور ص 49) [وهذا ينسجم مع القرمطي وما عرف عنه وعن أتباعه في هذه الفترة من التاريخ ، ويتساق مع ما ذهبنا إليه]

* أما الأستاذ محمود شاکر ، فله في المتنبي صولات وجولات ، ومساجلاته مع طه حسين وعبد الوهاب عزام أثارت في الأوساط الأدبية غبارا وأي غبار ، وأقرب شاهد على ذلك ما نشره محمود شاکر في كتابه الضخم عن (المتنبي) عن مطبعة المدني بنفس العنوان والذي ضمته ردوده ونقده لأعمال طه حسين وعزام ، معلنا حربا لا هوادة فيها خاصة على طه حسين ، فيها من التهكم والسخرية أكثر مما فيها من النقد .

الشاهد هنا أن شاکر شن هجوما شرسا على طه حسين في الجزئية الخاصة بقرمطية المتنبي ، حيث يرى طه حسين أن قرمطية المتنبي واضحة كل الوضوح ، وساق شواهد من شعره تدل على ذلك . خاصة القصائد التي قالها أبو الطيب في هذه الفترة أو قبلها بقليل ، والتي تحمل معاني واضحة في العنف والثورة .

الغريب أن شاکر تناول هذه الشواهد شاهدا شاهدا وقام بتجريحها جميعا وكان مقتنعا إلى حد كبير ، إلا شاهدا ، والغريب أن يتغافل شاکر عن هذا الشاهد رغم أن شاکر لم يترك شاردة ولا واردة قالها طه حسين إلا جرحها ونقدها .

أولا : ما هذا الشاهد الذي ذكره طه حسين وأغفله عمدا محمود شاکر ؟

الشاهد هو هذان البيتان اللذان ندور حولهما وأذكرك بهما وخاصة البيت الثاني :

بكل منصلتٍ مازال منتظري * حتي أدلت له من دولة الخدم

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة * ويستحل دم الحجاج في الحرم

يقول طه حسين في كتابه (مع المتنبي) ط 12 - دار المعارف : ص 97

(... ثم هو لا يقف عند هذا الحد ، بل يتجاوزه إلى الجهر بالقرمطية الصريحة التي تجدد الصلوات الخمس ، وتستحل دم الحجاج في الحرم ، وذلك في ميمته التي أولها :

ضيف ألم برأسي غير محتشم * السيف أحسن فعلا منه باللمم

وانظر إليه يقول :

ويذكر طه حسين مقطعا كبيرا من القصيدة وفيها من العنف والثورة ما فيها مثل معظم إن لم يكن كل أشعار أبي الطيب في هذه الفترة قبيل سجنه ويذكر طه حسين ضمن ما ذكر في تلك القصيدة هذين البيتين .

ثم يأتي محمود شاكر على مدى الصفحات من 487 إلى 515 أي ثمان وعشرين صفحة من صفحات سفره عن (المتنبي) يرد فيها مدافعا عن رأيه بأن المتنبي لم يكن قرمطيا .

ولكن لا أعرف لماذا تجاهل شاكر تناول هذه القرينة التي ذكرها طه حسين ، فالهجوم الشرس والتهكم الشديد على طه حسين في هذه الجزئية الخاصة بقرمطية المتنبي ، جاء وكأن هذا التهكم وذلك الهجوم يخفيان وراءهما شيئا مريباً !! مثل ستارة الدخان التي يصنعها الحبار بقصد الهروب .

إن الشاهد المذكور في البيتين شاهد قوي على اتصاله بالقرامطة دون شك . ثم إن هذا هو مذهب شاكر في البحث في حياة المتنبي عن طريق ما قال من أشعار في كتابه عنه .

أن هذه القصيدة جاءت بعد هجوم القرامطة على البيت الحرام وقتل الحجاج في البيت الحرام وشوارع مكة كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية سنة 317 ، فالأحداث ماثلة في الأذهان ، خاصة وأن ما فعله القرامطة كان غير متوقع أن يكون بهذا الجبروت ، لقد كانوا في سنوات سابقة يكتفون بقطع الطريق على الحجاج يمنعونهم من الذهاب إلى البيت الحرام ، أو في رحلة عودتهم بعد الحج ، ثم وصل بعد ذلك إلى القتل والسلب والنهب للممتلكات والأموال وسبي النساء وخطف الأطفال ، أما مهاجمة البيت الحرام بهذا الشكل فكان أمرا مربعا . زلزل الناس إن الربط بين سنوات التاريخ وأحداثه مع ما قاله أبو الطيب تأثرا بها يوضح هذه الصورة بجلاء .

لقد جاء التلويح كما ذكرت من قبل إرهابا لأعدائه وحماية له في نفس الوقت ، فهو لم يكن له سند يدعمه في ثورته أو جولته مؤلbia العرب على الخليفة ، إلا ما ندر من قبائل بني كلاب والتوخييين وكان في هذه الفترة طوافا ببلاد الشام ، لا يستقر في مدينة أو بلد أو قبيلة .

فلماذا لا يضع يده في يد القرامطة ، هذه القوة المرعبة التي لم يستطع الخليفة قهرها في جولات كثيره

ولكن أين شاكر من ذلك ؟

شاكر لا يريد أن يتراجع أمام طه حسين ، ماذا فعل شاكر هروبا من هذه المواجهة ؟!

أولا : لم يشر إلى هذه القصيدة مطلقا في حديثه دفاعا عن رأيه ضد رأي طه القائل بقرمطية المتنبي ، رغم ما في هذه القصيدة من الثورة والعنف ما يفوق الشواهد الأخرى التي سهل على شاكر تجريحها ودحضها .

ثانيا : عندما تعرض شاكر لهذه القصيدة تعرض لها في مكان آخر من الكتاب وفي جانب مختلف من حياة أبي الطيب وذلك في معرض الحديث عن إظهار علوية المتنبي..

كيف تناول شاكر هذه القصيدة ، في هذه الناحية البعيدة عن اتهام المتنبي بالقرمطية ؟

في الصفحة 5/199 ، صدر الفصل بأبيات من هذه القصيدة بدأت بالبيت الذي يقول فيه أبو الطيب :

سيصحب النصل مني مثل مضر به * وينجلي خبري عن صمة الصمم

لقد تصبرت حتى لات مصطبر * والآن أقحم حتى لات مقتحم

ثم يقفز أحد عشر بيتا مرة واحدة دون إشارة تشير إلى أن هناك أبياتا بين هذا وذاك لمن يريد أن يرجع للديوان ، ومن بين هذه الأبيات التائهة البيتان اللذان ندور حولهما ليقول مباشرة :

ميعاد كل رقيق الشفرتين غدا * ومن عصي من ملوك العرب والعجم

فإن أجابوا فما قصدي بها لهم * وإن تولوا ، فما أرضى لها بهم

والأمر أكثر وضوحا في الصفحة 220 ، 6/ 221 ، ففي الصفحة الأولى في نهايتها يشير إلى مطلع القصيدة ثم يذكر بيتين أولهما (ليس التعلل .. ولا أظن بنات الدهر ...) ثم يفصل بفواصل يشير إلى وجود أبيات متروكة ، ثم يعود إلى القصيدة بدءا من البيت : سيصحب النصل ... ، ثم يتابع إلى قوله (لأتركن وجوه الخيل ... ، ثم يقفز بيتين دون إشارة مثلما فعل من قبل ، إلى قوله :

بكل منصلت مازال منتظري * حتى أدلت له من دولة الخدم

ثم يقفز بيتين أيضا دون إشارة ليذكر البيت (تنسي البلاد)

الشاهد هنا أنه استخدم إشارة الفاصل في مواضع ولم يستخدمها في مواضع ، وهذا لا يدركه القارئ العادي بل يعتبر القصيدة هكذا ما لم يكن هناك فاصل . فالقارئ العادي لن يقارن بين ما يقول شاعر وما يقول الديوان ولا يفترض فيه حفظ ديوان المتنبي.

والسؤال : هل تعتمد شاعر هذا للوصول إلى نتيجة بعينها ؟!

لما جزم شاعر بعدم قرمطية المتنبي في عدد المقتطف الذي صدر في يناير عام 1936 قبل كتاب طه حسين بعام ، لم يكن من السهل التراجع خاصة أمام طه حسين من ناحية وهو الأهم ، وكذلك من ناحية المستشرقين أمثال (مسنيون) و (بلاشير) اللذين يذهبان نفس المذهب في قرمطية المتنبي بل إن طه حسين يعتبره جاسوسا من جواسيس القرامطة .

أن نهج شاعر في البحث عن تفاصيل حياة المتنبي يعول بشكل كبير على أشعاره ، وقد نجح نجاحا كبيرا في إجلاء غوامض كثيرة في حياة أبي الطيب ، وكان أولى به أن يركز على هذين البيتين ليكشف جانباً مهماً في حياة هذا الشاعر الكبير فيما يتصل بعلاقته بالقرامطة ...

أقدر أن اختصاراته في هذه القصيدة كان الهدف الأساسي منها التركيز على الأبيات التي تخدم الجزئية التي يتناولها وهي علوية المتنبي وليس بقصد التعمية ، أعلم ذلك .. ولكن البحث العلمي لا يعرف النوايا ، وله أصول أقلها ما أشرت إليه من استخدام الفاصل في مكانه دون إهمال أو تهاون . ولو من باب سد الذرائع وحتى لا يساء الفهم .

واعتقد أن شاعر قد أخذ به بريق فكرة علوية المتنبي ، وأنه من نسل الحسين رضي الله عنه ، خاصة بعد ما ساقه من مؤشرات ترجح علويته وبنى عليها بناءً ضخماً من حياة أبي الطيب ، وإن كانت الدلائل التي تحسم علوية المتنبي بالرضاع ، تقتضي هدم فرضية أن المتنبي علوي عصبية التي يقول بها شاعر ، ولكن شاعر صنع العكس . فوجد أن من غير المقبول أن

لقد كانت الثورة التي أردتها سياسية قومية لا دينية ولا قرمطية كما توهم البعض

وإن العربي الحر ليفضّل العزّ في الجحيم على الذل في الفرياديس

- هل يمكن أن تُترك يا أبا الطيب بعد هذا طليقا حرا في بلاد الشام ؟!

- لا لم أترك ، رصدتني عيون أبي العباس ابن كيغلغ وكانت مصر وأعمالها تحت إمرته بما فيها حمص فأمر ولاته بمطاردتي .

كنت قد تركت قرية نخلة إلى بادية اللاذقية وقد أصبح لي أتباع كثيرون لأواخر سنة 321 هـ وكنت قد رتبتُ كل شيء لثورة ضارية ، ولم أكن وصلت العشرين من عمري ⁽¹⁾

... وكنتُ في قبائل البادية أظهر أمرا ، وأشدّ عضدا ، حتى كان آخر أمري ببني عدي وبني كلب ، ففشا ذكرى بينهم ، بايعوني على العون لي في الدعوة إلى رد الحكومة إلى العرب دون الأعاجم .

فلما ظهرتُ في بني عدي أرسل الوالي في القبض علي ، فطاردونني من بلد إلى بلد ، وكنت أستخفي منهم ، حتى وقعت آخر الأمر في يد (ابن علي الهاشمي العلوي) في قرية يقال

يلصق به تهمة القرمطة وهم كفار وزنادقة ؛ وبالتالي فقد أهمل أية أبيات له تعطى احتمالية قرمطته أو اتصاله بالقرمطة ، رغم أن هذا هو المنهج الذي اعتمد عليه شاكرك في بحثه .!

والبيت الثاني هذا (شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة * ويستحل دم الحجاج في الحرم) ليس له ذكر على أهميته التاريخية ، في سفر المتنبّي لمحمود شاكرك على الإطلاق . !!! نعم هو لم يذكر كل أبيات أبي الطيب ، وإنما ذكر الأبيات التي لها علاقة بالعناوين التي يناقشها . ولكن أليس لهذا البيت علاقة بأي من العناوين التي ناقشها ؟! .

(1) (ويرى البعض أن الذي قضى على ثورة أبي الطيب (لؤلؤ) والي حمص من قِبَل الإخشيد (شوقي ضيف - تاريخ الأدب العربي ج 5 ص 345 - دار المعارف ط 4 / 1996) . [هذا الكلام فيه نظر فمعظم بلاد الشام كانت تابعة لولاية مصر والتي كانت في هذه السنة يتولاها أبو العباس أحمد بن كيغلغ ، وكانت حمص بالتحديد تحت ولاية أحد أقاربه وهو جعفر بن كيغلغ .) راجع د عبد الوهاب عزام ، ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام ، دار المعارف ، ص 61) ، (وكانت ولاية محمد بن طغج على دمشق سنة 318 ولم يكن لقب بالإخشيد وإنما لقب بالإخشيد بعد انضمام مصر بأعمالها إليه سنة 323 هـ وبعد أن انتصر على الفاطميين وخليفته القائم . ولم يمنحه الخليفة هذا اللقب قبل سنة 324 هـ ، كانت الولاية على الشام حتى عام 323 لأحمد بن كيغلغ ، عدا دمشق والرملة كانت تحت ولاية محمد بن طغج راجع النجوم الزاهرة ج 3 ص 269 ، سنة 321 ص 268 ، ص 288 ، التاريخ العباسي والفاطمي ، أحمد مختار العبادي ، بيروت ص 141/140/1992 ، صبحي عبد المنعم ، تاريخ مصر السياسي والحضاري من الفتح حتى نهاية عهد الأيوبيين ، القاهرة 1999 ص 71 .]

لها (كوتكين) قبض عليّ وأمر النجار بأن يجعل في رجليّ وعنقي قرمتين من خشب الصفصاف ، كما تعلم حتى لا أهرب فقبضوا عليّ ، قبضوا على هذا الذي يتهدد الجميع في أشعاره ويدعي العلوية ويعلن ثورته في وجه الجميع .!!

– ولكنهم يقولون إنك ادعيت النبوة وقالوا إنك وصلت في تجوالك إلى اللاذقية حيث لقيت (معاذ بن اسماعيل) فأراك حسن السميت فصيح اللسان جدي القول فتحاور معك وتبادلتما الرأي وقد بلغ الزهو منك مبلغه حتى زعم معاذ أنك قلت له : ، إنك نبي مرسل ، ثم رأى فيك من البراعة والاقترار ما جعله يؤمن بما ادعيت من النبوة والمعجزة وذكر لك قرآنا ...! وقيل من أجل ذلك حبسك أمير حمص حتى تُستأب ...!

– هذا غير معقول ، فقد خلط الرواة بين ما لصق بي من تهمة النبوة المزعومة وتسميتي بالمتنبي وبين ادعائي العلوية وترتيبي للقيام بثورة ، أما التسمية بالمتنبي فقد حدث ذلك بعد عدّة سنوات من حسادي من الشعراء ، عندما كنت في رحاب بدر بن عمّار وليس في هذه الأثناء.

أما موضوع العلوية فكان رؤساء العلويين قد حققوا عليّ فأشاعوا أنني ادعيت العلوية وقالوا ادعيت النبوة وألفوا لذلك قصصا ، أما العلوية فأنت تعلم أن هذا لم يكن ادعاءً فأنا علويٌّ بالرضاع ، خاف العلويون أن أستهوِي القلوب بسحر بياني ونبل غايتي فأخذ الزعامة منهم فوشوا بي عند الوالي حتى يتخلصوا منّي . وتردد اتهامهم لي بين أدعاء النبوة وادعاء العلوية .. وترتيبي لإشعال ثورة ضد الولاة !

إن شجاعتي هي التي جعلتني أقترح الأرض التي ضمت طوائف من العلويين فيهم الفاطمية والباطنية ، كنت أدعو للعروبة ورد الأعاجم إلى ما كانوا عليه قبل أن يتطاولوا وينشدوا المساواة بولاة أمرهم ، والجميع يعلم أنني تزعمت حركة عربية ثورية غرضها سياسي لا ديني ، وقد آل أمري إلى الاعتقال و السجن بعد المطاردة والتشريد ، ولعله كان في العمر بقية حيث

لم تخرج هذه الثورة إلى النور ، وإلا لطارت رأسي كما كانت الرؤوس تطير في ذلك الحين .
وقد أمكنني ذلك أن أتبّرأ من الأمور التي نُسبت إليّ ... (1)

- هل كنت تتوقع هذه النهاية ؟

- مطلقا .. لو شاهدت مدى التشجيع والحماس والمساندة في معظم البلاد التي دخلتها ما خطر
ببالك أن ينتهي الحال بي إلى السجن ... الحق أنني وجدت عونا كبيرا من أصدقائي أثناء
هروبي ، ساعدوني على الهروب والاختفاء من عساكر ابن كيغلف .. لكن الأمر لا يسلم من
خيانة خائن أو جاسوس ... أو حقد حاقد أو حسود .. !

كنت أتوقع أن يتحرك أحد كبار التنوحيين الذين مدحتهم ويخرجني من السجن سريعا ،

ولكنني خُدت ... والنتيجة عامان من أسود ما مرّ بي في حياتي ...

- ولكنهم قالوا إن الذي توسط لك عند الأمير أحد شيوخ التنوحيين .

- هذا صحيح ، ولكن هذا لم يحدث قبل مرور عامين وأنا في السجن أعض الحديد كما يعض
الحصان الأصيل الشكيم ، ويبدو أن الظروف حينئذ لم تكن مواتية حتى يتدخل أحدهم لإخراجي
فقد كان العصر عصر تقلبات شديدة ، فهم لهم مصالح لدي الأمراء لا يريدون إفسادها ، ويبدو
أنني حسبتها بشكل خاطئ .

- وأين تلويحك في أشعارك بسيوف القرامطة ؟

- كانوا ينتظرون الثورة .. ولكنها قُتلت في مهدها بدخولي السجن ..

ما تتوقع منهم ، يجيشون الجيوش من أجلي .. كيف وقد فشلت محاولتي ..

ذهبوا إلى حال سبيلهم وتركوني أعاني السجن وقسوته ...!

(1) ص 30 من هذا الديوان . زكي المحاسني - مرجع سابق ص 29)

(ورد في مقدمة القصيدة الدالية بنسخة الديوان المطبوع سنة 1860 بوقف المعلم بطرس البستاني - (ووشى به قوم إلى
الوالي وقالوا إنه انقاد إلى كثير من العرب وقد عزم على أخذ بلدك - فاعتقله ، فكتب إليه) وقريب من ذلك في المقدمة والهامش
للقصيدة التي مطلعها :

أيا خدد الله ورد الخدود انظر ديوان المتنبي تحقيق وتعليق د - عبد الوهاب عزام ص 46 ومعجز أحمد - بتحقيق د -

عبد المجيد دياب ص 190)

- قال البعض إن لك من خشونة البادية نصيب كبير ظهر في تعاملاتك وسلوكك وأشعارك حتى مع الأمراء والملوك ؟ ⁽¹⁾

- مهما ظهر في شخصيتي من خشونة فهي خشونة الرجولة وليست خشونة البداوة ، ثم ألم تر العصر الذي عشت فيه أتصلح له شخصية غير ذلك ، أنا أقول دائما أنا ابن عصري .

هل تتخيل ذلك الغليان وتلكم العواصف التي تعصف بوجداني كشاعر من جهات شتى كيف يطاوعني بياني ، كيف تطاوعني القوافي ..؟! أي بنية عقلية ونفسية وثقافية . تستطيع هذا الصمود ..؟! لا شك أن صلابة البداوة أسعفتني في هذه الفترة! لكن همي الأكبر كان الخلافة .. لابد من حل لأزمة الخليفة والخلافة .. والتي يتوقف على حلها حل كل المشاكل العالقة بالبلاد والعباد .

ويكفي نظرة عابرة على أشعاري في هذه الفترة ، والتي ذكرنا منها أنفا قدرا لا بأس به ، لكي تخرج بمحصلة مفادها أنني كنت عازما كل العزم على تغيير الأوضاع . حتى وإن كان في ذلك نهايتي ...!!!)

- نلاحظ شيئا غريبا عنك رغم أنك تقول إنك ابن عصرك يا أبا الطيب ، عندما طلب منك أن تشرب الخمر فكان ردك شعرا ارتجالا قلت فيه :

ألذ من المدام الخندريس * وأحلى من معاطاة الكؤوس
معاطاة الصفائح والعوالى * وإقحامي خميسا في خميس
فموتي في الوغى عيشي لأني * رأيت العيش في رأب النفوس

ففضلت معاطاة الحرب على معاطاة الشراب !!

- (لأنني رأيت العيش وكماله في حاجات النفوس وحاجتي حصول عيش الأبد ، وذلك في الموت لبقاء الذكر الجميل بعدي .) أما الخمر فمتعة زائلة محرمة ، بل تذهب بالعقل وأنا لا أحب أن يذهب عقلي .

⁽¹⁾ (أنظر د مصطفى الشكعة ، أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين ص 27 المصرية اللبنانية ، ط 2 ، 2004 وانظر الصبح المنبي ، دار المعارف ص 20)

إن الحرب والموت في سبيل الله حياة لي لكوني من الشهداء الذين قُتلوا في سبيل الله فكنت حيا بما أنا فيه من الثواب .⁽¹⁾

- هناك حوار جرى بينك يا أبا الطيب وبين ابن جني تلميذك وصديقك حول البيت الأخير سألك كيف ذلك (يسألك عن مقصدك من البيت) ؟ فذكرت الآية (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) ⁽²⁾ إذا كنت تعتبر ذلك جهادا يا أبا الطيب ؟
- كنت أعتبره كذلك ، وكانت حماستي لحدود لها وكذلك حماسة من كان حولي من قبائل كلب وكلاب ومن المقربين مني من التنوخيين والذين كان اعتمادي عليهم عظيما في هذه الفترة .
- تعتقد أن العلويين كانوا وراء دخولك السجن ؟

- بعض العلويين سعى في ذلك ، جيراننا في الكوفة ، العلويون كان لهم دور ، وأنت تعلم أنه كانت هناك نزاعات ومشاكل ، ويبدو أنهم كانوا يرصدون خطواتي بالشام خطوة خطوة وكان ظني وقتها أنهم يريدون الفتك بي ، فقد توعدتهم قبل خروجي من الكوفة ، فكنت أتحرز من ذلك فإذا بهم يختارون الحل الأيسر والأسهل ، ويصرف عنهم وزر دمي ، فإذا بهم يوشون بي عند الأمير ، لقد أوشكت كما تقولون (أوشكت الطبخة على النضوج) ، فإذا بهذا الهاشمي الذي قبض عليّ يَقلِبُ القَدْرَ .

- كنت تخشى القتل ..؟

- أبدا أنت لا تعرفني جيدا ... فرغم خطورة الاتهام الموجه إليّ .. وكان من الممكن ببساطة أن أقتل به ، وما أهون القتل في هذه الأيام .. وكنت أعلم ذلك ... ولكنني قابلت الأمر بتهكم واستخفاف .

لقد وضع الذي قبض عليّ وهو (ابو علي الهاشمي العلوي) وكان علويا كما يبدو من اسمه أو لعله يدعي ذلك فالمدعون كثر، وضع قرمتين من خشب الصفصاف في عنقي وفي رجلي حتى لا أهرب .. رأيت هذا من قبل ..؟! قلت فيه :

(¹) راجع معجز أحمد في شرح البيت ج 1/ 203 ، 204)

{ تعليق : هل كان يريد مجدا دنيويا أم يريد وجه الله ؟! لقد اتهم البعض أبا الطيب المتنبي بخفة الدين !! }

(²) آل عمران 169

زعم المقيم بكوتكين بأنه * من آل هاشم بن عبد مناف
فأجبتة : مذ صرت من أبنائهم * صارت قيودهم من الصفصاف

- وما كوتكين هذه ؟

- بلد اسمها (كوتكين) وهي من أعمال اللاذقية .

- وكيف يتركك أصدقاؤك والمقربون منك على كثرتهم وهؤلاء الأشراف والكبراء الذين
مدحتهم ؟!

- لا تنسَ أنني كنت آخذ أجرا على مدائحي وقصائدي ، أما إن كنت تقصد المخلصين الذين
يمكنهم المساعدة .. فقد آثروا الصمت والهدوء حتى تنطفئ نار الثورة عليّ ، وكان العصر
عصر تقلبات ، ومصالح ومن له مصالح ، مع سجين فشل في ثورته يمكن أن يعدم في أي وقت
!؟.

لقد أفادتني الصراعات التي واكبت دخولي السجن والتي كانت بين أمراء العباسيين على
بلاد الشام ، وأقصد بين أبي العباس بن كيغلف ومحمد بن طغج ، والحمدانيين ، وقد يسّر عليّ
ذلك بعد مدة ، إلتماس العفو من الإخشيد ، حيث سُجنتُ وقت ولاية سابقه ابن كيغلف .
- ولكن هل كانت تصلك أخبار بعد ما دخلت السجن ؟

- نعم .. لم أعدم ذلك ، وما أطرف الأخبار ضمن أحداث عام 321 هـ
... علمت أن القاهر (الخليفة) أمر بإبطال الخمر والاعاني والقيان وأمر ببيع الجواري المغنيات
. بسوق النخاسة على أنهن سواذج

- وماذا في ذلك هذا قرار حكيم ..

- أنت لاتعلم لم فعل ذلك ...!! إنما فعل ذلك لأنه كان محبا للغناء فأراد أن يشتريهن هو بأرخص
الأثمان أرأيت ؟! كيف نزل القاهر إلى هذا المستوى من الدناءة والوضاعة ، يأمر بإبطال
شرب الخمر والأصل أن الشرع حرّمها ، فيما هو غارق في شربها إلى أذنيه !! ، ويأمر بكل
جبروته بإبطال الغناء والاستماع إلى الجواري المغنيات ، بل ويأمر ببيعهن بسوق النخاسة
جبرا !! ، ليس هذا فقط بل تباع الجارية التي تجيد الضرب على العود وذات الصوت الجميل

على أنها من السذج ، وهي في الأصل تباع بآلاف الدنانير لقد كانت الجارية من هذا الصنف تعد ثروة ، ويتنافس عليها الأمراء والوزراء !....!

في الوقت الذي ينام ويصحو فيه على أصواتهن ، وكأنه كره أن تشاركه الرعاية في ملذة واحدة

..

ودخلت سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة أيام السجن ولياليه

— كان واضحا استخفافك بالسجن في أول الأمر ، ظهر ذلك مما رواه الرواة ، من أن أبا دلف بن كنداج ، السجّان الموكل بك ، أهدى إليك هدية وأنت معتقل بحمص ، وكان قد بلغك أنه ثلّبك عند الوالي الذي اعتقلك ، فكتبتَ إليه :

أهون بطول الثواء والتلف * والسجن والقيد يا أبا دلف
غير اختيار قبلت برك بي * والجوع يرضي الأسود بالجيف
كن أيها السجن كيف شئت ، فقد * وطنت للموت نفس معترف
لو كان سكاني فيك منقصة * لم يكن الدرُّ ساكن الصدف
هل يصح منك هذا يا أبا الطيب ، الرجل يأتي لك بهدية وأنت في السجن ، فتشبه هديته بالجيفة
!؟

— أنت لا تعرف .. أبودلف ابن كنداج هذا كان صديقي وكانت لنا جلسات مودة كثيرة ، ولكني
عرفت بالصدفة حديثا دار بينه وبين والي ، خاض معه في حقي بعد دخولي السجن ، فحزنت
لذلك ..

— وكيف عرفت ذلك وأنت في السجن ؟

— دخل علينا السجن أحد اللصوص من الوافدين الجدد ، وعندما عرف أن اسمي أبا الطيب قال
: أنت إذا من يتحدثون عنه بالخارج ، قلت من ؟ قال السجّان ابن كنداج والوالي ، وأخبرني بما
دار من حديث وهو لا يعرف أن ابن كنداج صاحبي .
وعندما جاءني بالهدية رفضتها رغم جوعي الشديد وواجهته بما قال .

ولكنه اعتذر لي ولم ينكر ما ذكره اللص لي ، وأفهمني لماذا قال ذلك للوالي ، وأنه ما
قصد إلا أن يوهم والي عكس ما يكن ناحيتي من الصداقة حتى لا يستبعده والي عن حراستي
لأنه يريد أن يكون قريبا مني فيستطيع أن يبرّني ، كما فعل بمثل هذه الهدية ، فقبلتها منه على
مضض لأنه مازال في النفس منه ، ولأني اعتبرت ما قاله للوالي ارتفاقا للعيش ، فقلت فيه تلك
القصيدة التي ذكرتها أنت منذ قليل ..

وقد تسببت هذه المواجهة في أن يتلقى هذا اللصُ صفعاً من ابن كنداج على قفاه
طرحته على وجهه أرضا ، فحزنت لذلك ولكنه ما لبث أن قام كالقرد وكأن شيئا لم يكن
— هل كان معك في السجن غير هذا اللص ؟

— ظنك حسن جدا عن هذا السجن .. كان معي مجموعة من اللصوص وقطاع الطرق والقتلة ،
وكأني أطلع كل يوم وجوه الشياطين وإن شئنا التخفيف ، فوجوه القردة ، ألم تقرأ شعري فيهم
ضمن القصيدة التي أرسلت بها لابن كيغلغ اتشفع بها لأخرج من السجن ، وتعمدت ألا أذكر
اسمه في الأبيات بغضاً له ، فقد ذقت السجن على يديه ، فأرسلتها إليه مع ابن كنداج ولم أنشده
إياها (1)

دعوتك لما براني البلى * وأوهن رجلي ثقل الحديد
وقد كان مشيهما في النعال * فقد صار مشيهما في القيود
وكنت من الناس في محفل * فها أنا في محفل من قروود
{لصوص أطاعوا أبا مرة * بترك الركوع وترك السجود
كأني قرنت بهم في الجحيم*م أرى كل يوم وجوه اليهود}(2)

— كنت تصلي في السجن يا أبا الطيب ، شعرك يوشى بذلك ؟

— وما الغريب في ذلك ؟

— البعض من النقاد يتَّهمك بخفة الدين ، وقد بدا ذلك في بعض مبالغاتك خاصة في مدائحك

ولأن صاحبك علي بن عيسى البصري أخبر أنك كنت لاتصلي ولا تصوم ولا تقرأ القرآن

— ولا تنس أنه ذكر أيضاً لي خصالاً محمودة ، ترفعتُ بها عما شاع من فساد وانحلال ، في

هذا العصر، ألم يقل (ما زنى ولا لاط ولا شرب الخمر) ما رأيك ؟

ولكي تعرف طبيعة هذا العصر، أقول لك : إن من كان يحافظ على الصلاة والصوم وقراءة

القرآن في ذلك الوقت كُنَّا نُسَمِّيه ولياً من أولياء الله الصالحين ، يا صاحبي أنا ابن عصري ،

(1) (انظر ديوان المتنبي تحقيق عزام ص 527 ص 46 هامش - تذكر بعض النسخ إسحق بن كيغلغ وبعضها أبا العباس بن
كيغلغ وبعضها جعفر بن كيغلغ - وانظر كذلك عزام - ذكرى أبي الطيب ص 61)

(2) (البيتان الرابع والخامس زيادات في بعض النسخ - انظر معجز أحمد بشرح أبي العلاء المعري وتعليق المحقق ص 197
هامش 4)

أحاول المحافظة على الصلاة ، وأقرأ ما تيسر من القرآن ، أما الصيام فهل تظن أنني كنت أفطر في نهار رمضان مثلا أمام الناس .

فقال القائل إنني لا أصوم ...؟ وأنا أعتبر نفسي علويا ، كيف ؟! أم يقصد بذلك النوافل ..؟! عجبا !!!.

أما عن الشعر ومبالغاته فمنذ متى يحاسب الشاعر فتقاس عقيدته على قدر مبالغاته في شعره ، ومعلوم أن أبلغ الشعر أكذبه .!!!؟؟! لو حُوسبت كذلك ، لكنت عندهم أول الكافرين .
— ولكن كيف كنت تقضي وقتك في السجن وأنت بعيد عن كتبك ، وأعلم أنك كنت حريصا عليها منذ صغرك ؟ وما موقف كتاب الأصمعي ببعيد !.

— كان الوقت يمر عليّ كئيبا ثقيلًا ، كانت القراءة رוחي ولكن كيف السبيل إليها في السجن .
لقد كان حصولي على قرطاس وقلم ، أمرا من الصعوبة بمكان ، فما بالك بالحصول على الكتب.

كان ما يُسرِّي عليّ أن ابن كنداج من حين لآخر يجلس معي ويحكي بعض الأخبار تحدث هنا أو هناك

— ماذا وصلك من أخبار أيضا وأنت في السجن.؟

— نعم .. قالوا : قتل القاهر أميرين كبيرين ، وهما إسحاق بن إسماعيل النوبختي ، وهو الذي كان قد أشار على الأمراء بخلافة القاهر ، وأبا السرايا بن حمدان أصغر ولد أبيه ، وكان في نفس القاهر منهما شيء، بسبب أنهما ، زايده من قبل أن يلي الخلافة ، في جاريتين مغنيتين ، فاستدعاهما إلى المسامرة ، فتطيبا وحضرا ، فأمر بالقائهما في جب هنالك ، فتضرعا إليه فلم يرحمهما ، بل ألقيا فيه وطمَّ عليهما .⁽¹⁾

— مما يذكرونه من أحداث هذه السنة يا أبا الطيب ، أنها شهدت نهاية ولاية القاهر ..

(¹) (البداية والنهاية أحداث 322هـ)

— نعم هاج الجند عليه وركبوا إليه وعلى رأسهم الأمير (سيما) قصدوا دار الخلافة ، فأحاطوا بها ، ثم هجموا عليه ، من سائر أبوابها ، وهو مخمور ، فاخترق في سطح الحمام ، فتمكنوا منه ، فقبضوا عليه ، وحبسوه في مكان طريف الإشكري ، وأخرجوا طريفا من السجن. وخرج الوزير الخصيبي ، مستترا في زي امرأة ، فذهب واضطربت بغداد ، ونُهب ، وذلك يوم السبت لثلاث خلون من من جمادى الأولى ...

وفي هذه السنة أيضا ، كانت خلافة الرازي بالله العباسي محمد بن المقتدر بالله . أحضر الجند أبا العباس محمد بن المقتدر بالله ، فبايعوه بالخلافة ولقبوه بالراضي بالله ، وذلك يوم الأربعاء لست خلون من جمادى الأولى منها . وجاءوا بالقاهر وهو أعمى ... فأوقف بين يديه ، فسلم عليه بالخلافة ، وسلمها إليه ، فقام بأعبائها ، وكان من خيار الخلفاء ... وأمر بإحضار علي بن مقله وولاه الوزارة وجعل علي بن عيسى ناظرا معه ، وأطلق كل من كان في حبس القاهر .

— وذكروا أنه في هذه السنة أيضا ، طمع هارون بن عريب خال المقتدر في الخلافة ؟ — نعم وكان نائبا على (ماه ، والكوفة ، والدينور ، وما سبيذان ،) ودعا إلى نفسه ، واتبعه خلق كثير من الجند والأمراء ، وجبى الأموال ، واستفحل أمره ، وقويت شوكته ، وقصد بغداد ، فقصد إليه محمد بن ياقوت ، رأس الحجة ، بجميع جند بغداد ، فاقتتلوا ، أياما ... وخرج هارون بن عريب في بعض الأيام ، فتقنطر به فرسه ، على حافة النهر فألقاه ، فضربه غلامه ، حتى قتله ، وأخذ رأسه حتى جاء به إلى محمد بن ياقوت ، يريد المكافأة على خيانتة ... وانهزم أصحابه ، ورجع ابن ياقوت ، فدخل بغداد ، ورأس هارون بن عريب يُحمل على رمح ، ففرح الناس بذلك ، وكان يوما مشهودا . (1)

أرأيت كيف كانت الأحداث تموج وتتدافع من كل اتجاه فتهدر وتنقلب بدار الخلافة في بغداد.

— طال عليك السجن يا أبا الطيب والعالم بالخارج يغلي غليانا ..؟ ماذا فعلت ؟

(1) (البداية والنهاية أحداث 322 هـ ج 11 ص 154 ، 155)

— أشرفت على الهلاك ولا أدري لي مخرجا مما أنا فيه حتى عُفت الزاد ، وكرهت الحياة التي تترك أمثالي يعرض الحديد داخل السجن ، وتترك أنصاف الرجال على كرسي الخلافة . وأنصاف الشعراء ، تجلجل أصواتهم بقصور الملوك والأمراء لكنها الأقدار .

حمل ابن كنداج إليّ رسالة من جدتي ⁽¹⁾

لقد علمت جدتي بما حدث لي ، فزادت رسالتها حالي سوءاً ..

نصحتني ابن كنداج أن أرسل إلى التتوخيين وأن أكتب قصيدة لابن كيغلغ ففعلت فلم يستجب ، ثم تغيرت الأحوال وجاء ابن طغج ⁽²⁾ الإخشيد ، فنصحتني أن أكتب له قصيدة .

ودخلت سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة الخروج إلى النور

ففعلت ⁽³⁾ والحق لقد يسّر ابن كنداج مهمة إبلاغ هذه القصائد إليهم جميعا ، بل أبلغ رسالة أخرى لجدتي كنت قد كتبتها إليها لأطمئنها على حالي وأني أوشكت على الخروج من سجنني ، وقد كان ذلك صدقا فقد كانت مساعيّ توشك أن تؤتي ثمارها .

⁽¹⁾ لم يكتب هذه الأبيات (بيدي أيها الأمير الأريب ...) إلا بعد رسالة وصلته من جدته (شاكر ص 224 ، 225 متن وهامش)
⁽²⁾ طغج بن جف الفرغاني:

كان واليا من ولاية الدولة العباسية ، وقد سخط عليه الخليفة وهو والي الشام فسجنه حتى مات في السجن ، ثم تقرب ابنه محمد إلى الخلفاء ، فولاه الخليفة (المقتدر بالله) دمشق سنة 318 هـ ثم ضم إليه الخليفة (الراضي بالله) مصر سنة 323 هـ ثم لقبه بالإخشيد بعد انتصاره على الفاطميين ، واستتب الأمر في مصر له ولذريته إلى أن دخلها الفاطميون سنة 358 هـ .
قيل إن لفظ (الإخشيد) معناه بلغة إقليم فرغانة (ملك الملوك) وأنه كان لقب ملوكهم كما كان قيصر لقب ملوك الروم وكسرى لقب ملوك العجم وفرعون لقب ملوك مصر .

(معجز أحمد ج1، ص 77 هامش المقدمة عن النجوم الزاهرة 237/3)

⁽³⁾ (انظر ديوان المتنبي تحقيق عزام ، مقدمة القصيدة ص 46 والهامش 1)

لم يكن أمامي إلا الشعر وسيلة أساعد بها من يسعى من أجلي للخروج من السجن ،
فكتبت إلي الوالي أستعطفه ، فكان مما كتبتة إليه هذه الأبيات : (1)

بيدي أيها الأمير الأريب * لا لشيئ إلا لأنني غريب
أو لأم لها ، إذا ذكرتني * دم قلب بدمع عين يذوب
إن أكن قبل أن رأيتك أخطأ * ت فاني على يدك أتوب
عائب عابني لديك ، ومنه * خلقت في ذوي العيوب العيوب

ثم كتبت هذه القصيدة أيضا إلى الأمير محمد بن طغج أستعطفه وأفند ما رماني به
خسас القوم من إرادة الخروج على السلطان ، مكرراً المسعى ومعيناً الشيوخ التنوخيين

(1) (في اعتقادي أن أبا الطيب قال شعراً كثيراً في سجنه يتوسل به للخروج ، وكان ينظر من له النفوذ والسلطة حتي يكتب له شعره ، منه قصيدته في ابن كيغـلغ - كما يشير هامش مطلع القصيدة الدالية تحقيق عزام - يستعطفه حيث كان ذا شأن في اللاذقية وأعمالها ، انظر زواند شعر المتنبي تحقيق عزام - مرجع سابق ، أما القصيدة الدالية ففيها مديح واضح للإخشيد الذي انتصر على الرومان عندما هاجموا "حلب" في تلك السنة وإن كانت بعض النسخ تشير إلى أنها لابن كيغـلغ وذلك يتناقض مع توقيت الإفراج عن أبي الطيب وكان حوالي سنة 323 وقت ولاية الإخشيد على مصر والشام . وفيما يبدو أن ابن كيغـلغ هذا وقت ولايته أو أحد أقاربه لم يحسن التعامل مع أبي الطيب مدة سجنه - فضلا عن أنه هو الذي سجنه - ولم يستحسن قصيدته التي يتشفع بها إليه ليخرجه من السجن ، وربما رده ردا قاسيا ، فكانت ثورة أبو الطيب عليه هادرة فيما بعد ، ويظهر ذلك من هجومه الشديد عليه وهجائه بأقذع الهجاء . انظر الديوان وما قاله في هجاء ابن كيغـلغ ، حيا وميتا .
(عزام ، ذكرى أبي الطيب ، ص60 وما بعدها ، حيث يذكر من زواند شعر المتنبي قصيدة عنوانها : وقال يمدح ابن كيغـلغ وهو في حبسه وأولها

شغلي عن الربع أن أسأله * وأن أطيل البكاء في خلقه

ويقول فيها :

يا أيها السيد الهمام أبا العباس * والمستعاذ من حنقه

ويتساءل عزام ... من أبو العباس بن كيغـلغ الذي استغاث به الشاعر ، ؟ ثم يجيب هو أحد قواد الدولة العباسية وكان له شأن في حوادث القرن الرابع الهجري وقد ولي مصر مرات منها ولايته سنة 321 هـ ، وبقي حتى أخرجه منها محمد بن طغج في شعبان سنة 323 هـ والشام كانت إذ ذاك في سلطان مصر)

ومنهم على بن إسحق التنوخي (1) الذي أراد أن يتشفع لي ، وكلم في شأني الأمير محمد بن طنج ، وكان الأمير يجله ويحترمه .

وكان قد ذهب إليه عدد من شيوخ التنوحيين مهنيين بالنصر على الروم (2) وبضم مصر إلى إمارته دمشق وأعمالها ، وقد رأى أصدقائي أن انتصار ابن طنج على الروم مناسبة مواتية ، يجب أن استغلها ، نصحني بذلك ابن كنداج وكذلك علي بن ابراهيم التنوخي عندما زارني في سجن ، حتى أفلت من هذه القيود ، فكتبتُ إليه أقول :

أيا خدّ الله ورد الخدود * وقدّ قدود الحسان القدود
فهن أسلن دما مقلتي * وعذبن قلبي بطول الصدود
وكم للهوى من فتى مدنف * وكم للنوى من قتيل شهيد
فوا حسرتا ما أمرّ الفراق * وأعلق نيرانه بالكبود
وأغرى الصبابة بالعاشقين * وأقتلها للمحب العميد
وألهج نفسي لغير الخنا * بحب ذوات اللمى والنهود
فكانت وكن فداء الأمير * ولا زال من نعمة في مزيد
لقد حال بالسيف دون الوعيد * وحالت عطاياه دون الوعود
فأنجم أمواله في النحوس * وأنجم سؤاله في السعود
ولو لم أخف غير أعدائه * عليه لبشّرتة بالخلود
رمى حلبا بنواصي الخيول * وسمر يرقن دما في الصعيد
وببيض مسافرة ما يقم*ن لا في الرقاب ولا في الغمود
يقدن الفناء غداة اللقاء * إلى كلّ جيش كثير العديد
فولى بأشباعه الخرشنى * كشاء أحسّ بزأر الأسود

(1) * (انظر ديوان المتنبي وكم من القصائد مدح بها علي بن ابراهيم التنوخي قبل أن يدخل السجن وبعد خروجه منه لذا رجحت أن عليا هذا هو من سعي من التنوحيين لإخراج أبي الطيب من السجن)

(2) * (انظر شاكر ، المتنبي ، مرجع سابق عند ذكر تحقيق تواريخ القصائد قبل لقاء أبي الطيب سيف الدولة . ص 83 وما بعدها تحت عنوان فساد الحياة الأدبية : كتاب الدكتور عزام)

يرون من الذعر صوت الرياح * سهيلَ الجياد وخفق البنود
 فمن كالأمير ابن بنت الأمير*ر أم من كآبائه والجدود
 سعوا للمعالي وهم صبية * وسادوا وجادوا وهم في المهود
 أمالك رقي ومن شأنه * هبات اللجين وعثق العبيد
 دعوتك عند انقطاع الرجا * ء والموت مني كحل الوريد
 دعوتك لما براني البلاء * وأوهن رجلي ثقل الحديد
 وقد كان مشيهما في النعال * فقد صار مشيهما في القيود
 وكنت من الناس في محفل * فها أنا في محفل من قرود
 { لصوص أطاعوا أبا مرة * بترك الركوع وترك السجود
 كائي قرنت بهم في الجحيم*م أرى كل يوم وجوه اليهود } (1)
 تُعجل في وجوب الحدود * وحدي قبل وجوب السجود
 وقيل عدوت على العالمي*ن بين ولادي وبين القعود
 فمالك تقبل زور الكلام * وقدر الشهادة قدر الشهود
 فلا تسمعن من الكاشحين * ولا تعبان بمحك اليهود
 وكن فارقا بين دعوى أردت * ودعوى فعلت بشأو بعيد
 وفي جود كفيك ما جدت لي * بنفسي ولو كنت أشقي ثمود

- أتستهل القصيدة بهذا الغزل يا أبا الطيب وأنت في أزمة ، وأنت سجين !!؟

- وما في ذلك ، هكذا يفعل كبار الشعراء ، ثم إنني أردت أن ألقت نظر الأمير إلى أن في سجنه شاعرا كبيرا ، وإن كنت صغير السن حينئذ ، وقد ألمحت إلى ذلك في تلك القصيدة ، لقد بذلت فيها أقصى ما أستطيع وأخذت أرددها وأجودها وأعدل فيها ، لقد أخذت مني وقتا طويلا

(1) (عن البيتين ، انظر معجز أحمد ، ص 197 ط 2)

(ديوان أبي الطيب المتنبي ، تحقيق عزام ، ص 61 ، ص 527 الزيادات ، مقدمة القصيدة : وقال يمدح ابن كيغلغ وهو في

حبسه)

. (ديوان أبي الطيب المتنبي ، تحقيق عزام ص 217 هامش .

- وكان الوقت بلا ثمن !..

سوى أنه من عمري ، رغم أنني كنت أتعجل الخروج ، ولكنني أردت لهذه القصيدة أن تصيب هدفها كما أريد ، ولا تفشل كسابقاتها في أبي العباس بن كيغلف وأقربائه جعفر وأبي إسحق إبراهيم حين كانوا ولادة على اللاذقية ، وقد كان

- ولكن لماذا قصدت قصائد في هجاء ابن كيغلف فيما بعد ؟

- هذه قصة طويلة ، عندما خرجت من السجن لم يكن الوقت وقتهم ولقد مدحتهم حين كانوا هم ولادة الشام ألتمس العفو عني ، ولم يستجب أبو العباس بن كيغلف وجابهني قريبه جعفر ابن كيغلف وكذلك إبراهيم ⁽¹⁾ بعنف وقسوة ، ويبدو أنهم كانوا على علاقة بالعلويين الكوفيين الذين يترصدونني ، فكانوا يراعونهم ويضطهدونني بسبب وبدون سبب ، رغم أنني كنت قد مدحت جعفرأً قبل دخولي السجن ، وكان أميراً على حمص عندما كنت هناك ، بالقصيدة التي أولها :

حاشى الرقيب فخانته ضمائره * وغَيَضَ الدمع فانهلت بوادره

ثم إن سلطتهم قد زالت عن (سلمية) وحمص واللاذقية ، بعد أن زالت سلطة أبي العباس بن كيغلف ⁽²⁾ عن ولاية مصر وإضافتها إلى محمد بن طغج بعد قرار الخليفة الراضي سنة 323 هـ والذي لقبه

بالإخشيد سنة 324 هـ عندما انتصر على الفاطميين .. ⁽³⁾

⁽¹⁾ ولم يكن لأبناء كيغلف شأن في هذا الحين ، وكذلك أبو إسحاق إبراهيم بن كيغلف ، وكان البعض يناديه أبا يعقوب .

⁽²⁾ شاكر ، المتنبي ، مرجع سابق عند ذكر تحقيق تواريخ القصائد قبل لقاء أبي الطيب سيف الدولة . ص 83 وما بعدها تحت عنوان ، فساد الحياة الأدبية : كتاب الدكتور عزام .

⁽³⁾ من المهم تصحيح الترتيب الزمني لولاية كل من ابن طغج وابن كيغلف على مصر والشام ودمشق . في هذه الفترة الزمنية من 321 إلى 323 وهي الفترة التي قضاهما المتنبي في السجن . - يقول صاحب النجوم الزاهرة ج 3 ص 268 - ولاية محمد بن طغج - الأولى سنة 321 هـ هو محمد بن طغج بن جُف بن بلتكين بن فوران بن فوري ، الأمير أبو بكر الفرغاني التركي مولده في يوم الاثنين منتصف شهر رجب سنة ثمان وستين ومائتين ، ببغداد بشارع باب الكوفة . ولى إمرة مصر بعد (تكين) ؛ ولله أمير المؤمنين القاهر بالله على الصلات بعد أن اضطربت أحوال الديار المصرية؛ فأرسل محمد بن طغج هذا كتابه

— قبل ابن طغج وساطة الشيخ علي التنوخي ؟

— نعم وقدّر هذه الموهبة الشعرية السجينة . فأطلق سراحي ، لقد كان بيني وبين الموت ذراع

!!

سعيْتُ إلى التنوحيين بعد خروجي مباشرة ، فشكرتهم .

وصل إلينا في اللاذقية خبر غريب ، مفاده أنّ ناصر الدولة أبو محمد الحسن بن عبد الله بن حمدان نائب الموصل قتل عمّه أبا سعيد بن حمدان ؛ لأنه أراد أن ينتزعها منه ، فبعث إليه الخليفة وزيره أبا علي بن مقلّة في جيوش ، فهرب منه ناصر الدولة ، فلما طال مقام ابن مقلّة

بولايته على مصر في سابع شهر رمضان من سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة المذكورة . ولم يدخل مصر في هذه الولاية ، وما دخلها أميراً عليها إلا في ولايته الثانية من قبل الخليفة الراضي بالله .

ويقول صاحب النجوم في ج 3 ص 269 - عن سنة 321 : ودعي له على منابر مصر وهو (محمد بن طغج) مقيم بدمشق نحوًا من ثلاثين يوما ، وقال صاحب البغية : اثنين وثلاثين يوما [ولا أعتقد أن أبا الطيب سجن خلال الثلاثين يوما هذه وإلا كانت فرصته في الخروج أيام ابن كيغغ أفضل باعتباره سجين غريمه] إلى أن قدم رسول الأمير أحمد بن كيغغ بولايته على مصر ثاني مرة من قبل الخليفة القاهر بالله في تاسع شوال من السنة (321) ، وأما الأيام التي قبل ولاية محمد بن طغج على مصر فكان يحكم فيها (محمد) ابن تكين باستخلاف والده تكين له ، ويشاركه في ذلك أيضا الماذرائي صاحب خراج مصر..

ويقول عن محمد بن طغج : ، إلى أن قدم مصر في دولة تكين ، وولي الأحوال بأعمال مصر وأقام على ذلك مدة إلى أن وقع بينه وبين تكين ، وخرج من مصر مختفيا إلى الشام ؛ ثم ولي إمرة الشام (دمشق ثم الرملة) ، ثم أضيف إليه إمرة مصر فلم يدخلها ، على ما تقدم ذكره ، وعزل بالأمير أحمد بن كيغغ .(ص270 - النجوم الزاهرة) السنة التي حكم فيها عدة أمراء على مصر . وهي سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة .

حكم في أولها تكين إلى أن مات في شهر ربيع الأول ، ثم ابنه من غير ولاية الخليفة بل باستخلاف أبيه ، ثم الأمير محمد بن طغج من أواخر شعبان إلى أواخر شهر رمضان ، وكانت ولايته اثنين وثلاثين يوما ولم يدخلها ، ثم الأمير أحمد بن كيغغ من آخر شهر رمضان ؛ ولم يصل رسوله إلا لسبع خلون من شوال .

- وفي النجوم الزاهرة - ص 288 ج 3 - ذكر ولاية محمد بن طغج الإخشيد ثانية على مصر من قبل الخليفة الراضي بالله محمد ، على الصلات والخراج بعد عزل الأمير أحمد بن كيغغ عنها . ودخل الإخشيد هذا إلى مصر أميراً عليها ، بعد أن سلّم الأمير أحمد بن كيغغ (بعد حرب) في يوم الخميس لست بقين من شهر رمضان - وقال صاحب البغية - لخمس بقين من رمضان - لسنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة

ويظهر من خلال قصائد المتنبي في هذه الفترة أنه سُجن في نهاية سنة 321 وكانت الولاية لابن كيغغ وأعوانه إلى شوال سنة 323 حيث ولاية ابن طغج الإخشيد وأعوانه كما هو وارد في النجوم الزاهرة . وخرج من سجنه بعد هذا التاريخ .

بالموصل رجع إلى بغداد ، فاستقرت يد ناصر الدولة على الموصل ، وبعث إلى الخليفة يسأل أن
يضمن تلك الناحية ، فأجيب إلى ذلك ، واستمر الحال على ما كان .

**ودخلت سنة أربع وعشرين وثلاثمائة
اللاذقية وحسد الحساد**

— عرفتَ يا أبا الطيب في اللاذقية حسد الحساد وكيد الكائدين ، فقد ارتفع شأنك الفني واستبق الناس إلى استضافتك وإيثارك بالخير ، أو إيثار أنفسهم بمدحك ، ولقيت من أمن الحياة ولينها ما لم تلق من قبل .

وظهر المنافسون لك ، وها هو شاعر يحسدك ويكيد لك عند التنوحيين ، يريد أن يفسد علاقتك بهم ولم يتردد في أن يصنع هجاءً للحسين بن إسحاق التنوخي ، ويضيفه إليك في غيبتك ، وتضطر إلى أن تدافع عن نفسك عند الحسين .⁽¹⁾

— نعم حدث هذا فعلا ... لقد بلغ هذا الهجاء ابن إسحاق التنوخي قالوا شعرا هزىلا نسبوه إلى ، فعاتبني ، فسأني ذلك كثيرا ... خاصة بعد ما فعله التنوخيون لأجلي ، فدافعت عن نفسي وكتبت إليه أقول :

أتنكر يا ابن إسحاق إخواني * وتحسب ماء غيري من إنائي

أأنطق فيك هجرا بعد علمي * بأنك خير من تحت السماء

— كيف كانت حياتك في اللاذقية ؟؟

— في اللاذقية وجدت لذة المودة وصداقة الأصدقاء أيضا ، كما وجدت الحسد ...

قلت أمدح الحسين بن إسحاق التنوخي في قصيدة مطلعها ...

ملامي النوى في ظلمها غاية الظلم * لعل بها مثل الذي بي من السقم

فلو لم تغر لم تزو عني لقاءكم * ولو لم تردكم لم تكن فيكم خصمي

ثم أقول :

كأنني دحوت الأرض من خبرتي بها * كأن بني الإسكندر السد من عزمي

لألقي ابن إسحاق الذي دق فهمه * فأبدع حتى جل عن دقة الفهم

وأسمع من ألفاظه اللغة التي * يلذ بها سمعي ولو ضمنت شتمي

— أقمت في جوار التنوحيين ونسيت جدتك وبلدك الكوفة ..!؟

(¹) طه حسين ، ص 94)

— لا مطلقا...، لقد وصلني كتاب من جدتي وقد بلغها خبر انطلاقي من السجن ، كله شوق وحنين ، وتشكو لي حزنها ، وتستعطفني الرجوع إليها والعودة إلى الكوفة وأنا في مواجهة جدتي ضعيف جدا فوجدتني أحزم متاعي ، وكتمت عزمي عن الحسين بن اسحاق التنوخي ، ولكن عزمي هذا لم يخف على صاحبي ، ولمح ذلك في شعري له : ⁽¹⁾
لك الخير ، غيرى رام من غيرك الغنى * وغيري بغير اللاذنية لاحق
هي الغرض الأقصى ورؤيتك المنى * ومنزلك الدنيا ، وأنت الخلائق
لقد ألمحت أيضا إلى علي بن إبراهيم التنوخي بهذا العزم ...؟
نعم لم أكن أستطيع أن أخفي عليهم ذلك
كنت أجله هو أيضا وأحترمه ... ، مدحته بقصيدة مطلعها :

أحاد أم سداس في أحاد * لييلتنا المنوطة بالتنادي
كأن بنات نعش في دجاها * خرائد سافرات في حداد
أفكر في معاقرة المنايا * وقود الخيل مشرفة الهوادي
زعيمًا للقتل الخطي عزمي * بسفك دم الحواضر والبوادي
إلى كم ذا التخلف والتواني * كم هذا التماذي في التماذي
وشغل النفس عن طلب المعالي * ببيع الشعر في سوق الكساد
وما ماضي الزمان بمسترد * ولا يوم يمرّ بمستعاد

— غريبة هذه القصيدة يا أبا الطيب ، ظننت أن بقاءك في السجن هذه المدة ، وتحت هذه الظروف كفى أن ينسبك ثورتك على الخلافة والأوضاع ، ولكن ها أنت تذكر من جديد الثورة والحرب والدماء !

- إن أنس فهل أنسى قضية عمري وزمني وناسي؟! ولكنها طقت على شعري من مرارة السجن وما قاسيت فيه ، ثم إن عليا هذا كان من أصدق أصدقائي ..

(¹). (شاعر ص 238 ، 239)

- كنت أتوقع منك يا أبا الطيب أن تخرج من السجن إلى الكوفة مباشرة ، عندما لمحت في عينيك لهفتك وشوقك لرؤية جدتك بعد رسالتها إليك في السجن ، لقد فاضت عينك دمعاً حاراً حينها ... ثم بعد رسالتها لك بعد خروجك ...!

- لقد عزمت على ذلك فعلاً ، لكن على بن إبراهيم التنوخي ، والحسين بن إسحاق التنوخي نبهاني إلى ما أنا عليه من ضعف وسوء حال ، ونصحاني أن أبقى عندهم أستجم وأستعيد حيويتي وطاقتي على السفر ، وساعدني عليّ عند بعض الأعيان لأقول فيهم شعراً طلباً للرزق . حتى أعود إلى جدتي بشيء ...

- وأخذتَ بنصيحته ..؟

- نعم ... وذهبت إلى بعض الذين نصحني أن أقول فيهم شعراً ، فلم أعد بما كنت أرجو ، فقلت له :

أشرت أبا الحسين بمدح قوم * نزلت بهم فسرت بغير زاد

وظنوني مدحتهم قديماً * وأنت بما مدحتهم مرادي

وإني عنك بعد غد لغاد * وقلبي عن فئائك غير غاد

محبك حيثما اتجهت ركابي * وضيئك حيث كنتُ من البلاد

وكان لابد من عودتي إليها إلى جدتي . فلم أعد أحتمل صبراً على فراقها ، وأن أكون سبباً في المزيد من آلامها ببُعدي عنها وبأخباري السيئة التي وصلتها عني .. فقررت العودة إلى الكوفة . ولعلك لاحظت ذلك فيما قلته لعلي بن إبراهيم في الأبيات التي ذكرتها منذ قليل .

(وإني عنك بعد غدٍ لغاد....)

فإني كنت أقصد أن أخبره بسفري إلى الكوفة ، وإن كان هو لا يريد أن أفارقه

- كيف كانت أحوال الناس عند خروجك من السجن .؟

- تقصد سنة 324 هـ كانت سنة مليئة بالأحداث الملتهبة⁽¹⁾

⁽¹⁾البداية والنهاية لابن كثير ، ص 94 ، 95 من أحداث 324 هـ)

جاء الجنود ، فأحذقوا بدار الخلافة ، وقالوا ليخرج إلينا الخليفة الراضي بنفسه فيصلي بالناس ، فخرج فصلى بهم وخطبهم ، وقبض الغلمان على الوزير أبي علي بن مقلّة ، وسألوا الخليفة أن يستوزر غيره فرد الخيرة إليهم فاخترأوا علي بن عيسى فلم يقبل عليّ ، وأشار بأخيه عبد الرحمن بن عيسى ، ولم يستمر أحد في الوزارة في هذه الفترة ، وأحرقت دار ابن مقلّة وهذا كله من تخبيط الأتراك والغلمان ، ولما أحرقت دار ابن مقلّة في هذه السنة كتب بعض الناس على بعض جدرانها :

*أحسنْتَ ظنك بالأيام إذ حسنت * ولم تخف سوء ما يأتي به القدرُ*

*وسالمتك الليالي فاعتثرت بها * وعند صفو الليالي يحدث الكدرُ*

وضعف أمر الخلافة جدا ، وبعث الراضي إلى محمد بن رائق ليوليه إمرة الأمراء ببغداد ، وأمر الخراج ، والمعاون في جميع البلاد والدواوين ، وأمر أن يُخطب له على جميع المنابر ، وأنفذ إليه بالخلع ، فقدم ابن رائق إلى بغداد على ذلك كله واستحوذ على أمر العراق بكامله ، ونقل أموال بيت المال بالكامل إلى داره ...

— ينقل أموال الخلافة بالكامل إلى داره ...!!

— تخيل ...! الغريب أن يوافق الخليفة على ذلك ، ولم يستطع الوزير الجديد أن يفتح فمه ... فلم يبق للوزير تصرف بالكلية ، وضعف أمر الخلافة جدا ولم يبق للخلافة حكم في غير بغداد ومعاملاتها ، ومع هذا ليس له مع ابن رائق نفوذ في شيء ولا كلمة تطاع ، إنما يحمل إليه ابن رائق ما يحتاج إليه من الأموال والنفقات وغيرها .

- يقال يا أبا الطيب إنه في هذه الفترة ، لم يبق للخلافة من رونق . وكثر الأدعياء والثائرون وعمت الفوضى ، ولم يكن في أيدي العباسيين إلا العراق والجزيرة . ولم يكن الأمر في هذه البقاع بأيدي الخلفاء ، بل كان السلطان لكبار القواد . وتغلب أمراء الأطراف وزالت عنهم الطاعة فكانوا على خلاف دائم مع ابن رائق أمير الأمراء صاحب السلطة المطلقة في هذه

الفترة . ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها . والحكم في جميعها لابن رائق أيضا ، وليس للخليفة حكم .

— نعم هذا صحيح ...

كانت البصرة في يد ابن رائق . وخوستان في يد البريدي . وفارس في يد عماد الدولة بن بويه وفي يد شمكير أخي مرداويج يتنازعان عليها . والموصل وديار بكر ومضر وربيعه في يد بني حمدان . ومصر والشام في يد محمد بن طغج والمغرب وإفريقية في يد أبي القاسم القائم بأمر الله بن المهدي العلوي ، وهو الثاني منهم ويلقب بأمرير المؤمنين والأندلس في يد عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر الأموي . ووخوستان وما وراء النهر في يد نصر بن أحمد الساماني وطبرستان وجرجان في يد الديلم . والبحرين واليمامة في يد أبي طاهر القرمطي .⁽¹⁾

فكان ابن رائق في العراق أيام الخليفة (الراضي) مستبدا بالرعية يداريه الخليفة ، وحاول هذا الأمير أن يحتج بعض ما تركه موسر من الموسرين لنفسه . هل تصدق ... لقد اشترى ابن رائق أمير العراق جارية ببضعة عشر ألف دينار وأبدى أهل بغداد يومئذ عجبهم من هذا الثمن الباهظ .⁽²⁾

— يقال إن محمد بن طغج الإخشيد استقرت أقدامه في ولاية مصر بعد انتصاره على الفاطميين ؟

— نعم ... وكانت هذه هي ولايته للمرة الثانية ، فقد تولاهما قبل ذلك إبان دخولي السجن سنة 321 بعد وفاة (تكين) وكان حينها واليا على الرملة ودمشق ، وكانت الشام تحت ولاية أحمد ابن كيغلق منذ فترة طويلة تصل إلى سنة 311 ، ولكن محمد بن طغج لم ينزل مصر ، وإنما أرسل رسوله بذلك مما أعطى فرصة لمحمد بن تكين أن يثير القلاقل حيث كان يتولى أمرها بعد وفاة أبيه دون ولاية من الخليفة ؛ مما دعا الخليفة القاهر إلى عزل ابن طغج عن مصر وتولية

(1) انظر معجز أحمد ، ص 78 عن كتاب الكامل لابن الأثير حوادث سنة 324 هـ)

(2) (انظر المحاسني مرجع سابق ص 10 ، 11)

أحمد بن كيغلف سن 321 إلى جانب الشام ، واستمر ذلك حتي جاء الخليفة الراضي فعزل ابن كيغلف وعين الأمير محمد بن طغج الإخشيد أواخر سنة 323 ، عند ذلك انحصرت سلطة أبي العباس ابن كيغلف في بعض بلاد شمال الشام . وكانت فرصة بالنسبة لى أن ألتمس العفو من ابن طغج كما ذكرت قبل .

- ولكن قل لي يا أبا الطيب : إن ابن طغج طلب من الخليفة أن يمنحه لقب إخشيد ⁽¹⁾ والخليفة وافق على ذلك ، ما معني هذا اللقب ؟!

- قيل إن لفظ (الإخشيد) معناه بلغة إقليم فرغانة (ملك الملوك) وأنه كان لقب ملوكهم كما كان قيصر لقب ملوك الروم وكسرى لقب ملوك العجم وفرعون لقب ملوك مصر . ⁽²⁾

وهذا مرجعه أن حربا ضارية دارت بين محمد ابن طغج والقائم الفاطمي الذي أراد دخول مصر وانتصر فيها ابن طغج انتصارا عظيما كسر فيها قوات القائم . مما دعا الخليفة الراضي أن يلبي طلب ابن طغج ويمنحه لقب (إخشيد) وذلك سنة 324 هـ ⁽³⁾

والحقيقة هو يستحق هذا اللقب ، إنه بطل بمعنى الكلمة ، لقد كان قائدا عسكريا لا يشق له غبار . هل نسيت انتصاره على الروم قبل قليل؟

— تتحمس له لأنه أطلق سراحك من السجن !

— وهل لديك مما قاله الرواة ما يناقض كلامي ؟ ألم يكن بطلا حقا ..؟!

— كان كذلك!

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وثلاثمائة

⁽¹⁾ النجوم الزاهرة ، ج 3 ص 269 ، 268 ، من أحداث سنة 321

⁽²⁾ انظر معجز أحمد ، ص 77 عن النجوم الزاهرة 237/3

⁽³⁾ والبعض يذكر أنه دعي له على المنابر في المساجد بهذا اللقب سنة 327

العودة للكوفة والجدّة

- ولكن حدّثني عن عودتك للكوفة

- آه ... ليتك كنت معنا ... كان لقاء حارا ... امتزجت دموعنا وبكّت وبكّيت ، ثم كفّ كلّ منّا دمع الآخر ، ولامتني أني لم أسمع نصيححتها وما حدّرتني منه ... وما لبثت أن سامحتني .
كانت طيبة القلب جدا ... وقالت يا ولدي ليس لك إلا الكوفة بلدك مسقط رأسك ، لماذا تفرّ منها دائما ولا تريد العيش فيها ... ماذا جنت عليك الغربة غير السجن؟!
آثرت السكوت وعدم الرد أو الجدل حول بقائي وغربتي فلم يكن الموقف يسمح بشيء من ذلك ، وأجلت رأيي إلى حينه .

وتركتها حتى هدأت نفسها .. واستغرقت أنا في نوم عميق كأنني لم أنم منذ زمن بعيد ... وكأنني قادم من آخر الدنيا ... وتركتني أستريح
- لم يطل بقاؤك في الكوفة يا أبا الطيب ...؟!

- مكثت بها عاما أو يزيد ... أرادت جدتي أن تغريني بالبقاء .. وأرادت أن تزوجني ... حتى أستقرّ معها بالكوفة عندما وجّدت مني تبرّما بالعيش بها لضيق أرزاقها ، حيث فعل بها القرامطة الأفاعيل ولكنني فطنت لهدفها .

- ولماذا لم توافقها وتزوج (1)

- كيف أتزوج في هذه الظروف ...؟! لقد عدت من اللاذقية خالي الوفاض تقريبا وفشلي وسجني وإحساس بالقهر ، كل هذا لم يكن يسمح لي أن أتزوج ، ثم أين مؤنة الزواج وظروف الكوفة لاتسمح بالعيش فيها لأمثالي ، وليس لي عمل يُدرّ عليّ دخلا غير الشعر ... لا أتقن غيره والكوفة تكاد تُقبل على مجاعة ... كيف أتزوج !!!؟

(1) (يرى شاكر أن المتنبي تزوج في هذه الفترة التي عاد فيها إلى الكوفة بعد خروجه من السجن (أنظر كتاب شاكر المتنبي مرجع سابق ص 239 ، 240) ولكنني أرى رأيا آخر ندلل عليه من خلال رد المتنبي على سؤالي ... لماذا لم توافقها وتزوج..؟

- يقال إن أبا الحسن الناشئ ، الشاعر كان بالكوفة حين عدت إليها سنة 325 ، وأنه كان يملأ أشعاره في المسجد الجامع بها والناس يكتبون ، وقال إنك كنت من بين هؤلاء الذين كانوا يحضرون له ويكتبون عنه أشعاره .⁽¹⁾

- نعم .. والناشيء يعرفني جيدا لقد التقينا بعد ذلك في بلاط سيف الدولة عندما كنت في حلب .
- الغريب أن الناشئ يذكر فيما يذكر أنك حينئذ لم يكن يطلق عليك لقب المتنبي . هل هذا صحيح ؟!

- نعم هذا صحيح . تبا لحسادي أرادوا غيظي ...

- ومن أين جاؤا بهذا اللقب ؟

- أخذوه من أشعاري عندما سمعوني أقول :

أنا في أمة تداركها الله * غريب كصالح في ثمود

وقولي :

ما مقامي بأرض نخلة إلا * كمقام المسيح بين اليهود

فقالوا هذا هو المتنبي خاصة وأني لم أكن أشاركهم لهوهم بالغلمان وأكره الخمر ولا أشربها معهم ، ومعلوم أنني لم أكن أقع في الزنا ولا اللواط ولا أقع في مثل هذه الكبائر ، فكلما رأوني أسمعوني هذا اللقب ، وكان هذا فعلا يضايقتني ، لأن (المتنبي) بالضرورة يعني الكذاب المدعي ، وأنا لم أكن لأكذب قط ، واسأل المعاصرين لي ، وأكره الكذابين ، ولكن ماذا أفعل ، حتى غلب عليّ هذا اللقب لغرابته ، وأصبحت مع الوقت لا أنفر منه

- عُد بنا يا أبا الطيب إلى الكوفة ... كيف استمرت حياتك هناك ؟

- كانت الأمور تتحول من سيئ إلى أسوأ ... وكان صراعي مع العلويين في الكوفة يزداد ...

(1) شاكر مرجع سابق ص 232

وصلت خلافتنا إلى أشدّها فجاءوا بتهديّاتهم صريحة ، وأصبحت إقامتي في الكوفة مستحيلة ، فودعت جدتي بعين باكية ، وأنذرت الجميع أنني عائد لأنتقم وخرجت أيمم شطر الشام مرة أخرى وكان ذلك سنة 326 هـ .

ودخلت سنة ست وعشرين وثلاثمائة الشام من جديد طلبا للرزق

- ونزلت على عليّ بن ابراهيم التنوخي ... هل هذا صحيح ؟ ⁽¹⁾
- نعم رجعت إلى صاحبي إلى علي بن ابراهيم ، فاستقبلني بكل الحفاوة والترحيب
.... ونصحتني بالسفر بأشعاري لمدح كبار القوم في طبرية وذهبت كمشورته وعدت من
رحلة غير موفقة
فقلت هذه القصيدة :

أحق عاف بدمعك الهمم * أحدث شيء عهدا بها القدم
وإنما الناس بالملوك ، وما * تفلح عربٌ ملوكها عجم
بكل أرض وطنتها أمم * ترعى بعبد كأنها غنمٌ
يستخشن الخز حين يلمسه * وكان يُبرى بظفره القلم
إني وإن لمت حاسدي فما * أنكر أنني عقوبة لهم
وكيف لا يحسد أمرء علم * له على كل هامة قدم

(¹) شاكر ، ص 243)

يهابه أبسأ الرجال به * وتتقي حد سيفه البهم

ثم أقول له :

من طلب المجد فليكن كعل*ي يهب الألف وهو يبتسم
ويطعن الخيل كل نافذة * ليس لها من وحائها ألم
ويعرف الأمر قبل موقعه * فما له بعد فعله ندم

.....

لولاك لم أترك البحيرة والـ*غور دفيء وماءها شبم
والموج مثل الفحول مزبدة * تهدر فيها وما بها قطم
والطير فوق الحباب تحسبها * فرسان بلق تخومها اللجم
كأنها والريح تضربها * جيشا وغى هازم ومنهزم

ثم أقول :

تغنت الطير في جوانبها * وجادت الروض حولها الديم
فهي كماوية مطوقة * جرد عنها غشاءها الأدم
يشينها جريها على بلد * تشينه الأدعياء والقزم
أبا الحسين استمع فمدحكم * في الفعل قبل الكلام منتظم

— كيف مرت بك الحياة في الشام إذا هذه المرة يا أبا الطيب ..؟

— كنت أنتقل بين مدنها وقبائلها وكانت الأحوال السياسية في هذه الفترة مواراة بالصراع
نطاق نفوذ ينحسر ليمتد نطاق نفوذ آخر مختلف ما بين الخليفة وابن رائق والحمدانيين ،
والغلبة لمن يملك الجيش الأقوى . كنت أحاول شق طريقي كشاعر مداح بين هذه الأمواج
المتلاطمة والصراعة التي لاناقة لي فيها ولا جمل واستمر هذا سنوات ..!

— هل كنت تتابع الأحداث في بغداد وما طرأ على الخلافة والخليفة ؟

— بكل تأكيد ألم تقرأ هذا الغليان في أشعاري ؟ ... من أين جاء ذلك إذا ...؟!

بدأت الأطراف تتجراً على الخليفة ويمنعون الخراج ... وبالطبع الامتناع عن دفع الخراج شيء مزعج غاية الإزعاج للخليفة ولأمير الأمراء .. أما عامة الشعب فإنهم لا يعود عليهم شيء من هذا الخراج إنه يدخل إلى خزانة أمير الأمراء ويعود منه بعد ذلك على الخليفة والحاشية وبطانة السوء والوزير وبطانته والقاضي ، وغيرهم وغيرهم ، أما الناس فيتضورن جوعاً ...
انظر ماذا فعل البريدي وماذا كان رد الخليفة وأمير الأمراء ابن رائق
— ماذا فعل البريدي ..؟

— خرج الخليفة الراضي بالله وأمير الأمراء محمد بن رائق من بغداد قاصدين واسطاً لقتال البريدي نائب الأهواز ، والذي تجبر بها ، ومنع الخراج
وبعث الخليفة وابن رائق إلى أبي عبد الله البريدي يتهددانه ، فأجاب إلى حمل كل سنة ثلاثمائة ألف وستين ألف دينار.... فلما رجع الخليفة إلى بغداد لم يحمل إليه شيئا ، ولم يبعث أحداً كما تعهد فبعث ابن رائق (بجكم) وبдра الخرشني لقتال البريدي فجرت بينهم حروب . واستحوذ بجكم على الأهواز ، وجعل ابن رائق إليه خراجها ، وكان بجكم هذا شجاعاً فاتكاً ...
وفي ربيع الأول خلع الخليفة على (بجكم) ⁽¹⁾ ، وعقد له الإمارة ببغداد ، وولاه نيابة المشرق وخراسان .

⁽¹⁾ يقال إن بجكم هذا الذي رد الحجر الأسود من القرامطة ، وكان من غلمان أبي علي العارض وزير ماكان بن كالي الديلمي ، فاستوهمه ماكان من الوزير ، فوهبه له ، ثم فارق ماكان ، ولحق بمرداويج وكان في جملة من قتله في الحمام ولمرداويج ومقتله قصة :

في سنة 322 هـ عظم أمر مرداويج بأصبهان ، وتحدث الناس أنه يريد قصد بغداد ، وأنه ممالي لصاحب البحرين ، وقد اتفقا على رد الدولة من العرب إلى العجم ، وفي سنة 323 هـ على الصحيح كان مقتل مرداويج بن زيّار الديلمي ، وكان قبّحه الله سيئ السيرة والسريرة ، يزعم أن روح سليمان بن داود حلت فيه ، وله سرير من ذهب يجلس عليه والأتراك بين يديه ، ويزعم أنهم الجن الذين سُخِّرُوا لسليمان بن داود ، وكان يسيء المعاملة لهم ، ويحتقرهم غاية الاحتقار ، فما زال ذلك دأبه حتى أمكنهم الله منه ، فقتلوه في حمام ، وكان الذي ماله على قتله غلامه (بجكم) التركي . (راجع البداية والنهاية أحداث 323 هـ . وكتاب الأوراق للصولي ج 2 ص 62 سلسلة الزخائر

[يذكر شاعر في كتابه المتنبي أن الذي قال هذه العبارة - رد الدولة من العرب إلى العجم (بجكم) ، ولكن المراجع تقول إنه مرداويج وليس بجكم حتى في كتاب الأوراق للصولي ص 62 ج 2 سلسلة الزخائر 123 والذي يرجع إليه شاعر يذكر مرداويج

وفي هذه السنة ارتحل الوزير أبو الفتح بن الفرات من بغداد إلى الشام ، وترك الوزارة ، فوليها أبو علي بن مقله ، وكانت ولايته ضعيفة جدا مع ابن رائق أمير الأمراء وطلب من ابن رائق أن يفرغ له عن أملاكه ، فجعل يماطله ، فكتب إلى (بجكم) يطمعه في بغداد ، وأن يكون عوضا عن ابن رائق (يقصد يتولى منصب أمير الأمراء ويبدو أنه شعر بضيق الخليفة من جبروت ابن رائق ... ولعله بإيعاز من الخليفة نفسه ..) فبلغ ذلك ابن رائق ، فأخذ ابن مقله فقطع يده ، وقال هذا أفسد في الأرض ... ثم بلغ ابن رائق أنه قد كتب إلى بجكم بما تقدم وأنه يدعو عليه ، فأخذه فقطع لسانه وسجنه في مكان ضيق ⁽¹⁾. و يبدو أن بجكم قد وصلته أخبار الأحداث التي تدور في بغداد دار الخلافة فأراد أن يستفيد من الموقف ، فجاء إلى بغداد ، فقلده الراضي إمرة الأمراء مكان ابن رائق .

كان دخول بجكم هذه المرة مختلفا عن دخول السابق لقد أثبت بطولة وشجاعة وقدم خدمات جليلة للخليفة والخلافة ويكفي أنه أزاح ابن رائق ، الصخرة التي كانت مرتطم رأس الخليفة

.....وسكن بجكم بدار مؤنس الخادم وعظم أمره جدا ...

وما لبث أن بعث عماد الدولة بن بويه أخاه معز الدولة ، فأخذ بلاد الأهواز لأبي عبد الله البريدي ، وانتزعها من بجكم ، وأعادها إليه ...

وفي هذه السنة اضطرب أمر القرامطة جدا ، وقتل بعضهم بعضا ، وانكفوا بسبب قتلهم عن التعرض للفساد في الأرض ، ولزموا بلدهم هجر ، لا يرومون منه انتقالا إلى غيره

وليس بجكم .. انظر كتاب شاكر ص72 هامش وانظر البداية والنهاية أحداث 322هـ و323 هـ وكتاب الأوراق الصفحة المذكورة]

وهذا الأمير (بجكم) هو الذي استنقذ الحجر الأسود فيما بعد من أيدي القرامطة ، واقتداه منهم بخمسين ألف دينار ...{والبعض يقول أعادوه بلا مال ..} .. والتفت طائفة من الأتراك على بجكم ، فسار بهم إلى بغداد بإذن الخليفة له في ذلك ، ثم صُرفوا إلى البصرة ...

(1) مات في محبسه ولكن بعد ذلك بعامين تقريبا)

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وثلاثمائة صراع الكبار في بغداد

ثم تكرر خروج الخليفة .. فمع مطلع سنة 327 هـ خرج الراضي بالله إلى الموصل لمحاربة ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان نائبها ، بين يديه (بجكم) أمير الأمراءفهزم بجكم الحسن بن حمدان ، وقرر الخليفة أمر الموصل والجزيرة

وأما محمد بن رائق (أمير الأمراء المعزول) فإنه اغتنم غيبة الخليفة عن بغداد ، واستجاش بألف من القرامطة ، وجاء فدخل بهم بغداد ، فأكثر فيها الفساد ، غير أنه لم يتعرض لدار الخلافة ، ثم بعث إلى الخليفة يطلب منه المصالحة والعفو فأجابه إلى ذلك وترحل ابن رائق عن بغداد ودخلها الخليفة في جمادى الأولى من هذه السنة ، ففرح المسلمون بذلك ...! وكان الحج من جهة درب العراق قد تعطل من سنة سبع عشرة وثلاثمائة إلى هذه السنة ، فشفع الشريف أبو عليّ عمر بن يحيى العلوي عند القرامطة ، وكانوا يحبونه لشجاعته وكرمه ، في أن يمكنوا الحجيج من الحج ، وأن يكون لهم على كل جمل خمسة دنائير ، وعلى المحمل سبعة دنائير ، فخرج الناس للحج في هذه السنة على هذا الشرط

— عاد القرامطة للظهور من جديد ...!!!

— نعم .. هل رأيت تخطيط أكثر من ذلك؟! .. رأيت ابن رائق الذي كان أميراً للأمراء

والمؤمن على هؤلاء الرعية يستقوي بمن؟! يستقوي بالقرامطة ...!!!

— مثلما فكرت يا أبا الطيب ، و أوشكت أن تفعلها قبل أن تسجن ...!

— كان مقصدي تصحيح الأوضاع ، وبالتحديد وضع الخلافة... مجرد وسيلة ، أما ابن رائق لا يقصد سوى مصلحته فقط وقد رأيت ، لقد عاث فسادا في دار الخلافة ، يريد أن يثبت للخليفة أنه يستطيع أن يفعل الكثير حتى وإن زاد الأمر تعقيدا فإن لديه هو فقط الحل....ولو كان القرامطة في سابق مجدهم ما خرجوا من بغداد رغم أنف ابن رائق ورغم أنف الخليفة

- وهل كنت تظن أن يخرجوا من بغداد إذا نجحت ثورتك وكانوا في مجدهم وقوتهم!!؟

- هناك فارق مهم ..كنت ملتحما بالناس والناس كذلك ... ولم يكن ابن رائق يحسب للناس حساب ... وثورتي لعودة الملك للعرب من أبناء الحسين والناس يتحمسون لذلك بعد ضعف الدولة ... وما تحمس ابن رائق إلا لمصلحته ...الفارق كبير يطول شرحه!!!

ألمّ بداخلي على أحوال الناس وهؤلاء المرتزقة الذين عاثوا في الأرض فسادا ونهباً وحرباً ، ويدفع الناس ثمنه من دمائهم وأرواحهم ، أما الثروات فلا نعلم عنها شيئاً إلا أنها تأتي إلى دار الخلافة في بغداد ثم تختفي

- لكنها تظهر في تجهيز الجيوش لحرب الخارجين والمستقلين بالأطراف والمانعين الخراج والخارجين والمناهضين للخليفة أو أمير الأمراء ..

- والكلفة في هذه الحروب يدفع ثمنها هؤلاء البؤساء المطحونين الساعين وراء قوت يومهم بل هم أيضاً وقودها ألم يعتصرني فيخرج شعرا كما سمعت وقرأت ، حتى وأنا أمدح ...!

ودخلت سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة مداح الولاة

- كانت الظروف غير مواتية في الشام ؛ ظهر ذلك في قصيدتك في المغيث بن بشر العجلي :
- نعم كان ذلك حوالي سنة 328 ⁽¹⁾
- لقد مدحته بأكثر من قصيدة .. جاء في بعض أبياتها :

لما أقمت بأنطاكية اختلفت * إليّ بالخبر الركبان في حلبا
فسرت نحوك لا ألوي على أحدٍ * أحتّ راحلتي : الفقر والأدبا
أذاقني زمني بلوى شرقت بها * لو ذاقها لبكى ما عاش وانتحبا
وإن عمرت جعلت الحرب والدّة * والسمهري أخا والمشرفيّ أبا
بكلّ أشعث يلقي الموت مبتسما * حتى كأنّ له في قتله أربا
قح يكاد سهيل الخيل يقذفه * عن سرجه مرحا بالعز أو طربا
فالموت أعذرلي والصبر أجمل بي * والبر أوسع والدنيا لمن غلبا
وقلت له أيضا :

فؤاد ما تسليه المدام * وعمر مثل ما تهب اللئام
ودهر ناسه ناس صغار * وإن كانت لهم جثث ضخام
وما أنا منهم بالعيش فيهم * ولكن معدن الذهب الرغام
أرانب غير أنهم ملوك * مفتحة عيونهم نيام
بأجسام يحرّ القتل فيها * وما أقرانها إلا الطعام

(1) (يورخ محمود شاعر هذه القصيدة بسنة 327 هـ ... وأرى أنها سنة 328 هـ ودليلنا أن هذه هي السنة التي دخل فيها ابن رائق الشام مستوليا عليها مناهضا للخليفة في بغداد بعدما عُزل من إمرة الأمراء ، فكان المغيث بن بشر العجلي نائباً على أنطاكية من قبل ابن رائق. انظر البداية والنهاية لابن كثير ، أحداث 328 وحرب ابن رائق مع ابن طغج ...)

— عدت يا أبا الطيب إلى نبرة العنف والرغبة في الانتقام من الملوك والولاة ، تهجو وتنذر ولا تهاب في ذلك شيء ، لاتهاب الموت

فالموت أعذلي والصبر أجمل بي * والبرأوسع والدنيا لمن غلبا

قد كنت أظن أن السجن فعل شيئا في نفسك

- نعم ... فعل السجن شيئا ، علمني أن لا سبيل إلى العيش الكريم في هذه البلاد مادام هؤلاء الأوغاد على القمة من أول الخليفة إلى أصغر مسؤول فيهم

— تتكلم بمنطق القوة وكأن معك جيشا جرارا سوف تفعل به ما تريد ..

- لا يحسب الأمر هكذا ... الأمر يحسب بقدر عزيمتك أنت وإصرارك على المبدأ ، خاصة إذا كان المبدأ سليما وأنت تتمسك به وتدافع عنه إلى النهاية ، وحولك من يؤمن به ويدافع عنه نعم قد أكون أنا بمفردي وقد نكون قلة ، ولكن يوما ما سوف تؤثر كلماتي هذه في الجموع الناس تشعر وتحس وتحتاج إلى من يدفعها لكي تتحرك وتغير هذه الأوضاع المذرية ، وأنت ترى معي الأحداث ...

وفي سنة 328 هـ وصل الخبر بأن ركن الدولة أبا علي الحسن بن بويه الديلمي وصل إلى واسط ، فركب الخليفة وبجكم لقتاله فأنصرف راجعا ، فرجعا إلى بغداد ...

— مناوشات لا تهدأ ...!

— نعم.. وفي هذه السنة ، استولى محمد بن رائق على بلاد الشام ، فدخل حمص أولا فأخذها ، ثم جاء إلى دمشق وكان عليها بدر بن عبد الله الإخشيدي المعروف ببدير ، من جهة الإخشيد محمد بن طغج ، فأخرجه ابن رائق منها قهرا ، واستولى عليها ، ثم ركب في جيش إلى الرملة فأخذها ، ثم قصد عريش مصر ؛ ليدخلها فلقية محمد بن طغج ، فاقتلا هنالك ، فهزمه ابن رائق .

— إلى هذه الدرجة من القوة ...

- نعم ولكن هل تدوم ... اشتغل أصحابه بالتهب ، ونزلوا في خيام المصريين ، فكر عليهم المصريون ، فقتلوهم قتلا عظيما ، وهرب محمد بن رائق في سبعين رجلا من أصحابه ، فدخل دمشق في أسوأ حالة وشرها ...

وسير إليه محمد بن طغج أخاه نصر بن طغج في جيش ، فاقتتلوا عند اللجون ، في رابع ذي الحجة ، فهزم المصريون وقتل أخو الإخشيد فيمن قتل ؛ فغسله محمد ابن رائق وكفنه ، وبعث به إلى أخيه بمصر ، وأرسل معه ولده ، وكتب إليه يحلف له ما أراد قتله ، وهذا ولدي فاقتد منه ، فأكرم الإخشيد ولد محمد بن رائق ، واصطالحا على أن تكون الرملة وما بعدها إلى ديار مصر للإخشيد ، ويحمل إليه الإخشيد في كل سنة مائة ألف دينار وأربعين ألف دينار ، وما بعد الرملة يكون لمحمد بن رائق

— نعود لأشعارك في هذه الفترة ... مدحت المغيث بن بشر العجلي ونلت من عطاياه وها هو يرحل عن أنطاكية ، فإنه لم يكن من أهلها ، كما قلت أنت في قصيدتك له :

وليست من مواطنه ولكن * يمرُّ بها كما مرَّ الغمام

— نعم لم يكن المغيث من أهل أنطاكية وإنما جاءها في مهمة من قبل ابن رائق بعد استيلائه على الشام في هذه السنة ثم ما لبث أن غادرها

فالتفت فلم أجد من أمدحه إلا القاضي أبا الفرج أحمد بن الحسين المالكي ، ثم علي بن منصور الحاجب ... (1)

— صاحب القصيدة الدينارية المشهورة ؟! ...

— كانت الأحوال غاية في السوء ، مدحته بقصيدة مطلعها :

بأبي الشموش الجانحات غواربا * اللباسات من الحرير جلاببا

المنهبات عقولنا وقلوبنا * وجناتهن الناهبات الناهبا

(1) وروى الثعالبي أن علي بن منصور الحاجب الذي مدحه بقصيدته :

بأبي الشموش الجانحات غواربا * اللباسات من الحرير جلاببا

أعطاه دينارا فسميت القصيدة الدينارية .

(عبد الوهاب عزام ، ذكرى أبي الطيب ص 64 عن ياقوت جزء 5 ص 204)

الناعمات القاتلات المحييا * ت المبديات من الدلال غرائب

حتى أقول له :

ملك سنان قناته وبنانه * يتباريان دما وعرفا ساكبا

يستصغر الخطر الكبير لوفده * ويظن دجلة ليس تكفي شاربا

- ولكن يا أبا الطيب تمدح بدينار ؟

- لم أكن أشرط قبل أن أمدح وإنما أترك هذا لجود من أمدحه ، ولا أصادر على رزقي ، ثم إني كنت أَرْضَى بأقل من ذلك غير أن البعض ممن يُقدِّرون كانوا يسعون لإنصافي على قدر المستطاع ، اسمع هذه الحكاية واضحك ...! (1)

لما مدحت محمد بن رزيق الطرسوسي بقصيدة مطلعها :

هذي برزت لنا فهجت رسيسا * ثم انثيت وما شفيت نسيسا

وصلني عليها بعشرة دراهم . فقل له إن شعره حسن . فقال ما أدري أ حسنٌ هو أم قبيح ؛ ولكن أزيده لقولك عشرة دراهم . فكانت صلتى عليها عشرين درهما * يعني دينارين على الحساب القديم ، وإن كانت ضربت دنائير فيما بعد كان الدينار بثلاثة عشر درهما (2) ما رأيك ...؟؟! ... كانت الأحوال سيئة سيئة .. فضلا عن بخل البعض .!

ومدحتُ كذلك عمر بن سليمان الشرابي ، وهو يتولى الفداء بين الروم والعرب .
بقصيدة مطلعها :

نرى عِظما بالبين والصد أعظم * ونتهم الواشين والدمع منهم

ومن لبه مع غيره كيف حاله * ومن سره في جفنه كيف يكتم

ثم مدحتُ عبد الرحمن بن المبارك الأنطاكي .

(1) وهذه الحكاية رواها ياقوت في معجم الأدياء عن علي بن حمزة البصري الذي كان يروي عن المتنبي كثيرا... شعرا وأحداثا

(2) (عزام ، ذكرى أبي الطيب ، ص 64 عن ياقوت جزء 5 ص 204)

كان ذلك سنة 330 بعد موجة الغلاء والانهيئات في مواصفات الدينار فجاء ناصر الدولة ابن حمدان عندما دخل بغداد وتولى أمرها أصلح من مواصفات الدينار وسماه الدينار الإبريزي وكان يباع بثلاثة عشر درهما ، راجع البداية والنهاية أحداث سنة 330 هـ)

وكان مطلع القصيدة : (1)

صلة الهجر لي وهجر الوصال * نكساني في السقم نكس الهلال

فغدا الجسم ناقصا والذي يند * قص منه يزيد في بلبالي

وضقت ذرعا بأنطاكية ، فقصدت إلى لبنان في جوار الكاتب أبي علي هرون بن عبد العزيز الأوراجي ، ومررت في أرض (قنسرين) بمكان يسمى (الفراديس) وأثناء مروري سمعت زئير الأسد وكان صوته يرج المكان رجاً ... فكتبت فيه بعض أبيات وأنا مهتد بأن يفترسني في أي لحظة :

أجارك يا أسدَ الفراديس مكرم * فتسكن نفسي أم مهان فمسلّم

ورائي وقدامي عداة كثيرة * أحاذر من لص ومنك ومنهم

فهل لك في حلفي على ما أريده * فإني بأسباب المعيشة أعلم

إذا لأتاك الرزق من كل وجهة * وأثريت مما تغنمين وأغنم

وبقيت عند الأوراجي مدة ، ومدحته مدحا عظيما ، منه القصيدة التي مطلعها :

أمن ازديارك في الدجى الرقباء * إذ حيث كنت من الظلام ضياء

قلق المليحة وهي مسكٌ هتكها * ومسيرها في الليل وهي ذكاء

ثم أقول له :

بيني وبين أبي عليّ مثله * شمّ الجبال ومثلهن رجاء

وعقاب لبنان وكيف بقطعها * وهو الشتاء وصيفهن شتاء

لبس الثلوج بها عليّ مسالكي * فكأنها ببياضها سوداء

وكذا الكريم إذا أقام ببدة * سال النضار بها وقام الماء

وأقمت عنده مدة أستجم من مشقة السفر أتأمل جمال الطبيعة بلبنان وجبالها ورباها ،

وكانت فرصة جيدة أستعيد فيها حيوية نفسي وأغسل همومها في هذه الربوع الجميلة .

(1) شاكر ، ص 8/256 .

— يقال يا أبا الطيب إن من أحداث سنة 328 وفاة الوزير ابن مقلّة ، أحد الكتاب المشاهير ، محمد بن علي بن الحسن بن عبدالله أبو علي المعروف بابن مقلّة ...

— نعم مات في سجنه ، كان في أول عمره ضعيف الحال ، ثم آل به الحال إلى أن ولي الوزارة لثلاثة من الخلفاء ، وهم المقتدر والقاهر ، والراضي ، وعزل ثلاث مرات ، وقطعت يده ولسانه في آخر أمره وحبس ومات في محبسه تلك السنة

وقد أنشد فيه بعض الشعراء حين بنى داره :

قل لابن مقلّة مهلا ، لاتكن عجلا * واصبر فإنك في أضغاث أحلام

تبني بأنقاض دور الناس مجتهدا * دارا ستنقض أيضا بعد أيام

مازلت تختار سعد المشتري لها * فلم توقّ به من نحس بهرام

ومن شعره بعدما قطعت يده :

ليس بعد اليمين لذة عيش * يا حياتي بانت يميني فبيني

ويقول أيضا :

إذا ما مات بعضك فابك بعضا * فإن البعض من بعض قريب

— ولكن ما رأيك في نهاية ابن مقلّة ..؟

— أستطيع أن أقول إنه شارك في ظلم الناس وأضاع الحقوق واستفاد استفادة كبيرة ، وعبّ

عبّا من أموال المسلمين ثم لم ينفعه ذلك ، صودرت الأموال ونهبت الديار وأحرقت وكان قد

أنفق عليها آلاف الدنانير... بعض الناس كتب على جدرانها :

أحسنْتَ ظنك بالأيام إذ حسنت * ولم تخف سوء ما يأتي به القدرُ

وسالمتك الليالي فاغتررت بها * وعند صفو الليالي يحدث الكدرُ

وقطعت يده كما تقطع يد اللصوص ، وإن كانت قطعت لأنها كتبت وكان أولى أن تقطع لأنها

سُرقت ، ثم قطع لسانه ويا لها من عقوبة شنيعة ، وكأن ابن رائق كان يتلذذ بعذابه ثم سجنه ،

وهاهو يموت في سجنه — لماذا لم يُطلق سراحه بعد عزل ابن رائق ..؟! ؟

— يبدو أن الخليفة لم يجد منه رجاءً ولا مصلحة ترتجى بعد ما حدث له فأهمل شأنه ...

— لعل هذا أقل جزاء يمكن أن يناله من يُعين ظالما ويشارك في ظلم الضعفاء

ألا تلاحظ أن الجيوش تدور حولك وتمر بجوارك والمعارك تشتعل وأنت تستمتع برّبا لبنان وجمالها !!!؟

— ماذا فعل في حروب لاناقة لى فيها ولا جمل كما يقولون ، ابن رائق يبعث بجيوشه ويصارع ابن طغج من أجل جاهه وسلطانه على الشام وابن طغج يدافع عن إمارته التي أسسها وإن كانت تحت عباءة الخلافة التي تتداعى أركانها .

كانت أيام الهدوء والراحة التي اهتبلتها في غفلة من الزمن قد جددت معاني قلبي ، فلما مللت الأوراجي ، ولم أجد منه شيئا ولا عزما ، عزمت على فراقه ، وجعلت أتلفت فرأيت أبا الحسين بدر بن عمار بن إسماعيل الأسدي ، قد صعد إلى طبرية من قبل (أبي بكر محمد بن رائق) ليتولى حربها وقيادة جيشها وحمايتها في سنة 328 هـ (1) وكانت أول قصيدة مدحته بها :

أحلماً نرى أم زمانا جديدا * أم الخلق في شخص حي أعيدا
تجلى لنا فأضأنا به * كأنا نجوم لقين سعودا
رأينا ببدر وآبائه * لبدر ولوداً وبدرأ ولودا
طلبنا رضاه بترك الذي * رضينا له فتركنا السجودا
ثم أقول له :

قتلت نفوس العدي بالحديد*د حتى قتلت بهن الحديدا

وبقيت في جوار بدر من أواخر سنة 328 هـ إلى أوائل سنة 333 هـ أربع سنوات أو تزيد وقد وجدت فيه سمات البطل العربي الذي أنشده وتوسمت فيه النموذج الذي يستطيع أن يتحقق على يديه ما لم يتحقق منذ سنوات لتعود الدولة للعرب حقا بعد أن سقطت في أيدي العبيد

(1) شاكر ص 259 / 9

والخدم والأعاجم من الأمراء هذا الأمل الذي فشلت في تحقيقه وكان سببا في دخولي السجن ،
قلت فيه شعرا كثيرا ... (1)
.... أقول في أوصافه :

هان على قلبه الزمان ، فما * يبين فيه هم ولا جذل
يكاد ، من طاعة الحمام له * يقتل من ما دنا له الأجل
يكاد من صحة العزيمة ما * يفعل قبل الفعال ينفع
تعرف في عينه حقائقه * كأنه بالذكاء مكتحل
أشفق عند اتقاد فكرته * عليه منها أخاف يشتعل

..

(1) (وبقي المتنبي في جوار بدر وفي مجلسه (وفي عربيته) من أواخر سنة 328 إلى أوائل سنة 333 على وجه التقريب لا على التحقيق شاكر ، ص 9/260 عزام يرى أنه أقام إلى جواره سنة واحدة ثم فارقه . راجع عزام - ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام ص 65)

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وثلاثمائة سنوات مع صائد الأسود

— هل صحيح يا أبا الطيب أن هذا الرجل يصطاد الأسود...؟!

— نعم وأنا شاهد على ذلك وكان مشهدا عظيما ، أسد وقع على بقرة صاها لتوه وأخذ ينهشها ، وكان يزأر عنها زئيرا مرعبا .! كنا نقف على مسافة من المشهد ، وإذا ببدر يتركنا ويتقدم وحده بفرسه تجاه الأسد الذي كان يرمقه من حين لآخر كلما اقترب ، فلما تجاوز بدر الحد ، قام إليه الأسد وترك الفريسة واتجه إليه في هدوء وهو يكشف عن أنيابه ويصدر صوتا مرعبا يرج المكان ، وفجأة وقعت قلوبنا في أقدامنا وتيقنا أن بدرا هالك لا محالة ، لقد وثب عليه الأسد فاستدار بفرسه بسرعة ...

ولكن مخالب الأسد طالت كفل الفرس فألقته أرضا ولم يتمكن بدرا من سيفه ، ونظر فلم يجد إلا سوطه فشرعه في سرعة البرق في الهواء وأصدر به فرقعات جعلت الأسد يتراجع إلى الخلف من شدة فرقة السوط في الهواء ..

سمح ذلك لبدر أن يتناول رمحه الطويل ، ثم أوهم الأسد أنه يفر هاربا منه فأسرع وراءه الأسد وظن أنه قد ظفر به ، وظننا جميعا هذا ، فإذا ببدر يتوقف فجأة ويجلس القرفصاء وحربته إلى جواره ، ويواجه الأسد الذي وثب عليه وثبة عالية ، لينقض على بدر ، فلا يسقط إلا على نصل الحربة التي رشقها بدر في الأرض في مواجهة الأسد فاندكت في عنقه فقتلته ، الغريب أنه كان هناك أسد آخر على مسافة منا يشاهد المنظر ولم يتدخل ، فلما رأى مقتل الأسد فر هاربا من الساحة إلى الأدغال . وقد سجلت ذلك شعرا في قصيدة هذه أبيات منها :

أ مُعَقِّرَ اللَّيْثِ الْهَزْبِرِ بِسُوطِهِ * لَمَنْ ادْخَرْتَ الصَّارِمَ الْمَصْقُولَا ؟!

وقعت على الأردن منه بلية * نصت بها هام الرفاق تلولا

ورد إذا ورد البحيرة شاربيا * ورد الفرات زئيره والنيلا

متخضب بدم الفوارس لابس * في غيله من لبديته غيلا

ما قوبلت عيناه إلا ظنتا * تحت الدجى نار الفريق حلولا
في وحدة الرهبان إلا أنه * لا يعرف التحريم والتحليلا
يطأ الثرى مترفق من تيهه * فكأنه آس يجس عليلا
ويرد عفرتة إلى يافوخه * حتى تصير لرأسه إكليلا
وتظنه مما يزمجر نفسه * عنها لشدة غيظه مشغولا
قصرت مخافته الخطى فكأنما * ركب الكمي جواده مشكولا
ألقى فريسته وبربر دونها * وقربت قربا خاله تطفلا
فتشابه الخلقان في إقدامه * وتخالفا في بذلك المأكولا
أسد يرى عضويه فيك كليهما * متنا أزلّ وساعدا مفتولا

- كنت معجبا به يا أبا الطيب ..؟

- نعم كان بطلا بمعنى الكلمة لم أجد أحدا حقيقة في مثل جرأته وشجاعته ، رأيت جرأته في مواجهة الأسد !! فاستحق ما قلته فيه

ولكن الحساد والحاquدين من الشعراء وغيرهم لم يتركوني وشأني ...

- قبل هذا يا أبا الطيب ، ألا ترى معي أن أربع سنوات بجوار بدر ابن عمار مدة طويلة نسبيا وقد عهدناك حتى الآن قلقلنا لا تستقر في مكان . !

- ولم أكن أنوي فراقه ، لولا الكيد والحسد ، أما أني لم أكن أستقر في مكان ، فكان لعدة أسباب أهمها ، الهروب من الطلب والعيون التي كانت تتابعني . ثانيا طلبا للرزق ، وقد ضمنت مع بدر الأمن والرزق ...

- هل كانت عطاياه تكفيك ، لدرجة تجعلك تستقر أربع سنوات بجواره إلى سنة 333

- نعم وزيد ، حتى إنني تزوجت (1)

(1) (توقيت زواج المتنبي قضية خلافية .. ولكني أرجح أنه تزوج في هذه الفترة التي استقر فيها بجوار بدر بن عمار ما يزيد على أربع سنوات من أواخر سنة 328 هـ إلى أوائل 333 هـ . انظر آراء محمود شاكر مرجع سابق ص7/240 حيث يرى أنه ذكر الأبوه حوالى سنة 332 عندما مدح أبا أيوب أحمد بن عمران
(وترى المروة والفتوة والأبو * ة في كل مليحة ضراتها)

في هذه الفترة ، لقد تجاوزت سني وقتها السادسة و العشرين ، لقد دعاني هذا الاستقرار إلى التفكير في الزواج وشجعتني بدر على ذلك .. وبالفعل تزوجت من فتاة شامية ، رزقني منها الله ولدا أسميته (محسدا)

- محسدا ...؟! -

- نعم ... جاءت التسمية من وحي المعاناة التي كنت أعانيها بجوار بدر . كنت محسودا على قربي منه ومحسودا على عطاياه لي ومحسودا على بروزي الشعري ، ومحسودا على شهرتي ودعوة الكبراء لي لأقول فيهم شعرا .. أطلق علي هؤلاء الحساد ومنهم بعض الشعراء الذين قلت أو ضاعت عطاياهم بظهوري .. أطلقوا علي لقب (المتنبي) كنوع من التهكم ... لمّا قرءوا في أشعاري هذا البيت :

ما مقامي بأرض نخلة إلا * كمقام المسيح بين اليهود

ذكرت لك ذلك من قبل .. وقد يتجاوز الأمر ذلك فأجد نفسي غير مرحب بي بينهم

وراجع عبد الوهاب عزام في هذا الموضوع ، ذكرى أبي الطيب ص 197 ط 3 ، وبينهما خلاف . حيث يذكر عزام أن أبا الطيب يقول في قصيدة يمدح بها أبا أيوب أحمد بن عمران (ملحوظة : هي نفس القصيدة التي يستشهد بها شاعر على العكس) وهو أحد ممدوحيه في الشام قبل اتصاله ببني حمدان يقول :

في الناس أمثلة تدور حياتها * كمماتها . ومماتها كحياتها

هبتُ النكاح حذار نسل مثلها * حتى وفرت على النساء بناتها

وهذا يدل على أنه لم يتزوج إلى هذا الوقت . [وإن كنت أري أنه يشير هنا إلى الماضي ويستشف أن موضوع زواجه مطروح للأخذ والرد في هذا التوقيت] وإذا أخذنا بترتيب الديوان [الترتيب في هذه الفترة فيه نظر ، راجع شاعر في ذلك ، مرجع سابق] فقد أنشأ هذه القصيدة بعد مفارقة بدر بن عمار أي بعد سنة 329 هـ وسن أبي الطيب حينئذ زهاء ستة وعشرين عاما . ولا ندري متى تزوج . ولكن دلنا على أن له عيالا حين قال لسيف الدولة سنة 337 هـ وقد أزمع المسير لنصرة أخيه ناصر الدولة وسأله أن يسير معه قال :

إن الذي خلفت خلفي ضائع * مالي على قلقي عليه خیارُ

وإذا صحبت فكل ماء مشرب * لولا العيال ، وكل أرض دار

. تزوج الشاعر قبل سنة 337 هـ فزواجه بين سنتي 329 ، 337 هـ .

و انظر مقدمة القصيدة ، ديوان المتنبي ، تحقيق عزام ، ومعجز أحمد تحقيق دياب ، وديوان أبي الطيب المتنبي شرح مصطفى سبيتي ، وانظر في أحداث سنة 328 البداية والنهاية لابن كثير ، والصراع الذي دار بين ابن رائق وابن طغج حول السيطرة على الشام وما انتهى إليه الأمر وكان بدر بن عمار من رجال ابن رائق . وكذلك المغيث العجلي الذي سبق الإشارة إليه .)

- وأين نخلة هذه ..؟

- نخلة قرية لبني كلب على ثلاثة أميال من بعلبك من أرض الشام ⁽¹⁾ أقول إن أهل هذه القرية أعداء لي كما كانت اليهود أعداء لعيسى عليه السلام ، وكذلك قلبي :

أنا في أمة تداركها الله * غريب كصالح في ثمود

كان هذا الحسد مقدمة لفراق بدر ابن عمار ،

وجدت من عداوة الحساد كيذا كثيرا حتى دسّوا لي لدى بدر بن عمار وأغروا بي الشعراء ليغيظوني بألسنتهم ، وكان هنالك رجل ممتع بإحدى عينيه (أعور) يدعى ابن كرويس ، وكان قد اتصل ببدر بن عمار وكان من أشد أعدائي عليّ ، ولذلك قصدته بالذكر هجاءً من بينهم ، صاحب هذا الأعور ابن كرويس بدرا وكأنه عين عليه

أنشدت قصيدتي بدرا بن عمار وذكرت فيه الكيد الذي يكاد لي وما أعانيه من عداوة الشعراء المدعين وما ألقاه منهم فقلت له :

فيا بن الطاعنين بكل لدن * مواضع يشتكي البطل السعلا

ويا ابن الضاربين بكل غضب * من العرب الأسافل والقلالا

أرى المتشاعرين غروا بذمي * ومن ذا يحمد الداء العضالا

ومن يك ذا فم مريض * يجد مراً به الماء الزلالا

وقالوا هل يبلغك الثريا ؟ * فقلت نعم إذا شئت استغالا

ثم سار بدر إلى الساحل ساحل بحيرة طبرية ولم صاحبه وقد استثمر ابن كرويس هذا الموقف ليقلب قلب بدر بن عمار عليّ ، فقد بلغني أن (ابن كرويس) الأعور كتب إلى بدر يقول له : إن أبا الطيب إنما تخلف عنك رغبة بنفسه عن المسير معك .

- ولم تترك لابن كرويس فرصة يُوقع بينك وبين ابن عمار وقد وصلت في صداقته شأوا بعيدا

!!؟...

⁽¹⁾ راجع شرح الواحدي لديون أبي الطيب المتنبي ؛ كذلك شرح أبي العلاء المعري لهذا البيت .

- لقد كنت أصاحب بدر بن عمار في جولات ورحلات صيد كثيرة ولكني كنت أعلم أن هذه المرة ليست للنزهة بل لملاقاة الأعداء .. أعداء ابن رائق .. يعني لقتل المصريين من قوات ابن طغج ... وأنت تعرف موقفك من هذه الحروب من قبل ، حرب لاناقة لي فيها ولا جمل ثم إنها بين مسلمين ومسلمين ولتحقيق مصالح شخصية لابن رائق فلماذا أشارك في دفع ثمنها ...

ولكني لم أكن أستطيع أن أصرح بذلك لابن عمار ورأيت أن أعذر لأسباب قبلها ابن عمار في حينها ، لكن ابن كروس لعنه الله لم يترك الفرصة تفوت ..
- لم يكن الأمر خوفا أو جبنا أو وهنا ...!؟

- على الإطلاق ... هل تعرف عني هذا .. ألم تعلم أنني كنت فارسا محاربا بالسيف والشعر في حروب سيف الدولة فيما بعد ، وأنت تعلم الحرب هنا مختلفة ؛ حرب سيف الدولة لحماية للإسلام والمسلمين ضد الروم ، أما هذه فقتل للمسلمين لحساب ابن رائق .

ما أحببت هذه الجولات وما أحببت تسجيلها شعرا ، ولعل بدرا كان يود ذلك ، خاصة بعد قصيدة الأسد التي طوفت ببطولته الآفاق ، واعتقد أن هذا أيضا هو مدخل ابن كروس لإفساد ما بيني وبين بدر .

- ولكنك يا أبا الطيب ذكرت ابن رائق مادحا وانت تمدح بدر بن عمار ، قلت له في قصيدتك التي ذكرتها منذ قليل :

حسام لابن رائق المرجى * حسام المتقي أيام صالا

جعلت بدرا حساما لابن رائق وجعلت بن رائق حسام المتقي الخليفة ⁽¹⁾ يصول و يجول به
- كانت هذه الفترة أو في هذه السنة تحديدا واجهت الخليفة المتقي تحديات عظيمة تلزمه بالخرج من صومعته التي أرادها أول ما تقلد الخلافة ، فخرج ، وحاول ضبط الأحوال ، ولكن الصراع كان كبيرا - جيوش نوابه على الأقاليم جاءت تتصارع تحت ذقنه في دار الخلافة في بغداد ، انظر إلى الأحداث من أولها

⁽¹⁾ ادعى ابن رائق بعد نزاعه مع الخليفة وذهابه باتباعه وجنوده إلى الشام ، ادعى أنه موفد من قبل الخليفة واليا على الشام ودخل حربا مع الحمدانيين والإخشيديين . وانطلى هذا على المعاصرين لهذه الأحداث من أهل الشام بما فيهم المتنبى ، فقال البيت المذكور . والواقع أنه ذهب إلى الشام مغاضبا للخليفة . راجع البداية والنهاية ، أحداث 329 هـ وما بعدها .

في منتصف سنة 329 هـ وفي ربيع الأول منها كانت وفاة الخليفة الراضي بالله أمير المؤمنين أبي العباس أحمد بن المقتدر ⁽¹⁾

، فلما مات الراضي اجتمع القضاة والأعيان بدار (بجكم) ، واشتوروا فيمن يولون عليهم ، فاتفق رأيهم كلهم على المتقي لله إبراهيم بن المقتدرأخي الراضي . وكان كما سمي المتقي لله ، كثير الصلاة والصيام والتعب ، وقال : لا أريد أحدا من الجلساء ، حسبي المصحف نديمي ، لا أريد نديما غيره . فقد عنه الجلساء والندماء والتفوا حول بجكم . وفي هذه السنة تحارب أبو عبد الله البريدي وبجكم بناحية الأهواز ، فقتل بجكم في الحرب ، واستظهر البريدي عليه ، وقوي أمره ، فاحتاط الخليفة على حواصل بجكم ، فكان من جملة ما أخذ من أمواله ألف ألف دينار ومئتا ألف دينار

ثم إن البريدي حدثه نفسه ببغداد ... (وحدث بينهما مجاريات وحاول الخليفة استمالاته فلقبه بالوزير وخاطبه بذلك ولم يخاطبه بأمرير الأمراء ... وطلب البريدي من الخليفة خمسمائة ألف دينار من أموال بجكم .. وانذر وهدد وتوعد .. ورضخ الخليفة . وأخذ البريدي الأموال وخرج إلى واسط .. ولم يعطي الديالمة جنوده منها شيئا فالتفوا حول كبير لهم يدعى (كورتكين) وكانت (البجكمية) طائفة أخرى أختلف معها البريدي فصار الفريقان ضد البريدي . فانهزم ، فاستولى كورتكين على الأمور ببغداد ، ودخل الى المتقي فقلده إمرة الأمراء ، وخلع عليه ...

— لقد أصبح منصب أمير الأمراء لعبة تعطى لمن لديه الجيش الأقوى من نواب الخليفة في الأمصار !!.

(1) (راجع أحداث سنة 329 ، البداية والنهاية ، وفيها ...كانت وفاة الخليفة الراضي بالله أمير المؤمنين أبي العباس أحمد بن المقتدر بالله جعفر بن المعتضد بالله أحمد بن الموفق أبي أحمد بن جعفر بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور العباسي

وأمه أم ولد رومية تسمى ظلوم كانت خلافته ست سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام ، وعمره يوم مات إحدى وثلاثون سنة وعشرة أشهروقد كانت وفاته بعلة الاستسقاء وكان قد أرسل إلى بجكم وهو بواسط ، ليعهد إلى ولده الأصغر أبي الفضل ، فلم يتفق ذلك)

— نعم كان هذا هو المتبع ، على شرط أن يثبت هذا النائب أوذاك أنه هو الأقوى والأقدر على سحق خصمه على رؤوس الأشهاد ، ولا مانع أن ينهب المنتصر قصور خصمه وأمواله دون حرج ...

وقد بدا الأمر كصراع الديكة يسيل دمها في ساحة القتال والجمهور مستمتع ويصفق للأكثر شراسة فيهما . مع فارق بسيط أن الجمهور في صراع الأمراء لم يكن مستمتعا دون مقابل ، لأنه كان يدفع حساب المشاهدة من أمنه وسلامته بل ومن قوته ...
لقد كانت الأسعار تشتعل في هذه الفترات من الصراع اشتعالا .. حتى لا يجد الناس القوت فيأكلون الكلاب والقطط والجراد !!!

— وما موقف الخليفة من هذه الصراعات ???

— للحق لم يكن الخليفة سعيدا بهذه الحروب والصراعات ، بل كان يختبئ في جلدته حتى ينتهي الصراع ، ثم لا يملك إلا أن يستميل الأقوى ، فيخلع عليه لقب أمير الأمراء .
ثم تظلمت العامة من الديلم أنهم يأخذون دورهم ، وشكوا ذلك لكورتكين فلم يستجب ، فكرههم الناس ، فاقتتل الديلم والعامة ... وقتل خلق كثير ..

وكان الخليفة قد كتب إلى أبي بكر محمد بن رائق صاحب الشام يستدعيه إليه ليخلصه من الديلم والبريدي ، فركب إلى بغداد ... ومعه جيش عظيم وحين وصل إلى الموصل حاد عن طريقه ناصر الدولة بن حمدان ، فتراسلا ثم اصطلحا ، وحمل ابن حمدان إلى ابن رائق مائة ألف دينار ، فلما اقترب ابن رائق من بغداد خرج كورتكين في جيشه ليقاتله فدخل ابن رائق بغداد من غربها ورجع كورتكين بجيشه من شرقيها ، ثم تصافوا في بغداد للقتال ، فساعدت العامة ابن رائق على كورتكين ، فانهزم الديلم وهرب كورتكين فاخترفي .

واستقر أمر ابن رائق على بغداد وخلع عليه الخليفة وتمكن ابن رائق من كورتكين بعد ذلك وحبسه بدار الخلافة

وبالطبع أصبح ابن رائق هو القوة المسيطرة في هذه السنة إلى أوائل سنة 330هـ وعلى ذلك فإن بدر ابن عمار في ظل هذه الظروف مرشح لتولي مناصب أكبر ... وإن كانت الأوضاع بعد ذلك تغيرت تماما ... سيأتي ذلك في حينه ، ما علينا ...

فكان ضروريا أن تواكب أشعاري هذا الوضع وترمي بأطراف منها إلى هذا الذي تسيد الأمور لعل شباكها تصيد شيئا ، هذا ما تسمونه الذكاء المهني لاتنسى أني كنت أتكسب عيشي من أشعاري

ومن الأشياء التي أذكرها في هذه السنة سنة 329 هـ وبالتحديد في جمادى الآخرة جاءت ليلة كانت ليلة برد ورعد وبرق ، فسقطت القبة الخضراء من قصر المنصور ، وقد كانت هذه القبة تاج بغداد ، وعلم البلد ، و من مآثر بني العباس العظيمة ، بنيت أول ملكهم ، وكان بين بنائها وسقوطها مائة وسبع وثمانون سنة .

ثم دخلت سنة ثلاثمائة وثلاثين هروب الخليفة من دار السلام

ومن الأشياء الطريفة التي أذكرها أنه في أول سنة 330 هـ في المحرم منها ظهر كوكب بذنوب ، ورأسه إلى الغرب وذنبه إلى الشرق ، وكان عظيما جدا ، وذنبه منتشر ، وبقي ثلاثة عشر يوما إلى أن اضمحل .

ومن الأشياء المحزنة في هذه السنة (ازداد الغلاء) وأكل الضعفاء الميتة ، ودام الغلاء وكثر الموت ، وتقطعت السبل وشغل الناس بالمرض والفقر والموت وشغل الناس عن الملاهي واللعب .. ثم جاء المطر كأفواه القرب

أما محمد بن رائق فكان أمير الأمراء ببغداد حينئذ - وقعت بينه وبين البريدي الذي بواسط وحشة بسبب منع البريدي الخراج الذي عنده ، فركب إليه ابن رائق ليتسلم ما عنده من المال ، ف وقعت مصالحة .

ورجع ابن رائق ، فطالبه الجند بأرزاقهم وضاق عليه حاله ، وتحيز جماعة من الأتراك إلى البريدي ، فضعف جانب ابن رائق فعزم (البريدي) على أخذ بغداد ، وأرسل جيوشه .. فتحصن ابن رائق مع الخليفة بدار الخلافة ونصب فيه المجانيق والعرادات وعلى دجلة أيضا ، فاضطربت بغداد ، ونهب الناس بعضهم بعضا ليلا ونهارا ...

ثم إن الخليفة وابن رائق انهزما في جمادى الآخرة ومع الخليفة ابنه أبو منصور ، ففروا في عشرين فارسا ، فقصدوا نحو الموصل ونهب جيش البريدي دار الخلافة ونهبوا بغداد جهارا علانية ... وكثر الجور وغلت الأسعار جدا ... وذاق أهل بغداد لباس الجوع والخوف.

وكان الخليفة أرسل وهو ببغداد إلى ناصر الدولة بن حمدان نائب الموصل والجزيرة يستجيش به على البريدي ، فأرسل ناصر الدولة أخاه سيف الدولة عليا في جيش كثيف ..

فلما كان بتكرت إذا بالخليفة وابن رائق قد هربا فرجع معهما سيف الدولة إلى أخيه ... ولما وصلوا إلى الموصل خرج عنها ناصر الدولة فنزل شريقيها ، وأرسل التحف والضيافات ، ولم يجئ خوفا من الغائلة من جهة ابن رائق نائب العراق وصاحب الشام (ثم تمكن ناصر الدولة الحسن بن حمدان من قتل ابن رائق) فأرسل الخليفة إلى أبي محمد الحسن بن حمدان فاستحضره ، وخلع عليه ولقبه ناصر الدولة يومئذ ، وجعله أمير الأمراء ، وخلع على أخيه أبي الحسن عليّ ولقبه سيف الدولة وبلغ خبر مقتل ابن رائق مصر فركب محمد بن طغج الإخشيد إلى دمشق على رأس الجيش ، فتسلمها من (محمد بن يزيد) نائب ابن رائق ، ولم ينتطح فيها عنزان .

وأقام بعض الوقت في دمشق ، وأصلح أمورها ، ثم عاد منها إلى الفسطاط في السنة التالية ولما بلغ خبر مقتل ابن رائق بغداد فارق أكثر الأتراك البريدي وقصدوا الخليفة وابن حمدان في الموصل ، فقوي بهم ناصر الدولة وركب هو والخليفة المتقي لله إلى بغداد .. فلما اقتربوا منها هرب عنها أبو الحسين البريدي ، ودخل الخليفة المتقي لله إلى بغداد ومعه بنو حمدان في جيوش كثيره وذلك في شوال من هذه السنة ، ففرح به المسلمون فرحا شديدا ...

ودارت حروب بين الحمدانيين وأبي الحسين البريدي انكسر في آخرها البريدي ، وأسر جماعة من أعيان أصحابه ، وقتل منهم خلق كثير ، وانهزم بعد ذلك أبو عبد الله البريدي .. وتسلم سيف الدولة واسطا وعاد ناصر الدولة إلى بغداد ودخلها في ثالث عشر ذي الحجة وبين يديه الأسارى على الجمال ففرح الناس واطمأنوا ، ونظر في المصالح العامة ، وأصلح معيار الدينار (وضرب الدينار الإبريزي وكان يباع بثلاثة عشر درهما وكان الذي قبله بعشرة دراهم)

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة الحمدانيون يغرون من بغداد

في هذه السنة دخل سيف الدولة إلى واسط وقد انهزم عنها أبو عبد الله البريدي وأخوه أبو الحسين ، ثم اختلف الترك على سيف الدولة ومالوا إلى (توزون) ، وهم توزون هذا وجنوده بالقبض على سيف الدولة ، فهرب منهم قاصدا بغداد ، وبلغ أخاه ناصر الدولة أمير الأمراء ببغداد الخبر أن توزون يتجه بجيوشه الكثيفة إليه ، فخرج من بغداد إلى الموصل ، فنهبت داره ببغداد

وجاء أخوه سيف الدولة بعد خروجه منها ، فنزل بباب حرب ، وطلب من الخليفة المتقي لله أن يمدّه بمال يتقوى به على حرب توزون ، ولعل ناصر الدولة أخوه هو الذي أوحى إليه بذلك ، فبعث إليه بأربعمائة ألف درهم ، ففرقها في أصحابه . وحين سمع بقدم توزون خرج من بغداد .

— هذا تصرف غريب يا أبا الطيب من سيف الدولة ، إذا كان يسعى لأن يكون أميرا للأمراء كما هي العادة في مثل هذه الظروف ؟!!

— ليس غريبا ، ولا شيء من هذا ، أولا : لأن تجهيز جيش يسمح بمواجهه حقيقية يتكلف على الأقل عشرة أضعاف هذا المبلغ ، ثانيا : إن الخليفة كان يدرك ذلك جيدا ، وبدا الأمر كأن سائلا جاء يسألك فألهيته بلقمة .. وأعتقد أن سيف الدولة فهمها على هذا النحو ... ففرق المال في أصحابه وانسحب من بغداد ... وترك الخليفة لمصيره ..

— هل تظن يا أبا الطيب أن الخليفة كان مرتابا في نوايا سيف الدولة عند نزوله بباب حرب في بغداد؟

— لم لا ... كل الاحتمالات واردة في هذه الظروف العصيبة .

ودخلها توزون في الخامس والعشرين من رمضان ، فخلع عليه الخليفة ، وجعله أميراً للأمراء ، واستقر أمره ببغداد ، عند ذلك رجع أبو عبد الله البريدي إلى واسط وأخرج من

كان بها من أصحاب توزون ، وكان من أسرى توزون غلام لسيف الدولة يقال له ثمال . فأرسله إلى مولاه ، فحسن موقع ذلك عند آل حمدان .⁽¹⁾

وفي هذه السنة غلت الأسعار حتى أكل الناس الكلاب ، ووقع الوباء في الناس ، ووافى من الجراد شيء كثير جدا ، حتى بيع منه كل خمسين رطلا بدرهم ، فارتفق الناس به في الغلاء.

..... وفيها ورد كتاب ملك الروم إلى الخليفة يطلب فيه منديلا بكنيسة (الرها) كان المسيح قد مسح وجهه به ، فصارت صورة وجهه فيه ، ويعد المسلمين أنه إذا أرسل إليه ، يبعث من أسارى المسلمين خلقا كثيرا فأمر الخليفة بإرسال ذلك المنديل إليهم وتخليص الأسارى من أيديهم ..

ووصل الخبر بأن القرمطي وُلد له مولود ، فأهدي إليه أبو عبد الله البريدي هدايا عظيمة ، منها مهد من ذهب ، مرصع بالجواهر .

- يبدو يا أبا الطيب أن أبا عبد الله البريدي ينتوي شيئا ، تصرفاته مريبه ، يطلق أسير آل حمدان ، ويهدي القرمطي مهذا لوليدته من ذهب مرصع بالجواهر .. ماذا يريد !!؟
- لعله كان يرتب لشيئ .. ولكن الخليفة رد على ذلك بذكاء أيضا ...
- ماذا فعل ..؟

- بعث إلى عماد الدولة بن بويه خلعا فقبلها ولبسها بحضرة القضاة والأعيان .

(1) ضرب ناصر الدولة سكة ، زاد في الكتابة عليها : عبد آل محمد . (البداية والنهاية أحداث السنة) .

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة الخليفة يترك بغداد غضبان أسفا

في هذه السنة خرج المتقي لله من بغداد مغاضبا لتوزون أمير الأمراء وكان إذ ذاك بواسط وكان قد زوج ابنته من أبي عبد الله البريدي ، وصارا يدا واحدة على الخليفة .
— البريدي هذا داهية ..!

هو ذاك ... وأرسل توزون ابن شيرزاد في ثلاثمائة إلى بغداد فأفسد فيها ، وقطع ووصل دون مراجعة الخليفة ، الذي خرج بأهله وأولاده وزيره ومن اتبعه من الأمراء والأعيان من أهل بغداد قاصدا بني حمدان ، فتلقيه سيف الدولة إلى تكريت ، ولحق بهم ناصر الدولة وما لبث أن جاء توزون بقواته إلى تكريت أيضا ووقعت حروب وجولات انهزم فيها جميعا سيف الدولة وأخوه ناصر الدولة والخليفة من الموصل إلى نصيبين ، وجاء توزون ودخل الموصل ، ثم أرسل إلى الخليفة يطلب رضاه .

وافق الخليفة بشرط ان يتصالح مع بني حمدان فتصالحا على أن يضمن ناصر الدولة خراج بلاد الموصل ، ورجع توزون إلى بغداد ، وأقام الخليفة عند بني حمدان .

... وفي غيبة توزون عن واسط أقبل إليها معز الدولة بن بويه فأنحدر توزون إليها واقتتلا وانهزم معز الدولة ونهبت حواصله ، ورجع توزون إلى بغداد . ثم إن الخليفة كتب إلى توزون في الصلح فاصطلحا ... ولكن حدثت في الأمور أمور يأتي ذكرها بعد ..!

وفي هذه السنة جاء الدمستق ملك الروم إلى رأس العين في ثمانين ألفا ، فدخلها ونهب ما فيها وقتل أهلها ... فقاتله الأعراب قتالا شديدا حتى انجلى عنها .

وفي هذه السنة مات القرمطي أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الحسن الجنابي القرمطي ، لعنه الله وهو الذي قتل الحجاج حول الكعبة ... واقتلع الحجر الأسود وحمله إلى بلده هجر سنة سبع عشرة وثلاثمائة ولم يرده أصحابه إلا سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة وفيها أيضا مات أبو عبد الله البريدي .

ثم دخلت سنة ثلاثٍ وثلاثين وثلاثمائة ال خليفة يفقد عينيه والخلافة

كان الخليفة المتقي وهو مقيم بالموصل ، قد أرسل إلى الإخشيد محمد بن طنج صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية ، فأقبل عليه وخضع له غاية الخضوع وعرض عليه أن يسير معه إلى الديار المصرية أو يقيم ببلاد الشام ، فأبى عليه ذلك ، فأشار أن يقيم مكانه ولا يعود إلى بغداد وحذره من توزون وغدره ، فذكر أنه أخذ عليه العهود وأنه أقسم على الوفاء بعهده . أما الخليفة فقد ركب من الرقة في دجلة إلى بغداد ، وأرسل إلى توزون فاستوثق منه ما كان ماحلف من الأيمان ، فأكدها وكررها ، فلما اقترب منها خرج إليه توزون ومعه العساكر ، فلما رأى الخليفة قبل الأرض بين يديه ، وأظهر له أنه قد وقى له بما كان حلف عليه وأنزله في مضربه .

ثم جاء فاحتاط على من معه من الكبراء ، وأمر بسمل عيني الخليفة فسُملت عيناه ، فصاح صيحة عظيمة سمعها الحُرْم فضجت الأصوات بالبكاء ، فأمر توزون بضرب الدبابد حتى لا تسمع الأصوات ، ثم انحدر من فوره إلى بغداد فبايع للمستكفي بالله وكان عمره يوم بويع بالخلافة احدى وأربعين سنة ، وأحضر المتقي بين يديه ، وبايعه وأخذ منه البُرْدَة والقضيب وحبس المتقي بعد ذلك .

وفي أواخر هذه السنة ، أو في السنة التي بعدها على ما أذكر ، توفي القائم بأمر الله القاسم بن المهدي الفاطمي ⁽¹⁾ ، وقد عهد بالأمر من بعده لولده المنصور إسماعيل . وفي هذه السنة ركب معز الدولة في رجب منها إلى واسط ليحاصرها ، فبلغ خبره إلى توزون ، فركب هو والمستكفي بالله ، فلما سمع بهم معز الدولة رجع عنها إلى بلاده .

وفي هذه السنة ركب سيف الدولة علي بن حمدان إلى حلب ، فتسلمها من يأنس المؤنسي ، ثم سار إلى حمص ليأخذها ، فجاءته جيوش الإخشيد مع مولاه كافور ، فانهزم

(1) في سنة وفاته خلاف

كافور وأخذ سيف الدولة حمص ، ثم ركب إلى دمشق فحاصرها ، فلم يفتحها ، وقصد الإخشيد بجيوش كثيفة فالتقى بقتسر بن قنسرین فلم يظفر أحد منهما بالآخر فرجع سيف الدولة إلى الجزيرة ، ثم عاد إلى حلب ، فقصده الروم في جحافل كثيرة ، فالتقى معهم ، فظفر بهم وقتل منهم خلقا كثيرا .

— تركنا بدر بن عمار كثيرا ، دعنا نعود يا أبا الطيب إلى بدر ووشاية ابن كروس ...

— لم نذهب بعيدا فكما رأيت الأحداث في هذه الفترة وما حدث لابن رائق لا شك ينسحب أثره إلى بدر فينقلب مزاجه وقد كان يتعشم أن يكون شأنه شأنًا آخر واكب ذلك وشاية الوشاة وعلى رأسهم ابن كروس . فتغيرت معاملة بدر لي ، لاحظت ذلك في لهجته وما كان يطلبه مني وهو يعلم أنه يضايقتني مثل شرب الخمر مثلا

المهم حاولت جاهدا أن أصلح ما أفسده ابن كروس ، فقصدت قصيدة وانتظرت لما عاد بدر إلى طبرية وضربت له القباب ، فقلت له القصيدة محاولا إرضاءه والاعتذار عن تخلفي عنه وكاشفا ستر الوشاة والحاقدين وكان مطلعها :

الحب ما منع الكلام الألسنا * وألذ شكوى عاشق ما أعلننا

ثم أقول له :

أنكرت طارقة الحوادث مرة * ثم اعترفت لها فصارت ديدنا
وقطعت في الدنيا الفلا ، وركائبي * فيها ، ووقتي الضحا والموهنا
فوقفتُ منها حيث أوقفني الندي * وبلغت من بدر بن عمار المنى

ثم أقول :

أضحى فراقك لي عليه عقوبة * ليس الذي قاسيت منه هيّنا
فاغفر فدى لك واحبني من بعدها * لتخصني بعتية منها أنا
وانة المشير عليك في بضلة * فالحرّ ممتهن بأولاد الزنا
وإذا الفتى طرح الكلام معرّضا * في مجلس أخذ الكلام اللذ عنى
ومكايد السفهاء واقعة بهم * وعداوة الشعراء بنس المقتنى
لُعنت مقارنة اللئيم فإنها * ضيف يجر من الندامة ضيفنا

غضب الحسود إذا لقيتك راضيا * رزء أخف عليّ من أن يوزنا

* واشتد هذا الكيد عليّ حتى حملني على فراق بدر ، إذ نكر جانبي ولم أجد عنده كل ما أرادت من أمان ، ووجدته يسمع للوشاة ويصغيهم أذنه

والظاهر أن بدرا كان قد حمّل في نفسه شيئا من آثار سعايات الأعور بن كروس في حقي فلما عاد إلى طبرية ولقيته هناك في خيمته التي أقاموها لاستقباله ، فطنت لما يدور في نفسه ، وخفت أن يخذلني ، فاعتزمت الفراق ، وكان مما جعلني أصبر هذه المدة في جواره ما أعرفه عن رجولته وليس في طبعه الخيانة فضلا عن أسرتي الصغيرة زوجتي وولدي محسد فكنّت أميل إلى الاستقرار ، ولكن أتى لي ذلك مع نكايات ابن كروس ، ولذلك كانت هذه آخر قصيدة ..

وكان خوفي أن يُسلمني بدر إلى أعدائي.

ثم بقيت مع بدر وأنا أضمر في نفسي الفراق فكنّت أحاول مرضاته بشتي الطرق حتى أفضل سعايات ابن كروس ، وبما يسمح لي بمغادرة آمنه من جوار هذا الرجل ، خاصة وقد أصبحت لي أسرة ؛ زوجة وولد أحسبهما في حساباتي وانتقالي . فلم يتيسر لي ذلك قبل هذه السنة 333هـ .

وكان من ذلك اضطراري لشرب الخمر في مجلسه ، وهو يعلم أنني لا أشرب الخمر ⁽¹⁾ فلما طلب مني شربها معه لم أجد بدا من مجاراته ، وكانت تجربة صعبة على نفسي أن أصنع شيئا

(1)

هل كان المتنبي زنديقا لا يرعى عقيدته ودينه كما قال البعض (انظر د مصطفى الشكعة - أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين - الدار المصرية اللبنانية ط 2 - 2004 ص 35 وما بعدها ؟

وانظر د عبد الله التطاوي ، مداخل فكرية ونفسية إلى المتنبي ص 9 وما بعدها - مكتبة الأنجلو 1991 - إقرأ هذا المقطع من شرح أبي العلاء - معجز أحمد

واقرا إن شئت ما قاله يلتمس العفو من الوالي وهو في السجن يقول :

دعوتك لمّا بران البلى * وأوهن رجلي ثقل الحديد

وقد كان مشيهما في النعال * فقد صار مشيهما في القيود

وكنّت من الناس في محفل * فها أنا في محفل من قرو

[لصوص أطاعوا أبا مرة * بترك الركوع وترك السجود

كأنّي قرنت بهم في الجحيم*م أرى كل يوم وجوه اليهود]

يقول محقق معجز أحمد :

هذان البيتان لم يذكر في الواحدي ولا التبيان ولا الديوان وبعض النسخ مثل (ق)، أدب قوله دار الكتب المصرية ،
(ب) المتحف البريطاني مصورة بدار الكتب ، وقد اعتمدنا في إثباتهما على أنهما ذكرا في (ا) نسخة رقم 4240 أدب مصور عن
المتحف البريطاني ، (ع) عثمان بن مصطفى - جامعة القاهرة ، (خ) .ميونخ مخطوطة رقم 514 (معجز أحمد 197/1) .

[لقد رجعت في تفاصيل بيان النسخ للمقدمة .]

انظر إلى أبي الطيب في البيت الرابع يستهجن أن يطيع هؤلاء اللصوص الشيطان فيتركون الصلاة ركوعا وسجودا ،
أ ترى يستهجن ترك الصلاة ولا يصلي كما اتهمه البعض ؟؟! ليس هذا فحسب بل يذكر ذلك شعرا . وقد أخذ عليه أحدهم أنه رآه
يصلي العصر ركعتين وكأن ذلك بدعه وما أدراه أنه ربما كان على سفر وقد كان كثير الأسفار.؟؟! فكان يصلي قصرا. ولعل
صلاته ركعتين دليل على عكس ما يري صاحب الرواية لأن معناها أنه يحافظ على الصلاة حتى وإن كان على سفر ولو كان لديه
خفة في دينه ما صلى أصلا ، إذا فقد كان يصلي .]

وربما سقطت هذه الأبيات من بعض النسخ نتيجة خطأ أحد النساخ في مرحلة تاريخية سابقة ؟!

* أم ما قيل عنه بأنه ما قرأ القرآن . قليلا لي أحدهم من أين جاء بكل هذه الشواهد القرآنية في أشعاره . أما قراءته القرآن
نافلة وعبادة ، فلننظر أولا لهذا العصر الذي عاش فيه المتنبي ولنسأل أنفسنا هل كنا نريد من المتنبي أن يكون ملاكا وسط
شياطين أم نبيا وسط يهود كما ذكر هو في بعض أشعاره ، ويذكر روايته أنه عرفت عنه ثلاث خصال محموده وهي أنه ما كذب
ولا زنا ولا لاط ..

أما الصفات المذمومة التي ذكرها الرواه وربما المغرضون ممن نسخوا آثاره أنه ماصم ولا صلى ولا قرأ القرآن وقد
رددنا عن اثنتين أما الصيام فإن هذا لا يتصور إلا أن يكون المتنبي يفطر في نهار رمضان جهارا ، ولنا أن نسأل : وهل يعقل
هذا من رجل يدعي أنه علوي من الأشراف ، أترك الرذائل والكبائر التي ينظر إليها بعض معاصريه على أنها أمور عادية
كشرب الخمر والزنى واللواط ثم يأتي فيفطر في نهار رمضان عيانا .. كيف ؟؟؟! ولعل مروجوا هذه الصفات عن أبي الطيب
أرادوا أن يلصقوا به مذهب القرامطة أو يلصقوه بهم ، مما يصقظه في نظر عموم الناس كداع علوي ، وإذا كان هذا ظاهرا أمام
الناس فلماذا لم نجد لذلك صدق في أشعار هجائيته من حساده والحاقدين عليه ؟؟؟!

..... قال علي بن حمزة البصري : " بلوت من أبي الطيب ثلاث خصال محمودة ، وتلك أنه ما كذب ، ولا زنى ، ولا لاط) (شاكر

، ص 164 ، 165 / 2)

وقال ابن فورجة " لم يكن فيه ما يشينه ويسقطه إلا بخله وشره على المال " (شاكر 165 / 2)

وهذا شاهد من شهود عصر يقول لم يكن فيه ما يشينه ثم يستثني ، لم يقل تركه للصلاة والصيام وقراءة القرآن وكلها أمور
تشين المسلم خاصة إذا ما ادعى النسب الشريف ، ولكنه استثنى البخل والشره على المال .

وقد ذكر المتنبي جانب من أخلاقه في أبيات له ... منها قوله :

وترى المروة والفتوة والأبو * ة في كل مليحة ضربتُها

أكرهه وكان هدفي صرف بدر بن عمار عما في نفسه تجاهي . حتى تُعرض لي الساعة المواتية للفراق ، فلما أتت الساعة ، بادرت واحتملت أهلي وخرجت وكانت وجهتي دمشق . كانت قد وقعت بين محمد بن طغج وبين سيف الدولة أمير حلب وحشة امتدت من سنة 333هـ إلى أول سنة 334هـ واصطلحا على أن تكون لسيف لدولة حلب وحمص وأنطاكية وتظل بقية بلاد الشام للإخشيد (1)

هن الثلاث المانعاتي لذتي * في خلوتي لا الخوف من تبعاتها.
وما ردّي هذا تعصبا ولكن شواهد لمحتها في ثنايا الكتب والمراجع تجمعت في ذهني وأنا أقرا ما رواه الرواة عن محاسنه ومثالبه فأثرت طرحها من وجهة نظري وقد أكون مخطئا وقد أكون مصيباً .
الغريب أيضا أنك تجد من أشعاره وما رواه الرواه ما يفيد عكس ذلك. فذلك علي بن حمزة البصري يقول أيضا (وخبرت منه ثلاثاً مذمومة أنه ماصام لا صلى ولا قرأ القرآن ، وقد كان عليّ هذا مُضَيِّفه عندما ذهب إلى بغداد ، يضاف إلى ذلك ما قاله في بعض أشعاره في مديح سيف الدولة سنة 340 هـ والتي بالغ فيها مبالغة مفرجة وأيضا خفة في صياغة المعنى لم يكن من الصعب عليه أن يغيرها فيقول :

نزور ديارا ما نحب لها مغنى * ونسأل فيها غير ساكنها الإذنا
نقود إليها الآخذات لنا المدى * عليها الكماة المحسنون بها الظنا
وئصفي الذي يُكنى أبا الحسن الهوى * ونرضى الذي يُسمى الإله ولا يُكنى
هل يصح أن يذكر المولى عز وجل في المديح بهذا الأسلوب . وفي مدح أحد العلويين يأتي ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم حيث يقول :

وأبهر آيات التهامي أنّه * أبوكم ، وإحدي ما لكم من مناقب
إذا لم تكن نفس النسيب كأصله * فماذا الذي تُغني كرام المناصب
وهذا تجرأ غير محسوب على الرسول صلى الله عليه وسلم مثله مثل التجرأ على المولى سبحانه وتعالى في المقطع السابق وإن كان قال النقيض من ذلك في موضع آخر :

إذا كان مدح فالنسيبُ المقدم * أكلُ فصيح قال شعرا متيم ؟
لحب ابن عبد الله أولى فإنه * به يبدأ الذكر الجميل ويُختم
... هكذا هي مبالغات المتنبي في مدائحه وأشعاره ، وإذا وصفناه في الأولى بالزندقة ، فيماذا نصفه في الثانية ؟ ، بالتصوف !!
ولكن إلى هذا الحد ..؟! نعم ... وإلا ما كان هناك من يسمى بالمتنبي . لقد كان يطلق مبالغاته على عواهنها ولتصل في مداها إلى ما تصل إليه ، و يعرف النتائج مسبقا . الصدمة أو الإبهار وهذا ما يقصده ، أيا كان الثمن لو كان الثمن الشك في دينه وعقيدته هذا هو المتنبي ... !!

(1) وسرعان ما توفي (ابن طغج) بدمشق سنة 334هـ مستخلفا بعده ابنه (أنوجور) وعاهدا إلى مولاه كافور الإخشيدي بتدبير أمور ملكه. وفي أوائل ولاية (أنوجور) سنة 335 استولى سيف الدولة الحمداني على دمشق ، فحشد له أنوجور

— وصلت إذا إلى دمشق ...؟

— قصدت أولاً عملاً من أعمالها يقال له (حمى جرش) ، وكان به أبو الحسين علي بن أحمد المري الخراساني ، وكان بيننا مودة ونحن بطبرية ، فلجأت إليه ، واحتमित بحماه ، وذلك في سنة 333 هـ وكتبت فيه شعراً

— ولماذا دمشق يا أبا الطيب ؟

— ألم تتابع معي الموقف السياسي في هذه الفترة ... دمشق وأعمالها في هذه الفترة ولاية من ولايات محمد بن طغج الإخشيد ، وهي أكثر استقراراً وهدوءاً عن سواها وعن بغداد بؤرة الصراع ، لقد دخل ابن طغج دمشق وتسلمها من نائب ابن رائق كما يقول الرواة ولم ينتطح فيها عنزان .

ثم إنني كنت أود الفرار من منطقة نفوذ بدر بن عمار ، الذي سمع للوشاة فيّ ،

— ماذا قلت في المريّ الخراساني ؟؟

— مما قلته فيه من الأشعار :

لا افتخار إلا لمن لا يضام * مدرك أو محارب لا ينام
ليس عزماً ما مرّض المرء فيه * ليس هما ما عاق عنه الظلام
واحتمال الأذى ورؤية جانيه * غذاء تضوى به الأجسام
ذل من يغبط الذليل بعيش * ربّ عيش أخف منه الحمام

.....

أفرار أذ فوق شرار * ومراما أبغي وظلمي يرام
دون أن يشرق الحجاز ونجد * والعراقان ، بالقنا ، والشام
— مازالت قصائدك مشتتة يا أبا الطيب ..!

عسكراً ضخماً ولقيه في مدينة الرملة ونشب بينهما وقعة طاحنة انكسر فيها جند سيف الدولة وسار المصريون وراءهم إلى حلب . واستقر الأمر على الصلح . وأن يظل لسيف الدولة ما بيده من حلب وحمص وانطاكية ، أما دمشق وبقية الشام فتظل لأنوجور . (راجع البداية والنهاية)

— الأحوال تفرض ذلك ، ثم هذا الأعور الذي يطاردني بمكره وقلبه المريض لا أعرف ماذا يريد مني ، يبدو أنه مسلط عليّ ... يتابعني ويدبر لي المكائد ... وأفلت منه باستمرار ...

فعلجت بالرحيل غير مختار له ، فقلت أودع صاحبي المري وأعتذر له على فراقى المفاجئ :

لا تنكرن رحيلي عنك في عجل * فإنني لرحيلي غير مختار
وربما فارق الإنسان مهجته * يوم الوغى ، غير قال ، خشية العار
وقد منيت بحساد أحاربهم * فاجعل نداك عليهم بعض أنصاري

— إذا فقد بلغك ما كان يحيكه ابن كروس للإيقاع بك ...

— نعم فعلى الرغم من عداوة ابن كروس وأمثاله من المرضى والحاquدين والمأجورين إلا أن الله يحميني بأصدقاء أوفياء مخلصين يتعاطفون معي فيأتيني الخبر في الوقت المناسب الذي يسمح بأن أتدبر أمري وأفلت من مكائدهم .. ربما لأن في العمر بقية .

— نعم سبحانه يسبب الأسباب .. كان هروبك هذه المرة صعبا يا أبا الطيب ، فمعك أهلك ...

— كنت دائما أتدبر أمرهم قبلي ، حتى لا أعرضهم للخطر وهم معي ... فكانوا إما يسبقونني وإما يتأخرون عني للتورية . فأنا وأنا وحدي كفيل بمواجهة المخاطر ويسهل على حينئذ الفرار والتخفي .

— كانت الخطورة إلى هذه الدرجة ؟!

— نعم كنت مهددا بالقتل في أي لحظة من ليل أو نهار .. !!

ومما قتلته أصف مسيري في البواري وما لقيت في أسفاري ، وفيها كلت الذم للأعور ابن كروس

عذيري من عذاري من أمور * سكنَ جوانحي بدل الخدور
ومبتسمات هيجاوات عصر * عن الأسياف ليس عن الثغور
ركبت مشمرا قدمي إليها * وكل عذافر قلق الضفور
أوانا في بيوت البدو رحلي * وآونة على قتد البعير
أعرض للرماح الصم نحري * وأنصب حُرّ وجهي للهجير

وأُسري في ظلام الليل وحدي * كأني منه في قمر منير
فقلّ في حاجة لم أقض منها * على شغفي بها شروي نقيير
ونفس لا تجيب إلى خسيس * وعين لا تدار على نظير
وكف لا تنازع من أتاني * ينازعني سوى شرفي وخيري
وقلّت ناصر جُوزيت عني * بشر منك يا شرّ الدهور
عدوي كل شيء فيك حتى * لخلت الأكم موعرة الصدور
فلو أني حُسدت على نفيس * لجدت به لذي الجد العثور
ولكني حسدت على حياتي * وما خير الحياة بلا سرور
فيا ابن كروس يا نصف أعمى * وإن تفخر فيا نصف البصير
تعاديننا لأنّا غير لُكن * وتبغضنا لأنّا غير عور
فلو كنت امرأ يُهَجَى هَجُونَا * ولكن قلّ فترّ عن مسير

..

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة البويهيون في دار السلام

وبعد هذا الفرار في البوادي والقفار وما لقيت في المفاز والمهالك وصلت إلى أنطاكية فدخلتها سنة 334 هـ وكان بها أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد الخصيبي ، وكان ينوب عن أبيه في مجلس القضاء بأنطاكية ، وكان أبو عبد الله الخصيبي داهية من دهاة عصره فقصدته أمدحه ، وجعلت أول القصيدة يدل على ما لاقيته من متاعب ومهالك ومعاناة من الدنيا والناس وأعلنت رأي صراحة في الحكام والملوك والأمراء حتى الخليفة ، فأنا لا أكذب على نفسي وليس أحد أعز عليّ من نفسي !! .

أفاضل الناس أغراض لذي الزمن * يخلو من الهمّ أخلاهم من الفطن
وإنما نحن في جيل سواسية * شر على الحر من سقم على بدن
حولي بكل مكان منهم خلقٌ * تخطي إذا جئت في استفهامها بمن
لا أقترى بلداً إلا على غرر * ولا أمرّ بخلق غير مضطغن
ولا أعاشر من أملاكهم ملكا * إلا أحق بضرب الراس من وثن

.....

ومدقعين بسبروت صحبتهم * عارين من حلل كاسين من درن
خرّاب بادية غرثي بطونهم * مكنُ الضباب لهم زاد بلا ثمن
يستخبرون فلا أعطيه خبري * وما يطيش لهم سهم من الظنن

.....

قد هون الصبر عندي كل نازلة * وليّن العزم حدّ المركب الخشن

ثم مدحته قائلا :

ألقي الكرام الأولي بادوا مكارمهم * على الخصيبي عند الفرض والسنن
فهن في الحجر منه كلما عرضت * له اليتامى بدا بالمجد والمنن

قاض إذا التبس الأمران عَنْ له * رأيٌ يُخْلَصُ بين الماء واللبن

- ولكن ماذا عن بغداد وأحوالها في هذه السنة ، أقصد سنة 334 هـ....

- في هذه السنة حدثت أشياء كثيرة فمثلا :

في المحرم منها زاد الخليفة في لقبه (إمام الحق) ، وكتب ذلك على سكة المعاملة ، وقاله الخطباء على المنابر أيام الجمع .

وفي المحرم من هذه السنة مات توزون التركي في داره ببغداد ، كان ابن شيرزاد كاتبه ، وهو (بهيت) لتخليص المال ، فلما بلغه الخبر أراد أن يعقد البيعة لناصر الدولة بن حمدان ، فاضطربت الأجناد كلهم وحلفوا له ، وحلف له الخليفة والقضاة والأعيان ، ودخل على الخليفة ، فخطبه بأمير الأمراء وأمر ونهى ، وولى وعزل ، وقطع ووصل ، وفرح بنفسه ثلاثة أشهر وعشرين يوما ، ثم جاءت الأخبار بأن معز الدولة بن بويه قد أقبل في الجيوش قاصدا بغداد ، فاخترق ابن شيرزاد والخليفة أيضا ، وخرج أكثر الأتراك قاصدين إلى الموصل ليكونوا مع ناصر الدولة بن حمدان .

.... أقبل معز الدولة أبو الحسين أحمد بن بويه في جحافل ، فلما اقترب من بغداد بعث إليه الخليفة المستكفي بالله الهدايا و بعث إليه بالخلع التحف ودخل معز الدولة بن بويه بغداد في حادي عشر جمادى الأولى من هذه السنة ، ودخل من الغد إلى الخليفة فبايعه ، وخلع عليه المستكفي ولقبه بمعز الدولة ، ولقب أخاه أبا الحسن عليا بعماد الدولة ، وأخاه أبا علي الحسن بركن الدولة ، وكتب ألقابهم على الدراهم والدنانير واستقرت الأمور .

ولما كان اليوم الثاني والعشرين من جمادى الآخرة ، حضر معز الدولة إلى حضرة الخليفة ، ومعه اثنان من الغلمان فأنزلاه عن كرسيه وسحباةوسيق ماشيا إلى دار معز الدولة فاعتقل بها . وأحضر أبو القاسم الفضل بن المقتدر ، فبويع بالخلافة ، وسملت عينا المستكفي ، (1)

(1) وأودع السجن ، فلم يزل مسجوناً حتى وفاته سنة 338 هـ راجع البداية والنهاية أحداث 338

... كان الفضل مختفيا من المستكفي ... ويقال إنه اجتمع بمعز الدولة سرا وحرضه على المستكفي ... فأحضر وبويع بالخلافة ولقب (المطيع لله) وبايعه الأمراء والأعيان ومعز الدولة والعامّة ، وضعف أمر الخليفة جدا حتى لم يبق للخلافة أمر ولا نهي ولا وزير أيضا وإنما يكون له كاتب على إقطاعه فقط ويُرجع في كل شيء إلى معز الدولة .

.... ثم نشبت الحرب بين ناصر الدولة بن حمدان وبين معز الدولة بن بويه ... فدخل ناصر الدولة بغداد وأخذ الجانب الشرقي ثم الغربي وضعف أمر معز الدولة ،.... ثم مكر معز الدولة بناصر الدولة وظهر عليه ونهب الديالمة بغداد ... ثم وقع الصلح بينهما ورجع ابن حمدان إلى بلده الموصل ، واستقر معز الدولة بمدينة السلام بغداد

- يبدو أن معز الدولة هذا داهية !! ، يقال يا أبا الطيب أنه في هذه الأثناء جاءك كتابٌ من جدتك ؟⁽¹⁾

- نعم جاءني كتاب من جدتي تشكو شوقها إليّ وطول غيبتني عنها وأنها تخشى أن تهلك قبل أن تراني . فلم أستطع صبرا على بعدها فتركت أهلي في أنطاكية وعدت على عجل إلى العراق وكان ذلك نهاية سنة 334 أوائل 335 هـ

(1) راجع مقدمات القصائد - معجز أحمد ؛ وديوان المتنبي ، تحقيق عزام ؛ وديوان أبي الطيب ، شرح مصطفى سببتي ، و

شاكر ، ص 277 / 10)

ودخلت سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة أبو الطيب ممنوع من دخول بلده

وعندما اقتربت من الكوفة ، التقيت بأحد الأصدقاء وأنا في طريقي ، وكان قادما لتوّه من الكوفة ، وكان على معرفة بأسباب المشاكل التي تَرَكْتُ من أجلها الكوفة ، أخبرني هذا الصديق أن العلويين الذين هددتهم قبل أن أترك الكوفة علموا بخبر رسالة جدتي إليّ وينتظرونني على مداخل الكوفة ، وأقسموا أنني لن أدخلها حيا ..! وحذرنى أنهم جادّون في ذلك ..! لما علمت أن الأمر هكذا رجوته أن يعود لتوّه إلى الكوفة ويحمل رسالة مني إلى جدتي أطلب منها أن توافيني إلى بغداد في مكان حددته في رسالتي وأرسلت معه بعض المال لمؤونة السفر، وأكدت عليه سرية هذا الأمر ، وطلبت منه أن يوافيني بخبر ذلك في بغداد .

— وهل جاءت جدتك إلى بغداد ؟

— جاءني وأخبرني ...!!قال إنها تسلمت رسالتي وقبّلتها وقرأتها وفرحت فرحا شديدا بأنها سوف تراني في بغداد ثم لم يحتمل قلبها هذه الفرحة ، ففارقت الحياة ..!!

— ماذا فعلت يا أبا الطيب ..!؟

— انخرطت في بكاء شديد وكأني لم أبك طول حياتي ، وكأني أبكي فيها كل أهلي وعشيرتي وأظلمت الدنيا في عيني ، وكدت أن أخاطر بالذهاب إلى الكوفة شاهرا سيفي لأنتقم من هؤلاء الذي قتلوها حزنا عليّ وقتلوني حزنا عليها ، وليكن ما يكون ..!

ولكن صديقي هذا هدأ من ثورتي وظلّ معي حتى عُدْتُ إلى رشدي ، وذكرني بأهلي الذين تركتهم في الشام .. فخرجت ثوب أحزاني وعدت إلى أنطاكية مرة أخرىوقلت قصيدي فيها ، أرثيها وأنا في طريقي عائدا أقول فيها :

لك الله من مفجوعة بحبيبها * قتيلة شوق غير ملحقها وصما

أحن إلى الكأس التي شربت بها * وأهوى لمثواها التراب وما ضمّا

بكيت عليها خيفة في حياتها * وذاق كلانا ثكل صاحبه قدما

.....
أتاها كتابي بعد يأس وترحة * فماتت سرورا بي فمت بها غما
حرام علي قلبي السرور فإنني * أعدّ الذي ماتت به بعدها سُمّا

.....
رقادمعها الجاري وجفت جفونها * وفارق حبي قلبها بعدما أدمى
ولم يسئلها إلا المنايا وإنما * أشد من السقم الذي أذهب السقما
طلبت لها حظا ففاتت وفاتني * وقد رضيت بي لو رضيت بها قسما
فأصبحت أستسقي الغمام لقبرها * وقد كنت أستسقي الوغى والقنا الصمّا
وكنت قبيل الموت أستعظم النوى * فقد صارت الصغرى التي كانت العظمى

.....
لئن لذي يوم الشامتين بيومها * لقد ولدت مني لآنافهم رغما
تغرب لا مستعظما غير نفسه * ولا قابلا إلا لخالقه حكما
ولا سالكا إلا فؤاد عجاجة * ولا واجداً إلا لمكرمة طعما

.....
ولكنني مستنصر بذبابة * ومرتكب في كل حال به الغشما
وجاعله يوم اللقاء تحيتي * وإلا فلست السيد البطل القرما

.....
كذا أنا يا دنيا إذا شنت فاذهبي * ويا نفس زيدي في كرائها قدما
فلا عبرت بي ساعة لا تعزني * ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما

— يقال ان في هذا العام عاشت بغداد مجاعة ..؟؟!!

— نعم في هذه السنة وقع غلاء شديد ببغداد حتى أكلوا الميتة والكلاب والسنانير ، وكان من الناس من يسرق الأولاد فيشويهم ويأكلهم ، وكثر الموت في الناس حتى كان لا يدفن أحد أحدا ،

بل يتركون في الطرقات فتأكلهم الكلاب ، ... وفر الناس من هذا القحط إلى البصرة ، منهم من مات في الطريق ومنهم من مات بعدما وصل بقليل .

— شاهد أنت يا أبا الطيب على هذه الأحداث !!؟

— نعم كنت في بغداد ، على وعد أن توافيني جدتي بها قبل وفاتها يرحمها الله ، وليتني ما ذهبت إلى بغداد ولا رأيته على هذه الحال ، كأنها مدينة الأشباح الوجوه شاحبة والموت يطل من العيون ، حتى الهواء تشم فيه رائحة الموت ، كانوا لا يدفنون الموتى .. هل تتخيل هذا الوضع .!!؟ كانت العيون ترمقني كغريب عن البلاد في بعضها استعطاف وفي البعض الآخر تنمر..

— خشيت على نفسك يا أبا الطيب ..؟

— ومن لا يخشى على نفسه في مدينة الموت هذه ... واحسرتاه عليك يا دار السلام ...
واحسرتاه يا بغداد !..

— عدت إلى أنطاكية يا أبا الطيب ؟

— نعم عدت إلى أهلي كسيفَ البال ... لا ألوى على شيء ... ولكنها الحياة ومطالبها ، فكتبت شعرا في أبو الفضل أحمد بن عبد الله الأنطاكي وقد ظهر فيها خلجات نفسي بعد هذه التجربة المريرة في وفاة جدتي و معاناتي في سفري .
أقول له :

أَنعَمْ وَلِذْ فَلَأَمُورٌ أَوَاخِرُ * أَبَدَا إِذَا كَانَتْ لَهْنَ أَوَائِلُ
مَا دَمْتُ مِنْ أَرْبِ الْحَسَانِ فَإِنَّمَا * رَوْقُ الشَّبَابِ عَلَيْكَ ظِلُّ زَائِلُ
لِلَّهِوَ آوَنَةٌ تَمُرُّ كَأَنَّهَا * قَبْلُ يَزُودُهَا حَبِيبٌ رَاحِلُ
جَمَحُ الزَّمَانِ فَلَا لَذِيذَ خَالِصٍ * مِمَّا يَشُوبُ ، وَلَا سُرُورَ كَامِلُ
حَتَّى أَبُو الْفَضْلِ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَأَى * يَتَهُ الْمُنَى وَهِيَ الْمَقَامُ الْهَائِلُ
مَمْطُورَةٌ طَرَقِي إِلَيْهَا دُونَهَا * مِنْ جُودِهِ فِي كُلِّ فَجٍّ وَابِلُ

.....

لا تجسر الفصحاء تنشد ههنا * بيتا ولكني الهزبر الباسل
ما نال أهل الجاهلية كلهم * شعري ولا سمعت بسحري بابل
وإذا أتتك مذمتي من ناقص * فهي الشهادة لي بأني كامل

— يقال يا أبا الطيب أنك مدحت أيضا أخا هذا القاضي ..

— تقصد سهل بن سعيد بن عبد الله بن الحسن الأنطاكي ... نعم مدحته
قلت له قصيدة استهللتها بالنسيب :

قد علم البين منّا البين أجفانا * تدمي وألف في ذا القلب أحزانا

.....

إذا قدمت على الأهوال شيعني * قلب ، إذا شئت أن أسلاكم خانا
أبدو فيسجد من بالسوء يذكرني * فلا أعاتبه صفحا وإهوانا
وهكذا كنت في أهلي وفي وطني * إن النفيس غريب حيثما كانا
محسداً الفضل مكذوب على أثري * ألقى الكمي ويلقاني إذا حانا

وأقول له في ختامها :

قد شرف الله أرضاً أنت ساكنها * وشرف الناس إذ سواك أنسانا

— يبدو يا أبا الطيب أن الحمدانيين قد استقرت دولتهم في الشام بعد المواجهة التي وضعت
الأمور في نصابها بين ناصر الدولة وبين معز الدولة... وبين سيف الدولة وكافور
— هذا صحيح وإن كان الأمر لا يسلم من مناوشات هنا وهناك .. ففي هذه السنة حارب ناصر
الدولة تكين التركي ⁽¹⁾

فاقتتلا مرات متعددة ، ثم ظفر ناصر الدولة به ، فسمله بين يديه ، واستقر أمره بالموصل
والجزيرة .

— تقصد محمد بن تكين ... فقد مات تكين سنة 321هـ

(1) (ملحوظة : مذكره صاحب البداية والنهاية أنه تكين التركي ، والصواب أنه محمد بن تكين ، حيث مات تكين سنة 321 هـ
ومحمد هذا أثار مشاكل عدة مع ابن طغج من قبل في ولايته الأولى على مصر . راجع البداية والنهاية أحداث 321 هـ)

— نعم نعم ... محمد بن تكين ...

وفي هذه السنة 335 هـ اتسعت مملكة بني بويه فشملت الري والجبل وأصبهان وفارس والأهواز والعراق ، و يحمل إليهم ضمان الموصل وديار مضر و ربيعة من الجزيرة
— يقال إن في هذه السنة هزم جيش معز الدولة جيش أبا القاسم البريدي ، وأسر من أعيانهم الكثير.

— نعم وفي هذه السنة أيضا، وقع الفداء بين الروم والمسلمين على يد نصر الثملي أمير الثغور لسيف الدولة بن حمدان وكان عدد الأسارى ألفين وخمسمائة مسلم .

— ذكر الرواة أنك في هذه السنة ذهبت إلى مصر الفسطاط ..؟

— نعم ... ذهبت لأستطلع الأحوال وأنظر إن كان في الإمكان العيش بها ، وكنت قد تركت أهلي بالشام ... كانت ظروف وفاة الإخشيد مازالت تترك مسحتها على البلاد والعباد ... وحلت وأنا في مصر ذكرى وفاته الأولى واستعد القصر لاستقبال المعزين المشاركين في إحياء الذكرى السنوية وأقيمت السراذقات أمام القصر والتي يقرأ فيها القرآن وتلقى بين القراءة والقراءة خطبة تُذكر فيها مآثر الإخشيد و يدعى له بالرحمة والمغفرة ... فألقيت قصيدة رثاء له في ذلك السرادق ... وكان فيها : ⁽¹⁾

هو الزمان مشت بالذي جمعا * في كل يوم نرى من صرفه بدعا
لو كان ممتنع تغنيه منعه * لم يصنع الدهر بالإخشيد ما صنعا
ذاق الحمام فلم تدفع كتائبه * عنه القضاء ولا أغناه ما منعا
لقد نعى من نعاه كل مفتخر * وكل جود لأهل الأرض حين نعى
لله ما حلّ بالإسلام حين سوى * لقد وهى شعب هذا الدين فأنصدا
فمن تراه يقود الخيل ساهمة * سدّ القضاء وملء الأرض ما وسعا
ترى الحتوف غلوقا في أسنته * لدى الوغى وشهاب الموت قد لمعا
لو كان يسطع قبر ضمّه لسعى * إليه شوقا ليلقاه وإن شسعا

(1) راجع مصطفى الشكعة ، مرجع سابق ص 315 ، عن نهاية الأرب .

ثم انفضت السراقات المقامة ... ولم أجد الأحوال تُعِدُّ بعيشة أرضاها في الفساط ... فعدت
أدراجي إلى الشام أبحث عن ممدوحين!

- مازلت طوافا في بلاد الشام تمدح الأعيان ؟

- نعم هذه صناعتي التي أعيش عليها ، مدحت أيضا أبا أيوب أحمد بن عمران ..

ومن ذلك قلبي له : (1)

سِرْبٌ مَحَاسِنُهُ حُرْمَتْ ذَوَاتِهَا * دَانِي الصِّفَاتِ بَعِيدُ مَوْصُوفَاتِهَا

.....

إني على شغفي بما في خُمُرِهَا * لَأَعْفُ عَمَّا فِي سَرَابِيلَاتِهَا

وترى المروة والفتوة والأبو * ة في كل مليحة ضراتها

هن الثلاث المانعاتي لذتي * في خلوتي لا الخوف من تبعاتِهَا

ومطالب فيها الهلاك ، أتيتها * ثَبَّتَ الجنان كأنني لم آتِهَا

ومقانب بمقانب غادرتها * أقوات وحش كن من أقواتِهَا

أقبلتها غرر الجياد ، كأنما * أيدي بني عمران في جبهاتِهَا

- من مدحت أيضا في هذه الفترة ؟

- مدحت علي بن أحمد بن عامر الأنطاكي ومما قلت له :

أطاعن خيلا من فوارسها الدهر * وحيدا وما قولِي كذا ومعِي الصبرُ

وأشجع مني كل يوم سلامتي * وما ثَبَّتت إلا وفي نفسها أمرُ

تمرسْتُ بالآفات حتى تركتها * تقول أَمَات الموت أم دَعَر الذعر

- رحلت يا أبا الطيب عن أنطاكية تقصد دمشق ؟

(1)* (راجع في ترتيب قصائد هذه الفترة ، المتنبي محمود شاكر ؛ وشرح ديوان أبي الطيب المتنبي لمصطفى سبيتي)

- نعم ولكنني في طريقي عرجت على بني تميم وفيهم عليّ بن محمد بن سيار بن مُكرم التميمي ، وكان من كبار القوم ، وكان يشتهر بحبه للرمي بالشباب ، أقمت عندهم بعض الوقت ، وقد أرسل إليّ عليّ هذا وكيله ، فاجلسته وكتبت إلى عليّ هذه القصيدة التي أقول في بعضها :

ضروب الناس عشاق ضروبا * فأعذرهم أشفهم حبيبا
وما سكاني سوى قتل الأعادي * فهل من زورة تشفي القلوبا
تظل الطيرُ منها في حديث * تُردّ به الصراصر والنعيبا

.....

وشيخ في الشباب وليس شيخا * يسمى كل من بلغ المشيبا
قسا فالأسد تفرع من يديه * ورقّ فنحن نخشي أن يذوبا
أشد من الرياح الهوج بطشا * وأسرع في الندي منها هبوبا
وقالوا ذاك أرمى من رأينا * فقلت رايتم الغرض القريبا
وهل يخطي بأسهمه الرمايا * وما يخطي بما ظن الغيوبا
ثم أختتمتها قائلا :

فلا زالت ديارك مشرقات * ولا دانيت يا شمسُ الغروبا
لأصبح آمنا فيك الرزايا * كما أنا آمنا فيك العيوبا
وقلت له في قصيدة أخرى :

أقل فعالي بله أكثره مجدُ * وذا الجد فيه نلت أم لم أنل جدُ
سأطلب حقي بالقنا ومشايخ * من طول ما التثموا مُردُ
ثقال إذا لاقوا خفاف إذا دعوا * كثير إذا اشتدوا قليل إذا عدّوا
وطعن كأن الطعن لا طعن عنده * وضرب كأن النار من حرّه بردُ
إذا شئت حفت بي على كل سابح * رجال كأن الموت في فمها شهدُ
أنم إلى هذا الزمان أهيله * فأعلمهم فدمّ وأحزمهم وغدُ
وأكرمهم كلبً وأبصرهم عم * وأسهدهم فهد وأشجعهم قرْدُ

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى * عدوا له ما من صداقته بدُّ

ثم قلت أمدحه :

فلما رأي مقبلا هز نفسه * إلى حسام كل صفح له حدُّ
فلم أر قبلي من مشى البحر نحوه * ولا رجلا قامت تعانقه الأسد
كأن القسي العاصيات تطيعه * هوى أو بها في غير أنمله زهدُ
يكاد يصيب الشيء من قبل رميه * ويمكنه من سهمه المرسل الردُّ

.....

فإن يك سيار بن مكرم انقضى * فإنك ماء الورد إن ذهب الوردُ

مضى وبنوه وانفردت بفضلهم * وألف إذا ما جمعت واحد فردُ

— مدحت كثيرا من الناس في هذه الفترة ...!

— تقصد كثيرا من الأعيان ... هذا حق .. وكانت متطلبات الحياة تقتضي مني ذلك ، أنسيت أن

لي أسرة فقد مدحت بدمشق أبا بكر علي بن صالح الروزباري الكاتب ، ومدحت الحسين بن

على الهمذاني ... بل وهجوت أيضا ..! هجوت أبا الطيب العلوي ، وكان ممن يكيد لي هو

وقومه ..!

وذلك قولي :

أماكم من قبل موتكم الجهل * وجركم من خفة بكم النملُ

وليد أبي الطيب الكلب ما لكم * فطنتم إلى الدعوى وما لكم عقلُ

ولو ضربتكم منجنيقي وأصلكم * قوي لهدكم فكيف ولا أصل

ولو كنتم ممن يدبر أمره * لما صرتم نسل الذي ما له نسلُ

— ثم أخذت أتنقل في بلاد الشام أمدح الكبراء والأعيان ، وذلك سعيا للرزق هربا من الرصد

وهجمات العلويين ، وكانت هذه الهجائية القصيرة في أحد العلويين أو بالأحرى من يدعي

العلوية .

— ألم يكن علويا ..!؟

— لا ليس علويا ... يقول هو وأهله إنه من ولد العباس بن علي بن أبي طالب وهذا فيه نظر
— هل كان ذلك قصدك بقولك : لما كنتم نسل الذي ما له نسل .

نعم لأنه لا عقب للعباس بن علي بن أبي طالب إلا من ولده عبيد الله بن العباس فقط ، فهؤلاء
العباسيون كانوا قلة في العدد أو كانوا يُتهمون بأن العباس الذي يدعون النسب إليه لا عقب له
البتة ، ولذلك قلت فيما بعد في شعري (بها علوى جده غير هاشم) أي أنه دعيّ من الأدعياء

....

وأنا واثق أن هؤلاء الأدعياء وراء سجنني باللائقية بإيعاذ من العلويين بالكوفة بعدما خرجت
منها مغاضبا لهم . (1)

(1) راجع شاكر مرجع ، ص 155 / 1 هامش)

ودخلت سنة ست وثلاثين وثلاثمائة وابيضت أيام المتنبي بعدها

وكنيت في هذه الأيام التي بقيتها بطبرية حذرا متوجسا أترقب ... وكان بالرملة إذ ذاك سنة 336 هـ الأمير أبو محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج فلما علم بأني نازل بطبرية ، بعث إليّ يطلب مني أن أقصده بالرملة وبالطبع سوف يكرمني وينتظر مني مديحا . ولقد سعدت بهذا الطلب أيما سعادة وتوجهت إليه وكليّ طمعٌ في جواره ، أمنا وعطايا ، قلت فيه قصيدة أبيضت أيامي بعدها ، لقد أعطاني عنها وقتها مائة دينار ... هل تدرك ما مائة دينار في هذه الفترة ... هذا المبلغ يفعل الكثير !!!...

قلت في مدحه القصيدة التي مطلعها :

أنا لائمي إن كنت وقت اللوائم * علمت بما بي بين تلك المعالم
ولكني مما شُدْهُتُ مُتَيْمٌ * كسالى وقلبي بائحٌ مثلُ كاتم

.....

كريم نفضت الناس لما بلغته * كأنهم ماجفّ من زاد قادم
وكاد سروري لايفي بندامتي * على تركه في عمري المتقادم
وفارقت شر الأرض أهلا وتربة * بها علوى جده غير هاشم⁽¹⁾

(1) (يقول محمود شاكر : فقد ثبت عندي أن هؤلاء الذين أغروا بقتله هم قوم من ولد العباس بن علي بن أبي طالب . فقد جاء في نسخة ابن جني من ديوان المتنبي ص191 طبعة عزام ، أن المتنبي قال يهجو علويا عباسيا :

أما تكم من قبل موتكم الجهل * وجركم من خفة بكم النمل
وكيد أبي الطيب الكلب ، ما لكم * فطنتم إلى الدعوى وما لكم عقل
ولو ضربتكم منجنيقي وأصلكم * قوي لهدتكم . فكيف ولا أصل
ولو كنتم ممن يدبر أمره * لما كنتم نسل الذي ما له نسل

وجاء في نسخة أخرى " وتوعده قوم من ولد العباس بن علي بن أبي طالب بطبرية بشر فقال لهم أبو الطيب في ذلك " (شاكر ، ص 1/155 ، انظر عزام ، ذكرى أبي الطيب ص73)

(وشر الأرض) هي طبرية الي كنت بها قبل مقدمي إلى الرملة .

.... كان بن طغج يصانع العلويين ، ولكنه لا يأمّنهم ، وكان عدوا للقرامطة .

— أنت بهذا الهجوم دخلت مناطق مشتتة ، توشك نيرانها تمسك بشيابك ؛ فأنت تشيع أنهم غير علويين ، ثم ها أنت ذاهب إلى ابن عبيد الله بن طغج الإخشيد ، ولهم عنده ترة ، فقد قتل أباهم أبا الطيب في طبرية على يد الإخشيد وجنوده. عندما كبسوه في حديقته ومزقوه بالسكاكين لميله للقرامطة أعدائهم حتى لا يقدم لهم معونة ومساندة وكان ذا ثراء كبير .

— عندك حق ، وفوق ذلك يعلمون أنه بذهابي لابن طغج يعني هذا قصائد مدح ، تنشأ في عدوهم وتسير بها الركبان في كل مكان ، وقصائد هجاء لهم أيضا تسير بها الركبان وتنشد في كل مكان ..

— وهذا ما حدث بالفعل...؟!

— وهذا من أسباب مجدي ... ، إنني أذكر رأي بكل صراحة ودون مواربة فيما يعرض لي من أشياء ... ومواقفي معلوم أنها تأتي من معرفة وعلم ، فلست جاهلا ، فكانت آرائي محل ثقة عند من يعرفها ، ثم إنها تخرج إلى الناس قصائد ، فكانت تنتشر بسرعة الريح .

— وهذا ما كان يرعب أعداءك ، ويجلعهم يسعون جاهدين أن يخرسوك ...! ومنهم هؤلاء العلويون ..

— هيهات... هيهات ...!! دعك من هذا ...

كانت هذه القصيدة فاتحة الخير على وعلى أهلي ، لقد أعطاني أبو محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج كما قلت لك مائة دينار ، لقد ابيضت أيامي بعدها ، حيث أتحفني بعدها طاهر العلوي

(فهذا نص قاطع ، أنهم توعده بطبرية ، وأرصدوا له بكفر عاقب ، و (ولد أبي الطيب) الذين ذكرهم في البيت الثاني ، أبوهم) أبو الطيب محمد بن حمزة بن عبيد الله بن العباس بن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب ، وهو الذي قتله محمد بن طغج الإخشيد قبل سنة 334 هـ ، وكان أبو الطيب جليل الحال في الأردن ، وكثر ماله وضياعه ، وكان يسكن مدينة طبرية ، فكبسه رجال محمد بن طغج في بستان له فقطعوه بالسكاكين ، ذلك في أيام القرامطة ، وكان متهما بالميل إلى القرمطي لعنه الله .)

(شاعر ، عن جمهرة الأنساب لابن حزم : 67 ومقاتل الطالبين : 700)

مثلها ، غير الهدايا من كليهما ، لقد ضمن لي ابن طغج مئات الدنانير وكنت لا أودّ مديح طاهر العلوي ، لما حدث لي من العلويين ، ولكنه مازال بي حتي جعلني أقول فيه شعرا ، وقد احتفى بي طاهر احتفاء عظيم ما حدث لي من قبل ... هل تصدق أنه نزل عن سريره وأجلسني مكانه وجلس بين يدي يستمع إلى أشعاري فيه !!

— نعم المؤرخون يذكرون ذلك ، وماذا قلت فيه ؟⁽¹⁾

— قلت فيه :

أعيدوا صباحي فهو عند الكواعب * وردوا رقادي فهو لحظ الحباب
فإن نهاري ليلة مدلهمة * على مقلة من بعدكم في غياهب
بعيدة ما بين الجفون كأنما * عقدتم أعالي كل هُذب بحاجب

.....

يهون على مثلي إذا رام حاجة * وقوع العالي دونها والقواضب
كثير حياء المرء مثل قليلها * يزول وباقي عيشه مثل ذاهب
إليك ، فإني لست ممن إذا اتقى * عضاض الأفاعي نام فوق العقارب
أتاني وعيد الأدعياء وأنهم * أعدوا لي السودان في كفر عاقب

(1) كان الأمير أبو محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج وهو بالرملة لم يزل يرسل أبا الطيب بطبرية ، سنة 336 هـ ويعزم عليه في القدوم عليه ، فلما كثر ذلك منه أجابه ومدحه وأقام عنده مديدة ، فلم يزل أبو محمد يسأل أبا الطيب أن يخص أبا القاسم (طاهر العلوي) بقصيدة من شعره (وانه قد انتهى ذلك) وأبو الطيب يقول : ما قصدت إلا الأمير (ولا أمدح سواه) فقال له أبو محمد ، عزمت عليك أن أسألك قصيدة تنظمها في فاجعلها فيه ... وضمن له عنده مئات الدنانير . فأجاب ..
- يقول محمد بن القاسم الصوفي (فسرت أنا والمطلبي برسالة طاهر إلى أبي الطيب ، فركب معنا حتى دخلنا عليه ، وعنده جماعة من الأشراف ، فلما أقبل أبو الطيب ، نزل طاهر عن سريره ، والتقاء مسلما عليه ، ثم أخذ بيده فأجلسه في المرتبة التي كان فيها وجلس هو بين يديه . فتحدث معه طويلا ، ثم أنشده أبو الطيب ، فخلع عليه للوقت خلعا نفيسة .
وهذا ما يؤكد علي بن القاسم الكاتب الذي يقول : " كنت حاضرا هذا المجلس ، فما رأيت ولا سمعت أن شاعرا جلس الممدوح بين يديه مستمعا لمديحه غير أبي الطيب ، فإني رأيت هذا الأمير قد أجلسه في مجلسه ، وجلس بين يديه فأنشده :

أعيدوا صباحي فهو عند الكواعب * وردوا رقادي فهو لحظ الحباب

(شاكر مرجع سابق ص 153 / 1 ، عزام ، ذكرى أبي الطيب ص 75)

ولو صدقوا في جدهم لحذرتهم * فهل فيّ وحدي قولهم غير كاذب
إليّ لعمري ، قصدُ كلّ عجيبة * كأني عجيب في عيون العجائب
بأي بلاد لم أجر ذؤابتي * وأي مكان لم تطأه ركائبي
كأن رحيلي كان من كف طاهر * فأثبت كوري في ظهور المواهب

.....

فتى علمته نفسه وجدوده * قراع العوالي وابتذال الرغائب

.....

إذا لم تكن نفس النسيب كأصله * فماذا الذي تغني كرام المناصب
وما قربت أشباه قوم أباعد * ولا بعدت أشباه قوم أقارب
إذا علوي لم يكن مثل طاهر * فما هو إلا حجة للنواصب⁽¹⁾

(النواصب) هم الخوارج الذين نصبوا العداوة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.
واحدها (ناصبي) .

— أنت ضليع في اللغة العربية يا أبا الطيب ..!

— وهل يكون شاعرا من كان غير ذلك ..!؟

ذكرتني بسؤال سألنيه أبو علي الفارسي يوما قال :

كم لنا من الجموع على وزن (فعلى) ؟

فأجبتة على الفور (حجلي و ظربي)

فدهش أبو علي ونظر إلي نظرة فيها مزيج من التعجب ومن الاتهام بالغرور والثقة الزائدة ؛
الظريف أن أبا علي الفارسي ، سهر على كتب اللغة ثلاث ليالٍ علّه يجد لهذين الجمعين ثالثا فلم
يجد ..فشهد لي ... وما أدراك من هو أبو علي الفارسي بين علماء اللغة في عصرنا!!⁽¹⁾

⁽¹⁾ (يقول محمود شاعر : لابد لنا هنا من التنبيه إلى خطأ بليغ وقع فيه أحد كبار أدبائنا في كتابه عن المتنبي : إذ زعم أن المتنبي قال هاتين القصيدتين (في ابن طعج والعلوي) بعد فراق سيف الدولة وقبل اتصاله بكافور ، والصحيح أنهما قيلت سنة 336 هـ وهو بالرملة من ثم في تلك السنة رحل إلى انطاكية قاصدا أبا العشائر الحمداني الذي وصل أسبابه بسيف الدولة سنة 337 هـ (شاعر ، ص 154 / 1)

- قل لي يا أبا الطيب ما أخبار معز الدولة بن بويه ، بعد أن وضع يده على بغداد ؟

— استقرت له لأمر بشكل جيد حتى إنه فكر في الخروج إلى البصرة وكان عليها أبو القاسم بن البريدي وفعلا خرج معز الدولة والمطيع لله من بغداد إلى البصرة في سنة 336 هـ فاستنقذها من يد أبي القاسم بن البريدي ، وهرب هو وأكثر أصحابه ، واستولى معز الدولة على البصرة ، وبعث يتهدد القرامطة ويتوعدهم بأخذ بلادهم .

— ربما كان يقصد انذارهم حتى لا يعاودوا مهاجمتهم للبصرة ، بعد هروب ابن البريدي ؟

— هذا صحيح إلى حد كبير ...

والأمر أكثر من ذلك ، لقد زاد سلطان بني بويه في بلاد فارس ، ففي هذه السنة استحوذ ركن الدولة على بلاد طبرستان وجورجان وانتزعها من يد وشمكير أخي مرداويج ملك الديلم ، فذهب وشمكير يستنجد بصاحبها ، ولم تنتهي المناوشات .

- قضيت أياما من الراحة والسعادة والأمن في رحاب الحسن بن طنج ..وأبي طاهر ..!

- نعم لقد كانت من الأيام القلائل التي تحسب من أيام السعادة والأمان والراحة في حياتي ، فقد جاءت وسط ظروف عصيبة كنت أمرّ بها في هذه الفترة ؛ وأنت إن قرأت ديواني ولاحظت المقطوعات الشعرية التي قتلها وأنا في صحبتها ، لعلمت جيدا كيف كانا يتعاملان معي ، ولشعرت بمدى ما أدركته من إحساسي بآدميتي ومدى ما ترسخ بداخلي من تقديري لذاتي وإدراكي لقيمة أشعاري ، ولكنه دائما الكيد من الأعداء والحق من الحساد لا يُبقي حالا على حاله .

أحسست أنهما يعتبراني شخصا على درجة عالية جدا من الأهمية ، ليس مجرد شاعر جوال يقف على الأبواب يلقي أشعاره وينتظر إحسان المحسنين وقد لا يجد الإحسان ولا المحسنين ؛ لذلك .. من هذا اليوم آليت على نفسي ألا أمدح من دون الأمراء والملوك

ونظرت حولي فوجت أن الحمدانيين قد استقر ملكهم ، وأصبحوا قوة لا يستهان بها ، واستقلوا بإماراتهم في الشام وما انتسابهم للخلافة العباسية إلا انتسابا إسميا فقط . وهم عربٌ أبطال

(¹) راجع المختار بمقدمة العقاد ص11، 12؛ عزام ، أبو الطيب المتنبي بعد ألف عام ص223 وما بعدها .

يحاربون الروم ويدافعون عن مجد الإسلام ومجد العرب و يستحقون شعري ، خيرا لى من أن أقدمه للأعاجم الذين سيطروا على كل شيء في أنحاء الخلافة من شرقها إلى غربها وبعد أن كانوا عبيد أصبحوا سادة متحكمين .

فرأيت من الأفضل أن أتجه بأشعار إلى الأبطال الحمدانيين (1) فقصدت أبا العشائر الحسن بن علي بن حمدان ، لعلي أصل بعد ذلك إلى سيف الدولة .

- نحن إذا يا أبا الطيب في الرملة ... وقد نويت الخروج منها إلى أنطاكية . ألا تلاحظ أنك تود الانتقال من دولة إلى دولة ، أنت تريد أن تنتقل من حمى الإخشيديين إلى حمى أعدائهم الحمدانيين ، هل كان الأمر سهلا .. ؟!

- لم يكن هذا الأمر في بالي وقتها خاصة وأن هناك عهود ومواثيق مقررة منذ عامين قبل وفاة الإخشيد بحدود كل من مصر ودولة الحمدانيين في حلب وأعمالها من بلاد شمال الشام ورغم ما حدث من سيف الدولة ضد أنوجور بن الإخشيد وكافور إلا أن الأمور عادت إلى الاستقرار ... واحترم كل منهم سيادة الآخر

ثم إنني شاعر لا أملك تهديد أمن هؤلاء ولا هؤلاء .. لكنه يبدو أنهم ينظرون إلي نظرة أخرى أدركتها فيما بعد

(1) ... منذ أواخر القرن الثالث الهجري أخذ يتألق اسم أسرة تغلبية عربية هي الأسرة الحمدانية ، وقد استطاع مؤسسها حمدان في سنة 277 هـ أن يستولي على قلعة ماردين في الموصل ، وأخذت أسماء أبنائه وأحفاده تلمع في أحداث الخلافة المضطربة ، ولمع من بنيهم مبكرا اسم أبي الهيجاء ، لاستيلائه على مدينة الموصل سنة 293 هـ وظلت في يده ويد ابنه ناصر الدولة وحفيده أبي تغلب المتوفى سنة 369 هـ وقد استطاع ابنه علي الملقب بسيف الدولة أن يستولي من الدولة الإخشيدية على حلب عاصمة له ، وحاول الاستيلاء على دمشق من الإخشيد - كما مر بنا - غير أن المصريين ردوه على أعقابهم فاكتفى بإمارته ، وندب نفسه لمهمة عظمى طالما هيا نفسه لها منذ شبابه ، وهي النهوض بعبئ الحرب ضد الروم البيزنطيين . وكان أول لقاء معهم سنة 336 هـ [لكننا نجد ذكرا لسيف الدولة وتبادل أسرى بينه وبين الروم سنة 335 هـ] على أطراف الشام ونهبوا وسبوا ، فلحق بهم وأذاقهم نكالا شديدا ، ورد منهم ما سلبوه من أهل الشام ، ويكتب له منذ السنة التالية مجد حربي عظيم ضد الروم ... (راجع شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، ج 6 ، ص 21 ، 22)

لم أكن أدرك أن الرحلة من الرملة إلى أنطاكية ستكون بهذه الصعوبة كان ذلك سنة 336 هـ كنا في الشتاء وما أدراك ما شتاء لبنان ، كان ضروريا أن نمر في طريقنا بطرابلس ، وطرابلس هذه فيها ابن كيغلف ، أقصد اسحاق بن كيغلف ...

كان جاهلا لا يقدر الشعر قدره ، وقد تصور أنه بسلطته يستطيع أن يجبرني أن أقول فيه شعرا ، وقد أغراه على ذلك بعض الكائدين لي من أبناء القاضي حيدرة الذي هجوته من قبل ، وانتظروا ماذا أنا فاعل في هذه الورطة ، إما المديح وإما السجن أو القتل ، وما يدرون أنني مُمرس على الإفلات من المكائد والمصايد ، وإن كانوا يدرون جيدا أن لديّ بديلا للمديح ... هجاء قاس

وقد حدث ... أغلق عليّ ابن كيغلف الدروب عندما اعتذرت له قائلا إني أقسمت ألا أمدح أحدا أربعين يوما ...!! وكان يجب عليه أن يفهم أنني لا أريد أن أمدحه ولكنه تغابي ، فما كان منه إلا أن سدّ عليّ الدروب كما ذكرت حتى تنقضي هذه المدة ثم أمدحه الغريب أن أبناء حيدرة الذين أوغروه عليّ ماتوا خلال هذه المدة وقد كتبت فيه شعرا في هذه الفترة وبالطبع ليس مدحا بل هجاء لم يسمع به أحد من قبل ، وتركته عند شخص أثق فيه وكنت قد تدبرت أمر الهروب عندما بدأت ثلوج لبنان تنحسر عن الطرقات ، حاول هو اللحاق بي عندما بلغه هجائي ، يريد قتلي ، ولكنني كنت قد وصلت إلى بعلبك ومنها إلى دمشق ومن هناك إلى أنطاكية في حمى أبي العشائر الحمداني ...! ⁽¹⁾

فكانت هذه القصيدة المشهورة التي أولها :

لهوى النفوس سريرة لاتعلم * عَرَضاً نظرت ، وخلت أنني أسلم
يا أخت معتنق الفوارس في الوغى * لأخوك ثم أرقّ منك وأرحم
يرنو إليك مع العفاف وعنده * أن المجوس تصيب فيما تحكم

.....

⁽¹⁾ راجع في ذلك مقدمات القصائد ديوان المتنبي تحقيق عزام ص 217 وشرح ديوان أبي الطيب للسببتي ص 296 هامش (

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى * حتى يراق على جوانبه الدم

.....

وإذا أشار محدثاً فكأنما * قرد يقهقه أو عجوز تلطم

.....

أرسلت تسألني المديح سفاهة * صفراء أضيق منك ، ماذا أزع

.....

وأرغت ما لأبي العشائر خالصا * إن الثناء لمن يزار فينعم

ولمن أقمت على الهوان ببابه * تدنو فيوجأ أذعاك وتنهم

وعندما التقيت أبا العشائر بن حمدان أنشدته إياها وفيها أهجو ابن كيغلغ أولاً كما ترى ثم أمدح
أبا العشائر فأقول له :

والوجه أزهر ، والفؤاد مشيع * والرمح أسمر ، والحسام مصمم

أفعال من تلد الكرام كريمة * وفعال ما تلد الأعاجم أعجم

... ثم أمدحه في قصيدة أخرى مطلعها :

أتراها لكثرة العشاق * تحسب الدمع خلقة في المآقي

كيف ترثي التي ترى كل جفن * رءاها غير جفنها غير راق

.....

ليس إلا أبا العشائر خلق * ساد هذا الأنام باستحقاق

طاعن الطعنة التي تطعن الفية * لقي بالذعر والدم المهرق

.....

شاعر المجد خدنه شاعر اللف * ظ كلاتنا رب المعاني الدقاق

لم تزل تسمع المديح ولكن * صهال الجياد غير الثهاق

— مما يروى من أشعارك في أبي العشائر قولك :

فسرت إليك في طلب المعالي * وسار سواي في طلب المعاش

هل كنت تعني هذا فعلا يا أبا الطيب ؟!..

— نعم ... طلب المعالي عندي دائما يأتي في المقدمة ويأتي طلب المعاش في مرتبة ثانية فأنا يكفيني القليل وقد تمرست سنوات على هذا القليل ، فلا غرابة ألا يكون ذلك همي الأول ، ثم إنني قد تحصلت في الأشهر القليلة السابقة على قدر جيد من المال الذي يدفع عني غائلة الحاجة ... وإن كنت أعلم يقينا أنني إذا مدحته لن يتركني دون أن يتحفني بشيء ؛ وقد فعل .

كان أبو العشائر معجبا بشعري إعجابا عظيما ... أذكر يوما خرجت معه وقد خرج للصيد فأرسل بازيا على حجلة فأخذها فقلت ارتجالا ⁽¹⁾

وطائرة تتبّعها المنايا * على آثارها زجل الجناح

كأن الريش منه في سهام * على جسد تجسم من رياح

كأن رءوس أقلام عظاما * مسح بریش جوّجه الصحاح

فأقعصها بحجن تحت صُفر * لها فعل الأسنة والرماح

فقلت لكل حيّ يوم سوء * وإن حرص النفوسُ على الفلاح

فقال لي أبو العشائر أفي هذه السرعة قلت هذا ؟ فقلت مجيبا :

أتنكر ما نطقت به بديها * وليس بمنكر سبق الجواد

أراكض معوصات القول قسرا * فأقتلها وغيري في الطراد

وقد علم أبو العشائر يومها أنني شاعر لا أبارى في فني وقد كان حريصا أن يقدمني إلى سيف الدولة عندما حضر بعد ذلك إلى أنطاكية

كان اتصالي بأبي العشائر في أواخر سنة 336 هـ وكانت الفترة السابقة على ذلك كما

رأيت قاسية جدا على وعلى أهلي ، لقد جعلتهم يسبقونني إلى أنطاكية ، وكان ذلك فيه مشقة

كبيرة على زوجتي والتي كانت قد وضعت لنا طفلا من قريب ، فشق ذلك عليها وعلى الرضيع ،

فقد كان سفرهم مع دخول الشتاء ، فلما لحقت بهما وجدتها في مرض شديد هي والوليد ...

(1) راجع الديوان تحقيق عزام ص 232 ، 233)

فازددت حنقا وغيظا على ذلك القرد المسمى ابن كيغلغ الذي أجبرني أن أدفع بهم في هذه الظروف للسفر من دوني ...

وأیضا كانت الظروف السياسية والصراعات بين الأمراء تُشعل المنطقة إشعالا ... ألم تقرأ مقدمة قصيدتي الشينية التي أمدح فيه أبا العشائر بن حمدان ...!؟

كان جيش السلطان بتوجيهات معز الدولة قد كبس أنطاكية ، وقصد دار أبي العشائر فلم يجده بها لبكوره إلى الميدان ، فعاد من الميدان وتفرق الناس عنه ولقي أبو العشائر أول الخيل وعلى رأسها يأنس المؤنسي في السوق فهزمهم إلى باب فارس ، فأصابه سهم في خده فأضر به وضرب رجلا منهم على رأسه فقتله ، وكثر الناس عليه ورجع حتى خرج من باب مسلخة ، ومضى إلى حلب ثم الرقة ، وعاد بعد ذلك إلى أنطاكية ، وقد علمت بخبر عودته وكنت حينها بالرملة فسرت متوجها إلى طرابلس فعاقني ابن كيغلغ ... وحدث ما ذكرته لك من قبل .. فلما وصلت أنطاكية مدحته بقصيدة مطلعها : ⁽¹⁾

مبיתי من دمشق على فراش * حشاه لي بحر حشاي حاش

.....

فإن الفارس المبعوت خفت * لمنصله الفوارس كالرياش
فقد أضى أبا الغمرات يُكنى * كأن أبا العشائر غير فاش
وقد نسي الحسين بما يسمى * ردَى الأبطال أو غيث العطاش
لقوه حاسرا في درع ضرب * دقيق النسج ملتهب الحواشي
كأن على الجماجم منه نارا * وأيدى القوم أجنحة الفراش
كأن جوارى المهجات ماء * يعاودها المهند من عطاش
فولوا بين ذي روح مفاتٍ * وذو رمق وذو عقل مُطاش

..

(¹) (الديوان تحقيق عزام ص 228)

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة وبدأت سنوات البطولة

— وصلت إلى أنطاكية والحرب مشتعلة !!!!

— نعم.... ولكن دعني أحدثك عن بدايات هذه السنة سنة 337 الطويلة والهامة في حياتي

- الهامة في حياتك؟؟!!!

- نعم في بدايات هذه السنة قديم سيف الدولة أبو الحسن علي بن أبي الهيجا بن حمدان إلى أنطاكية في جمادى الأولى سنة 337 هـ وقدمني إليه أبو العشائر ⁽¹⁾ وأثنى عليّ ثناءً عظيماً فاخبره أنه يعرفني وأنه التقى بي منذ سنوات ولم ينس القصيدة التي دفعها إليه عند سفره منذ ما يزيد عن ست عشرة سنة ، وقد كان وقتئذ على عجلة من أمره . و ذلك سنة إحدى وعشرين قبل أن أدخل السجن وكان ذلك في مستهل قدومي إلى الشام! .

فمدحته ، وأعجب بشعري خاصة بعدما سمع ما قلته من شعر في ابن عمه أبي العشائر ، فلما أنشدته قصيدتي الأولى التي أولها (وفاؤكما كالربع أشجاء طاسمه) حسن موقعي عنده فقرّبني وأجازني الجوائز السنوية ، ومالت نفسه إليّ أقول له فيها :

وفاؤكما كالربع أشجاء طاسمه * بأن تُسعدا والدمع أشفاه ساجمه
وما أنا إلا عاشق ، كل عاشق * أعق خليليه الصفيين لانمه

(1) يذكر شاعر أن سيف الدولة كان على معرفة سابقة بأسرة المتنبّي وبجدته وبأزمتها مع العلويين ، وأنه كان ممن أحسن إليهم في فترات سابقة ، راجع شاعر ص (6/218، 12/ 306) [وأنا لا أرجح هذا الفرض الذي ينقضه ما ذكره الرواة من أن أبا العشائر الحمداني قدم المتنبّي لسيف الدولة ولو كانت هناك معرفة عائلية ما احتاج أبو العشائر لذلك ولا المتنبّي أيضاً ، ولم يذكر أحد من الرواة أن هناك علاقة سابقة بين عائلة المتنبّي و قبائل تغلب التي ينتسب إليها الحمدانيون وهم في بادية السماوة إلى الشمال الغربي وعائلة المتنبّي بالكوفة إلى الجنوب بالمقارنة ببغداد ، (راجع الخريطة التاريخية الملحقة بكتاب محمد حسين هيكل ، الصديق أبو بكر ، ط2/ 1204 دار المعارف) فبعد الديار يرجح العكس ما لم يقدّم دليل ، أما ما ذكره المتنبّي في مديحه من إحسان سابق غير محدد أو طلب الرحمة لوالديه فإنما هو لغة مديح لا أكثر .]

وقد يتزيا بالهوى غير أهله * ويستصحب الإنسان من لا يلانمه
بليت بلى الطلال إن لم أقف بها * وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه⁽¹⁾

.....

له عسكرا خيل وطيير إذا رمى * بها عسكرا لم تبق إلا جماجمه
أجلتها من كل طاغ ثيابه * وموطنها من كل باغ ملاغمه

.....

غضبت له لما رأيت صفاته * بلا واصف ، والشعر تهذي طماظمه

.....

لقد سل سيف الدولة المجد معلما * فلا المجد مخفيه ولا الضربُ ثالمه
على عاتق الملك الأغر نجاده * وفي يد جبار السماوات قائمه

- قال لي سيف الدولة : يا أبا الطيب ذكرت في هذه القصيدة الشحيح الذي يلتمس خاتمه الذي
ضاع منه ، كم قدر ما يقف الشحيح على الخاتم ؟
- أربعين يوما .

- ومن أين علمت ذلك ؟

- سليمان بن داود عليهما السلام وقف على طلب الخاتم أربعين يوما .

- ومن أين علمت أنه بخيل ؟

- من قوله تعالى : " وهب لي مُلْكا لا ينبغي لأحد من بعدي " ⁽¹⁾ وما كان عليه أن يهب الله
لعباده أضعاف ملكه ! ⁽²⁾ .

⁽¹⁾ قيل كان أبو العلاء المعري إذا ذكر الشعراء يقول : قال أبو نواس كذا ، وقال البحتري كذا ، وقال أبو تمام كذا ، فإذا أراد
المنتبي قال : قال الشاعر كذا ، تعظيما له . فقيل له يوما : قد أسرفت في وصفك المنتبي ، قال : أليس هو القائل :
بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها * وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه .

فقيل له (للمنتبي) : كم قدر ما يقف الشحيح على الخاتم ؟ قال : أربعين يوما . فقيل له : ومن أين علمت ذلك ؟ قال : سليمان
بن داود عليهما السلام وقف على طلب الخاتم أربعين يوما . فقيل له : ومن أين علمت أنه بخيل ؟ قال : من قوله تعالى : "
وهب لي مُلْكا لا ينبغي لأحد من بعدي " (35 سورة ص) وما كان عليه أن يهب الله لعباده أضعاف ملكه ! (عن الصبح المنبي

- تقرا كثيرا في التاريخ يا أبا الطيب ، لعل ذلك أعجب سيف الدولة ...

- نعم معارفي وشعري ... لقد طلب سيف الدولة مني أن أصحبه إلى حلب وأنزل عنده . وقد سعدت جدا بهذه الدعوة ، ولكنني أردت أن يكون لي ميزة عنده خاصة وأنا أعلم أن عنده جمعا من الشعراء واللغويين وقد كان الموقف وظروف الحديث تسمح بأن أخص نفسي ببعض أمور فسمح لي ...

فاشترطت أن لا أقبل الأرض بين يديه ويكفيني أن أشير إلى ذلك ، فقبل ، وأن لا أنشد مدائحي واقفا فقبل ، ولعله فهم ما يشير إليه ذلك من شعور بالعزة والكرامة شأن العربي الأصيل وهو يقدر هذا كعربي أصيل فضلا عن أنه قد علم أنني شريف بالرضاع ، وهو شيعي مثل قومه ويُقدّر ذلك جيدا . .

وكان سيف الدولة خاصة من بين بني حمدان أكثرهم دهاءا وأوسعهم حيلة ، وأشدّهم اعتزازا بعروبته ودينه ، وأكثرهم سعيًا لرد الحكومة والسلطان إلى العرب ، وأعظمهم همّة في مساعي المجد لنفسه ولقومه ، وأكرمهم خلقا ، وكان من بينهم محبا للأدب ، قائما على خدمته، وكان بطبيعته شاعرا حلو اللسان ، خفيف الروح ، متشعبا بالفكر والأدب ، وكان يبغض الأعاجم ولسانهم⁽³⁾.

وعندما عزم سيف الدولة على الرحيل عن أنطاكية قلت له هذه القصيدة :

أين أزمعت أيّ هذا الهمام ؟ * نحن نبت الرّبي وأنت الغمامُ

نحن من ضايق الزمان له في*ك وخانته قربك الأيام

.....

كل يوم لك احتمال جديد * ومسير للمجد فيه مقام

وإذا كانت النفوس كبارا * تعبت في مرادها الأجسام

(1) سورة ص آية 35

(2) عن الصبح المنبي ص72)

(3) راجع شاعر ، ص302 / 11)

- قال لي سيف الدولة بعد هذه القصيدة وقد فهم مرادي وكان لبيباً !.

ما وراءك يا أبا الطيب ...؟ قلت له زوجتي ... مريضة مرضاً شديداً والوليد كذلك .

لقد تَرَكْتُ الرحلة الصعبة من الرملة إلى أنطاكية في الشتاء الماضي أثراً سيئاً ، والوليد يوشك أن يفارق الحياة وهي كذلك ، فسألني : كيف حال محسد ؟ قلت له بخير ولكنه حزين على أمه وأخيه ، فقال لي : لا عليك يا أبا الطيب ، سوف ننتظرك لدينا بحلب عندما تبرأ زوجتك ووليدك ندعو الله لهما بالشفاء ...

قلت أيضاً في يوم رحيله ، وقد كثر المطر ، وكاد يعوقه عن عزيمته :

رويدك أيها الملك الجليل * تأنّ وعُدّه مما تُنيل
وجودك بالمقام ولو قليلاً * فما فيما تجود به قليل
لأكبت حاسداً وأرى عدواً * كأنهما وداعك والرحيل

.....

إذا اعتاد الفتى خوض المنايا * فأهون ما يمرّ به الوحول
ومن أمر الحصون فما عصته * أطاعته الحزونة والسهول

.....

فلو جاز الخلود خلدت فرداً * ولكن ليس للعالم خليلٌ

— ماذا حدث بعد مغادرة سيف الدولة أنطاكية يا أبا الطيب ؟

— زاد المرض على زوجتي وتعب الوليد تعباً شديداً، وحاولنا أن نخفي عليها الأمر حتى لاتزداد حالتها سوءاً فهي لم تكن ترضعه منذ وُلِدَ ، ولكنها شعرت ، ولم تمضي أيام حتى فارقت الحياة (1) وتركت لي الرضيع في حالة صحية سيئة وأخذته إحدى جاراتنا لترضعه وترعاه

(1) يقول محمود شاعر : وعندنا أن الذي علق أبا الطيب عن صحبة سيف الدولة في هذا الرحيل أمر يخصه هو . وليس له فيه إرادة وتبين لنا أن هذا الأمر هو مرض زوجته ، والظاهر أنها كانت حاملاً ، ثم جاءها المخاض ، فأعضلت وعسرت ولادتها ، ثم رمت ذا بطنها وماتت ، وكان مرضها ذلك في حملها ، ثم تركت له وراء ظهرها - ولعل الوليد مات بعد أشهر قبل أن يستمسك - هذا هو الذي منع أبا الطيب أن يصحب سيف الدولة . يوم رحيله من أنطاكية إلى حلب) . (راجع شاعر ، ص 318)]

وتركت محسداً لم يتجاوز سنواته السبع ، كان حُزني عليها حزناً شديداً فقد كانت نعم الزوجة وتحملت معي مشاق الحياة وظروفها ، في هذه المدة القصير التي قضتها معي ، وقد كانت في غنى عن كل ذلك لو اختارت أحداً غيري ، لكنها اختارتني ، وكأنها اختارت نهاية حياتها على هذا النحو ، بسبب ظروف حياتي القاسية .
يرحمها الله

واساني أبو العشائر في مصابي فوق ذلك من نفسي موقعا حسنا رغم الظروف التي كان يمر بها فقد كان معز الدولة يتنمر به وبأخوته وأبناء عمومته من الحمدانيين ، لم يمنعه هذا من الوقوف بجانبه والأخذ بيدي حتى أخرج من هذا المصاب ، ولست أنسى له ذلك .
مرت الأيام بطيئة ثقيلة ولم أكن أعرف كيف أدبر أمري وأمر الصغيرين الرضيع ومحسد ، ولم يكن من اللائق أن أتأخر عن سيف الدولة أكثر من ذلك فاستأذنت أبا العشائر في الذهاب إلى حلب ، بعد أن دبّرت أمر سفر الصغيرين معي ، فأذن لي بل حملني على فرس ..
وودعني وغلّامي قائلاً : لاتنسنا يا أبا الطيب ...!
- ولكنك نسيته يا أبا الطيب !
- نعم ... نسيته نسيته عن غير عمد نسيته لأن من يجاور سيف الدولة ، من الصعب أن يرى غيره .. نسيته لكنه ذكرني بنفسه بعدما يقرب من خمس سنوات تذكرة قاسيه!!
سيأتي ذكرها ...

والظاهر أن سيف الدولة كان قد عزم في نفسه أن ينال بهيمته غاية الغايات في ضم أشتات البلاد العربية تحت سلطانه وفي ظل حكومته ، وكان أول ما قام به من ذلك أن زاحم

وأرى أن الوليد لم يمّت بعد وفاة زوجته قبل أن يستمك ، وإنما بعد فترة قد تصل إلى سنة فقد جاء في قصيدة للمتنبّي يعتذر فيها عن عدم مصاحبته عند ذهابه لموازرة أخيه ناصر الدولة ضد معز الدولة أواخر سنة 337 هـ قوله :

إن الذي خلفت خلفي ضائع * مالي على قلقي إليه خيار
وإذا صُحبت فكل ماء مشرب * (لولا العيال) وكل أرض دار
إن الأمير بأن أعود إليهم * صلة تسير بذكرها الأخبار

الإخشيديين في الشام حتى أزاحهم عن أكثرها وردهم إلى الرملة ، واستأثر دونهم بأكثر البلاد الشامية ، حتى هلع منه الإخشيد ، فأراد أن يستميله إليه بعد أن عقد معه إتفاقية جوار ، بأن زوجه ابنة أخيه ، ولم يُجد ذلك كثيرا ولا قليلا في إطفاء نار العداوة بين الدم العربي والدم الأعجمي ... لولا ما لقي سيف الدولة من حروب الروم ..

وكان سيف الدولة على علم بما يبيتون له من المكر ، فكان ينازل الروم ويواقعهم ويعد انتصاره ، وهزيمة الروم انتصارا لدعوته العربييه وهزيمة للأعاجم أصحاب هذا المكر⁽¹⁾ وقد أحببت هذا البطل الحمداني العربي وتفانيت في خدمته بأشعاري وبسيفي وأقمت في جواره تسع سنين أنظم فيها مدائحي وأشعاري فيه

- كم بلغت أشعارك في سيف الدولة يا أبا الطيب ؟

- بلغت نحو أربعين قصيدة وإحدى وثلاثين مقطوعة .

لقد استقر في نفسي أنني لقيت أمل العرب وحاميهم وفارسهم الذي يمزق جموع الروم شرّ ممزق في الشمال . وغدا يمزق جموع الحكام الأعاجم من البويهيين في بغداد ، ويرد للعرب دولتهم المفقودة .⁽²⁾

لذلك تفرغ سيف الدولة لمواجهة الروم الذين عسفوا بالمنطقةولكن الحرب ليست دائما انتصارا .

في أوائل هذا العام عندما دخل سيف الدولة إلى بلاد الروم ، فلقه جمع كثيف من الروم فاقتتلوا قتالا شديدا فانهزم سيف الدولة وأخذ الروم مرعش ، وأوقعوا بأهل طرسوس بأسا شديدا .⁽³⁾

— انتقلت يا أبا الطيب إلى حلب في هذه الظروف !!!..

- نعم .. ورغم هذا وجدت ترحيبا شديدا من سيف الدولة وكل من في القصر ، وكأنهم أرادوا أن يخففوا عني الهم الذي يعتريني بموت زوجتي ، حتى إن الأميرة ست الناس (خولة) أخت سيف

(1) راجع شاكر ، ص 303)

(2) راجع شوقي ضيف ج5 ص 346)

(3) راجع البداية والنهاية أحداث 337هـ)

الدولة ، أرسلت في طلب ابني محسد وكان في صحبتي ؛ إلى جناحها في القصر ، ويبدو أن أخباري قد سبقتنني ، غمرني سيف الدولة بكرمه وخصص لي بيتا قريبا وغمرتني ست الناس بعطفها على ولدي وأحسست أنني في رحاب أناس أكثر من الأهل ..

لما اتصلت بسيف الدولة سنة 337 هـ لم أعرض لما كان بينه وبين الروم من حرب إلا لمأما ؛ لأنه لم أكن شهدت مواقعه مع الروم من جهة ، ولأن هذه المواقع لم تكن ملهمة للفخر والحماسة من جهة أخرى ، فقد انهزم المسلمون للروم في تلك السنة و غلب هؤلاء الأعاجم على حصن (الحدث) فدمروه ...⁽¹⁾.

ولم تمضي أيام قلائل حتى توفيت أم سيف الدولة ، فعادت الأحزان من جديد تخيم على الجميع هذه المرة ... فوجدت دموعي تهرهر من مقلتي وكأني استحضرت كل أحزاني وقد يظن من يراني وقتها أنني أراني الأمير ، والحق إنني كنت أبكي كل أحزاني ، لقد كنت قريب عهد بفقد الأحباب ، فبكيت أحزاني وهمومي قبل أن أبكي لأحزان الأمير..... فجاءت هذ الرثائية في جمادى الآخرة من هذه السنة :

نعد المشرفية و العوالي * وتقتلنا المنون بلا قتال
ونرتبط السوابق مقربات * وما ينجين من خبب الليالي

.....

نصيبك في حياتك من حبيب * نصيبك في منام من خيال
رماني الدهر بالأرزاء حتى * فوادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتي سهام * تكسرت النصال على النصال
وهان ، فما أبالي بالرزايا * لأنني ما انتفعت بأن أبالي

.....

أطاب النفس أنك مُتّ موتا * تمنته البواقي والحوالي
وزلت ولم ترى يوما كريها * تُسرُّ الروح فيه بالزوال

(¹) (راجع طه حسين ، ص 224)

رواق العز فوقك مسبطراً * وملك عليّ ابنك في كمال (1)

.....

وأفجع من فقدنا من وجدنا * قبيل الفقد مفقود المثال
يُدفنُ بعضنا بعضا ويمشي * أواخرنا على هام الأوالي

(1) { يقول الدكتور مصطفى الشكعة مرجع سابق ص 104 :

كما أخذ على المتنبي أيضا الإتيان باللفظ الغريب المتنافر مع نظائره ، وإطلاق الجمل غير ذات المعني لمجرد إكمال البيت ، كما هو الحال في قوله : رواق العز فوقك (مُسبَطراً) (.....)

[وأقول : هذه الكلمة من المأخذ التي تصيدها بعض النقاد واعتبروها سقطاً من سقطاته ، ولكن إذا ما عدنا إلى ديوان المتنبي تحقيق عزام ص 255 ، حيث يشير إلى شرح هذه الكلمة فيقول : قال صاحب (والصاحب هذا هو صاحب بن عباد أعدي أعداء المتنبي والذي ألف رسالة كاملة في مساوئه) : ذكر الاسبطرار في مرثية النساء من الخذلان المبين . وقال ابن فورجه : لاخذلان .. الخ ، ثم قال سمعت أبا الفضل العروضي يقول سمعت أبا بكر الشعراني خادم المتنبي ، وقد ورد علينا فقرأنا عليه شعره ، فأنكر هذه اللفظة ، وقال : قرأنا على أبي الطيب : رواق العز فوقك (مستطيل) .. قال العروضي : إنما غيره عليه صاحب ثم عابه عليه ...!!! وفي شرح الواحدي لهذا البيت يقول : كنت في عز طويل وكمال ملك من ملك ابنك ، قال صاحب ذكره الاسبطرار في مرثية النساء من الخذلان المبين ، قال ابن فورجة ولا خذلان فيما صح واستعمل كثيرا يريد أن الاسبطرار بمعنى الامتداد يُستعمل كثيرا قال عمر بن معدي كرب ، جداول زرع خلّيت واسبطرت ، سمعت أبا الفضل العروضي يقول سمعت أبا بكر الشعراني خادم المتنبي ورد علينا فقرأنا عليه شعره فأنكر هذه اللفظة وقال قرأنا على أبي الطيب ، رواق العز فوقك (مستطيل) ، قال العروضي وإنما غيره عليه صاحب ثم عابه به.

(. ولم أجد هذا البيت في شرح المشكل من شعر المتنبي لابن سيدة ، وأعتقد أن هذه المفردة لم تصلهم بالاندلس وربما وصلت ولم تلفت انتباه ابن سيدة كلفظ مشكل ، وفي لسان العرب في معنى اسبطرت : امتدت واستقامت (ج3ص1924 مادة سبط) .

ويذكر د. بدوي طبانة في كتابه صاحب بن عباد الوزير الأديب العالم سلسلة أعلام العرب / 27 ص 275 قول ابن عباد : ... وكانت الشعراء لا تصف المآزر تنزيها لألفاظها عما يستبشع ذكره ، حتى تخطى هذا الشاعر (المتنبي) إلى التصريح الذي لا يهتدي إليه غيره ، فقال : إني على شغفي بما في خمرها * لأعف عما في سراويلاتها وكثير من العهر أحسن من عفافه هذا .. قال الواحدي : سمعت أبا بكر الشعراني يقول : هذا مما عابه صاحب ابن عباد على المتنبي ، وإنما قال المتنبي (عما في سراويلاتها) وهو جمع سربال ، وهو القميص ، وكذا رواه الخوارزمي ، يريد المتنبي : مع حبي لوجههن أعف عن أبدانهن). [لا يعني هذا أن شعر المتنبي بلا سقطات ... ولكن أن يغير صاحب اللفظ ثم يعيبه به فليست هذه من سقطاته بل من سقطات صاحب . وكان الأمر يقتضي من الدكتور الشكعة أن يشير إلى ذلك لكنه لم يفعل !!]

- كانت سنة 337 هـ هذه ، سنة مليئة بالأحداث ، يقال إن سيف الدولة استنقذ أبا وائل تغلب الحمداني ابن عمه ونائبه على حمص ، من أسر الخارجي الذي ظهر في بني كلب في شعبان من هذه السنة .

- نعم كان يوما من الأيام التي لا أنساها ، استيقظنا في حلب على عودة جيوش سيف الدولة من جهة دمشق وفي المقدمة سيف الدولة ومعه أبووائل تغلب وخلفهم العسكر وبين أيديهم أحد الغلمان يسير في المقدمة ويحمل رمحا طويلا وعليه رأس هذا الخارجي ، وكان يطلق عليه المبرقع وكان يوما مشهودا احتفل الناس فيه احتفالا عظيما بانتصار سيف الدولة على هذا الخارجي الذي ظهر في أطراف الشام ودعا الناس لنفسه والتفت عليه القبائل ..

والأدهى من ذلك أنه فتح بعض المدائن في أطراف الشام وأخذ حمص وقد كان عليها أبو وائل تغلب من قبل سيف الدولة ، ... أخذها وأسره وسأومه على فداء نفسه بالخيول وبالمال . فراسل بذلك سيف الدولة ، الذي جهز جيش وسرى به سرا من حلب إلى هذا المبرقع ومن معه ، فلقيه بأطراف دمشق بعد ثلاثة أيام فهزمه هزيمة منكرة وتمكن منه فقتله ومن معه ... ولم ينج منهم إلا من سبق فرسه كما يقولون فكانت هذه القصيدة التي أقول فيها : ⁽¹⁾

(الام طماعية العازل * ولا رأي في الحب للعاقل

يراد من القلب نسيانكم * ويأبى الطباع على الناقل

وإني لأعشق من عشقكم * نحولي وكل امرئ ناحل

ولو زلتم ثم لم أبكمم * بكيت على حبي الزائل

.....

ولو كنت في غير أسر الهوى * ضمنت ضمان أبي وائل

فدى نفسه ب ضمان النضار * وأعطى صدور القنا الذابل

ومنهم الخيل مجنوبة * فجئن بكل فتى باسل

(1) راجع محمد كرد علي ، خطط الشام ج1 ص220 ، 221) .. وهذه الغزوات تعد في باب المناوشات لا الحروب مثل غزو سيف الدولة للمبرقع الذي دعا الناس إلى نفسه والتفت عليه القبائل

.....
أما للخلافة من مشفق * على سيف دولتها الفاصل
يقد عداها بلا ضارب * ويسري إليهم بلا حامل

.....
تفك العناة وتغني العفاة * وتغفر للمذنب الجاهل
فهناك النصر معطيكه * وأرضاه سعيك في الآجل
فذي الدار أخون من مومس * وأخدع من كفة الحابل
تفاني الرجال على حبها * وما يحصلون على طائل

— يقال يا أبا الطيب إن ناصر الدولة أرسل إلى سيف الدولة في أواخر هذه السنة سنة 337 هـ يطلب العون منه في مواجهة معز الدولة بن بويه الذي حشد الحشود لأخذ الشام من الحمدانيين .
— نعم حدث هذا فعلا ... ففي هذه السنة 337 هـ ركب معز الدولة أمير أمراء الخليفة من بغداد إلى الموصل ، فانهزم منه ناصر الدولة إلى نصيبين ، ، فتملك معز الدولة بن بويه الموصل في رمضان من هذه السنة ، فعسف أهلها ، وأخذ أموالهم ، وكثر الدعاء عليه ، وقد أخذ سيف الدولة مسرعا في حشد أقصى ما أمكنه من الجيوش ...
قلت له عند مسيره إلى الموصل :

أعلى الممالك ما يبني على الأسل * والطعن عند محبيه كالقبل
وما تقر سيوف في ممالكها * حتي تقلقل دهرنا قبل في القلل
مثل الأمير بغى أمرا فقربه * طول الرماح وأيدي الخيل والإبل

.....
على الفرات أعاصير وفي حلب * توحش لملقى النصر مقتبل
تتلوا أسننته الكتب التي نفذت * ويجعل الخيل أبدالاً من الرسل

.....
يعود من كل فتح غير مفتخر * وقد أعْدَ إليه غير محتفل

ثم عزم معز الدولة على أخذ البلاد كلها من يد ناصر الدولة بن حمدان ، فجاءه خبرٌ من أخيه ركن الدولة يستنجد به على من قبله من الخرسانية ، فاحتاج إلى مصالحة ناصر الدولة فصالحه على ماتحت يده من بلاد الجزيرة والشام ، على خراج قدره ثمانية آلاف ألف درهم كل سنة ، وأن يُدعى له على المنابر ، وعاد مسرعا لنصرة أخيه

وكان هذا بالطبع بداية الاستقرار في هذه المنطقة الي ظلت مشتتة لفترة من الزمن بسبب الصراع على السلطة بين البويهيين والحمدانيين

- وكان سيف الدولة قد سألني أن أسير معه إلى الموصل ، فاعتذرت له عن المسير كان الرضيع مازال معتلا ومحسدا ما يزال صغيرا ويحتاج إلى رعايتي في هذه الفترة وكان بقائي معهما مهم لذا كان اعتذاري عن صحبة سيف الدولة ، عند ذهابه لنصرة أخيه... كان ذلك في ذي القعدة من هذه السنة سنة 337 هـ ... فاعتذرت له قائلا :

كن حيث شئت ، فما تحول تنوفه * دون اللقاء ، ولا يشط مزار

إن الذي خلفت خلفي ضائع * مالي على قلقي إليه خيار

وإذا صُحبتَ فكل ماء مشرب * (لولا العيال) وكل أرض دار

إذن الأمير بأن أعود إليهم * صلة تسير بذكرها الأخبار

..

ودخلت سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة أكرمني سيف الدولة

كان سيف الدولة لمّاها شعر أن رعاية الرضيع ورعاية مُحسّد تحتاج منى إلى وقت لقلّة
تمرسي في ذلك ، وأن هذا الأمر من شأن النساء ، فإذا به يكرمني غاية الإكرام فينفذ إلى
جارية وفرسا ، هديتان غاليتان ، فهو يعلم حاجتي الشديدة لمن يرعى العيال ، ويعلم أيضا
عشقي الشديد للخيّل ، وكان علي أن أقابل إحسانا بإحسان فكانت هذه القصيدة ، ومطلعها :

أيدري الربع أي دم أراقا * وأي قلوب هذا الركب شاقا
لنا ولأهله أبدا قلوب * تلاقى في جسوم ما تلاقى
وما عفت الرياح له محلا * عفاه من حدا بهم وساقا
فليت هوى الأحبة كان عدلا * فحمل كل قلب ما أطاقا

.....

وطرف إن سقى العشاق كأسا * بها نقص ، سقانيها دهاقا
وخصر تثبت الأبصار فيه * كأن عليه من حدق نطاقا
سلي عن سيرتي فرسي ورمحي * وسيفي والهملّة الدفاقا
تركنا من وراء العيس نجدا * ونكبنا السماوة والعراقا
فما زالت ترى ، والليل داج * لسيف الدولة الملك إنتلاقا
أدلتها رياح المسك منه * إذا فتحت مناخرها انتشاقا

ومع مطلع هذه السنة 338 هـ ، ازدادت حالة الرضيع سوءا ثم فارق الحياة ثم لم تمضي
أياما وفي شهر صفر من هذه السنة ، مات أبو الهيجا عبد الله بن سيف الدولة بميفارقين ،
وكان رضيعا لم يمش بعد وجاءنا الخبر في حلب فقلت هذه الرثائية :

نبكي لموتانا على غير رغبة * تفوت من الدنيا ، ولا موهب جزل
إذا ما تأملت الزمان وصرفه * تيقنت أن الموت ضرب من القتل

هل الولد المحبوب إلا تلة ؟ * وهل خلوة الحساء إلا أذى البعل
وقد ذقت حلواء البنين على الصبا * فلا تحسبني قلت ما قلت عن جهل
وما تسع الأزمان علمي بأمرها * وما تحسن الأيام تكتب ما أمني
وما الدهر أهل أن تأمل عنده * حياة ، وأن يشتاق فيه إلى النسل
وبعد أشهر قليلة مات ابن عمه أبو وائل تغلب بن داود الحمداني متأثراً بجراحه ، ورثيته
بقصيدة مطلعها :

ما سَدِكتْ علة بمورود * أكرم من تغلب بن داود
يأنف من ميتة الفراش وقد * حل به أصدق المواعيد
ومثله أنكر الممات على * غير سروج السوابح القود
بعد عثار القتا بلبته * وضربه أرؤس الصناديد
وخوضه غمر كل هلكة * للذمر فيها فؤاد رعيد
فإن صبرنا فإننا صُبرٌ * وإن بكينا فغير مردود
وقلت في سيف الدولة وهو بميفارقين وقد نزلها في شوال سنة ثمان وثمانين
وثلاثمائة ، يريد حصن برزويه (1) وقد أمر الغلمان والجيش بالركوب بالسلاح والتجافيف وقد
كنت معه وكنت مُلئماً أرخى ذوائبي مستعداً للقتال (2) :

إذا كان مدحٌ فالنسيبُ المقدم * أكلُ فصيح قال شعرا متيم ؟
لحب ابن عبد الله أولى فإنه * به يبدأ الذكر الجميل ويُختمُ

.....

تعرض سيف الدولة الدهر كله * يطبق في أوصاله ويصممُ
فجاز له حتى على الشمس حكمه * وبان له حتى على البدر ميسم
كان العدى في أرضهم خلفاؤه * فإن شاء حازوها وإن شاء سلموا

(1) محمد كرد علي ، ج 1 ص 219

(2) (الديوان ، تحقيق عزام ص 290)

وكان مقصد سيف الدولة ، حصن برزويه لتخليصه من الأكراد ،

- كانت هذه أول واقعة تحضرها مع سيف الدولة يا أبا الطيب ؟

- نعم حضرت معه هذه الواقعة وقد أبلينا فيها بلاءً حسنا واستمر القتال عليه مدة إلى أن كتب الله النصر لنا .

- ولكن يقال يا أبا الطيب إن الروم في العام التالي مباشرة استولوا على (شيزر) ودخلوها بلا حرب؟!!

- حدث هذا فعلا ، كان كثير من المدن في الأطراف التي تواجه الروم تعاني معاناة شديدة من وطأة الغزوات المتكررة للروم وكانت غالبا بلا حامية قوية تسمح لها بالصمود وبعضها كان بلا حامية على الإطلاق ، مما يجعلها تقع بسهولة في أيدي الروم دون حرب ، ومنها شيزر التي ذكرتها ، فلم يكن فيه من الرجال من يبدي أدنى مقاومة ، فوقعت (1).

- يقال يا أبا الطيب إنه في هذه السنة كانت وفاة عماد الدولة بن بويه ..

- نعم ... وهو أبو الحسن علي بن بويه ، أكبر أولاد بويه ، وأول من تملك منهم ، وكان عاقلا حازما ، حميد السيرة ، رئيسا في نفسه ، وكان أول ظهوره في سنة ثنتين وعشرين وثلاثمائة ولم يكن له ولد ذكر ، فأرسل إلى أخيه ركن الدولة يستدعي ولده عضد الدولة ، ليجعله ولي عهده من بعده ، ثم عقد له البيعة على ما يملكه من البلدان والأموال وتدبير الملك والرجال .. وتمهدت الأمور لعضد الدولة (2).

(1) (من أحداث سنة 338) ... ومنها أخذ سيف الدولة حصن برزويه من الأكراد بعد أن قاتلهم مدة وفي السنة التالية (

339) خرج (بسيل) ملك الروم إلى الشام وفتح شيزر بالأمان لقتل رجالها . (كرد علي ، ج 1 ص 219)

(2) راجع البداية النهاية أحداث سنة 338

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة حرب الروم انتصار وانكسار

شهدت مع سيف الدولة غزوة للروم كانت في جمادى الأولى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة وكان مقصده (سمندو) وقد أخذ الجيش استعداده في منزل بأرض الروم يعرف بالسنبوس وكنت متقدما ، فلمحت سيف الدولة خارجا من الصف يدير رمحا فرجعت إليه بفرسي وسائرتة ، وأنشدته قصيدة أقول فيها :

لهذا اليوم بعد غدٍ أريجُ * ونار في العدو لها أجيحُ
تبيت بها الحواضر آمانات * وتسلم في مسالكها الحجيج
فلا زالت عُداك ، حيث كانت * فرائس أيها الأسد المهيج

.....

ووجه البحر يُعرف من بعيد * إذا يسجو فكيف إذا يموج ؟

.....

وفينا السيف حملته صدوق * إذا لاقى ، وغارته لجوج

.....

رضينا والدمستق غير راض * بما حكم القواضب والوشيج

فإن يُقدم فقد زرنا سمندو * وإن يحجم فموعد الخليجُ

وكانت هذه الموقعة خطيرة حقا ، فقد انتصرنا فيها انتصارا عظيما أول الأمر ، فافتحنا الحدود وأمعنا في بلاد الروم حتى أبعدنا وملأنا أيدينا من الغنيمة ، ثم استحالَت هذه المقدمة المبشرة إلى هزيمة ..!

- كيف حدث ذلك يا أبا الطيب ؟ !

- صَعَبَ القفول علينا أثقلتنا الغنائم والأسرى ولصق بنا العدو ، وأخذ علينا الطريق وكان لطبيعة أرض العدو دورٌ كبير في ضياع النصر من بين أيدينا ، وأبلى سيف الدولة في الدفاع عن المسلمين بلاءً حسنا ولكننا لم نبلغ من التوفيق ما كان جديرا بنا بعد هذا البلاء ..

لقد تفرق الجنود وركنو إلى الهزيمة والاستسلام ، فلما رأى سيف هذا التحول أمر بقتل الأسرى من البطارقة والزراورة وكل من كان في السلاسل وكان عددهم بالمئات ، حتى تسهل تحركاتنا ، ولم ننجم مع سيف الدولة ومعنا نفر قليل إلا بعد جهد .⁽¹⁾

فقلت القصيدة العينية بعد الهزيمة⁽²⁾ أقصد تسليية الأمير ومواساته ومواساة نفسي معه وأنذر بها الروم أقول فيها :

غيري بأكثر هذا الناس ينخدع * إن قاتلوا جبُّوا أو حدثوا شجُّوا

(¹) (راجع الديوان تحقيق عزام ، ص 298 ، 301 ؛

يقول صاحب الصبح المنبي ص 78 ط دار المعارف : وصحب (أي المتنبى) سيف الدولة في عدة غزوات إلى بلاد الروم ، ومنها غزوة (الفنا) التي لم ينج منها إلا سيف الدولة بنفسه ، وستة أنفار أحدهم المتنبى ، وأخذت الطرق عليهم الروم ، فجرد سيف الدولة سيفه ، وحمل على العسكر ، وخرق الصفوف ، وبدد الألوف ، وحكى الرقي عن سيف الدولة قال : كان المتنبى يسوق فرسه ، فاعتقلت بعمامته طاقة من الشجر المعروف بأمر غيلان ، فكان كلما جرى الفرس انتشرت العمامة ، وتخيل المتنبى أن الروم قد ظفرت به فكان يصيح : الأمان يا علج ، قال سيف الدولة : فهتفت به وقلت أيما علج ؟ هذه شجرة علقت بعمامتك ، فود أن الأرض غيبته . فقال ابن خالويه ، أيها الأمير أليس أن ثبت معك حتى بقيت في ستة أنفار تكفيه هذه الفضيلة [التعليق : وأنا لا أصدق رواية الرقي هذه من أكثر من جهة ، أولا : لأن فارسا ينجو من غزوة (الفنا) كما سموها مع ستة أنفار ليس جباناً ولا رعيدياً ولا خواراً بحيث يرتعب من شيء يجذب عمامته وهو يسير بين أشجار متشابكة ويظنها العدو ، ثانيا : ما هذه العمامة التي يرتديها الفارس في الحرب ألم يكن هناك خوذته الحرب التي توضع على رأس الفارس في هذا العصر... ثالثا : هذا ابن خالويه كيف ينصفه وكان حاقدا عليه حتى إنه ضربه بمفتاح من حديد شج وجهه وكان ذلك من أسباب فراق المتنبى سيف الدولة ؟! ، عجباً لأحاديث السمر والتسليية التي تنال من الأبطال بلا منطق مقبول!!! ثم يتردد القول على عواهنه]

(²) (يقول صاحب البداية والنهاية ، أحداث 339) .. وفيها دخل سيف الدولة بن حمدان بجيش كثيف نحو من ثلاثين ألفا إلى بلاد الروم ، فوغل فيها ، وفتح حصونا ، وقتل خلقا ، وأثر أمما ، وغنم شيئا كثيرا ، ثم رجع ، فأخذ الروم عليه الدرب ، الذي يخرج منه ، فقتلوا عامة من معه ، وأسروا بقيتهم ، واستردوا ما كان أخذه لهم ، ونجا سيف الدولة في نفر يسير من أصحابه ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .)

أهل الحفيظة إلا أن تجربهم * وفي التجارب بعد الغي ما يزع

.....

بالجيش تمتنع السادات كلهم * والجيش بآبن أبي الهيجاء يمتنع
قآء المقآنب اقصى شربها نهل * على الشكيم وأدنى سيرها سرعُ
لا يعتقي بلدً مسراه عن بلدٍ * كآلموت ليس له ريّ ولا شبعُ
حتى أقام عل أرباض خرشنةٍ * تشقى به الروم والصلبان والبيعُ
للسبي ما نكحوا والقتل ما ولدوا * والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا

.....

قل للدمستق : إن المسلمين لكم * آانوا الأمير فآازاهم بما صنعوا

.....

لا تحسبوا من أسرتم كان ذا رمق * فليس يأكل إلا الميت الضبعُ

.....

الدهر معتذرٌ والسيف منتظرٌ * وأرضهم لك مصطفىً ومرتبُعُ

.....

أن السلاح جميع الناس يحمله * وليس كل ذوات المخلب السبعُ

وكان من الطبيعي أن الفارين من كبار الجنود وكبار رجال الدولة الذين انهزموا في تلك
المعركة لم يقع من أنفسهم ما قلته موقعاً حسناً ، بل ضاقت صدورهم به وكرهوه ، وانتهز
أعدائي وحسادي هذه الفرصة فسعوا بي ، وألبوا عليّ ، وكثر كلام الناس فيّ واجترأ البعض
على أن يجاهرني بالعداوة بعد أن كان يُسرّ البغضاء ويدبر الكيد لي في خفاء .

بدأت القلوب تتحرك بالأحقاد ، فها هو أبو فراس الحمداني ⁽¹⁾ نفسه وهو ابن عم
الأمير ونائبه على منبج ، يبدأ هذا الطريق ويفتح الباب للحاقدين من أمثاله من الشعراء ... فقد

(1) أبو فراس الحمداني :

بلغني أنه أبدي تبرمه لسيف الدولة أنه يعطيني الكثير ولو فرّق أقل القليل منه على باقي
الشعراء لجأوا بأحسن مما أقول !!
— وماذا كان رد الأمير ؟

هو الحارس بن سعيد بن حمدان التغلبي ، كان أبوه واليا على (الموصل) للخليفة (الرازي) ، وكان مشهورا مثل
إخوته وأبناء أسرته بالفروسية والشجاعة ، واقرن برومية أنجب منها الحارث سنة 320 هـ ولقبه أبا فراس وهي كنية الأسد
رمزا لفروسيته المستقبلية وهو رمز حقيقته الأيام .
ولم يلبث سعيد أن قتل غدرا وابنه يخطو في سنته الثالثة وعنت به أمه ، وأحضرت له المعلمين في صباه ، ولم يلبث ابن عمه
وزوج أخته سيف الدولة الحمداني أن اشترك مع الأم في العناية والرعاية ، حتى اقتطع لنفسه حلب وبعض ثغور الشام انتقل
إليها مع أسرته سنة 333 هـ ومعه أبو فراس الذي كفله وقام على تربيته فارسا وأديبا خير قيام ، إذ أعطاه لبعض المدربين
يدربونه على الفروسية ، ولبعض المعلمين والمؤدبين من مثل ابن خالويه ، وسرعان ما ظهرت فروسيته ونجابته فمنحه
ضيعة (منبج) وهي بلد يقرب من حلب ، ولم يلبث أن ولده عليها وهو شاب في السادسة عشرة من عمره .
وكان يلزم ابن عمه في حروبه للروم وقد يسوق إليهم فيالقي يقودها بنفسه ويعود إلى منبج مفضيا أحيانا إلى الصيد وبعض
اللهو.....

..... كان شيعي الهوى . وميميته الملقبة بالشافية دافع فيها عن العلويين ضد العباسيين دفاعا حارا .
وتشيع الحمدانيين عامة مشهور وكانو شيعة إمامية ...
وفي يوم من أيام شوال سنة 351 هـ كان عاندا إلى منبج من الصيد مع غلماته وإذا بكتيبة من الروم بقيادة (تيودور) تباعته ،
فيدافع إلى أن تسخنه الجراح ويصبيه سهم في فخذه ويبقى نصله فيه ، ويؤثر البطل المغوار ، ويقدم به تيودور إلى خرنشنة
ويظل بها فترة ، ثم ينتقل إلى القسطنطينية .
ويذوق ذل الإسمار وألم الجراح ، غير أن نفسه تظل صلبه عاتية لا تنكسر أبدا ، بل تزداد مع الأيام عتوا وصلابة ، ويكبر الروم
في أبي فراس فروسيته وبطولته فينزلونه في قصر على البحر ويخصصون له خادما يقوم بأمره ويأبى أن يخلع دروعه
وسلاحه فيظل بها في أسره .

ويطول الأسر أربع سنوات ، فتكثر أشعار أبي فراس إلى أهله وسيف الدولة وإخوانه مؤملا في الإسراع بفدائه ، وكان مما
آخره أن سيف الدولة يريد فداءً عاما له ولكل من معه من المسلمين ممن وقعوا قهرا في شرك الروم ، وفي سنة 355 هـ يتفق
الروم وسيف الدولة على اللقاء وفداء الأسرى من الطرفين ، وفي شهر رجب ينزل أبو فراس ومعه ثلاثة آلاف أثير عربي
بخرنشنة ويقدم سيف الدولة بأسرى الروم يفتدي بهم أبا فراس ومن معه من أسرى العرب .
ويتم الفداء ويعود أبو فراس إلى حلب ، وتأثر تأثرا شديدا لمرض سيف الدولة وما أصاب جنوده من انكسارات وهزائم متلاحقة
* ويتوفي سيف الدولة في السنة اللاحقة 356 هـ ويدور العام ويحاول أبو فراس الاستيلاء على حمص من يد ابن سيف
الدولة أبي المعالي ، ويلقاه مولاه (قرغويه) في جمادى الأولى 357 هـ ويكون في ذلك حتفه!!
(شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ج 6 ص 223، 224)

— قال له .. حسبك يا أبا فراس ... إنه أبو الطيب ..!

— كان يعرف قدرك جيدا يا أبا الطيب ...

— نعم وكنت دائما عند حسن ظنه ...

بلغني أيضا أن أبا العباس النامي الشاعر، وكان أيضا في بلاط سيف الدولة من قبل لحوقي به وكان مُقدِّما على من سواه من الشعراء ، ومنهم أبو بكر الصنوبري الذي توفي قبل التحاقه ببلاط سيف الدولة بثلاثة أعوام تقريبا وكان شاعرا وخازنا لمكتبة سيف الدولة. ⁽¹⁾ هكذا قيل لي ، وكان سيف الدولة يقدر أبا العباس النامي ويقدر أشعاره فلما جئت ... تغير الحال عليه ، فحمل في نفسه ..

وبلغني حوار دار بينه وبين سيف الدولة ... قال له : يا أيها الأمير ، لم تفضّل عليّ ابن عيدان السقا ؟.... فأمسك سيف الدولة عن جوابه . فلجّ وألحّ ، وطالبه بالجواب فقال : لأنك لاتحسن أن تقول كقوله :

يعود من كل فتح غير مفتخر * وقد أغز إليه غير محتفل

فنهض من بين يديه مغضبا وبلغني أنه عزم ألا يمدحه أبدا

- وكيف كانت علاقتك به ، بعد الذي علمته ...؟

- كنت أداري كأني لا أعرف شيئا كنت عادة لا أبدأ بالهجوم ... لكنني إذا هاجمت فحدث ولا

حرج كان يُظهر مودة مصطنعه وكانت تدور بيننا أحاديث ومجاريات حتى إنه قال لي يوما .

— كان قد بقي في الشعر زاوية دخلتها يا أبا الطيب ، وكنت أشتهي أن أكون سبقتك إليها في

معنيين قلتهما ما سُبقتَ إليهما ، أما أحدهما

قلت ما هما ..؟؟

قال : قولك ⁽²⁾

رمانى الدهر بالأرزاء حتى * فؤادي في غشاء من نبال

⁽¹⁾ راجع المحاسني ، ص 20 ، 21)

⁽²⁾ يوسف البديعي ، الصبح المنبي ص 80 ، 81)

فصرت إذا أصابتني سهام * تكسرت النصال على النصال

والآخر قولك :

في جحفل ستر العيون غباره * فكأنما يبصرن بالآذان

— كان قصر سيف الدولة ملتقى الفكر والثقافة والأدب وقتئذ ...!

- كانت حلب كلها في أيام سيف الدولة دار علم وأدب وملتقى للمفكرين والشعراء ، وقد كثرت فيها المكتبات ، وكان قصره في ظاهر حلب في مكان يسمى (الحلبة) مزهوا بنوادر المصنفات ، وكان يجري على العلماء جريات مالية ليتفرغوا للعلم والتأليف ، فأجرى على الفيلسوف والموسيقي أبي نصر الفرابي الذي توفي هذه السنة 339 هـ ، أربعة دراهم كل يوم ، وكان الفارابي أشهر من ظهر من الفلاسفة في عصره فضلا عن معرفته فن الموسيقى العربية .

ظهر جمهرة من علماء اللغة والنحو والشعراء وكان من أشهرهم (ابن خالويه)⁽¹⁾ وأبو علي القالي⁽²⁾ له كتاب كبير سمّاه (الأمالي) على نحو ما كان معروفا في هذا العصر من إملاء الأستاذ تلاميذه مقولاته في الدرس والبحث فظهر جامعا بين الأدب واللغة والقصص والتاريخ . ولم يخل من النحو والصرف .. وكان هناك أيضا أبو الطيب اللغوي ...⁽³⁾

وكان في بلاط سيف الدولة شاعر آخر هو (كشاجم) له مفارقات لطيفة في الشعر وكان طباحا لسيف الدولة

— طباح سيف الدولة شاعرا ...؟!

- نعم كما كان يجول بين حلب والموصل شاعران آخران هما الخالديان (أبو عثمان سعيد بن هاشم وأخوه محمد بن هاشم) وكان يسميهما البعض بالساحرين⁽⁴⁾ .

(1) (توفي سنة 370 هـ)

(2) (توفي سنة 356 هـ)

(3) (المحاسني ، مرجع سابق ص 17)

(4) الخالديان هما أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم الخالديان ، أديبا البصرة وشاعراها في عصرهما ، وقد اتصلا بسيف الدولة ومدحاه ، وكان بينهما وبين السري الرفا ما يكون بين المتعاصرين من التغاير والتضامن ، فكان يدعي عليهما

والسري الرفا (1)

وشعراء كثيرون غير هؤلاء عاشوا في ظلال سيف الدولة ، منهم من كان يبقى فترة مثلي
ومنهم من كان يمر مروراً عابراً ...

ومن أجمل الأخبار التي وصلتنا ونحن في حلب في سنة 339 هـ وفي شهر ذي القعدة منها ،
رُد الحجر الأسود المكي إلى مكانه ، وقيل إن الأمير بجكم التركي بذل للقرامطة خمسين
ألف دينار ليردوه إلى موضعه ، فلم يقبلوا ، وقالوا : نحن أخذناه بأمر ، ولا نرده إلا بأمر من
أخذناه بأمره .

سرقة شعره ، وكان أبو عثمان أصغر الأخوين نادرة الدنيا في الحفظ ، توفي سنة 371 هـ وتوفي أبو بكر 381 هـ . والخالديان
نسبة إلى خالدة ، وهي قرية من أعمال الموصل ، . عن الصباح المنبي ، دار المعارف ط3 ص 142 هامش)
(1) (يقول محقق الصباح المنبي ، دكتور/ مصطفى السقا ، عن السري الرفا ، ص79 دار المعارف سلسلة ذخائر العرب ط3
في الحاشية : هو أبو الحسن بن أحمد الموصلية الشاعر كان في صباه يرفو ويطرز في دكان بالموصل وهو مع ذلك يتولع
بالأدب ، وينظم الشعر ، قصد سيف الدولة بحلب وأقام عنده مدة ثم انتقل بعد (وفاته) إلى بغداد ومدح الوزير المهلبى ونفق
شعره وراج وكان شاعرا مطبوعا عذب الألفاظ مليح المأخذ كثير الافتنان في التشبيهات والأوصاف ومن شعره يذكر صناعته :
وكانت الإبرة فيما مضى * صائنة وجهي وأشعاري
فأصبح الرزق بها ضعيفا * كأن من ثقبها جاري
وتوفي بعيد سن 360 هـ) .

[التعلق : وقع المحقق في خطأ يجب التنبيه إليه ، فمن المعلوم أن الوزير المهلبى توفي سنة 352 هـ وسيف الدولة توفي سنة
356 هـ ومعنى هذا أن السري الرفا لا يمكن أن يكون قد اتصل بالمهلبى بعد وفاة سيف الدولة ، وربما يكون التحاقه بالمهلبى
قبل وفاة سيف الدولة مما يلزم أن يكون قد ترك سيف الدولة قبل وفاته بفترة تزيد حتما عن أربع سنوات بما يسمح بالتحاقه
بالمهلبى ، ولعله خرج مع الخالديين والمتنبي من حلب عندما تركوا سيف الدولة سنة 346 هـ أو العكس ، أن يكون قد التحق
بالمهلبى ثم تركه والتحق ببلاط سيف الدولة ...] في وفاة المهلبى راجع الكامل في التاريخ لابن الأثير ج 7 ط1 1987 لأبي
الحسن علي الشيباني المعروف بابن الأثير - دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان أحداث سنة 352 ص278
(في هذه السنة سار الوزير ابو محمد المهلبى وزير معز الدولة في جمادى الآخرة في جيش كثيف إلى عمان ليفتحها
، فلما بلغ البحر اعتل ، واشتدت علته ، فأعيد إلى بغداد ، فمات في الطريق ، في شعبان . وحمل تابوته إلى بغداد فدفن بها
، وقبض معز الدولة أمواله وذخائره ، وكل ما كان له وأخذ أهله وأصحابه ، وحواشيه وحتى ملاحه ومن خدمه يوما واحدا ،
فقبض عليهم وحبسهم ، فاستعظم الناس ذلك واستقبحوه ونظر في الأمور بعده أبو الفضل العباس بن الحسين
الشيرازي ، وأبو الفرج محمد بن العباس بن فسانجس من غير تسمية لأحدهما بوزارة .)

فلما كان هذا العام حملوه إلى الكوفة ، وعلقوه على الاسطوانة السابعة ، من جامعها ليراه الناس

— إذا فقد تشرفت الكوفة أن بقي فيها الحجر الأسود بعض الوقت ...

— نعم وقد كتب إخوة أبي طاهر القرمطي كتابا فيه : إنا أخذنا هذا الحجر بأمر ، وقد رددناه بأمر من أمرنا بأخذه ، ليتم حج الناس ومناسكهم ، ثم أرسلوه إلى مكة بغير شيء على قعود (جمل) ، فوصل في ذي القعدة من هذه السنة ، وكان مدة مقامه عندهم ثنتين وعشرين سنة ، ففرح المسلمون بذلك فرحا شديدا . وفرحنا جميعا هنا في حلب وكانت سعادة سيف الدولة بذلك سعادة غامرة

— يقولون إن القرامطة حين أخذه حملوه على عدة جمال ، فعطبت تحته ، واعتري أسنمتها العقرُ ، ولما ردوه حمله قعود واحد لم يصبه بأس .

— هذا من بركة هذا الحجر فله سر عظيم لا يعلمه إلا الله

ثم دخلت سنة أربعين وثلاثمائة المتنبّي يحرض المسلمين على القتال

- ويبدو أن المهلبى هذا كان محظوظا ، فقد سطع نجمه سريعا ، وساعدته الأقدار على ذلك ، ففي هذا العام قصد صاحب عُمان البصرة ليأخذها في مراكب كثيرة ، وجاء لنصرته أبو يعقوب الهجري ، فمانعه عنها الوزير أبو محمد المهلبى وصدّه عنها ، وأسر جماعة من أصحابه وسبى كثيرا من مراكبه ، فساقها معه في دجلة ، ودخل بها إلى بغداد في أبهة عظيمة .⁽¹⁾ تخيل ..لم يمض عام واحد على وزارته ، وينتصر هذا الانتصار المبهر ، فعلى شأنه عند معز الدولة ..

أما في حلب فكانت مرارة الهزيمة واندحار الجيش غصة في حلقنا جميعا .. وقد نهض سيف الدولة ، وبذل أقصى ما يستطيع من جهد ومال ، لإعداد جيش جديد قادر على ملاقات الروم ، وبعد أشهر قليلة من الواقعة السابقة ، كان لدينا جيش مجهز على أحسن ما يكون ، ولم يكن سيف الدولة يبخل بشيء فيما يخص الجيش وأصبحنا على أهبة الاستعداد للقاء الروم ، وكانت النية أن نغسل عن المسلمين وعن أنفسنا عار الهزيمة التي علقت بنا في العام الماضي ، فتهيأنا للزحف من المكان نفسه الذي استعرض فيه سيف الدولة الجيش في السنة الماضية ، ولكننا علمنا أن جيش العدو ضخّم كثير العدد ، فدب في نفوس البعض نوع من الخور ، فتقدم الأمير إليّ أن أنشد شيئا يُثبّت القلوب ، ويحرض على القتال ، فكانت القصيدة النونية و أولها:

نزور ديار ما نحب لها مغنى * ونسأل فيها غير سُكّانها الإذنا
نقود إليها الآخذات لنا المدى * عليها الكماء المحسنون بها ظنا
ونصفي الذي يُكنى أبا الحسن الهوى * ونرضي الذي يُسمى الإله ولا يكنى
وقد علم الروم الشقيون أننا * إذا ما تركنا أرضهم خلفنا عدنا

(1) راجع أحداث 340 هـ البداية والنهاية)

وأنا إذا ما الموت صرّح في الوغى * لبسنا إلى حاجاتنا الضرب والطعنا

.....

وإن كنت سيف الدولة العضب فيهم * فدعنا نكن قبل الضراب القنا اللدنا

فنحن الألي لا نأتلي لك نصرة * وأنت الذي لو أنه وحده أغنى

يقيك الردى من يبتغي عندك العلى * ومن قال لا أَرْضى من العيش بالأدنى

فلولاك لم تجر الدماء ولا اللهى * ولم يك للدنيا ولا أهلها معنى

وما الخوف إلا ما تخوفه الفتى * وما الأمن إلا ما رآه الفتى أمنا

وكانت هذه القصيدة أمام الجيش كله فردت الثقة إلى القلوب وزادتهم حماسة لملاقاة

العدو الذي أسر وقتل إخوانهم في الحرب السابقة رغبة في الانتقام وردا للكرامة ، وقد اندفع

الجيش بعدها اندفاع الأسود...فاكتسحنا الروم اكتساحا وتوغلنا في أرض العدو وأخذنا ثأرنا

منهم ، قتلا وأسرا وغنائمًا ، وكان سيف الدولة يبتغي أن يصل إلى خرنشة ، ولكن الشتاء

داهمنا وسقطت الثلوج ، فلم يستطع الجيش التقدم ، فعدنا أدراجنا نحمل رايات النصر ...

عاد الجيش مظفرا هذه المرة فقلت الدالية التي أولها :

عوزل ذات الخال في حواسد * وإن ضجيج الخود مني لماجد

- تبدوها بالنسيب يا أبا الطيب !! لم تفعل ذلك في السابقة ...

- ولم لا ... هذا مقام وذاك مقام ، لقد طابت النفوس بالنصر

أتابع فأقول :

يرد يدأ عن ثوبها وهو قادر * ويعصي الهوى في طيفها وهو راقد

متى يشتهي من لاجع الشوق في الحشا * محب لها في قربه متباعد

إذا كنت تخشى العار في كل خلوة * فلم تتصباك الحسان الخرائد

ألح علي السقم حتى ألفتة ومل طبيبي جانبي والعوائد

مررت على دار الحبيب فحمحت * جوادي ، وهل تُشجي الجياد المعاهد

.....

وأورد نفسي والمهند في يدي * موارد لا يُصدِرْنَ مَنْ لا يُجَالِدُ
ولكن إذا لم يحمل القلبُ كَفَّةً * على حاله لم يحمل السيفُ ساعدُ
خليليَّ إني لا أرى غيرَ شاعر * فلمْ منهمُ الدعوى ومني القصائدُ
فلا تعجبا إن السيوف كثيرة * ولكن سيف الدولة اليوم واحدُ

.....

فتي يشتهي طول البلاد ووقته * تضيق به أوقاته والمقاصدُ
أخو غزوات ما تغبُّ سيوفه * رقابهمُ إلا وسيحانُ جامدُ
فلم يبقِ إلا من حماها من الظبي * لمن شفتيها والتدِّي النواهدُ
تبكي عليهن البطاريق في الدجى * وهن لدينا ملقيات كواسدُ
بذا قضتِ الأيام ما بين أهلها * مصائب قوم عند قوم فوائدُ

— أشم رائحة الحساد في قولك ، ولمحات من الفخر والاستعلاء والتباهي بالبطولة كنت أحد أبطال هذه المعركة ؟!.

— كان الأمر كما تقول ... وكشف الحساد اللثام عن وجوههم ، ومعظمهم من الشعراء ، لذا كانت لهجتي كما رأيت ...

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة الهروب من الموت

— يقال يا أبا الطيب إن جيوش الروم في هذه السنة سنة 341 هـ ملكت سروج ، وقتلوا أهلها
وخرّبوا مسجدها

— ولكن في هذه السنة أيضا ،... زحف سيف الدولة على (مرعش) فأزال عنها الروم وأقام
حصنها ، وعاد مظفرا فقلت في ذلك القصيدة التي أولها :

فدينك من ربع وإن زدتنا كربا * فإنك كنت الشرق للشمس والغربا
وكيف عرفنا رسم من لم يدع لنا * فؤاد لعرفان الرسوم ولا لبّا

.....

لقد لعب البين المشتُّ بها وبى * وزودني في السير ما زود الضبّا
ومن تكن الأسد الضواري جدوده * يكن ليله صباحا ومطعمه غصبا
ولست أبالي بعد إدراكي العلى * أكان تراثا ما تناولت أم كسبا
فرب غلام علم المجد نفسه * كتعليم سيف الدولة الطعن والضربا
إذا الدولة استكفت به في ملمة * كفاهها فكان السيف والكف والقلبا
تُهاب سيوف الهند وهي حدائد * فكيف إذا كانت نزارية عُرْبًا

- لا شك يا أبا الطيب كان سيف الدولة ، سعيدا بأشعارك فيه ..!

- أيما سعادة ... بدليل تلك المنح العظيمة التي كان يتحفني بها من حين لآخر ، وكان فيها الغني
كل الغني . ولكنه كانت له معي عادة غريبة كنت أكرهها منه ولا أعلم لماذا كان يُصرُّ عليها ،
ولعلها من تأثير الوشاية بي وحسد الحساد ...

- وما هي يا أبا الطيب ..؟

- كنت إذا تأخرت عليه في قول الشعر استحضر في ندواته وأمسياته التي أحضرها ، بعض هؤلاء الشعراء الأدعياء وغيرهم من اللغويين ويومئ إليهم ليستفدوني فيعرضوا بي ، يقصد أن يدفعني دفعا إلى قول الشعر ..حتى يمنعهم عني ... مرة بعد أخرى ...
كنت أهملهم ولا آبه لهم ، بل كنت لا آبه أن أقول أشعارا فيه هو نفسه !! فكان يشتاط غضبا ويداري

وتمادى في أسلوبه هذا وتماديت في ترك الشعر فيه ، حتى زاد الأمر عن حده فقلت أعاتبه :

وا حرَّ قلباه ممن قلبه شُبم * ومن بجسمي وحالي عنده سقم⁽¹⁾
مالي أكتّم حبا قد برى جسدي * وتدّعي حُبَّ سيف الدولة الأُمّ
إن كان يجمعنا حُبَّ لغرته * فليت أنا بقدر الحب نفتسم
قد زرتة وسيوف الهند مغمدة * وقد نظرت إليه والسيوف دمُ
وعندما وصلت إلى قولي :

يا أعدل الناس إلا في معاملتي * فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

(1)* يقول د . مصطفى الشكعة في كتابه ابو الطيب في مصر والعراقيين ص 109 ، وهو يشير إلى هذه القصيدة ، فيقول : وكانت هذه القصيدة بمثابة نهاية لملمحة رائعة من ملاحم العلاقات الجليّة بين أمير وشاعر ، بين فارس وأديب ، بين كريم ومعجب ، بين مظفر ومادح ، بين سيف الدولة بن حمدان وأبي الطيب المتنبّي ، ويكرر أن هذه القصيد آخر قصيدة في سيف الدولة ص 261)

[وهذا الكلام غير صحيح ، لأن هذه القصيدة قالها أبو الطيب في شهر رجب سنة 341 هـ (راجع الديوان تحقيق عزام ص322 هامش ومعجز أحمد لأبي العلاء المعري ج3 ص247 هامش عن العرف الطيب 341) ومعلوم أن أبا الطيب فارق سيف الدولة الحمداني وترك حلب بمن فيها سنة 346 هـ ، بما يعني خمس سنوات كاملة بعد هذه القصيدة وأبو الطيب في كنف سيف الدولة قال فيه مدائح واشترك معه في حروب الروم ووصف حروبه للقبائل الخارجة عليه ، وقال فيها أشعارا كثيرة ، بل إن سيف الدولة أقطعه في هذه الفترة إقطاعا بمعرة النعمان وحمله على فرس بصحبة الغلمان والحرس وودعه عند ذهابه إليه ، نعم ظل حسد الحساد مثل النار تحت الرماد يخبو حيناً ويشعل أحيانا ، لكن هذه القصيدة لم تكن نهاية علاقة الأمير بالشاعر كما يشير دكتور الشكعة ، وإلا فما الداعي لهروب المتنبّي بعد هذه القصيد خوفا من الرصد ، عند أحد أصدقائه بحلب تسعة عشر يوما والمراسلات تجري بينه وبين سيف الدولة حتى أمّنه فعاد إليه فسأله عن حاله قال المتنبّي : رأيت الموت بجوارك خير لي من الحياة عند غيرك [!!!....]

قال أبو فراس وكان حاضرا ويقصد مقاطعتي وتسفيه قولي .. : مسخت قول (دعبل) وادعيته وهو :

(ولست أرجو انتصافا منك مازرفت * عيني دموعا وأنت الخصم والحكم)

ولكني لم ألتفت إليه وأكملت :

أعيذها نظرات منك صادقة * أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورمُ

فعلم أبو فراس أنني أعنيه ، فقال : ومن أنت يا دعي كندة حتى تأخذ أعراض أهل الأمير في مجلسه ؟ . ولكني لم أرد عليه أكملت قصيدتي :

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره * إذا استوت عنده الأنوار والظلم

قال أبو فراس : سرقت هذا من معقل العجلي وهو :

إذا لم أميز بين نور وظلمة * بعيني ، فالعينان زور وباطل

ولمحمد بن أحمد بن أبي مرة المكي مثله ، وهو :

إذا المرء لم يدرك بعينه ما يرى * فما الفرق بين العمى والبصراء

ولكني أكملت ولم ألتفت إليه :

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا * بأني خير من تسعى به قدم ⁽¹⁾

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي * وأسمنت كلماتي من به صممُ

فزاد غيظ أبي فراس ، وقال : سرقت هذا من عمرو بن عروة بن العبد في قوله :

أوضحت من طرق الآداب ما اشتكلت * دهرا وأظهرت إغرابا وإبداعا

حتى فتحت بإعجاز خُصصت به * للعمي والصم أبصارا وأسماعا

ولكني أكملت ولم أرد عليه ، وسيف الدولة ينظر إليه في ضجر ، لا يريد أن يقاطعني :

(¹) هذا البيت ساقط من نسخة الديوان تحقيق عزام سلسلة الزخائر ، هيئة قصور الثقافة العدد 1 راجع صفحة 323)

أَنَامَ مَلَأَ جَفُونِي عَنْ شَوَارِدِهَا * وَيَسْهَرُ الْخَلْقَ جَرَّأَهَا وَيَخْتَصِمُ
وَجَاهِلَ مَدَّهَ فِي جَهْلِهِ ضَحَكِي * حَتَّى أَتَتْهُ يَدُ فَرَّاسَةٍ وَفَمُ
إِذَا رَأَيْتَ نِيُوبَ اللَّيْثِ بَارِزَةً * فَلَا تَظُنَّنْ أَنَّ اللَّيْثَ مَبْتَسِمُ

فَلَمَّا وَصَلْتُ إِلَى هَذَا الْبَيْتِ :

فَالْخَيْلَ وَاللَّيْلَ وَالْبِيدَاءَ تَعْرِفْنِي * وَالْحَرْبَ وَالضَّرْبَ وَالْقُرْطَاسَ وَالْقَلَمُ
صَحَبْتُ فِي الْفُلُوتِ الْحَوْشَ مُنْفَرِدًا * حَتَّى تَعْجَبَ مِنِّي الْقُورُ وَالْأَكْمُ
قَالَ أَبُو فَرَّاسٍ : وَمَا أَبْقَيْتَ لِلْأَمِيرِ ، إِذَا وَصَفْتَ نَفْسَكَ بِالشَّجَاعَةِ وَالْفَصَاحَةِ ، وَالرِّيَاسَةِ
وَالسَّمَاحَةِ ، تَمْدَحُ نَفْسَكَ بِمَا سَرَقْتَهُ مِنْ كَلَامِ غَيْرِكَ وَتَأْخُذُ جَوَائِزَ الْأَمِيرِ ؟ أَمَّا سَرَقْتَ هَذَا مِنْ
قَوْلِ الْهَيْثَمِ بْنِ الْأَسْوَدِ النَّخَعِيِّ الْكُوفِيِّ الْمَعْرُوفِ بِابْنِ الْعَرِيَانِ الْعُثْمَانِيِّ ، وَهُوَ :

أَعَاذَلْتِي كَمْ مَهْمَةٍ قَدْ قَطَعْتَهُ * أَلَيْفَ وَحَوْشٍ سَاكِنَا غَيْرَ هَائِبِ

أَنَا ابْنُ الْفَلَا وَالطَّعْنِ وَالضَّرْبِ وَالسَّرَى * وَجَرْدِ الْمَذَاكِي وَالْقَنَا وَالْقَوَاضِبِ

حَلِيمٍ وَقُورٍ فِي الْبُودَايِ وَهَيْبَتِي * لَهَا فِي قُلُوبِ النَّاسِ بَطْشُ الْكَتَائِبِ

وَغَضَبِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ مِنْ كَثْرَةِ مَنَاقِشَتِهِ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ ، وَكَثْرَةِ دَعَاوِيهِ فِيهَا ، وَضَرْبِهِ بِالْذَّوَا
الَّتِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَأَكْمَلْتُ قَصِيدَتِي :⁽¹⁾

يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نَفَارِقَهُمْ * وَجَدَانَنَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمُ

.....

كَمْ تَطْلُبُونَ لَنَا عِيَا فَيَعْجِزُكُمْ * وَيَكْرَهُ اللَّهُ مَا تَأْتُونَ وَالْكَرَمُ
مَا أَبْعَدَ الْعَيْبِ وَالنَّقْصَانِ مِنْ شَرْفِي * أَنَا الثَّرِيَا وَزَانَ الشَّيْبِ وَالْهَرَمُ

.....

لَنْ تَرْكُنَا ضَمِيرًا عَنْ مِيَامِنَا * لِيَحْدِثَنَّ بَيْنَ وَدَعْنَهُمْ نَدَمُ
إِذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَّرُوا * أَلَا تَفَارِقُهُمْ فَالْمَرَا حُلُونُ هُمْ

(1) راجع ما جرى بين المتنبي وأبي فراس عند انشاد هذه القصيدة ، الصبح المنبى ط 3 ص 88 وما بعدها ، مع ملاحظة وجود خطأ في ترتيب أبيات القصيدة ، الخيل والليل والبيداء تعرفني ، مع مداخلات أبي فراس ، وقد حاولنا تنسيق الحوار بحسب القصيدة ...)

.....

بأي لفظ تقول الشعر زعنفة * تجوز عندك لا عرب ولا عجم

هذا عتابك إلا أنه مقه * قد ضمن الدر إلا أنه كلم

فلما انشدته هذه القصيدة وانصرفت ، بلغني أن أبا الفرج السامري (1) قال لسيف الدولة
إتركني أسعى في ذمه . فرخص له في ذلك . وقد بلغني أن هذا السامري وكان من كبار كتاب
الأمير قال في هجاء ؛ فقلت فيه :

أسامري ضحكة كل رائني * فطنت وأنت أغبي الأغبياء

صغرت عن المديح فقلت أهجو * كأنك ما صغرت عن الهجاء

وما فكرت قبلك في محال * ولا جربت سيفي في هباء

وقد بلغني بعد ذلك ، أن أحد الحاضرين ممن يكرهونني وأظنه أبا فراس أبرق إلى أبي العشائر
بخصوص هذه القصيدة وأني أهدد بترك سيف الدولة إلى غيره ، وذكر له أشياء أخرى مما
أغراه بي ، فأرسل إلي من يقتلني ... حدث هذا بعد ذلك بعدة أيام

أما عند انصرافي من مجلس سيف الدولة في هذه الليلة ، وجدت رجالا ملثمين رابني منظرهم
وتبينت السلاح تحت ثيابهم ، فأمكننت يدي من قائم سيفي ، واخترقتهم فلم يقدرُوا عليّ . ويبدو
أن هذا كان من ترتيب أبي فراس ... وقد خطر ببالي أنه من ترتيب سيف الدولة عندما هددت
بفراقه لكن هذا الخاطر لم يستقر ...

- يا أبا الطيب الموقف هنا يحتاج إلى بيان ... هل لمجرد تأخرك في مديح سيف الدولة ، يرتب
لقتلك ؟! ولا لحسد أبي فراس لك يرتب لقتلك ... ؟ ثم إن الرواة ذكروا أنه قد طارت رسائل إلى
أبي العشائر بما حدث فرتب لك أيضا جماعة تريد قتلك جاءك أحدهم عند دخول الليل ،
وكانه رسول من سيف الدولة يستدعيك ، وانتظروك عند مدخل القصر ، ودارت بينك وبينهم
مبارزات بعدما اجتررتهم إلى الصحراء ، أصيب فيها فرسك برمح في منخره ، فنزعت
وكررت عليهم وأصبت أحدهم إصابة شديدة ، مما لهاهم عنك فتمكنت من الفرار الأمر

(1) (راجع عبد الوهاب عزام ، أبو الطيب المتنبي بعد ألف عام ص 94 ، 95)

خطر ! وليس بُطاً في قول الشعر ولا حسدَ حاسدٍ ...!ولا تهديك بترك سيف الدولة يؤدي إلى
هذه الأحداث القاسية ...!!

— عند حق . كان الأمر أخطر من ذلك ...لم يكن تهديدي بالمغادرة ولا حسد أبي فراس فقط
وراء ما حدث..

ما كنت أريد أن أخوض في هذا الحديث ، ولكني سوف أصارك القول ... و دَعْنَا نعود قليلا
إلى الوراء . عندما دخلتُ قصر الأمير

ذكرتُ لك أنني وجدت حفاوة شديدة ممن بالقصر أولهم بالطبع سيف الدولة ، وثانيهم ست
الناس الأميرة (خولة) أخت سيف الدولة وكانت في مستهل شبابه ... وكانت لها أخت
أصغر منها يزيد سنها قليلا عن سن أبي محسّد ... لقد أبدت الأميرة عطفاً شديداً على ولدي
محسّد بعدما علمت بيتمه ، ولقد وقع ذلك من نفسي موقعا حسنا ، فلقد كان محسّد وظروف
يتمه يذكرني بنفسي وأنا صغير ، فكنت أحضره معي عند مجيئي إلى القصر بإذن الأمير وكطلب
الأميرة . وكان محسّد يمرح في القصر تحت رعاية ست الناس وكانت أختها الصغرى تشاركه
اللهو واللعب ... وقد كان محسّد خفيفا ظريفا مهذبا ومؤدبا أيضا .. وكانت الأميرة ست الناس
تسأل محسّد عن أحوالنا وحياتنا وعيشتنا وأكلنا وشربنا ، وهي التي ألمحت لسيف الدولة أننا
في حاجة إلى جارية تقوم على شئون البيت ، وقد فعل سيف الدولة وأهدى إليّ جارية ...كما
ذكرت لك من قبل ...

كانت ست الناس بأفعالها هذه تزداد من نفسي قربا ... وكانت حريصة وهي خلف الحجاب في
القصر أن يكون لها مداخلات ومعارضات في بعض قضايا الشعر والشعراء التي نثيرها ، فكنت
أسمع صوتها وأستأذن الأمير في الرد فيأذن لي ...

وكنّت في تلك الأحوال أعود إلى البيت سعيدا على غير العادي في أمثال هذه الليالي .. وتيقنت
أن مرجع سعادتي هذه أنني أدركت حوارا مع ست الناس وسمعت صوتها وسمعت صوتي
كان قصر الأمير بظاهر حلب يحتوي مكتبة لم أر مثلها من قبل ..! كانت مكتبة عظيمة تحتوي
على كنوز المعرفة في كل مجال وكانت بالنسبة لي كنز لا يقدر بمال وفرصة لا تعوض في

الانكباب على هذه المعارف التي لاتتاح في مكان آخر ... فاستأذنت الأمير في المطالعة ، فأذن لي بل زادني فضلا إن كنت أريدُ نُسخا من بعض الكتب ، أن تنسخ لي ... وكان ذلك من أعظم ما أتحفني به الأمير سيف الدولة .

فكنت أقضي الساعات في المطالعة في مكتبة القصر وكان الخالديان يتناوبان على خزانتهما ⁽¹⁾ حتى إذا طلب الأمير شيئا يجده كانت الأميرة ست الناس طلعة ..! كانت مثقفة وذكية وتحب الشعر ، وتحفظ الكثير منه وقد فهمت ذلك من ردودها في أمسيات الأمير ... ويوما ما حضرت الأميرة ست الناس إلى المكتبة تطلب ديوان البحري ... فوقفت وطأطأتُ رأسي في حضرتها ... إنها الأميرة ...! ولمحت على وجهها الحجاب ... وفي عينيها البريق جاءها الخازن بديوان البحري فأخذته ولكنها لم تنصرف وقفت تنظر في الديوان ثم أغلقته ... وسألتني:

— ماذا تقرأ يا أبا الطيب ؟

— أقرأ في ديوان أبي تمام ..

— ولكني أعلم أنك تحفظه ...؟

— نعم .. ولكن المراجعة تؤكد الحفظ .

— ترى يا أبا الطيب .. أيكم أشعر أنت أم أبو تمام أم البحري.؟

— أنا وأبو تمام حكيمان ... والشاعر البحري!

ضحكت ضحكة أثره فيها عذوبة ورقة وجمال لم أسمع مثلها من قبل ..!! وقالت :

— تحسن التخلص دائما يا أبا الطيب ... ثم انصرفت

.... تكررت زياراتها للمكتبة ... بعد هذا اللقاء ... وتكررت محاوراتنا .. بل وأخذ الحوار قدرا

من التباسط الحذر من ناحيتي على الأقل ... وإن كانت هي أجراً مني في ذلك ...!!!.

(1) مصطفى الشكعة ص (113) ..

وصل خبر هذه اللقاءات إلى سيف الدولة ... وكان يسألني وكنت أصارحه بما دار حرفا حرفا ...
ويبدو أنه كان يسألها أيضا عن ذلك ... ويبدو أنه لم يكن يجد في ذلك غضاضة بدليل أننا كنا
نلتقي ... أقصد كانت تأتي إلى المكتبة بعد ذلك مرات عديدة ولم يمنعني سيف الدولة ولم يمنعها
.... وكان ذلك مؤشرا على ثقته فيّ وتقديره لي أيضا ...

... ولكن الأمر أخذ اتجاها آخر عندما علم أبو فراس ابن عمها بذلك ... وغار عليها ... وكان
متزوجا وله حياته المستقلة في إمارته بمنج ولم يطلبها للزواج ... ولكنه أقام الدنيا ولم يقعدھا
..... أما سيف الدولة فكان على عكس ذلك تماما .. لا أعرف ماذا قالت الأميرة له عني حتى
يكون على هذه الدرجة من الهدوء .. لكنني أصدقك القول لقد أحببتها! لم أصرح لها بشيء
ولم أكن أجراً على ذلك ، و بدى من تلميحاتها أنها أيضا تميل إليّ ، وربما أحببني ..! كما لا
أعرف إن كان سيف الدولة يعلم من ذلك شيئا أم لا ... إلا أنه لم يمنعني من الحضور إلى مكتبة
القصر ... وهذا من ثورة أبي فراس ... وأخبره أنه على علم بكل شيء ... وأن ليس هناك ما
يدعو لثورته تلك ، ولكنه يبدو أن أبا فراس كان يريدھا نارا ..حيث لعبت غيرة الشاعر دورھا .
وأراد أن يحسم الأمر بنفسه فرتب ما رتب له فلما فشل طير الخبر إلى أبي العشائر ليأخذ
موقفا مني وأضاف في رسائله ما هددت به من ترك الأمير في قصيدي الأخيرة إلى غيره ،
فأرسل أبو العشائر هؤلاء الذين وقفوا بباب قصر الأمير ينتظرون قدومي ليقتلونني.. (1)

- وكيف عرفت أنهم من طرف أبي العشائر ...؟

- عندما أفلت منهم وجرحت أحدهم وانكبوا عليه ليعرفوا ماذا حدث له ، تربصت في طريقهم
الذي توقعت أن يمروا منه لأعرف من هم ..! ، فسمعت أحدهم يقول : ماذا نقول لأبي العشائر
وقد أفلت منا ولم نقتله ؟!

رد آخر : لم نفلته بعد ، أليس له بيت ..؟!

... فعلمت أنهم غلمان أبي العشائر ... فقلت فيه هذا الشعر :

(1) راجع ديوان المتنبي تحقيق عزام - مقدمة القصيدة ص 326 ، 327)

ومنتسب عندي إلى من أحبه * وللنبل حولي من يديه حفيف
فهيج من شوقي وما من مذلة * حننت ولكن الكريم ألوف
وكل وداد لا يدوم على الأذي * دوام ودادي للحسين ضعيف
فإن يكن الفعل الذي ساء واحد * فأفعاله اللاني سررن ألوف
ونفسي له نفسي الفداء لنفسه * ولكن بعض المالكين عنيف
فإن كان يبغى قتلها يك قاتلا * بكفيه فالقتل الشريف شريف

— هذا ما ذكرته من قبل وقلت إنه ذكرك بنفسه ولكنها ذكرى مؤلمة ..؟

— نعم هذا ما كنت أقصده ، هذا الموقف المؤلم شخص لم يكن بينك وبينه إلا كلُّ حُب وتقدير واحترام ثم تفاجأ أنه وراء مؤامرة لقتلك ... تُقدّر ما أقول ... لقتلك !!! شيءٌ صعب على النفس! ولكني أقدر أنه فهم الموقف على نحو خطأ ، ورواه له راو أسود القلب من ناحيتي ، فكان هذا التصرف المباشر دفاعا عن الشرف كما كان يظن ... فلا تثريب عليه .. يغفر الله له سوءَ ظنه بي ..!

ووالله ما حدث بيننا شيئا نخجل منه ، أقصد بيني وبين خولة ، ولا استوجب ما صنعه أبو فراس ولا أبو العشائر ولكنهم نقلت الأخبار من الحساد والحاquدين عليّ ، يُحبون دائما التهويل والمبالغة ... وحبذا لو طارت فيها رقبتي ... وتعرفني أنا لا أكذب قط . ثم إنني أعلم أن حرمة سيف الدولة دونها الرؤوس (1) ... وسيف الدولة يعلم جيدا أنه لم يحدث مني شيء مطلقا يمس شرفه ولا حتى من بعيد وإلا قتلني بنفسه ... وهو لم يظلمني لذلك أنكر إنكارا شديدا عندما تراسلنا وتعاتبنا بعد ذلك ، أنه رتب لي شيئا من ذلك الذي حدث لي وأنا أصدقه ، فسيف الدولة لا يفعلها معي

(1) قال ابن فورجة : كان المتنبي داهية مرَّ النفس ، شجاعا حافظا للأدب ، عارفا بأخلاق الملوك ، ولم يكن فيه ما يشينه ويسقطه إلا بخله وشرهه للمال . (الصبح المنبي ص 95)

ولكنه كان كما ذكرت لك من قبل ، أنه يكره أن أبطئ عليه في قول الشعرولا يعني هذا أنه يدبر لقتلي في الخفاء ...وإن كنت من شدة الصدمة قد التبت عليّ الأمر حتى ظننته يفعلها . وقد استبان الأمر لي جليا ، وعرفت من وراء ذلك كما رأيت معي

— هكذا يصبح تفسير الأحداث العنيفة التي مرت بك هذه السنة تفسيراً منطقياً ومقبولاً ...

يقال يا أبا الطيب إنك لم تعد إلى بيتك وأيضاً لم تغادر الكوفة ...!؟

— كيف أعود إلى بيتي وقد رأيت ما رأيت وسمعت ما سمعت ! ... إنهم مجموعة من الفرسان مكلفة بقتلي والعودة بخبري إلى أبي العشائر ... هل يتركونني أدخل بيتي هكذا ...؟! لو عدت إلى بيتي هذه الليلة لكان ذلك الحمق بعينه ...لقد سمعت أحدهم يقول للآخر ... لم نقلته بعد ، أليس له بيت ؟

— ماذا فعلت إذا ..!؟

— اختفيت ... ودخلت المدينة في الليلة التالية متخفياً واحتجبت عند أحد المخلصين من أصدقائي ممن لا يتوقعه أحد ... وسارت الرسائل والمساعي بيني وبين سيف الدولة ، وقلت هذه القصيدة..وهو ينكر أن يكون فعل ذلك أو أمر به :

ألا ما لسيف الدولة اليوم عاتبا * فداه الورى أمضى السيوف مضارباً

وما لي إذا ما اشتقت أبصرت دونه * تنائف لا أشتاقها وسباسبا

وقد كان يدني مجلسي من سمائه * أحادث فيها بدرها والكواكبا

حنانيك مسؤولاً ولبيك داعياً * وحسبي موهوباً وحسبك واهباً

أهذا جزاء الصدق إن كنت صادقاً * أهذا جزاء الكذب إن كنت كاذباً

وإن كان ذنبي كل ذنب فإنه * محا الذنب كل الذنب من جاء تائباً

— ولكن ما حديثك عن الصدق والكذب في قصيدتك هذه ؟؟ ما موضوع التوبة أنا لا أفهم !؟

— كنت أعتذر بالإلهام عن تأخري في قول الشعر فيه وأن الإلهام أبطأ بي في قول الشعر فتأخر قولتي ..! وذلك عندما كان يصنع بي ما يصنع من مواقف الاستفزاز ، وكان يرى أنها حجة ،

الكذب فيها أقرب من الصدق ، لأنه كان يعلم جيدا ملكة الشعر عندي كيف هي ، لذلك كان كلامي عن التوبة من هذا الذنب

واستمر اختفائي عنه تسع عشرة ليلة ، وكنت أريد أن أستوثق منه الأمان والحماية ممن يريدون قتلي

- وما كان موقف الأميرة خولة ست الناس ...؟

— علمت فيما بعد أنها دافعت عني دفاعا عظيما ، واغتمت لما دُبر لي بليل ...وقالت والله ما يستحق أبو الطيب هذا أبدا ... فهو غير كل الشعراء الذين يمرون بنا أدبا وخلقا ، فضلا عن الثقافة والشعر .

— تسع عشرة ليلة مدة طويلة يا أبا الطيب ..!

— كانت كأنها تسع عشرة سنة ... وكأني في سجن لا أرى فيه النور ... ثم جاء كتاب سيف الدولة يتضمن العفو ويضمن الأمن وأن القصر في استقبالي يوم كذا

كان حالي من السوء بمكان ... وهيئتي على أسوء ما يكون ... وتعمدت ألا أهيا نفسي للقاء سيف الدولة ، حتى يعلم ماذا فعل بي هو وعشيرته، ولكن الغلمان تلقونني عند باب القصر وقالوا لي لا يصح أن ألقى الأمير على هذا الحال ، وأدخلوني إلى خزانة الكسوة فتهيأت وتطيبت ، ثم دخلت على سيف الدولة فسألني عن حالي وهو مستح مما حدث لي وأنا في جواره وأمنه ..قال سيف الدولة : كيف حالك يا أبا الطيب ؟.

فقلت له : (رأيت الموت عندك أحب إليّ من الحياة بعيدا عنك ..!) فقال سيف الدولة : بل يُطيلُ الله بقاءك . ودعا لي ..فما استطعت أن أحبس دمع عيني ... فطيب خاطري وأمّنتني ... وما زال بي حتى طابت نفسي وهدأت .

ثم ركبت إلى بيتي وسار معي خلق كثير ، وقد علمت حينها مدى حب الناس لي وتعاطفهم معي وتقديرهم لأشعاري ومتابعتهم لأخباري ...وكان ذلك في شعبان سنة إحدى وأربعين وقد أتبعني سيف الدولة عطاياه وهداياه ترضية لي ... فقلت أمدحه :

أجاب دمعي وما الداعي سوى ظلل * دعا قلباه قبل الركب والإبل

ظَلَلْتُ بَيْنَ أَصِيحَابِي أَكْفَكْفَهُ * وَظَلَّ يَسْفَحُ بَيْنَ الْعَذْرِ وَالْعَذْلِ
أَشْكُو النَّوَى وَلَهُمْ مِنْ عِبْرَتِي عَجَبٌ * كَذَاكَ كَانَتْ وَمَا أَشْكُو سِوَى الْكَلَلِ
وَمَا صَبَابَةٌ مُشْتَاقٌ عَلَى أَمَلٍ * مِنْ اللَّقَاءِ كَمُشْتَاقٍ بِلَا أَمَلٍ
مَتَى تَزُورُ قَوْمَ مَنْ تَهْوَى زِيَارَتَهَا * لَا يَتَحَفُّوكَ بِغَيْرِ الْبَيْضِ وَالْأَسْلِ
وَالْهَجْرَ أَقْتُلْ لِي مِمَّنْ أَرَا قَبَهُ * أَنَا الْغَرِيقُ فَمَا خَوْفِي مِنَ الْبَلَلِ؟

.....

لَا أَكْسِبُ الذِّكْرَ إِلَّا مِنْ مُضَارِبِهِ * أَوْ مِنْ سِنَانِ أَصَمِ الْكَعْبِ مَعْتَدِلٍ
جَادِ الْأَمِيرِ بِهِ لِي فِي مَوَاهِبِهِ * فَرَانَهَا ، وَكَسَانِي الدَّرْعَ فِي الْحُلِّ

.....

ضَاقَ الزَّمَانُ وَوَجْهَ الْأَرْضِ عَنْ مَلِكٍ * مَلَأَ الزَّمَانَ وَمَلَأَ السَّهْلَ وَالْجَبَلَ
فَنَحْنُ فِي جَذَلٍ ، وَالرُّومُ فِي وَجَلٍ * وَالْبَرُّ فِي شَغْلٍ وَالْبَحْرُ فِي خَجَلٍ

.....

وَمَا سَمِعْتُ - وَلَا غَيْرِي - بِمُقْتَدِرٍ * أَذَبَّ مِنْكَ لَزُورِ الْقَوْلِ عَنْ رَجُلٍ

.....

أَنْتَ الْجَوَادُ بِلَا مَنٍّْ وَلَا كَدَرٍ * وَلَا مَطَالٍ وَلَا وَعْدٍ وَلَا مَذَلٍ
أَنْتَ الشَّجَاعُ إِذَا مَا لَمْ يَطَأْ فَرَسٌ * غَيْرِ السَّنَوَّرِ وَالْأَشْلَاءِ وَالْقَلَلِ
- وَمَا كَانَ أَثَرُ هَذِهِ الْقَصِيدِ عَلَى سَيْفِ الدَّوْلَةِ ..؟
- اسْتَحْسَنَهَا وَاسْتَحْسَنَهَا كُلُّ الْحَاضِرِينَ بَلْ وَأَطْنَبُوا فِي وَصْفِهَا ..!
فَقُلْتُ ارْتَجَالًا (1) :

إِنْ هَذَا الشَّعْرُ فِي الشَّعْرِ مَلِكٌ * صَارَ فَهُوَ الشَّمْسُ وَالْدُنْيَا فَلَكَ
عَدْلُ الرَّحْمَنِ فِيهِ بَيْنَنَا * فَقَضَى بِالْفِظِّ لِي وَالْحَمْدُ لَكَ
فَإِذَا مَرَّ بِأَذْنِي حَاسِدٍ * صَارَ مِمَّنْ كَانَ حَيَا فَهَلْكَ

(1) راجع الديوان تحقيق عزام ص 328 ، 332)

— عاد الماء إلى مجراه يا أبا الطيب ...

— نعم ... وكنت أحضر معه حتي عندما كان يمتحن الفوارس وكان يكثر في ذلك ، فقد كان مهتما بالجيش على أحسن ما يكون الاهتمام ويبدو أنه كان يرتب لغزوة كبيرة عن قريب ... جلست معه وكان ذلك في شوال من نفس السنة ، وكان بين يدي سيف الدولة نارنج وطلع نخيل ، فقال لي أبو يعقوب عمار أحد المشايخ الحاضرين معنا : لاتتوهم أن هذا للشرب إنما هو للشم ، متفكها في حديثه معي ، فقلت ارتجالا :

شديد البعد من شرب الشمول * تُرنج الهند أو طلع النخيل

بشغلك بالمعالي والعوالي * وكسب الحمد والذكر الجميل

وكان ابن خالويه حاضرا فأنكر عليّ قولي (تُرنج) وقال إنما المعروف (أترج)

فقلت له ألم تقرأ رواية أبي زيد (ترنج ، وترنجة .) فقال هي لغية وإنما الأفصح أترج ..! (1)
فقلت ردّي شعرا :

أتيتُ بمنطق العرب الأصيل * وكان بقدر ما عاينت قبلي

فعارضه كلام كان منه * بمنزلة النساء من البعول

وهذا الدّر مأمون التشطي * وأنت السيف مأمون الفلول

وليس يصح في الأفهام شيء * إذا احتاج النهار إلى دليل

— يبدو يا أبا الطيب أن ابن خالويه كان يجد منك ...

— نعم هو كذلك ... كانت شواهد تفتحها ... وكانت مثل هذه المعارضات والمحاورات تحدث

كثيرا بيني وبين سيف الدولة وبين الشعراء وعلماء اللغة من أمثال ابن خالويه هذا وأبو

الطيب اللغوي وابن جني ، وأبو علي الفارسي ، وكان بعضهم يمر مرورا ببلاط سيف الدولة

.....! وكانوا جميعا يعرفون باعي في اللغة والشعر جميعا ...

— نعود إلى حروب سيف الدولة يا أبا الطيب مع الروم

(1) (راجع الديوان تحقيق عزام ص 333)

— نعم كان لكثرة الحروب بين سيف الدولة والروم في هذه الفترة ، نتائج مهمة في سير الأحداث فقد كثر الأسرى من الروم عند سيف الدولة ، وكثر أسرى المسلمين عند الروم ، وأقبل رسول ملك الروم في آخر هذه السنة يفاوض سيف الدولة في الفداء وتبادل الأسرى ، فاستقبله سيف الدولة في حفل فخم يريد أن يلقي به الرعب في نفسه ، وجاء غلمان الأمير بلبوة مقتولة فألقوها في طريق السفراء ومن حولها أشبالها أحياء . وأقبلت لأنشد القصيدة التي أعدتها للحفل ، فلما رأيت اللبوة وأشبالها ارتجلت هذه الأبيات الثلاثة (1)

لقيت العفاة بآمالها * وزرت العداة بآجالها

وأقبلت الروم تمشي إلي * ك بين الليوث وأشبالها

إذا رأت الأسد مسبية * فأين تفرّ بأطفالها

ثم قمت بين يدي الأمير ، فأنشدته القافية التي هيأتها لهذا المقام ، مطلعها :

لعينيك ما يلقي الفؤاد وما لقي * وللحب ما لم يبق مني وما بقي

وما كنت ممن يدخل العشق قلبه * ولكن من يبصر جفونك يعشق

وبين الرضى والسخط والقرب والنوى * مجال لدمع المقلة المترقق

وأحلى الهوى ما شك في الوصل ربه * وفي الهجر فهو الدهر يرجو ويتقي

.....

تفك عليهم كل درع وجوشن * وتفري إليهم كل سور وخندق

يُغير بها بين اللقان وواسط * ويركزها بين الفرات وجلق

ويرجعها حمرا كأن صحيحها * يُبكي دما من رحمة المتدفق

فلا تبلغاه ما أقول فإنه * شجاع متي يُذكر له الطعن يشفق

.....

لقد جدت حتى جدت في كل ملة * وحتى أتاك الحمد من كل منطق

(1) راجع ديوان المتنبي تحقيق عزام ص 334)

رأى ملك الروم ارتياحك للندى * فقام مقام المجتدي المتملق
وخلى الرماح السمهرية صاغرا * لأدرب منه بالطعان وأحذق
وكاتب من أرض بعيد مرامها * قريب على خيل حواليك سُبَق

.....

بلغت بسيف الدولة النور رتبة * أنرت بها ما بين غرب ومشرق
إذا شاء أن يلهو بلحية أحرق * أراه غباري ثم قال له : الحق
وما كمد الحساد شيئا قصده * ولكنه من يزحم البحر يغرق

— يقال أن الخالدين أبا بكر وأخاه عثمان قالا لسيف الدولة : إنك لتغالي في شعر المتنبي.
اقترح علينا ما شئت من قصائده ، حتى نعمل أجود منها

— حدث هذا فعلا ، فدافعهما سيف الدولة زمانا ثم كررا عليه فأعطاهما هذه القصيدة . فلما
أخذاها قال عثمان لأخيه أبي بكر : ما هذه من قصائده الطنانات ، فلاي شيء أعطاناها ؟ ثم فكرا
فقال أحدهما لصاحبه : والله ما أراد إلا هذا البيت :

إذا شاء أن يلهو بلحية أحرق * أراه غباري ثم قال له الحق

فتركا القصيدة ولم يعاوداه ولم يعمل شيئا (1) ...!

— ماذا بعد يا أبا الطيب ؟؟

— مرت عدة أشهر ولم أقل شيئا في سيف الدولة ، فاستبطأ ذلك وعاتبني ..! وتكرر عتابه .. ثم
لقيته في الميدان ، فوجدت منه عدم اهتمام بي كما عودني دائما من إقبال إلي والسلام عليّ ،
فعدت إلى بيتي كسيف البال ، وكتبت إليه هذه الأبيات ... (2)

أرى ذلك القرب صار ازورارا * وصار طويل السلام اختصارا

تركتني اليوم في خجلة * أموت مرارا وأحيا مرارا

أسارقك اللحظ مستحييا * وأزجر في الخيل مهري سرارا

(1) راجع الديوان تحقيق عزام ص 338)

(2) راجع الديوان تحقيق عزام ص 345)

وأعلم أني إذا ما اعتذرت * إليك أريد اعتذاري اعتذارا
كفرت مكارمك الباهرا * ت إن كان ذلك مني اختيارا
ولكن حمى الشعر إلا القليل * هم حمى النوم إلا غرارا
وما أنا أسقمت جسمي به * ولا أنا أضمرت في القلب نارا
فلا تلزمني ذنوب الزمان * إلي أساء وإياي ضارا
وعندي لك الشرذ السائرات * لا يختصن من الأرض دارا
قواف إذا سرن من مقولي * وثبن الجبال وخضن البحارا
ولي فيك ما لم يقل قائل * وما لم يسر قمر حيث سارا
فلو خلق الناس من دهرهم * لكانوا الظلام وكنت النهارا

..

ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة معركة معارك سيف الدولة

— يقال إن سيف الدولة بن حمدان سنة 342 هـ ، دخل إلى بلاد الروم ، فقتل منهم خلقا كثيرا ، وأسر آخرين ، وغنم أموالا جزيلة ، ورجع سالما ، هل تذكر هذه الغزوة يا أبا الطيب ؟
— نعم كانت كثيرة الأحداث وكان النصر حليفنا ، أختصرها لك
..... رحل سيف الدولة من حلب إلى ديار مُضر لاضطراب البادية بها ، فنزل حرّان فأخذ رهائن بني عُقيل وقشير والعجلان .. وخطر بباله أن يغزو الروم .

فعبّر الفرات وزحف علي بلاد الروم فاجتاز الحدود وأمعن حتى غار على (ملطية) ثم عاد مظفرا غانما وعاد ليعبر من درب مواز فوجد العدو قد ضبطه عليه ، كما حدث من قبل ولكنه استفاد من أخطائه السابقة . فرجع مسرعا وتبعه العدو ودار القتال فقتل كثير من الأرمن . ورجع سيف الدولة إلى ملطية وعبر الفرات من مخاضة حصن المنشار ورحل إلى سميسطاء فعلم أن الروم قد أغاروا على (أنطاكية) فخف إليهم وأغذ في السير حتى لحقهم قافلين عند (مرعش) ، فأوقع بهم وغنم منهم ، وأسر (قسطنطين) ابن الدمستق وجرح الدمستق في وجهه وعاد موفورا ، فقلت في ذلك اللامية التي أصف فيها ما كان في جمادى الآخرة ، وأولها : (1)

لياليّ بعد الظاعنين شكول * طوالّ وليلّ العاشقين طويل
يُبْن لي البدر الذي لا أريده * ويخفين بدرا ما إليه سبيل
وما عشت من بعد الأحبة سلوة * ولكنني للنائبات حمول
وإن رحيلًا واحدًا حال بيننا * وفي الموت من بعد الرحيل رحيل
إذ كان شمّ الرّوح أدنى إليكم * فلا برحتني روضة وقبول

(1) راجع الديوان تحقيق عزام ص 347)

وما شرقي بالماء إلا تذكر * لماء به أهل الحبيب نزول
يُحرّمه لمع الأسنة فوقه * فليس لظمان إليه وصول
ثم أذكر سيف الدولة وهذه الغزوة العجيبة الطويلة.....
ولكنه يأتي بكل غريبة * تروق على استغرابها وتهول
رمى الدرب بالجرد الجياد إلى العدى * وما علموا أن السهام خيول

.....

فودع قتلاهم وشيع فلهم * بضرب حزون البيض فيه سهول
على قلب قسطنطين منه تعجب * وإن كان في ساقيه منه كبول
لعلك يوما يا دمستق عائداً * فكم هارب مما إليه يؤول
نجوت بإحدى مهجتك جريحة * وخلّفت إحدى مهجتك تسيل
أتسلم للخطية ابنك هارباً * ويسكن في الدنيا إليك خليل

ثم أوجه كلامي لسيف الدولة فأقول :

فدتك ملوك لم تسم مواضيا * فإنك ماض الشفرتين ثقیل
إذا كان بعض الناس سيفاً لدولة * ففي الناس بوقات لها وطبول
أنا السابق الهادي إلى ما أقوله * إذا القول قبل القائلين مقول
وما لكلام الناس فيما يريني * أصول ولا للقائلية أصول
أعدى على ما يوجب الحب للفتى * وأهدأ والأفكار في تجول
سوى وجع الحساد داو فإنه * إذا حل في قلب فليس يحول
ولا تطمعن من حاسد في مودة * وإن كنت تبديها له وتنيل
وإننا لنلقى الحادثات بأنفس * كثير الرزايا عندهن قليل
يهون علينا أن تصاب جُؤمنا * وتسلم أعراض لنا وعقول

لقد أظهر سيف الدولة في هذه الغزوة بطولة لا نظير لها وعبقريّة عسكري لا حدود لها
وحسن توقع ليس له نظير وتجاوب الجيس في سلاسة ويُسر غير معهودين ، مرونة وسرعة

فصيل صغير رغم أنه يعد بالآلاف فكانت النتائجُ مبهرّة تستحق أن تكون نموذجاً ومثالاً ، وكان سيف الدولة في غاية نشوته بعد هذه المعركة ، التي تعتبر استثناءً ، كأنه يريد أن يقول للخليفة ها أنا ذا....

.. يا من تحتمي بمعز الدولة الأعجمي فها أنا ذا البطل العربي الذي لا يبارى في البطولة والإقدام وحسن التخطيط ، وها هو النصر حليف في مواجهة أقوى قوة يمكن أن تواجه جيوش الخليفة .

وقد كنتُ فخوراً باشتراك في هذه المعركة وبليت فيها بلاءً حسناً مع المسلمين في مواجهة الروم الذين يتهددوننا دائماًوكنت دائماً قريباً من سيف الدولة أتابعه في تحركاته وأوامره وكره وفره

وكان مما يغيظ سيف الدولة أنه غارق هنا في شمال الشام ينافح بكل ما يستطيع من قوة ، عن الإسلام والمسلمين ، و الخليفة وأمير الأمراء معز الدولة وقادة جيش الخلافة غارقون هناك في بغداد بين أقذاح الخمر والجواري ولا يدرون أو لا يهتمون بما يدور هنا في أطراف الدولة ..

بل تقوم الدنيا ولا تقعد لمجرد ان يتأخر ناصر الدولة الحمداني عن إرسال الخراج في مواعده هنا تتحرك جيوش معز الدولة دفاعاً عن هيبة الدولةوالحق إنها دفاع عن الدنانير .
- لقد لاحظت تلميحاتك يا أبا الطيب في هذه القصيدة ، ولكن هل يحمد لك معز الدولة ماقلته في حقه وحق الخليفة عندما تصله هذه الأشعار ...!؟

- ليكن ما يكون ... إن أوضاع بيت الخلافة في بغداد تثير الشفقة ، وتسلط معز الدولة يثير الاشمئزاز ، وهذا ما يثيرني ويستفزني ... ألم تقرأ القصيدة التي قلتها لسيف الدولة أنهه فيها بعيد الأضحى . كان كلانا على فرس في الميدان الكبير بحلب سنة ثنتين وأربعين وثلاثمائة ..كان مطلعها :

لكل امرئٍ من دهره ما تعودا * وعادة سيف الدولة الطعن في العدى

.....

تظل ملوك الأرض خاشعة له * تفارقه هلكى وتلقاه سجدا

.....

فيا عجبا من دائل أنت سيفه * أما يتوقى شفرتي ما تقلدا
ومن يجعل الضرغام للصيد بازه * تصيده الضرغام فيما تصيدا

.....

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته * وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى في موضع السيف بالعلی
مضرّ كوضع السيف في موضع الندى

.....

أزل حسد الحساد عني بكبتهم * فأنت الذي صيرتهم لي حسدا
إذا شد زندي حسن رأيك فيهم * ضربت بسيف يقطع الهام مغمدا
وما أنا إلا سمهري حملته * فزين معروضا وراع مسددا
وما الدهر إلا من رواة قصائدي * إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

.....

وقيدت نفسي في ذراك محبة * ومن وجد الإحسان قيذا تقيدا
- ولكن قصيدتك هذه فيها تهديد مباشر للخليفة ومعه معز الدولة .. كيف تركك سيف الدولة
تقول هذا مع علمه أن هذه الأشعار تصل إلى بغداد ...
- أتحسبه كان يتهيب بغداد أو معز الدولة ..! أبدا ... كانت هذه النعمة من أشعاري تروق له لكنه
للحق كان أحيانا يلفت نظري إلى أنه هو أولى من معز الدولة أن يكون سيف الخلافة ويدها
القوية ، وكنت أراعي ذلك في بعض أشعاري . ألم تقرأ قصيدتي بعد ما أتم سيف الدولة بناء
مرعش رغم أنف الروم

لأمر أعدته الخلافة للعدى * وسمته دون العالم الصارم العضبا
ولم تفترق عنه الأسنة رحمة * ولم تترك الشام الأعادي له حبا

- ويبدو يا أبا الطيب في هذه القصيدة أن حسادك زادوا عددا وكيدا
- هو ذاك ... وأنت تعرف منهم الخالدين وابن خالويه وأبا العباس النامي وأيضا أبا فراس
وغيرهم وغيرهم .

ولم أجد لدفعهم سبيل إلا أن ألجأ إلى سيف الدول لينصفني ويحميني منهم !!

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة عام آخر من الانتصارات

— يقال إن في سنة ثلاثة وأربعين ، كانت هناك واقعة بين سيف الدولة بن حمدان وبين الدمستق ، فقتل من أصحاب الدمستق ، وأسر جماعة من رؤساء بطاركته !!
— نعم وكان من جملة من قتل قسطنطين بن الدمستق ، وسبى خلقا كثيرا وأسر آخرين ، وذلك في ربيع أول من هذه السنة ، ثم جمع الدمستق خلقا كثيرا ، فالتقوا مع سيف الدولة في شعبان ، فجرت بينهم حروب عظيمة وقتال شديد ، فكانت الدائرة للمسلمين ، وأسر جماعة من الرعوس ، وكان منهم صهر الدمستق وابن بنته أيضا . (

كان هذ العام عاما طويلا بأحداثه وحروبه ومن قبل ذلك مفاوضات ومراسلات (1)
ففي أوائل هذا العام وبالتحديد في شهر صفر جاءت رسل ملك الروم لإجراء مفاوضات في محاولة لعقد اتفاقات سواء للتهدة أو لتبادل الأسرى ... وتم فداء بعض الأسرى ذوي المكانة وعلى رأسهم قسطنطين ابن الدمستق ... وقد تراحم الناس زحاما شديدا على قصر الأمير

(1) راجع الديوان تحقيق عزام ص 363 ، 364)

لمشاهدة رسل الدمستق الذين جاؤا صاغرين مسالمين يفتدون بعض أسراهم....كانوا يحملون رسالة الدمستق إلى سيف الدولة وينتظرون أن يحملوا رسالة سيف الدولة إليه . استبطأ سيف الدولة حضوري هذه المقابلة ولم يدر أي أجد صعوبة في الوصول إلى باب القصر لكثرة الحشود به من الجيش ومن الناس فقلت في ذلك :

ظلم لذا اليوم وصف قبل رؤيته * لا يصدق الوصف حتى يصدق النظرُ
تزاحم الجيش حتى لم يجد سببا * إلى بساطك لي سمع ولا بصرُ
فكنت أشهد مختص وأغيبه * معاينا وعياني كله خبر
اليوم يرفع ملك الروم ناظره * لأن عفوك عنه عنده ظفرُ
وإن أجبت بشيء عن رسائله * فما يزال على الأملاك يفتخرُ
قد استراحت إلى وقتٍ رقابهم * من السيوف وباقي القوم ينتظرُ

— لقد أثبت الأحداث في هذا العام يا أبا الطيب أنك على درجة عالية من الفهم لنفسية الدمستق وصاحب رؤية تتسم بالشمولية والعمق في نفس الوقت ، كان هذا جليا عندما قلت في قصيدتك التالية لسيف الدولة :

دروع لملك الروم هذي الرسائل * يرُدُّ بها عن نفسه ويشاغلُ
فقد صدق توقعك واستجمع الدمستق قواته لحرب سيف الدولة في ربيع الأول من هذا العام ، أي بعد أقل من شهر من هذه المفاوضات التي أراد بها الدمستق تخدير المسلمين ولكن لم تفلح حيلته

— كان هذا استقرائي للأحداث وقلت له أيضا في هذه القصيدة :

فإن كان خوف القتل والأسر ساقهم * فقد فعلوا ما القتل والأسر فاعل
فخافوك حتى ما لقتل زيادة * وجاؤوك حتى ما تُراد السلاسلُ
أرى كل ذي ملك إليك مصيره * كأنك بحرٌ والملوك جداولُ

- ولكني أراك مازلت تعاني من حسد الحساد في هذه القصيدة أيضا ويبدو تراخي سيف الدولة في زجرهم عنك

أذا الجود أعط الناس ما أنت مالك * ولا تعطين الناس ما أنا قائل
أفي كل يوم تحت ضبني شويعر * ضعيف يقاويني قصير يطاول
لساني بنطقي صامت عنه عادل * وقلبي بصمتي ضاحك منه هازل
وأتعب من ناداك من لا تُجيبه * وأغيظ من عاداك من لا تشاكل
وما التيه طبعي فيهم غير أنني * بغيض إلي الجاهل المتعائل

- نعم يبدو أنه كان يرى في هذه الشحنة والحسد لي مناخا جيدا يدفعني دفعا لقول الشعر دفاعا عن نفسي أو تنافسا في المديح لصالحه في النهاية ، ولكنهم تجاوزوا كل الحدود وما زال يتابع عن كثب ولا يتدخل إلا لمما ...

— تقول يا أبا الطيب إن أحداث هذه السنة كثيرة ...

— نعم كان أصعبها على نفسي ما حدث من بني كلاب (1)

، وأنت تعرف علاقتي بهم فقد آووني ونصروني في مستهل حياتي بالشام ومنهم أصدقاء مخلصين لي . وقد أحدثوا حدثا بنواحي (بالس) خروجا على سيف الدولة ، فسار إليهم سيف الدولة وكنت معه فأدركناهم بعد عدة ليال بين ماعين يعرفان بالغبارات والخرارات من جبل النسر ، فأوقع بهم ليلا وقتل منهم وملك الحريم فأبقى عليه وأحسن إلى الحرم

وأنا لا أبرئ معز الدولة في بغداد من أنه أغراهم بهذا الذي فعلوه تنغيصا على سيف الدولة واستنزافا لقوته ... كأنه ماكفاهم الروم ذلك ..!

كان ذلك في جمادى الآخرة من هذه السنة ، فلما عدنا أنشدته هذه القصيدة :

بغيرك راعيا عبث الذناب * وغيرك صارما ثلم الضراب
وتملك أنفس الثقلين طرا * فكيف تحوز أنفسها كلاب

(1) راجع الديوان - تحقيق عزام ص 369

.....

يهز الجيش حولك جانبيه * كما نفضت جناحيها العقابُ
وتسأل عنهم الفلوات حتى * أجابك بعضها وهم الجواب
فقاتل عن حريمهم وفروا * ندى كفيك والنسب القراب
وحفظك فيهم سلفي معدّ * وأنهم العشائر والصحابُ
تكفكف عنهم صمّ العوالي * وقد شرقت بظعنهم الشعابُ
وأسقطت الأجنة في الولايا * وأجهضت الحوائل والسقابُ

.....

فعدن كما أخذن مكرماتٍ * عليهن القلائد والملاب
يثبنك بالذي أوليت شكرا * وأين من الذي تُولي الثواب
وليس مصيرهن إليك شيئا * ولا في صونهن لديك عابُ
ولا في فقدهن بني كلاب * إذا أبصرن غرتك اغتراب
وكيف يتمّ بأسك في أناس * تصيبهم فيؤلمك المصابُ
ترفق أيها المولى عليهم * فإن الرفق بالجاني عتاب
وإنهم عبيدك حيث كانوا * إذا تدعو لحادثة أجابوا
وعين المخطئين هم وليسوا * بأول معشر خطئوا فتابوا

— ثم كانت موقعة الحدث سنة 343هـ

— نعم وكان الروم قد استولوا على هذا الحصن سنة 337 هـ ، وكان أهلها أسلموها بالأمان
للمستق عند غزوه لها ، فرأى سيف الدولة أن يسترده ويعيد بناءه ، وأعد جيشا جرّارا زحف
به من حلب . ولقيه الروم وكانوا في خمسين ألفا ما بين فارس وراجل من جموع الروم
والأرمن والروس والبلغر والصقالبة الخزرية

وكان اللقاء في نهاية جمادى الثانية من أول النهار إلى العصر فحمل عليهم سيف
الدولة وهزموا هزيمة ساحقة ، وقتل منهم فيها ثلاثة آلاف من بينهم ابن القائد (برداس

فوكاس) وصهره ، وأسر منهم آلافا ومنهم ثوذس الأعور بطريق سمندو ولقندو وهو صهر
الدمستق عل ابنته وكذلك ابن ابنة الدمستق ، ووضعت في أرجلهم الأغلال والسلاسل ، وبنى
سيف الدولة الحصن بين تكبير المسلمين وتهليلهم ؛ وانتهى من ذلك يوم الثلاثاء لثلاث عشرة
ليلة خلت من شهر رجب .

وسجلت هذه الملحمة في قلبي :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم * وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها * وتصغر في عين العظيم العظائم

.....

وقفت وما في الموت شك لواقف * كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمرُّ بك الأبطال كلهم هزيمة * ووجهك وضّاح وثرعك باسم
تجاوزت مقدار الشجاعة والنهي * إلى قول قوم : أنت بالغيب عالم
ضمت جناحيهم على القلب ضمة * تموت الخوافي تحها والقوادم
بضرب أتى الهامات والنصر غائب * وصار إلى اللبات والنصر قادم

.....

نثرتهم فوق الأحيدب نثرة * كما نثرت فوق العروس الدراهم
تدوس بك الخيل الوكور على الذرى * وقد كثرت حول الوكور المطاعم

..

ثم دخلت سنة أربع وأربعين وثلاثمائة المتنبي في إقطاعه بمعرة النعمان

جاءتنا أخبار سيئة ففي سنة أربع وأربعين شمل الناس ، ببغداد وواسط وأصبهان والأهواز ، داء مركب من دم وصفراء ووباء ، مات بسبب ذلك خلق كثير ، بحيث كان يموت في كل يوم قريب من ألف نفس ، وجاء فيها جراد عظيم أكل الخضراوات والأشجار والثمار .
- وهل وصل من ذلك شيءٌ إلى حلب ...!

- لا ... ولكن تلك الأخبار ، كانت تحزن قلوبنا في حلب .. ذلك الوباء الذي عم دار الخلافة والأمصار الشرقية ، ثم هذه المجاعة الي أطبقت على بغداد وما حولها بعد سقوط الجراد على المزارع والتهامه للمحاصيل وتضافر هذا مع الوباء الذي عم البلاد جعل الأحوال كارثة بمعنى الكلمة ، الأغرب من ذلك ألا يهتم معز الدولة سوى أن ينصب ابنه خليفة له في إمرة الأمراء ...!! سنة جديدة لم تحدث من قبل ... وقد سبقه كثير من الأمراء لم يفعل أحد منهم ذلك .. هل يشعر مثل هذا بمن يموت في شوارع بغداد وغيرها جوعا ... خليفة أمير الأمراء على بلاد الجوع والموت . حسبي الله ونعم الوكيل ..

في شهر المحرم ورد على سيف الدولة سفراء ملك الروم بصحبة فرسان الثغور من طرسوس والمصيصة يطلبون الهدنة فأدخلوا عليه ، وأنشدت بحضرتهم الميمية التي أولها:

أراعَ كذا كلَّ الأنام هُمَام * وسجَّ له رُسلَ الملوك غمَامُ ؟
ودانت له الدنيا فأصبح جالسا * وأيامها فيما يريد قيام
إذا زار سيف الدولة الروم غازيا * كفاها لِمَامٌ لو كفاه لِمَامُ
فتى تتبع الأزمان في الناس خطوه * لكل زمان في يديه زمام
تنام لديك الرسل أمانا وغبطة * وأجفان رب الرسل ليس تنام
حذارا لمعروري الجياد فجاعة * إلى الطعن قبلا ما لهن لجامُ

.....

إلى كم ترد الرسل عما أتوا له * كأنهم فيما وهبت ملام

.....

فلو كان صلحا لم يكن بشفاعة * ولكنه ذلّ لهم وغرام
ومنّ لفرسان الثغور عليهم * بتبليغهم ما لا يكاد يرام

.....

إذا الحرب قد أتعبتها فالة ساعة * ليُغمد سيفاً أو يُحلّ حزام

وفي أول هذا العام أيضا تجمع عدد من القبائل مرة أخرى متفقين على الخروج على سيف الدولة في الوقت الذي أرسل فيه ملك الروم برسلة للاتفاق على هدنة بينهم وبين المسلمين ...

تجمعت هذه القبائل ، عامر بن صعصعة عقيل وقشير والعجلان مع أولاد كعب ابن ربيعة ، تجمعوا بمروج سلمية وكلاب وربيع بن عامر ومن تبعهم بماء يقال له الزرقاء بين خناصره وسورية ونمير بن عامر من الجزيرة ، واتفقوا على التعاون في الحرب جميعا إذا هاجم سيف الدولة إحداها .

ليس هذا فحسب ، بل بدعوا الهجوم على الأعمال التابعة لسيف الدولة مستغلين انشغاله بمفاوضات رسل الروم فقتلوا نائبه على زعرايا ويعرف بالمربوع وقتلوا الصياح بن عمار والي قنسرين .. ولما تفرغ سيف الدولة لهم بعد أن انتهى من مفاوضات الروم أخذ في مطاردتهم فقتل من قتل وأسر من أسر واستسلم منهم من استسلم وقد هلك الكثير منهم ومن ذراريهم في الشعاب هربا أمام جيوش سيف الدولة .

وعاد إلى حلب لست خلون من شهر ربيع الآخر ، فقلت قصيدة أذكر فيها ما جرى ولم أكن شهدتها ولكن وصفها لي سيف الدولة فقلت هذه القصيدة وقصيد أخرى رائية ⁽¹⁾
تذكرت ما بين العذيب وبارق * مجرى عوالينا ، ومجرى السوابق

(1) راجع الديوان تحقيق عزام ص 383 - 385 ، 391

وليلا توسدنا الثوية تحته * كأن تراها عنبر في المرافق

.....

أرادوا عليا بالذي يعجز الورى * ويوسع قتل الجحفل المتضايق
فما بسطوا كفا إلى غير قاطع * ولا حملوا رأسا إلى غير فائق
لقد أقدموا لو صادفوا غير آخذ * وقد هربوا لو صادفوا غير لاحق

.....

فما حرموا بالركض خيلك راحة * ولكن كفاها البر قطع الشواهد
ولا شغلوا صم القنا بقلوبهم * عن الركز لكن عن قلوب الدماسق
وأقول له في الرائية :

طوال قنا تطاعنها قصار * وقطرُك في ندىً ووغى بحار
وفيك إذا جنى الجاني أناة * تُظن كرامة وهي احتقارُ
وأخذ للحواضر والبوادي * بضبطٍ لم تُعوذه نزارُ

.....

لهم حق بشركك في نزار * وأدنى الشرك في أصل جوارُ
لعل بنيهم لبنيك جند * فأول قرَح الخيل المهار
وأنت أبرّ من لوعق أفنى * وأعفى من عقوبته البوار
وأقدر من يهيج انتصار * وأحلم من يحلمه اقتدارُ
وما في سطوة الأرباب عيب * ولا في ذلة العُبدان عار

وقد بلغت هذه القصيدة من نفس سيف الدولة مبلغا عظيما ، فرضي عني كل الرضى حتى إنه
أقطعني بعدها ضيعة (صف) بمعة النعمان وحملني على فرس إليها في حرس من العبيد الروم
بل وخرج من قصره يودعني إليه فكان شرفا عظيما لي ماحدث لي مثله من قبل فذهبت إلى
إقطاعي هذا في أبهة وفخار

وقد قلت حين غادرت القصر :⁽¹⁾

(¹)*(يقول طه حسينويرى الشاعر نفسه محصورا في حلب أو معرضا فيها للموت ، وقد استيأس من الأمير وأزمع الرحيل عنه ، ولكنه يتلطف في ذلك . فيمضي أياما في هدوء ودعة وإعداد لأمره سرا ؛ ثم يستأن في الذهاب إلى إقطاع له عند معرة النعمان فيأذن له الأمير ، وقد علم ما دبر له وأراد أن يخلي بينه وبين الطريق ، أو يجهل ما دبر له وأراد أن يريحه منه ويستريح حيناً وهو ما أرجّحه .

* ويمضي المتنبي إلى إقطاعه في ظاهر الأمر ، وقد أرسل إلى الأمير (هذه الأبيات) مبالغاً في التلطّف والحيلة :

أيا راميا يصمي فؤاد مرّاه * تُربّي عداؤه ريشها لسهامه

وينتهي المتنبي إلى إقطاعه ، فلا يقيم فيه إلا ريثما يأمن الطلب في أكبر الظن ، ثم ينسل منه ويمضي أمامه حتى يخرج من

حدود الحمدانيين ، ويدخل أرض الإخشيديين . (مع المتنبي ص 269 - 270)

[التعليق : مذكره الدكتور طه حسين فيه نظر... فمعلوم أن أبا الطيب ترك سيف الدولة سنة 346 هـ وحديث د. طه حسين يوحي أن هذه الأبيات التي ذكرها قيلت قبيل فراق المتنبي سيف الدولة وتكون بذلك آخر ما قاله المتنبي في حلب والحقيقة أنها قيلت عندما أقطعه سيف الدولة إقطاعاً بمعرة النعمان وحمله على فرس ومنحه عبداً وحرساً وخرج بنفسه يودعه عند ذهابه إلى معرة النعمان وكان ذلك سنة 344 هـ بعد حرب القبائل التي خاضها سيف الدولة كما يشير ترتيب الديوان في هذه الفترة وتشبيهاً به القصيدة نفسها ، وكانت هذه الحروب في الفترة من الأول من شهر صفر إلى الأسبوع الأول من شهر ربيع الآخر سنة 344 . راجع ترتيب الديوان تحقيق عزام ص 397 وما بعدها ، وترتيب الديوان شرح مصطفى سبيتي ص 158 ، 159 ؛ ومعجز أحمد ص 485 - 488 ج 3) فهذه القطعة التي ذكرها طه حسين تأتي قبل رثاء المتنبي أخت سيف الدولة الصغرى في منتصف رمضان سنة 344 هـ ، ومعلوم دقة التواريخ في هذا الجزء من الديوان ، فيذكر في مقدمة هذه القطعة ما نصه (وقال أيضاً يمدحه وقد ودعه إلى الإقطاع الذي أقطعه وحمله على فرس وخلع عليه : أيا راميا) وبين أن ذهاب المتنبي كان للمرة الأولى ، وإلا ما فعل معه سيف الدولة ذلك ...! والترتيب يحسم أن ذلك حدث قبل رمضان سنة 344 هـ خلاف ما يوحي كلام الدكتور طه حسين .. لا يمنع ذلك أن يكون المتنبي قد ذهب إلى إقطاعه هذا بعد ذلك وقبيل فراقه سيف الدولة كحيلة لتسكين الأجواء المشتعلة حوله في تلك الفترة . ولكنه لم يرسل له تلك الأبيات المذكورة على سبيل التلطّف والحيلة قبل الفرار من حلب إلى مصر كما يقول الدكتور طه ، لأن هذه الأبيات معلومة الفترة التي قيلت فيها بحسب موضعها من الديوان والتي يتفق عليها المحققون . لا يقدح في ذلك وجود قصائد في هذا القسم في غير ترتيبها الزمني لأن مثل هذه القصائد مؤرخة ومنها على سبيل المثال قصيدته في سيف الدولة التي قالها سنة 321 في مستهل مقدمه إلى الشام والتي ضمها الديوان إلى أشعاره في سيف الدولة بعد سنة 336 ، ويعتقد كثير من دارسي المتنبي أن ترتيب وتاريخ قصائد هذا القسم من عمل الشاعر نفسه ، راجع محمود شاكر وكتابه المتنبي في هذه الجزئية ، حتى طه حسين يتبع في دراسته هذا الترتيب إلا هذه . ومن المعلوم يقينا أن آخر ما قاله المتنبي في حلب كما يذكر تعليق المحقق بهامش القصيدة عند قوله : (عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم الديوان تحقيق عزام ، هامش ص 417) حيث قال له ابن جني إنه ليس في شعرك أعلى كلاماً من هذه القصيدة . فاعترف بذلك وقال : كانت وداعاً .]

أيا راميا يصمي فؤاد مرامه * تُربّي عداها ريشها لسهامه
أسير إلى إقطاعه في ثيابه * على طرفه من داره بحسامه
وما مطرتنيه من البيض والقنا * وروم العبدّي هاطلات غمامه
فتى يهب الإقليم بالمال والقرى * ومن فيه من فرسانه وكرامه
ويجعل ما خولته من نواله * جزاء لما خولته من كلامه
فلا زالت الشمس التي في سمائه * مطالعة الشمس التي في لثامه
ولا زال تجتاز البدور بوجهه * فتعجب من نقصانها وتمامه

وفي هذه السنة نفسها وبالتحديد في جمادى الآخرة ، نقض الروم الهدنة . وأغاروا
على ثغر الحدث يريدون أن يستردوه ويستولوا على الحصن ، ولكن سيف الدولة نهض إليهم
بجيش عظيم ، فلما علموا بمقدمه جلوا عن الحصن ، وعادوا أدراجهم فكانت هذه القصيدة
التي أقول فيها :

ذي المعالي فليعلّون من تعالى * هكذا هكذا وإلا فلا لا
شرف ينطح النجوم بروقي*له وعزّ يُقلّل الأجبالا
حال أعدائنا عظيمٌ وسيفُ الد*دولة ابن السيوف أعظم حالا
كلما أعجلوا النذير مسيرا * أَعْجَلْتَهُمْ جِيَادَهُ الْإِعْجَالَا
فَأَتَتْهُمْ خَوَارِقُ الْأَرْضِ مَا تَحْد*مل إلا الحديد والأبطالَا

.....

في خميس من الأسود بنيس * يفترسن النفوس والآموالا
إنما أنفُس الأنيس سباع * يتفرسن جهرة واغتيالَا
من أطاق التماس شيءٍ غلابا * واغتصابا لم يلتسمه سؤالا
كل غادٍ لحاجةٍ يتمنى * أن يكون الغضنفرالربالَا

وفي هذه السنة 344 هـ والتي توافق 955 م في النصف من رمضان توفيت أخت سيف الدولة
الصغرى فقلت أعزّيه و أرثيها :

إن يكن صبر ذي الرزية فضلا * تكن الأفضل الأعز الأجلا

.....

قد بلوت الخطوب مرا وحلوا * وسلكت الأيام حزنا وسهلا

وقتل الزمان علما فما يغ *رب قولاً ولا يُجدّد فعلا

.....

قاسمتك المنون شخصين جورا * جعل القسم نفسه فيه عدلا

فإذا قست ما أخذن بما غا * درن سرّى عن الفؤاد وسلّى

وتيقنت أن حظك أوفى * وتبينت أن جدك أعلى

ولعمري لقد شغلت المنايا * بالأعادي فكيف يطلبن شغلا !

ثم دخلت سنة خمس وأربعين وثلاثمائة نجم سيف الدولة في سعود

- في هذه السنة 345 جاءت أخبار بغداد أن الروزبهان أعلن العصيان على معز الدولة وانحاز إلى الأهواز وركب معز الدولة لقتاله فاتبعه الخليفة - المطيع لله ⁽¹⁾ - خوفا من ناصر الدولة بن حمدان فإنه بلغه أنه ، قد جهز جيشا مع ولده أبي المرجى جابر إلى بغداد ليأخذها حين بلغه أن معز الدولة قد خرج منها ...

فأرسل معز الدولة حاجبه سُبكتكين إلى بغداد ليحفظها ، وقصد معز الدولة إلى الروزبهان ، فاقتتلوا قتالا عظيما ، فهزمه معز الدولة ، وفرق أصحابه ، وأخذه أسيرا إلى بغداد في أبهة عظيمة فسجنه ، ثم أخرجه ليلا وغرقه (

- يبدو يا أبا الطيب أن ناصر الدولة كان يتحين الفرصة للانقضاض على دار الخلافة وإزاحة معز الدولة.

- نعم ... وقد حمل معز الدولة هذا الموقف في نفسه ولم يغفرها لناصر الدولة وظهر ذلك في العام التالي مباشرة ، لم يك ناصر الدولة ولا سيف الدولة يطبقون معز الدولة الذي اغتصب السلطة اغتصابا من العرب ، وكان الشعور متبادلا

وهاهو الروزبهان وهو ديلمى وأحد أخلص أتباعه ، ينقلب عليه ، رغم ما يقال من إحسان معز الدولة إليه ، وقد أحس معز الدولة بمدى خطورة التفاف الديلم حول الروزبهان وما يمكن أن يحدث له هو شخصا إن تركه يصنع ما يصنع من شق عصا الطاعة له ، فما كان منه إلا أن وجه الجيوش إليه ، وكان في ذلك نهاية الروزبهان وأصحابه ...

(1) (المطيع لله آخر من عاصره المتنبى من الخلفاء فقد عاصر أبو الطيب الذي عاش ما بين 303 هـ - 354 هـ ستة من الخلفاء العباسيين وهم على التوالي - المقتدر بالله جعفر بن المعتضد 295 - 320 ، القاهر بالله محمد بن المعتضد 320 - 322 ، الراضي بالله محمد بن المقتدر 322 - 329 ، المتقي لله إبراهيم بن المعتضد 329 - 333 ، المستكفي بالله عبد الله بن المكتفي بن المعتضد 333 - 334 ، المطيع لله الفضل بن المقتدر بن المعتضد 334 - 363)

و بالطبع كان تخاذل ناصر الدولة وسيف الدولة عن نصره الخليفة في مواجهة معز الدولة سمح لهذا الأخير أن يستفحل خطره ويطوي الخليفة تحت جناحية ، أما رأيت أن الخليفة خاف أن يبقى في بغداد وحده دون معز الدولة أمير الأمراء ! كأنه طفل صغير يرتعب لفراق أمه ...!

- يقال يا أبا الطيب إنه في هذه السنة دخل سيف الدولة إلى بلاد الروم ، فقتل وسبى ، ورجع إلى أذنة ، ثم عاد إلى حلب ، فحميت الروم ، فجمعوا وأقبلوا إلى ميفارقين ، فقتلوا وسبوا وحرّقوا ورجعوا ، وركبوا في البحر إلى طرسوس ، فقتلوا من أهلها ألفا وثمانمائة ، وسبوا وحرّقوا قرى كثيرة

- نعم ... ففي أوائل هذه السنة علم سيف الدولة أن الروم قد همّوا بالغارة على (آمد) فنهض إليهم ، فلما علموا بقدومهم عادوا أدراجهم ، ولكنه تبعهم وأمعن حتى هزمهم على (تل البطريق) ودمر حصونا وقلاعاً وعاد ولكن وجد الدروب قد أخذت عليه ، حيث اعترضه البطريق ، وارتفع سحاب عظيم . وجاء مطر غزير ، ووقع القتال تحت المطر ، ومع البطريق نحو ثلاثة آلاف قوس ، فابتلت أوتار القسي فلم تنفع وانهزم أصحابه ، ثم انهزم بعد أن قاتل وأبلى ، وعلقت به الخيل فجعل يحمي نفسه حتى سلم ..

وانهزم الروم ، وقد تركوا ألوفاً من القتلى وعدداً ضخماً من الأسرى ، وعاد سيف الدولة ظافراً إلى آمد فأنشدت سيف الدولة في صفر عند منصرفنا من بلاد الروم القصيدة التي أقول فيها :

الرأي قبل شجاعة الشجعان * هو أول وهي المحلّ الثاني

فإذا هما اجتماعاً لنفس حرة * بلغت من العلياء كل مكان

ولربما طعن الفتى أقرانه * بالرأي قبل تطاعن الأقران

لولا العقول لكان أدنى ضيغم * أدنى إلى شرف من الإنسان

.....

في جحفل ستر العيون غباره * فكأنما يبصرن بالآذان

يرمي به البلد البعيد مظفرٌ * كل البعيد له قريبٌ دان

فكأن أرجلها بتربة منبج * يطرحن أيديها بحصن الران
حتى عبرن بأرسناس سوابحا * ينشرن فيه عمائم الفرسان

.....

رفعت بك العرب العماد وصيرت * قمم الملوك مواقد النيران
أنساب فخرهم إليك وإنما * أنساب أصلهم إلى عدنان
يا من يقتل من أراد بسيفه * أصبحت من قتلاك بالإحسان
فإذا رأيتك حار دونك ناظري * وإذا مدحتك حار فيك لساني

... في أمسية من أمسيات سيف الدولة جاء ذكر هذه الواقعة ، فقل إن البطريق كان قد أقسم
للملك قبل هذه لمعركة أن يقاتل سيف الدولة قتالا شديدا ، ويسد عليه الدروب ويلقنه درسا في
الحرب لا ينساه ، وطلب من مليكه أن يمده ببطاركته وبالعدد والعدة فلبى الملك طلبه ولكن ها
هي المعركة قد انتهت بنصر مؤزر للإسلام والمسلمين على يد سيف الدولة ، وقد ذكرت يمين
البطريق فقلت هذه القصيدة :

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم * ماذا يزيدك في إقدامك القسم
وفي اليمين على ما أنت واعدده * ما دل أنك في الميعاد متهم

.....

كل السيوف إذا طال الضراب بها * يمسها غير سيف الدولة السأم
لو كلت الخيل حتى لا تحمله * تحملته إلى أعدائه الهمم
أين البطاريق والحلف الذي حلفوا * بمفرق الملك والزعم الذي زعموا

.....

ألهى الممالك عن فخر قفلت به * شرب المدامة والأوتار والنغم
مقلدا فوق شكر الله ذا شطب * لا تستدام بأمضى منهما النعم
ألقت إليك دماء الروم طاعتها * فلو دعوت بلا ضرب أجاب دم

.....
لا تطلبين كريما بعد رؤيته * إن الكرام بأسخاهم يدا خُتموا
ولا تبالى بشعر بعد شاعره * قد أقسِدَ القول حتى أحمد الصمُّ

ثم دخلت سنة ست وأربعين وثلاثمائة وداعا سيف الدولة ، أهلا كافور

- سنة 346 هـ سنة مهمة في حياتك يا أبا الطيب ؟

- هذه سنة لا تنسى في حياتي

تجهز معز الدولة بن بويه لقتال ناصر الدولة بن حمدان بالموصل ، فراسله ناصر الدولة ،
والترزم له بأموال يحملها إليه كل سنة ، ثم إنه منع حمل ما اشترط على نفسه .. فيما بعد وحدثت
بينهما مشاكل كبرى ...

- يبدو أن معز الدولة لم يغفر لناصر الدولة ما أراد من أخذ بغداد في غيابه .

- حرك الجيوش لينتقم من ناصر الدولة ، ولكنه يضعف أما الدنانير وناصر الدولة يعلم ذلك
فأراد أن يعزف له على الوتر الذي يطربُّ له ..

- هل استجاب معز الدولة ،

- ظاهريا ولعله قال في نفسه كما تقولون (خليك مع الكذاب حتى باب الدار) ... وقد كان ناصر

الدولة كاذبا ، ولم يف بما تعهد به في العام التالي !!

- فارقت يا أبا الطيب سيف الدولة في هذه السنة ؟ ⁽¹⁾

⁽¹⁾ يقول شوقي ضيف : وما تقبل سنة 346 هـ حتى يكفر الجو بين المتنبى وبين البطل العربي ، ويرحل عنه وكأنما رحل معه
مجده الحربي ، فقد واقع الروم في سنوات 347 ، 349 ، 351 ولم ينزل بهم ما تعود من التنكيل الشديد .

ولم يلبث البطل العظيم أن أصابه في سنة 352 هـ فالج في يده ورجله ورغم هذا الفالج النصفى نهض البطل من فراشه وصد
بقوة هجوما للروم على حصن من حصون حلب ، وفي سنة 356 هـ لبى البطل نداء ربه ، وكان قد أوصى بأن يوضع خده في

- نعم كانت سنة فاصلة في حياتي وكانت قاسية على نفسي ، تخلّيت فيها عن ثوابت ماضنت يوما أن أتخلّى عنها وإن فارقنتني الروح ...!

أعظمها أنني فارقت هذا البطل ، وقد اعتقدت على مدى سنواتٍ من حياتي معه أنه هو ناصر العرب والعروبة ، وهو معيد أمجادنا التي زالت على أيدي الأعاجم والعبيد ، ولكنه خذلني في هذه الناحية .

والحق إنه ما خذلني بمحض إرادته بل بما كان يُكاد له من أعدائه وعلى رأسهم معز الدولة في الخفاء ، فضلا عن العداوة المعلنة من جانب الروم .

ظننت أنني لا يمكن أن أفارق قلبي في حلب ، فقد تغلغل حب خولة في قلبي ، واعتقدت أن فراقني لأرض تحيا فوقها هذه الأميرة الملائكية الأخلاق والصفات ، هو بمثابة فراقني للحياة !!....

واعتقدت أنني لا أمدح ملكا أعجميا أيا كان ، ولكنني تنازلت عن هذا المبدأ

سلسلة متتابعة من التنازلات ، لم استطع إيقافها بعد أن خذلني سيف الدولة في موقفه الأخير - خذلك سيف الدولة ؟

- نعم ... بتهاونه في أخذ الحق لي ممن ظلمني أمام عينيهِ وهو شاهد لا يحرك ساكنا ..! لقد كان ما بيننا من مودة وحب وتقدير وصداقة كفيل على الأقل أن ينصفني ولكنه لم يفعل ، لقد صَنَعَتْ وشاياتُ حسادي عنده ما يصنع السحر...

وكان على رأسهم أبو فراس الحمداني ⁽¹⁾، فقد بلغني أنه قال لسيف الدولة : إن هذا المتشدد كثير الإدلال عليك ، وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار ، عن ثلاث قصائد ، ويمكن أن تفرق مائتي دينار على عشرين شاعرا يأتون بما هو خير من شعره .⁽²⁾

- كيف ترى كلام أبي فراس ؟ وهل استجاب سيف الدولة لهذا الكلام ؟؟؟!!

لحده على لبنة بقدر الكف جمعها مما علق بثيابه ودروعه وسلاحه من غبار غزواته للروم ، ونُقِذَتْ وصيّته ... (شوقي ضيف

، تاريخ الأدب العربي ، ج6 ص21، 22)

(¹) (شوقي ضيف ج5 ، ص 347)

(²) (يوسف البديعي ، الصبح المنبي ص 87 ، 88)

— إن المسألة ليست كثرة الشعر ولا كلفيته ، إن المسألة طبيعة علاقتي بسيف الدولة ، التي لم يقدرها هذا الحاسد الحقود ، وأن ما بيننا هو صداقة حميمة روابطها وجدان مشترك وهموم مشتركة وآراء متوافقة واحترام وتقدير وحب

لو لم تكن هذه الروابط فيما بيننا ، ما ميزني سيف الدولة عن غيري من الشعراء ، من أول لقاء حقيقي جمع بيننا سنة سبع وثلاثين ⁽¹⁾ ، وما اصطفاني بالجليل والعظيم من المنح والعطايا والهدايا . والتي يحسبها هذا الحاقد وغيره بحساب الدنانير والدرهم ، وللأسف صنعت وشاياتهم بي في نفس سيف الدولة تعكرا زاد مع الأيام ، حتي إنه في يوم من الأيام طلب إلى (ديوان البر) بإخراج الحال فيما وصلني به ، فخرجت بخمسة وثلاثين ألف دينار في مدة أربع سنوات ⁽²⁾.

وهذا دليل مباشر على أن أمير حلب تأثر بما يقولون ، وقد بلغني هذا وغمّني غمّاً شديداً ... لم أظهره لأحد ...!! خيب بعد كل هذه السنين ظني ، أنا صاحبه وشاعره المقرب بتحريض من حساده ، وكان في مقدمتهم أبو فراس الحمداني ، والنامي أبو العباس ، والسري الرفا ، والخالديان وغيرهم ، فأتت سعاياتهم ثمارها بعد جهد منهم ومثابرة .

فتبدّلت مشاعره تجاهي وكان جفاؤه لي سببا في تباطئي في مديحي له ، مما أعان حسادي على أن يهاجموني عنده جهارا ، ثم لا أجد منه الإنصاف ، فزاد هذا وحشة فيما بيننا .

— لكنك رغم ذلك كنت تحضر مجالسه ومسامراته ..!

— لا أستطيع الانقطاع ، كنت أشارك فيما كان يثار من قضايا وأحيانا كان يطلب هو شخصيا مني رأيي في بعض ما يثار في مجلسه ، فأدلو بدلوي ، ودائما ورغم كل شيء كان رأيي محل اعتبار منه على الأقل وكان هذا يكفيني ... إلى أن جاء هذا اليوم الأسود ...!!

— ماذاحدث يا أبا الطيب ..؟

(1) سبق هذا اللقاء لقاء عارض سنة 321هـ 933م في مستهل قدوم المتنبي إلى الشام ، راجع ديوان المتنبي تحقيق عزام ص 408 ومصطفى سببتي ج2 ص184 ومعجز أحمد ج3 ص 516 يقول فيه قصيدة لم ينشدها إياه ، مطلعها :

ذكرُ الصبا ومرايع الأرام * جلبت حمامي قبل وقت حمامي

(2)(راجع شاكر ص 363 هامش)

— كنت بحضرة سيف الدولة وكان معنا أبو الطيب اللغوي ، وأبو عبد الله ابن خالويه النحوي ، وقد جرت مسألة في اللغة تكلم فيها ابن خالويه مع أبي الطيب اللغوي ، وأنا أتابع الحوار فقط ولم أ تدخل .

فقال سيف الدولة : ألا تتكلم يا أبا الطيب - يريد رأيي في الموضوع - فتكلمت وذكرت رأيي وشاهدي في المسألة المثارة وكان رأيي هذا لسوء الحظ يقوي حجة أبي الطيب اللغوي ، ويضعف رأي ابن خالويه ، والحق أنني تهكمت على رأي ابن خالويه وسفهته

فأخرج ابن خالويه من كفه مفتاحا حديدا يشير به إليّ ؛ يتهددني ، يريد أن يلكنني به لأنني سخرت من رأيه وأظهرته ضحلا ضعيفا ، فعنفته قائلا : ويحك ، إنك أعجمي ، وأصلك خوزي (1) ، فمالك وللعربية ؟ فضربني ابن خالويه في وجهي بهذا المفتاح الحديد ، فشج وجهي ولم يأبه لحضرة سيف الدولة .

فسال الدم على وجهي وثيابي ...

فنظرت إلى سيف الدولة ، أنتظر رده على هذا الموقف ، وأني أحترم حضوره ولم أرد بنفسني وهو يعلم أنني قادر على ذلك ...

ولكنه لم يحرك ساكنا ولم ينتصر لي من ابن خالويه وتركني والدم يسيل على وجهي وثيابي وانصرف من المجلس (2)!!!

فشعرت بالإهانة الشديدة خاصة وأني كنت غير مشارك في هذا الحديث وهو الذي طلب مني الرأي .

(1) الخوز أهل خوزستان ونواحي الأهواز بين فارس والبصرة وواسط ، ويقال إن معنى الخوز الفعللة ، ويقال إنهم الأم الناس وأسقطهم نفسا . (عن الصباح المنبي - ص 87)

(2) (راجع الأسباب التي أوجبت مفارقة المتنبي سيف الدولة ، الصباح المنبي ص 87)

ويقول الدكتور زكي المحاسني : خرج المتنبي من مجلس سيف الدولة وبلده مغلوبا على أمره لا لأنه فارق العز والخير والمجد فحسب ، بل لأنه ترك أرضا تسير فوقها فتاة أحبها من غير أمل تلك (خولة) أخت سيف الدولة التي أضناه هواها ، وقد آسفه أن يميل قلبه إلى من تأبّت عليه تقاليد قومها ، فتحامل على نفسه وفارق الرجل العظيم التي أناط به آمال العروبة كان ذلك سنة 346 هـ (راجع زكي المحاسني ص 31)

وعلمت كم أنا هيّنٌ عنده . وهانت ضربة ابن خالويه في مقابل صدمتي في سيف الدولة ..
فانصرف من قصره وأنا لا أكاد أشعر بنفسي ولا أدري إلى أين تأخذني قدمي .. حزينا كاسف
البال ... أقول في نفسي : أ إلى هذه الدرجة يا سيف الدولة هُنت عليك ...!!

أما يكفي أني محروم ممن أحبها لأنها الأميرة بنت الأمير وأنا مجرد شاعر يمدح الأمير ...
أتلقى منه عطياه ، ولا يجب أن أنظر إلى ما فوق ذلك ... صابر على الحرمان ولا أمل في
الوصل والنوال في ظل هذه الظروف والأحوال

واتخذت قرارا الذي ذبحت فيه قلبي بيدي قبل أن يُذبح بيد غيري وقررت الفراق ، لعل فيه
دواءً لداء قلبي وحفظا لماء وجهي ...⁽¹⁾ أ لم تقرأ قولي :

وأسرع مفعول فعلت تغيرا * تكلف شيء في طباعك ضده ⁽²⁾

وكان على أن أتدبر أمري حتى أستطيع ترك حلب بسلام بعدما أظهر الحاقدون
والحساد غير مرة ، رغبة شديدة في التخلص مني .

- ماذا فعلت يا أبا الطيب ؟

- كان علي أن أكظم غيظي مما حدث حتى لا يتكرر ما حدث لي سنة إحدى وأربعين ، ففي اليوم
التالي ذهبت إلى القصر وعلى وجهي ملامح الحزن وخيبة الأمل أربط وجهي برباط من أثر
ضربة ابن خالويه ، واستأذنت الأمير أن أذهب لبضعة أيام إلى معرة النعمان حيث الضيعة التي
أقطعنيها .. حتى أستريح وأستجم لبعض الوقت ...

فأذن لي الأمير وهو يظن أن طلبي هذا ربما يهدئ من نفسي ، ثم أعود بعدها إلى طبيعتي ثم
إلى القصر ... ولكن هيهات .. لقد قررت الرحيل ..

والحق أنني كنت قد فكرت في الرحيل سنة إحدى وأربعين ، صرحت بذلك في شعري وحددت
وجهتي ، ولكنني تراجعته بعدما رأيت كرم الأمير ، ووقوفه بجانبه رغم ما كان في نفسه من
ناحيته ، إلا أن الحال كان غير الحال ، والآن القرار هو القرار والوجهة هي الوجهة .. مصر ..

(¹) (راجع شاكر ص 350، 360)

(²) (راجع شاكر ص 358 / 14)

- ولماذا مصر يا أبا الطيب ظننتك ستعود إلى العراق ... إلى مسقط رأسك الكوفة.. ؟
- أولا : تعلم الجفوة المعلنة بيني وبين بغداد و بين الحمدانيين وبغداد سواء الخليفة أو معز الدولة والذي علمت أنه جهز الجيوش لمهاجمة ناصر الدولة هذا العام وأخذ الموصل منه ...
هذه الجفوة المعلنة شعرا لا شك وصلت إليهم في بغداد ولن يغفروا ذلك لي.(1)
ثانيا : كانت أخباري تصل باستمرار إلى كافور في مصر وفوجئت منذ عام بأحد أتباعه يأتيني على أنه تاجر يريد شراء محاصيل إقطاعي بمعرفة النعمان وأخبرني أن كافور يعرف عني كل شيء ويتابع أشعاري في سيف الدولة بيتا بيتا ويعلم مدي ما يصيبني من غبن في مجلسه من الحساد والوشاة ، ويعدني بأن أنال بمصر أضعاف ما نلت في حلب بل أكثر من ذلك ، إنه يلوح بإمارة صيدا أو الصعيد ، وأنه يرحب بي في أي وقت أراه مناسبا ، وسوف يكون سعيدا عندما أترك حلبا وأعيش في الفسطاط على ضفاف النيل بالقرب منه (2)...!! وأنه كان سعيدا عندما سمع الشعر الذي أقول فيه :

لئن تركن ضميرا عن ميامننا * ليحدثن لمن ودعتهم ندم (3)

وطلب مني أن أبلغك أنك تأخرت كثيرا بعد هذا البيت علينا في مصر
خرجت من حلب قاصدا دمشق ، وقد احتلت لذلك كما ذكرت لك حتى تم لي الفراق قبل أن تدركني مكاييد أبي فراس وأصحابه ، وذلك في أواسط سنة 346 هـ ... (4)

(1) (راجع طه حسين ، مع المتنبي ص 248 وما بعدها .

(2) (راجع رأي طه حسين في هذا الشأن الذي يخالف رأي بلاشير وبعض الكتاب ، يقول : وإن فانا لا أفهم إيثار المتنبي لمصر على العراق فحسب ، بل أريد أن أزعج أن المتنبي لم يفارق حلب ولم يترك سيف الدولة إلا بعد أن استوثق لنفسه عند الإخشيديين ، وأكبر ظني أن الرسل قد سعوا سرا بين المتنبي والإخشيديين في آخر أوقاته بحلب ، وأن هؤلاء الرسل لم يضمنوا له الجوار والأمن عند الإخشيديين فحسب وإنما جاءوه أيضا بالوعود والمطمعة والآمال المقربة ، فلم يتحول من شمال الشام إلى جنوبها إلا وهو يعلم ما يريد و يقدر أن حاله عند الإخشيديين ستكون خيرا من حاله عند الحمدانيين ، وأنه سيظفر في ملك مصر بما لم يظفر به في ملك شمال الشام . (مع المتنبي ص 277) ؛ ويرى عبد الوهاب عزام رأي قريب من ذلك ،

راجع عزام ، أبو الطيب المتنبي بعد ألف عام ص 101 ، 102)

(3) ضمير : جبل على يمين القادم من حلب إلى مصر

(4) (راجع شاكر - مرجع سابق ص 361)

وذهبت إلى مصر.....

وكنت حين خرجت من حلب ، تصادف خروج الخالدين (أبو عثمان سعيد بن هاشم وأخوه محمد بن هاشم) والتقينا في الطريق لعلهما شعرا بأن تهديدات معز الدولة للحمدانيين هذه المرة حقيقية ، وحلب نفسها مهددة ، وعلمت منهما أن السري الرفا قد سبقهما إلى بغداد ليلحق ببلاط الوزير المهلبى ، والحق أننا التقينا عل غير موعد لأنني خرجت من معرة النعمان سرا ...

حاولا إقناعي بالسفر معها إلى بغداد ، فمدح الوزير أبا محمد المهلبى ، فأبيت عليهما وخالفتهما ، لأنني كنت أعلم وجهتي وأرتب أمري (1) .
- ولكن الوزير المهلبى وهو من هو بين رجالات الدولة حين ذاك يقربُ إليه الشعراء والكتاب ويمنحهم بسخاء ؟

- المهلبى هذا الماجن الفاجر ، ألم تسمع عنه وعن لياليه الفاجرة هو وكبار رجال الدولة من القضاة ورجال الشرطة ؟!! .. (2). ثم إنه لا حيثية له ولا للخليفة مع معز الدولة ، وأنا أكره معز الدولة هذا الأعجمي الذي ملك رقاب العرب ، كيف أمدح خادمه !! هذا بعيدٌ بعيدٌ بعيد ..!

(1) وقد ذكر هذا الموقف وما حدث بينهم من نقاش حول أي الطرق أفضل وذكر ذلك شعرا ، ولكن بعد سنوات ، عندما كان يلح بوعود كافور له ، كان ذلك في شعبان سنة 349 هـ :

وما شئت إلا أن أدل عوازلي * على أن رأي في هواك صواب
وأعلم قوما خالفوني فشرقوا * وغربت أني قد ظفرت وخابوا

(راجع شاكر ص 362 - 363 / 14)

(2) يقول شوقي ضيف : ويلقانا في أول العصر (المهلبى) وزير البويهيين ، وكان يشتهر بمآدبه وكثرة ما كان يقدم فيها من أصناف الطعام والحلوى ، وقالوا إنه كان إذا أراد أن يأكل شيئا بملعقة كالأرز واللبن وقف من جانبه الأيمن غلام معه نحو ثلاثين ملعقة زجاجا مجرودا ، فيأخذ منه ملعقة يأكل بها من ذلك اللون لقمة واحدة ، ثم يدفعها إلى غلام آخر قام من الجانب الأيسر ثم أخذ أخرى فيفعل بها فعله للأولى ، حتي ينال الكفاية ، لنلا يُعيد الملعقة إلى فيه دفعة ثانية (شوقي ضيف تاريخ الأدب العربي ج5 ص 254 ، 255 ، معجم الأدباء 153 / 5)

* وأبعد من هذا الخبر دلالة على الترف الذي غرق فيه بعض الناس ما يروى عن المهلبى أيضا من أنه (ابتاع له في ثلاثة أيام ورود بألف دينار فرشت به مجالسه ... وطرح منه كمية كبيرة في بركة عظيمة كانت في داره . ولها نافورات عجيبة يطرح الورد في مائها وينفضه .) (شوقي ضيف مرجع سابق ، ص 255 ، معجم الأدباء 138 / 9)

دخلت دمشق ⁽¹⁾ ، وهي من أعمال مصر ، واستقبلني ابن مالك وهو نائب الإخشيد على دمشق استقبلني استقبالا حسنا ، وأكرم وفادتي ، ولم يكن يعلم أن بيني وبين كافور مراسلات ، فالأمح إلى أن أمدحه بقصيدة ، ولكنني أبديت عدم فهم لإشاراته وتلميحاته ، وكان يخشى أن يبدي لي جفاءً أو تعنتاً فيصيبه ما أصاب ابن كيغلغ من هجاء ، فأظهر قدراً من الحكمة بعدم الضغط عليّ في ذلك وإن كان يتحرق شوقاً أن أمدحه بشعري ، كنت أقرأ ذلك في عينيه وفي كلماته . وأسرع في مراسلة كافور يعلمه أنني في دمشق ⁽²⁾ ، فهو يراني شاعر بني حمدان

واشتهر هذا الوزير بمجالس أنسه التي كان يعقدها بقصره ليلتين كل أسبوع . ويقول ابن خلكان (كان يجتمع فيها عنده ندماؤه من الفقهاء والقضاة على أطراح الحشمة والتبسط في الوصف والخلاعة ، وهم القاضي أبو بكر بن قريعة وابن معروف القاضي التنوخي ، وغيرهم وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها ، وكذلك كان المهلب ، فإذا تكامل الأتس وطاب المجلس ولذ السماع للغناء وأخذ الطرب منهم مأخذ ، وهبوا ثوب الوقار للعقار وتقلبوا في أعطاف العيش ، بين الخفة والطيش وضع في يد كل واحد منهم طاس ذهب فيه ألف مثقال ، مملوء شراباً قطربلياً أو عكبرياً ، فيغمس لحيته فيه بل ينقعها حتى تشرب أكثره ، ويرش بعضهم بعضاً ، ويرقصون بأجمعهم فإذا أصبحوا عادوا لعادتهم من التوقر والتحفظ بأبهة القضاء وحشمة المشايخ والكبراء (ابن خلكان ، 3 / 366) (شوقي ضيف ، مرجع سابق ، ج 5 ، ص 255)

⁽¹⁾ (يقول شوقي ضيف : ويصمم المتنبي على الرحيل ، يرحل إلى دمشق ، ويلتقي فيها بأصحاب كافور وأوليائه فيغرونه بلقائه في الفسطاط ،) وأنه سيقمه واليا على صيداء أو ما يماثلها من بلدان الشام وكانما زينت له نفسه حين يوليه ولاية من الولايات أن يستبد بالأمر دونه ويحقق أمانيه القديمة في إقامة الدولة العربية المنشودة (شوقي ضيف - مرجع سابق ص 348) [أعتقد أن المتنبي كان قد رتب أمره مع كافور قبل نزوله دمشق ، وإلا ما كان هناك ما يمنعه من مدح ابن مالك والى دمشق من قبل كافور ، ولو من باب اكتساب الحماية والأمن ، خاصة وهو قادم من مملكة الأعداء الحمدانيين ، بل وشاعرهم المفوه ولكنه ملتزم بمبدئه إذا قصد أميراً أو طلبه أمير فلا يمدح غيره..]

⁽²⁾ (يقول الدكتور المحاسي في كتابه : وكان عليها (دمشق) من قبل كافور حاكم مصر واليه يهودي يعرف بابن مالك..... فلما نزلها أبو الطيب طلب منه واليها أن يمدحه بشعره أسوة بغيره فرفض وكره المقام في دمشق من أجله . لكن هذا اليهودي جعل كافور الإخشيدي يطلب أبا الطيب [ملحوظة : ما ذكره الرواة أن كافور طلب أبا الطيب عن طريق ابن مالك فأرسل إليه رسالة برد المتنبي على الطلب بأنه إن نزل مصر فما قصده كافورا إنما قصده ابن سيده وإن كان طه حسين له رأي آخر ، أتفق فيه معه فله شواهد من الأحداث ، راجع مع المتنبي طه حسين مرجع سابق ص 277] لكن الشاعر سار إلى الرملة في الجنوب وتلقاه أميرها (الحسن بن طغج) بالتكريم ، إذ حملة على فرس بموكب ثقيل وقلده سيفاً محلياً وأعطاه هدايا غالية ، فمدحه أبو الطيب بقصيدة أشار فيها إلى ما لحقه من تهديد ووعيد من الأعداء والحساد (المحاسني ص 32)

القادم من أرض الأعداء ورأى أن يستأذن الأستاذ⁽¹⁾ ماذا يفعل معي . وقد تعمدت أن أبقى في دمشق حتى تذهب المراسلات وتعود ، حتى أعلم إن كان كافور عند وعوده أم نقضها ، فجاءت كتب كافور لابن مالك بحسن الوفاة وتسهيل مهمة مسيري إليه ، فعلمت صدق نواياه تجاهي ، وإن كنت فهمت بعد ذلك أن كافور باستمالي إليه إنما ينزع عن سيف الدولة وبني حمدان ، بوق الدعاية الممجد لهم ولبطولاتهم في حروب الروم وغيرها من الحروب ، فلا يُسمع لهم بعد ذلك صوت . حدث هذا بالفعل ، وتغير حال الحمدانيين بعد أن فارقتهم كان كافور داهية !!..
- ماذا فعل ابن مالك حينئذ ؟

- لم يكن يملك شيئاً تجاهي إلا أن يفسح الطريق إلى الرملة ويشيعني بالدعوات المعلنه واللغات المضمرة .

والحقيقة أنني كنت في ظروف نفسية غاية في السوء يضيق صدري ولا ينطلق لساني بهوم ثقلاً أسفاً علي تسع سنوات غاية في الثراء من جميع النواحي بطولة وشعراً ومجداً وشهرة وثراءً ... نعم .. فقد تحقق لي قدر لا بأس به من الثراء المادي ، فقد كان سيف الدولة ، والحق يقال غاية في الكرم رغم تدمره المستمر من قلة أشعاري فيه ، وإن كان مجمل أشعاري فيه لا بأس به . والديوان شاهد على ذلك .

[ملحوظة : القصيدة المقصودة قيلت قبل ذلك بسنوات ، حين مدح الأمير الحسن بن عبيد الله بن طغج بالرملة سنة 336 هـ راجع شاكر في ترتيب القصائد]

(1) يُقصد بالأستاذ : كافور الإخشيدي وكان يطلق عليه هذا اللقب وقد ذكر أبو الطيب هذا اللقب عندما كان يمدح مساور

الرومي أمساور أم قرن شمس هذا * أم ليث غاب يقدم الأستاذا

راجع الديوان . قبل لقائه كافور بسنوات ترجع إلى سنة 329 هـ

=يرى محمود شاكر أن هذه القصيدة قيلت سنة 329 هـ والمتنبى عند بدر بن عمار في طبرية ، ويرجح أن المتنبى كتبها في طبرية وأرسلها إلى مساور وهو بحلب ، ثم لما جمع المتنبى شعره على ما بقي في نفسه من تواريخ القسم الأول ، ضم القصيدة التي معنا هذه إلى القصيدة الأولى " جلا كما بي فليك التبريح ... " التي قالها سنة 326 هـ . وقد فعل المتنبى ذلك مراراً حتى في القسم المؤرخ . (انظر شاكر ص 89 ، 90)

ويقول عبد الوهاب عزام " سير الإخشيد جيشا يقوده كافور وفيه مساور بن محمد الرومي فهزم ابن يزداد نائب ابن رائق واستولى على حلب ، ومن هنا يُعلم أن مساور كان من جند كافور قبل أن يكون والياً على حلب .

(انظر عزام ذكرى أبي اطيح 48 - 50 ؛ ومعجز أحمد ص 251)

لم أكن أقصد أن أكون مقلا في أشعاري فيه ، إن تصرفاته كانت تستفزني فأمتنع عن قول الشعر حتى دفعني أن أسأل نفسي هل كره سيف الدولة جواري له ...؟؟!!

سؤال ألح عليّ مرارا . وكانت تصرفاته الأخيرة تجيبني .. نعم ...!! . وا خسارتاه ..!!

- تشعر بالحسرة على فراق سيف الدولة يا أبا الطيب ؟

- نعم لا أخفي عليك ... فهو إن كنت كرهت منه خصلة فخصاله الحسنى لا تُعد ... لكنني شعرت أنني هُنت عليه في هذا الموقف الأخير ، وهذا الشعور جرحني جرحا غائرا في قلبي من ناحيته... جرحا أسال دم قلبي على هذه العشرة وهذه الصداقة التي ظننت ألا يغيرها الدهر وسبحان الله غيرَها . واصبحت حميميَّتها باردة برود الثلج في رأس الشتاء على ربا لبنان ...!!
كان لابد أن أغادر مُلك سيف الدولة ، ولقد تركت قلبي في حلب ، موزعا بينه وبين ست الناس الأميرة خولة ... تلك الفراشة الجميلة التي ما تجرأت على وصفها إلا بيني وبين نفسي على مدى تسع سنوات . ألمح في عينيها الحب ، عندما تصفو الأيام ... والخوف قبل ذهابي للحرب مع أخيها سيف الدولة ، والفرح بالعودة سالمين سواء كنا هازمين أو مهزومين ، المهم أننا عدنا إلى حلب .. كانت ملاكا جميلا رقيقا ، كانت تعشق أشعاري وتقدرها خير تقدير ... كنت أعلم وهي كذلك أن مابيننا من حب ، مكتوب عليه الفراق ، وأن تقاليد الملك تأبى أن تسمح لهذه العلاقة الراقية السامية أن تكلل بالزواج .. فكنا نشقى بهذا الحب ولا نصرح به وإن كانت العيون فضّاحة ..

ولكنني لاحظت مؤخرا جفوة منها تبدوا مصطنعه ، فأحزنني ذلك وآلما شديدا ... فأنا لم يبدر مني ما يقتضي ذلك ... فحزنت وكتمت في قلبي ... ورأيت أن ذلك ربما بتوجيه من سيف الدولة وربما تحذير من أبي فراس أو أبي العشائر فأرادت أن تُبعدني عنها خوفا وإشفاقا عليّ ؛ كانت كل الشواهد تدفعني دفعا إلى الخروج مضطرا من هذه الجنة ، التي لم تعد كذلك ...!!!

- تركت دمشق إلى الرملة ؟

- نعم ... وكان فيها صديقي القديم أبو محمد الحسن بن عبيد الله بن طنج ، وكان يتولى الرملة ، من قبل أنوجور ابن عمه الإخشيد . وتعلم أنه كان بيننا مودة مرّ عليها ما يقرب من عشر سنوات قبل أن ألتقي أبا العشائر بن حمدان .

- وكيف وجدت استقباله لك يا أبا الطيب ؟

- على أحسن ما يكون .. حَمَل إليّ الهدايا ، وخلع عليّ وحمّلي على فرس جواد بمركب ثقيل ، وقلّدي سيفاً مُحَلّى (1) وأقامني في قصره أستجم من وعشاء السفر ، وألمح إليّ شعري كي أمدحه ، فاعتذرت أنني إنما جئت بدعوة من كافور وليس من اللائق أن أمدح غيره قبل مديحه ، فلن يكون ذلك في صالح أي منّا . ولم أنه كلامي حتى وصلت رسالة كافور (2) يستعجل قدومي إليه فقرأتها وأعطيته إياها فقرأها ..!

وهو ، أقصد بن طنج ، يعلم مبدئي من قبل ، ويعلم أنني إذا ما قصدت أميراً لا أمدح غيره ، وهو شاهد على ذلك عندما كنت في رحابه من قبل ، ألح عليّ إلحاحاً عظيماً حينئذ أن أمدح أبا طاهر العلوي ، حتى قال وقتها كنت قد عزمت عليك قصيدة تنسئها فيّ فأجعلها في أبي طاهر ، ففعلت لطلبه ، أما المبدأ فهو يعرفه . وقد أخرجني طلبه هذا الأخير بعد كرمه الغزير فقلت له معذراً :

ترك مديحك كالهجاء لنفسي * وقليل لك المديح الكثير

غير أنني تركت مقتضب الشعر * (لأمر مثلي به معذور)

وسجايك مادحاتك لا لفظي * وجود على كلامي يغير

فسقى الله من أحب بكفيك * وأسقاك أي هذا الأمير

كان ابن طنج كريماً معي إلى درجة كبيرة ، وآية كرمه أنه قدّر مبدئي في قول الشعر ولم يُظهر ضيقاً ، بل على العكس أبدى تسامحاً ، رغم أنه ابن عم (أنوجور) ملك مصر ، إلا أنه يعلم جيداً مدي بطش كافور وسطوته فقدّر الأمر خير تقدير .. وقلت أودعه عند مسيري إلى مصر :

(1) راجع الديوان تحقيق عزام ص 436

(2) راجع الديوان تحقيق عزام ص 438

ماذا الودع وداع الوداع الكمد * هذا الوداع وداع الروح للجسد

إذا السحاب زفته الريح مرتفعاً * فلا عدا الرملة البيضاء من بلد

ويا فراق الأمير الرحب منزله * إن أنت فارقتنا يوماً فلا تعد

تعمدت أن يكون سفري إلى مصر في صحبة قافلة من قوافل التجارة العائدة من الشام إلى مصر ، تعمدت ذلك حتي أعرف أحوال الناس في مصر وأخبار كافور وكيف تسير الأمور وكيف يراه الناس بعيداً عن قصر الملك . وخير من يخبر بذلك الثَّجَّار أردت أن أضيئ لأقدامي مواضعها قبل أن أخطو أولى خطواتي في شوارع الفسطاط ..

سألت رفيق الطريق . هلى تعرف كافور .!؟

قال : ومن لا يعرف كافور .. ! عبد أسود خصي مثقوب الشفة السفلي بطين قبيح القدمين ، ثقل البدن ، لا فرق بينه وبين الأمة ⁽¹⁾ . ضحكت وقلت له : يبدو أنك تعرفه جيداً ...

- نعم ... كان هذا الأسود لقوم من أهل مصر يُعرفون ببني عياش يحمل لهم الحوائج من الأسواق على رأسه ويخدم الطباخ وكان ابن عياش يربط في عنقه حبلاً إذا أراد النوم . فإذا أراد منه حاجة جذبه ، لأنه لم يكن يتنبه بالصياح

وكان غلمان ابن طنج يصفعونه في الأسواق على قفاه كلما رأوه فيضحك ، فيقولون هذا العبد صلب القفا خفيف الروح ، وكلموا صاحبه في بيعه ، يقال وهبه لهم ، ويقال اشتراه الإخشيد بثمانية عشر ديناراً ، فأقاموه على الخلاء والوضوء .

قلت لرفيقي : كيف تقول هذا وقد كان فارساً وقائد جيش ابن طنج الإخشيد ، وله انتصاراته منها انتصاره على ابن رائق وعلى سيف الدولة .. !!

قال : أنا أحدثك عن مبدئه ، أما بعد ذلك فقد انضم للجيش وترقي فيه ، حتى أصبح هو وأبو شجاع فاتك الرومي أكبر اثنين في الجيش ، لازم هو الإخشيد قبل وفاته في دمشق وأكل عقلة ، فهو داهية ، حتى قدّمه الإخشيد على من سواه من القواد وأصبح الأمر الناهي ، حتى إنه بعد

(¹) راجع الصبح المنبي ص 110)

وفاة الإخشيد أخذ البيعة لابنه قبل أن يعلم الناس بوفاته ، فبايع الناس جميعا وهم يظنون أن هذا طلبُ الإخشيد...

وقد كان أنوجور صغيرا فاستطاع كافور أن يضع يده على كل شيء . وقرب من شاء وأبعد من شاء ، وأمر من شاء وعزل من شاء ، وكانت هناك نفوسٌ خسيصةٌ تسابقت للتقرب إليه ، وسعى بعضهم ببعض عنده ، حتى أصبح ولا أحد يؤتمن على سر ، وأصبح كل عبد بمصر يرى أنه خيرٌ من سيده ، ولا يستبعد أن يصل إلى أضعاف ما وصل إليه هذا الخصي . (1)
- يبدو أنه عزل أنوجور عن إدارة الأمور بمصر ..
- هو كما تقول ..

- ولكن أنوجور أصبح الآن رجلا ، لعله يستطيع أن يتولى الأمر بنفسه ..؟
- أنا لا أظن .. لن يترك له كافور الفرصة ، وقد علمت أن الخلافات بدأت تدب بينه وبين أنوجور ، وإني أخشى على أنوجور منه ... فهو كما قلت لك داهية ...
أضاف هذا الحديث إلى نفسي ضيقا على ضيق ، إني مقبل على داهية ، يحتاج الأمر مني قدرا كبيرا من الحكمة في التعامل مع هذا الداهية ، ولكن كيف أمدح كافور هذا بعدما سمعت عنه ما سمعت ... ولكنني قلت في نفسي لعل هذا الرجل واجد عليه ، مما جعله يتصيد مسالبه ويذكرها لي ...

ونفضت أذني من هذا الكلام ، حتى أرى بعين رأسي ...
- وأين مبدؤك يا أبا الطيب من كره الأعاجم والعبيد الذين يتحكمون في مصير الدولة والخلافة ، أليس كافور أحدهم ..؟! تريد أن تنزلَ عليه ، وتمدحه ..!

- رأيتَ ما رأيتَ مما حدث بيني وبين سيف الدول وقومه من أشراف العرب وما آلت إليه الأمور في حلب ، وسيف الدولة لم يستطع أن يتجاوز حدود إمارته ليحرر الخلافة من يد الأعاجم والعبيد وها هم الروم مسلطون عليه يستنزفونه ولا يملك مع ذلك حيلة .. تحطم أمني فيه أن يصنع شيئا ، ثم إن كافور يلوح بما لم يلوح به سيف الدولة ، يلوح بالإمارة .. ألا تستحق ؟!

(1) (راجع مقدمة القصيدة الأولى في كافور الديوان تحقيق عزام ص 436 ، 437 ، ومعجز أحمد ج4 ص 14 - 17)

- وما يدريك أنه صادق ؟ ثم ها أنت تقول .. يلوح ! ليس وعدا حقيقيا إذا فلماذا المغامرة
- ليس أمامي بديل . ثم إني لا أقدر الشرَّ قبل وقوعه .. لعله يَصْدُقُ ، لن أخسر شيئا ..
- أظنك سوف تخسر يا أبا الطيب .. ستخسر نفسك إن كذبت وعود كافور .
- لم يعد لدي ما أخسره بعد خروجي من حلب فقد خسرت هنالك كل شيء ... والحق أنني لم أكن متحمسا للذهاب إلى مصر !

المتنبي وكافور على ضفاف النيل

نزلتُ على كافور ضيفا على ضفاف النيل سنة ست وأربعين وثلاثمائة ، وكان استقباله لي حافلا ، فقد أظهر تقديرا واحتراما وكلف غلمانه بخدمتي ومنحني دارا على شاطئ النيل بالقرب منه واتبع غلمانه ورائي إلى هذه الدار بالهدايا والعطايا ، وانتظر مني رد الجميل ، ذهبت إلى الدار التي منحنيها كافور وأنا أفكر في ذلك الوصف الذي وصفه التاجر اثناء الطريق من الرملة إلى الفسطاط ، ووجدت كافور كما تخيلته بناءً على هذا الوصف ، وسألت نفسي هل تصدق فيه باقي الأخبار ..؟!

كان في استقبالي مع كافور كبار رجال الدولة وكبار العلماء والأدباء والقضاة والشعراء أيضا . فقد كان كافور حريصا أن يقرب منه هؤلاء ، فكان هذا في ذلك العصر من تمام زينة الملك وكماله .. وكأنه يريد أن يقول لهم ها أنا ذا قد أحضرت إلى بلاطي أعظم شعراء العصر أبا الطيب المتنبى ... وكان يظن أنني سوف أتحمفه بقصيدة عصماء بمجرد رؤيته ولكن خاب ظنه . فلم أقل شيئا .. فلم يجد بدا أن يتحفني بهداياه وينتظر ماذا أنا قائل فيه ..!

ولا أخفي عليك لقد دار صراع عنيف بداخلي أن أمدح هذا الخصي ، بعد أن مدحت البطل الحمداني سيف الدولة ... فحاولت بكل ما أتيت من قوة أن أطوع بياني لتخرج أبيات لها معنى فكانت هذه القصيدة التي أنشدته إياها في جمادى الأولى أو الآخرة لا أذكر (1) من هذه السنة ، وأولها :

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا * وحسب المنايا أن يكن أمانيا
تمنيتهما لما تمنيت أن ترى * صديقا فأعيا أو عدوا مداجيا
إذا كنت ترضى أن تعيش بذلة * فلا تستعدن الحسام اليمانيا
ولا تستطيلن الرماح لغارة * ولا تستجیدن العتاق المذاكيا
فما ينفع الأسدَ الحياءُ من الطوى * ولا تُثَقِّي حتى تكون ضواريا
حبيبك قلبي قبل حبك من نأى * وقد كان غدارا فكن أنت وافيا
وأعلم أن البين يُشكِّك بعده * فلست فوادي إن رأيتك شاكيا

(1) في توقيتها خلاف ، راجع الديوان بتحقيق عزام ص 439)

فإن دموع العين غدرٌ بربها * إذا كُنْ إثر الغادرين جواريا
إذا الجود لم يُرزق خلاصا من الأذى * فلا الحمد مكسوبا ولا المال باقيا
وللنفس أخلاق تدل على الفتى * أكان سخاءً ما أتى أم تساخيا
أقل اشتياقا أيها القلب ربما * رأيتك تُصفي الود من ليس صافيا
خُلقتُ ألّوفا لو رجعت إلى الصبى * لفارقت شيبى موجع القلب باكيا
ولكن بالفسطاط بحرا أزرتة * حياتي ونصحي والهوى والقوافيا

.....

بعزم يسير الجسمُ في السرج راكبا * به ويسير القلب في الجسم ماشيا
قواصد كافور توارك غيره * ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا إنسان عين زمانه * وخلّت بياضا خلفها وماغيا
نجوز عليها المحسنين إلى الذي * نرى عندهم إحسانه والأياديا
فتى ما سرينا في ظهور جدودنا * إلى عصره إلا نُرَجّي التلاقيا

.....

إذا كسب الناسُ المعالى بالندى * فإنك تعطي في نداءك المعاليا
وغير كثير أن يزورك راجل * فيرجع ملكا للعراقين واليا

- تقصد إلى هدفك مباشرة يا أبا الطيب من أول قصيدة لك في كافور ..!

- وهل جئت إلى مصر إلا لهذا الهدف ..!

- وكيف استقبل أشعارك فيه ... ؟

- كان استقبالا سمجا ... دخلت عليه بعد انشادي هذه القصيدة ، فابتسم ابتسامة سمجة ولم يعلق
وقام ، وأمر لي بغطاء ، ولبس نعليه فرأيت شقوقا برجليه قبيحة ، فلم يزايلني هذا المنظر
لقبحه كيف يكون مثل هذا صاحب الأمر والنهي في مصر ، فكتبت هذه القصيدة لنفسني
واحفظت بها :

أريك الرضا لو أخفت النفس خافيا * وما أنا عن نفسي ولا عنك راضيا

أمینا وإخلاقا وغدرا وخسة * وجبنا ، أشخصا لحت لي أم مخازيا
تظن ابتساماتي رجاءً وغبطة * وما أنا إلا ضاحك من رجائيا
وتعجبني رجلاك في النعل إنني * رأيته ذا نعل إذا كنت حافيا
وانك لا تدري ألونك أسود * من الجهل ، أم قد صار أبيض صافيا

.....

فإن كنت لا خيرا أفدت فإنني * أفدت بلحظي مشفريك الملاحيا
ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة * ليضحك ربات الحداد البواكيا

- يبدو أنك كنت تتوقع منه شيئا بعد قصيدتك الأولى ..؟

- نعم كنت أنتظر أن يحقق وعده ويولينني صيداء أو ولاية في الصعيد ، ولكنه أثر إظهار هذا الملمح السمج ، وأحسست من يومها ، أنه ليس من السهولة بمكان أن استخلص من هذا الخصي ما أرجو وأتمنى ، وقلت في نفسي لا تتعجل يا أبا الطيب وانتظر حتى ترى ...
والحق إن كافورا ، إلى جانب ما بلغني من صفات سيئة ، كان قويا شجاعا داهية حازما ، ودليل ذلك أنه استطاع بذكائه ومكره أن يرضي بغداد ومعز الدولة وعلى الجانب الآخر يرضي الفاطميين ويهادنهم ، ومن ذكائه ، أن المعز الفاطمي كان قد عزم على تجهيز عسكر إلى مصر وقد علم بذلك ، فسألته أمه أقصد أم المعز تأخير ذلك وقد كانت غزوات الفاطميين تتكرر على غرب البلاد وكان فشلهم يتكرر ، وكانت أم المعز تقصد الحج هذه السنة خفية ...
فأجابها ولدها وذهبته للحج ، فلما وصلت إلى مصر سرا بلغ كافور ذلك ، فحضر إليها وخدمها وحمل إليها الهدايا وبعث في خدمتها أجنادا ، فلما رجعت من حجها منعت ولدها المعز من غزو مصر وفيها كافور

- لم يكن هذا الموقف مع أم المعز وحده هو الذي منعه من غزو مصر ولكن معرفة المعز لقوة جيش مصر وحكمة كافور وقوته من الأسباب المانعة من أخذ مصر

- عندك حق ... وقد قالت له عيونه في مصر " إذا زال الحجر الأسود ، ملك مولانا المعز الدنيا كلها " يقصدون بالحجر الأسود كافور . (1)

ولعلك تلمح في قصيدتي الأولى إشادة بقوة كافور وحكمة وشجاعته .

الغريب أن هذا الكافور كان ذا بصر بالعربية ، فيقال إن الفضل بن العباس دخل عليه فقال أدام الله (أيام) سيدنا . فخفض الأيام ، فتبسم كافور إلى أبي إسحاق النجيري وهو النحوي الكبير صاحب الزجاج ، فقال أبو إسحاق :

لا غرو إن لحن الداعي لسيدنا * أو غص من هيبة بالريق والبحر

فمثل سيدنا حالت مهابته * بين البليغ وبين القول بالحصر

فإن يكن خفض الأيام من دهش * من شدة الخوف لا من قلة البصر

فقد تفاعلت في هذا لسيدنا * والقال نأثره عن سيد البشر

بأن أيامه خفض بلا نصب * وأن دولته صفو بلا كدر

فأمر له بثلاثمائة دينار ولابن العباس بمثلها . (2)

ورغم انطباعي السييء الذي أخذته عنه من أول لقاء بيننا إلا أنه كانت له محاسن أعترف لك بها ، فقد كان محبا للعلم والعلماء والأدباء ويقرب الشعراء ويجيزهم ، ، وممن كان في صحبته كما ذكرت لك النجيري وهو أبو اسحاق ابراهيم بن عبد الله النحوي المعروف ووزيره ابن الفرات وكان يقول شعرا ولكنه كان مقلا ، والناشئ الأصغر ، وكان مختصا بكل من كافور وابن الفرات ، ومحمد بن عاصم المشهور بصناعة الدوح وأبو هاشم بن أبي العفير الأنصاري وكان أكثرهم التصاقا وقربا من كافور ، وعلي بن أحمد المهلبى ، واللغوي الآخر أبو الحسن بن أذنين ومن المؤرخين أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس صاحب تاريخ مصر

(1) ولما توفي كافور بعث المعز جيوشه فأخذوا مصر ، راجع عبد الوهاب عزام ، ذكرى أبي الطيب ص 105

(2) راجع عزام ، ذكرى أبي الطيب مرجع سابق ص 106

وتوفي في سنة 347هـ ، والمؤرخ الكبير أبو عمر محمد بن يوسف الكندي المتوفي سنة 350 هـ والمؤرخ الفذ ابن زولاق وغيرهم وغيرهم...⁽¹⁾

وكان كافور يبدو متدينا متواضعا فكان يداوم على الجلوس غدوة وعشية لقضاء حوائج الناس.

وقد بعث يوما إلى أبي بكر الرملي المعروف بابن النابلسي مالا . فردده وقال للرسول : قل لكافور قال الله تعالى : (إياك نعبد وإياك نستعين) ، فالاستعانة بالله وكفى .

فرد كافور الرسولَ بالمال وقال قل له : (له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى .) فأين ذكُرُ كافور هنا ؟ الملك كله لله . !

وكان يصل العلماء والزهاد ⁽²⁾ والفقراء . وكان الكثيرون يشهدون له بهذه الصفات والأخلاق . وقد كان ما بلغني وما لاحظته بنفسي عن كافور من محاسنه تجعلني أترث ولا أسارع في الحكم عليه لعله يفي بما وعدني به على لسان رسله إليّ .

وتصادف أن كافور قد انتهى من بناء دار له بإزاء الجامع الأعلى على البركة وذهب إليها ومعه بعض الحاشية وكنت معهم لتفقدتها قبل سَكْنَاهَا وكانت دارا عظيمة تستطيع أن تسميها قصرا وقد تفنن البناؤون فيها وشيدوها على أحسن ما يكون ، ولما لمح في عيني الإعجاب بها قال لي ... ألا تذكرها في أشعارك يا أبا الطيب فقلت شعرا أهئنه عليها وكان ذلك في أواخر شهر رجب من هذه السنة :

إنما التهنيات للأكفاء * ولمن يُدنى من البعداء
وأنا منك لا يهنئ عضو * بالمسرات سائر الأعضاء
مستقل لك الديار ولو كا * ن نجوما آجرُ هذا البناء
ولو أن الذي يخر من الأمـ*واه فيها من فضة بيضاء
أنت أعلى محلة أن تهنا * بمكان في الأرض أو في السماء

⁽¹⁾ راجع مصطفى الشكعة ص 380 ، 382)

⁽²⁾ راجع عزام ، ذكرى أبي الطيب ص 106 ، 107)

.....

إنما يفخر الكريم أبوالمسـ*ك بما يبتني من العلياء
وبأيامه التي انسلخت عنـ*ه وما داره سوى الهيجاء

.....

تفضح الشمس كلما ذرّت الشمـ*س بشمس منيرة سوداء

.....

كرم في شجاعة وذكاء * في بهاء وقدرة في وفاء
من لبيض الملوك أن تبدل اللو * ن بلون الأستاذ والسحناء

.....

يا رجاء العيون في كل أرض * لم يكن غير أن أراك رجائي
ولقد أفنت المفاوز خيلي * قبل أن نلتقي وزادي ومائي
فارم بي ما أردت مني فإني * أسد القلب آدمي الرواء
وفؤادي من الملوك وإن كا * ن لساني يرى من الشعراء

- ما هذا يا أبا الطيب ، أهذه قصيدة تهنئة تُهنئ بها الأستاذ ما أراها إلا هجاء في ثوب مديح .
قل لي ما هي تلك الأيام التي انسلخت عن كافور ... ولماذا هذا اللفظ (انسلخت عنه) ... هي أيام
سوداء إذا ، ثم ماهذه (الشمس المنيرة السوداء) ، هل تريد أن تعبت بعقولنا يا أبا الطيب ، ثم
أين هم الملوك البيض الذين يبحثون كيف يبدلون لونهم الأبيض بلون الأستاذ الأسود ، هل أنت
مدرك ما تقول لكافور ، ثم ماذا تقول ؟! لون الأستاذ والسحناء ...!
- لماذا تبحث دائما وراء التأويل السيء ، ألم تقرأ كرم في شجاعة وذكاء في بهاء ... الخ ألم
تقرأ

يارجاء العيون في كل أرض * لم يكن غير أن أراك رجائي ..

- تقصد أنه أعجوبة من أعاجيب الدهر ... هجاء هذا أم مديح ...!!

- ما طواعني بياني إلا بما سمعت ... ثم إنه فهم مقصدي في نهاية هذه القصيدة فأقسم ليبلغني جميع ما في نفسي ... لقد أعجبتَه القصيدة ...

- أتصدق ما تقول يا أبا الطيب ؟!

- لا .. لأصدق ...

المقارنة ظالمة بينه وبين سيف الدولة وما استطعت الفكاك من أسر شخصية سيف الدولة كلما أردت مديح كافور برزت لي صورة سيف الدولة وتُعكّر عليّ خيالي ، فتأتي الأبيات كما تراها وأحاول جاهدا إخفاء انطباعاتي ، ولكنها تتكشف بعد حين ماذا أفعل ..
- يقال إن كافور إذا أقسم على شيء يكون وقتها أكذب ما يكون (1)..وقد أقسم لك ليحققن لك كل ما تمنيت ..!

- علمت ذلك بعد حين ..!

- لقد فعلت مع كافور ما لم تفعله مع سيف الدولة ؟..

- ماذا تقصد ؟!

- تنشده الشعر واقفا وكنت تنشُد جالسا عند سيف الدولة ؛ ثم ما هذا الذي كنت تفعله تقف بين يدي كافور تلبس الخفين وفي وسطك سيف ومنطقة وعن يمينك وشمالك حاجبان من مماليكك ، ثم تنشُد القصيدة ولا تجلس !
- أردت أن أصنع لنفسي بنفسي خصوصية ، ليست لغيري من الشعراء فأنا الشاعر الرسمي ، ألا تقتضي هذه الرسمية قدرا من الأبهة . هكذا رأيته .. والحق أنني قد بالغتُ فيها بعض الشيء .. حتي إن كافورا أرسل من قال لي : قد طال قيامك يا أبا الطيب في المجلس . يريد أن يختبرني ، فقلت ارتجالا على مسامع كافور :

يقل له القيام على الرؤوس * وبذل المكرمات من النفوس

إذا خانتَه في يوم ضحوك * فكيف تكون في يوم عبوس (2)

(1) راجع عزام ، ذكرى أبي الطيب ص 113)

(2) راجع يوسف البديعي ، الصبح المنبي ص 112)

- تريد أن تقول له : أنا لست فقط شاعرك بل رجلك المخلص الوفي الذي يفديك بنفسه .
- تقرأ أفكارى ...

مضت الأيام بي في مصر ولا أعرف إلى أين تسير ثم جاء عيد الفطر ، ورأيت أن أهنته
بالعيد خاصة بعدما أتحنفني بعطاياه ، ورأيت أن أعود إلى سابق عهدي وأبدأ بالغزل ، لعلنى
أخرج من هذه الدائر القاتمة التي حصرت نفسي فيها ، والتي لا أستطيع من خلالها أن أمدح
هذا الكافور ..فقلت :

مَنْ الجَادِرُ في زي الأعاريب * حمر الحلى والمطايا والجلابيب
إن كنت تسألُ شكاً في معارفها * فمن بلاك بتسهيدي وتعذيب
إن تجزني بضنى بي بعدها بقر * تجزي دموعي مسكوباً بمسكوب

.....

كم زورة لك في الأعراب خافية * أدهى وقد رقدوا من زورة الذيب
أزورهم وسواد الليل يشفع لي * وأنثني وبياض الصبح يُعري بي

.....

ما أوجه الحَصَرَ المستحسناً به * كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية * وفي البداوة حُسْنٌ غير مجلوب
أين المعيز من الآرام ناظرة * وغير ناظرة في الحسن والطيب
أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها * مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
ولا برزن من الحمام مائلة * أوراكن صقيلات العراقيب
ومن هوى كل من ليست مموهة * تركت لون مشيبي غير مخضوب

.....

ليت الحوادث باعتني الذي أخذت * مني بحلمي الذي أعطت وتجريبي
فما الحادثة من حلم بمائعة * قد يوجد الحلم في الشبان والشيب

ثم أخلص إلى كافور فأقول :

ترعرع الملك الأستاذ مكتهما * قبل اكتهال أدبياً قبل تأديب

.....

يدبر الأمر من مصر إلى عدن * إلى العراق فأرض الروم فالنوب

إذا أتتها الرياح النكب من بلد * فما تهب بها إلا بترتيب

ولا تجاوزها شمس إذا شرقت * إلا ومنه لها إذن بتغريب

.....

قالوا هجرت إليه الغيث قلت لهم * إلى غيوث يديه والشآبيب

إلى الذي تهب الدولات راحتُه * ولا يمن على آثار موهوب

.....

يأيها الملك الغاني بتسمية * في الشرق والغرب عن وصف وتلقيب

أنت الحبيب ولكني أعوذ به * من أن أكون مُحِبّاً غير محبوب

- لعنك يا أبا الطيب استعدت توازنك في هذه القصيدة ، وإن كنت مازلت تلح في تحقيق رغبتك في الولاية.

- ما إلى غير ذلك من سبيل ...! وفي أواخر هذه السنة 346 هـ وبالتحديد في شهر ذي الحجة عشية يوم النحر قلت له هذه القصيدة و أولها :

أودّ من الأيام ما لا تودّه * وأشكو إليها بيننا وهي جنده

يباعدن حبا يجتمعن ووصله * فكيف بحبٍ يجتمعن وصدّه

أبى خلق الدنيا حبيبا تديمه * فما طلبني منها حبيبا تردّه

وأسرع مفعول فعلت تغيراً * تكلفُ شيءٍ في طباعك ضده

.....

وليتك ترعاني وحيرانُ مُعرضٌ * فتعلم أني من حسامك حده

وإني إذا باشرت أمرا أريده * تدانت أقاصيه وهان أشدّه

.....

فكن في اصطناعي محسنا كمجربٍ * بينَ لك تقريب الجواد وشدهُ
إذا كنت في شك من السيف فابله * فإما تُنْقِيهِ وإما تُعِدُّهُ
وما رغبتني في عسجد أستفيده * ولكنها في مفخر أستجدّه

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وثلاثمائة : كافور يكشف عن وجهه

- يقولون يا أبا الطيب أنه في هذه السنة 347 هـ... دخلت الروم آمد ، وميافارقين ، فقتلوا ألفا وخمسمائة إنسان ، وأخذوا مدينة سميساط وأخربوها .

- نعم علمنا بذلك ونحن في مصر لقد اقتربوا هكذا من حلب ولا أدري ما موقف سيف الدولة من ذلك ، الغريب أنه رغم هذا تأتي الأخبار بأنه في المحرم من هذه السنة ركب معز الدولة إلى الموصل ، فأخذها من يد ناصر الدولة ، وهرب ناصر الدولة إلى نصيبين ، ثم إلى ميافارقين ، ثم لحقه معز الدولة ، فصار إلى أخيه سيف الدولة بحلب ، ثم راسل سيف الدولة معز الدولة في المصالحة بينه وبين أخيه ناصر الدولة ، فوقع الصلح على حمل ألفي ألف وتسعمائة ألف كل سنة ، ورجع معز الدولة إلى بغداد بعد انعقاد الصلح .. جاءتنا هذه الأخبار ونحن في الفسطاط ، وقد حزنت حزنا شديدا أن يصل الحال بين الحمدانيين والخليفة وأمير الأمراء معز الدولة إلى هذه الدرجة ...

إن معنى هذا أن سيف الدولة نفسه مهدد ، لكن يبدو أن معز الدولة ، لم يكن يتوقع أن يجد نفسه في مواجهة سيف الدولة بهذه السرعة .

- كان تصرف سيف الدولة منتهى الحكمة عندما راسل معز الدولة ليصلح ما بينه وبين ناصر الدولة .

- نعم .. فهو يعلم جيدا أن مُعر الدولة سيستجيب لأن المواجهة المسلحة مع سيف الدولة ليست من السهولة بـمكان ، وحتى على فرض انتصاره على سيف الدولة فسوف يجد نفسه مباشرة في مواجهة الروم ، وهم بالفعل على الأبواب لقد دخلوا بالفعل آمد وميفارقين وسميسطاء وقتلوا الآلاف وخرّبوا وسبوا وأخذوا أسرى بالآلاف ..ثم عادوا ...

ما أـزنني أكثر أن يسعى معز الدولة البويهى وراء الخراج ونسي أو تناسى أن الحمدانيين وعلى رأسهم سيف الدولة يواجهون عدوا غاشما لا يهدأ ، ويمنعون عن أرض الخلافة خطرا محققا .. ويحتاجون لآلاف الآلاف من الدنانير ، لا أن يأخذ معز الدولة منهم الخراج ويتجبر عليهم ويشترط على ناصر الدولة ألفي ألف وتسعمائة ألف كل عام (ياحمره الخجل أين أنت (!!!؟)

كُنّا في مصر بعيدين عن هذه المناطق المشتعلة ، وإن كنت أعيش أحداثها بكل وجداني ، عندما تصل إلينا أخبار المعارك أشعر كأني وسط جنودها ، أقاتل كما يقاتلون ، وينتابني القلق على سيف الدولة .

- اشتقت يا أبا الطيب إلى أيام البطولة والفروسية ؟!

- نعم ... كانت أعظم أيام حياتي ، أليس قتال الروم جهاداً في سبيل الله ؟!! ... لقد كنتُ أحدَ المجاهدين على مدى سنوات طويلة مع سيف الدولة .

أثارت اخبار الحرب سخونة في دمائي .. لقد مرّ عليّ عامٌ من النوم ، وقد كان لا يمرُّ عام إلا ونخوض فيه حربا أو أكثر مع سيف الدولة ..ضد الروم أو القبائل التي تتألب عليه .

- لقد أعادت إليك هذه الأخبار ذكريات الفروسية ..

- نعم وأيام التدريب قبيل الحروب ، لذلك خرجت بفرسي إلى صحراء المقطم القريبة ، وأخذت في استعادة لياقتي العسكرية ... ولم ينتهي اليوم إلا وقد انزلت ساق فرسي في شق صخري فانكفاً ، وأصيب بجرح غائر

- إشارة سيئة يا أبا الطيب ...!

- نعم ... كأن ما حدث رمزا لما وصلتُ إليه ... سقط الجواد فالّ سيئ

حزنت لذلك حزنا شديدا .. كأني أنا من سقط وجرح ...!

- كان حصانا عربيا أصيلا ؟

- نعم وكان الحصان الوحيد الذي احتفظت به لنفسي من بين الخيول الكثيرة التي وصلتني من سيف الدولة وغيره .

فعدت إلى الفسطاط كاسف البال ، في هذا اليوم ودخلت على كافور ، في قصره ، وما لبثت أن خرجت من عنده مكفهر الوجه ... ولم أنطق عنده بكلمة ...!

لم تكن نفسي الضيقة حينئذ تسمح أن أشارك في حديث فيه من التباس ما فيه مع كافور وحاشيته ، أرسل كافور ورائي من يسألني ما الأمر فقصصت عليه قصة الحصان وأني أخشى عليه من هذا الجرح ... فعاد إلى كافور وأخبره ، فإذا به يرسل إلي مَهرا أدهمًا غاية في الجمال ، فسعدت بذلك كثيرا فشكرته على هديته شعرا :

فراق ومن فارقت غيرُ مذمم * وأمّ ومن يمت خير ميمّم
ومامنزل الذات عندي بمنزل * إذا لم أبجلّ عنده وأكرم
سجية نفس ما تزال مليحة * من الضيم مرمياً بها كل مخرم
رحلت فكم باك بأجفان شادن * عليّ وكم باك بأجفان ضيغم
وما ربة القرط المليح مكانه * بأجزع من رب الحسام المصمم
فلو كان ما بي من حبيب مقتع * عذرت ولكن من حبيب معمم
رمى واتقى رميي ومن دون ما اتقى * هوّى كاسرٌ كفي وقوسي وأسهمي
- أين كافور يا أبا الطيب ..؟ ما أراك إلا في حلب ؟!

- ما استطعت أن أعزل نفسي عن ذكرياتها.... لكن ها هو كافور :

فدى لأبي المسك الكرام فإنها * سوابق خيل يهتدين بأدهم
أغرّ بمجدٍ قد شخصن وراءه * إلى خُلقٍ رحب وخلق مطّهم

.....

ومن مثل كافور إذا الخيلُ أحجمت * وكان قليلا من يقول لها اقدمي

شديد ثبات الطرف والنقع واصل * إلى لهوات الفارس المتلثم
أبا المسك أرجو منك نصرا على العدى * وآمل عزاً يخضب البيض بالدم
ويوما يغىظ الحاسدين وحالة * أقيم الشقا فيها مقام التنعم
ولم أرج إلا أهل ذاك ومن يرد * مواطر من غير السحاب يظلم
فلو لم تكن في مصر ما سرت نحوها * بقلب المشوق المستهام المتيم
ولا نبحت خيلي كلاب قبائل * كأن بها في الليل حمّلات ديلم

.....

رضيت بما ترضى به لي محبة * وقدت إليك النفس قود مُسَلِّم
ومثلك من كان الوسيط فؤاده * فكلمه عني ولم أتكلم

- مازال سيف الدولة وخولة في الفؤاد يا أبا الطيب !

- مازالا ...! وما الحيلة ؟!

- يبدو أن نفسك قد استراحت من قبل كافور .

- بعض الشيء ... وما زلت أنتظر! ولعلي في حاجة إلى صبر أيوب ..!

في هذه السنة حدث أمر غريب كشف كافور فيه عن وجهه القبيح ... كانت سياسته أن يعزل أنوجور عن السياسة والإدارة في ملكه ويضرب عليه حصارا منيعا وكانت له عيون على أنوجور تُعدّ عليه أنفاسه حتى إن الغلمان كلما رأوا أنوجور يفرون منه قبل أن يكلمهم حتى لا تراه عيون كافور فيتلفهم وكان كافور يتولى هو كل أمور الملك وليس لأنوجور إلا اللقب ... ولكن الصبي الذي تول ملك مصر وهو ابن اربع عشرة سنة عند وفاة أبيه أشرف الآن على السابعة والعشرين ، وأحس أن كافور يغتصب منه الملك ، فأصاخ سمعه لبعض رؤساء الجند وبعض الأصدقاء ، فاجتمعوا به سرا ، فعلم كافور بما حدث ، فاستدعاهم جميعا إليه ، فعلموا أنهم هالكون ، ففروا جميعا إلى أنوجور يحتمون بقصره ، فحماهم من بطش كافور ، الذي كثر عن أنيابه في مواجهة أنوجور وأنذره بتسليمهم إليه وإلا لن تُحمد العاقبة .

شعر أنوجور بهوان شديد إذا انتهى الأمر بتسليم هؤلاء الجنود إليه . ولكن أمه أقنعتهم بتسليمهم إليه قائلة له : إذا خسرت كافور فقد خسرت كل شيء ولن ينفعك هؤلاء . فسلمهم إليه ... فأغرقهم جميعا في النيل على مرأى ومسمع من الجميع ، وكان مشهدا بشعا ... كان تسليمهم شرطا للصلح بين أنوجور وكافور ..يومها ظهر كافور عل حقيقته ... ووجتني أكتب هذه القصيدة :

أنوك من عبد ومن عرسه * من حَكَمَ العبد على نفسه
وإنما يُظهرُ تحكيمه * ليُحَكِّمَ الأفساد في حسّه
ما من يرى أنك في وعده * كمن يرى أنك في حبسه
العبد لا تفضل أخلاقه * عن فرجه المنتن أو ضرسه
لا ينجز الميعاد في يومه * ولا يعي ما قال في أمسه
وإنما تحتال في جذبه * كأنك الملاح في قلسه
فلا تُرَجِّ الخير عند امريء * مرت يدُ النحاس في رأسه

تصالح كافور وأنوجور بعد أن سلم العاندين به ، ولا أعرف كيف كان شعور هذا الرجل الذي يفترض أنه كذلك فضلا عن أنه الملك صاحب الحق الشرعي ...

- لو كنت مكانه ماذا كنت فاعلا ؟

- أنا ...!! كنت أسلم رأسي قبل أن أسلمهم مهما كانت وعود الأسود .

تصالحا ...!! وزادت نفسي اكتئابا ، وبدأ اليأس يتسرب إلي ..!

وزاد الطين بلة الأخبار التي جاءت من بغداد حيث ضربها زلزال عظيم والبلاد التي إلى الشرق منها و مات بسببه الآلاف من البشر ، ثم تبعه ظهور جراد كثيف أكل الأخضر واليابس فدخلت البلاد في أزمة وشدة .

- ماذا بعد أن تصالحا ... ؟

- تصالحا وطلب مني كافور أن أقول شعرا بهذه المناسبة كان علي أن أحايل نفسي وأطوعها لتخرج كلمات لها معنى فخرجت هذه الكلمات في شعبان من هذه السنة (1) :

حسم الصلح ما اشتتهته الأعادي * وأذاعته ألسن الحساد
وأرادته أنفسٌ حال تدبب * رك ما بينها وبين المراد
صار ما أودع المخبئون فيه * من عتاب ، زيادة في الوداد
وكلام الوشاة ليس على الأحبا * ب سلطانه على الأضداد

.....

إنما أنت والد ، والأب القا * طع أحنى من واصل الأولاد
لا عدا الشرُّ من بغى لكما الشرُّ * وخصَّ الفسادُ أهل الفسادِ
أنتما ، ما اتفقتما الجسم والروح * فلا احتجتما إلى العواد

لقد صنعت هذه الحادثة جفوة كبيرة بيني وبين هذا الأسود ، كان كافور قد لمحني بعدما أن قتل من قتلهم وألقاهم في النيل ، فلمح في وجهي الريبة والتوجس ، فما نسي ذلك ، وكان حاد الذكاء .

فاوعز إلى غلمانه وحجابه أن يشيعوا أنه قد ولاني ولاية في الصعيد (2)، يقصد إلهائي عما حدث ، وينسينيه إلى غيره .

ولكني قلت : ما كنت لأثق في أقاويل أحد ، حتى يصبح الأمر أمرا واقعا . فبلغ ذلك كافور ، فإذا به يرسل إلي ستمائة دينار ذهباً !! بأي مناسبة لا أدري .. ولا معنى لذلك إلا أنه

(1) يقول صاحب معجز أحمد أبو العلاء المعري في مقدمة هذه القصيدة (واتصل قوم من الغلمان بالصبي مولى الأسود) - [يقصد بالصبي أنوجور - أنوجور وقت هذه القصيدة سنة 347هـ لم يكن صبيا حينئذ كما يقول أبو العلاء المعري بل شارف السابعة والعشرين لأنه تولى ملك أبيه الإخشيد بعد وفاته مباشرة سنة 334 هـ ولم يكن تجاوز الرابعة عشرة] راجع عبد الوهاب عزام - ذكرى أبي الطيب ص116 ؛ والديوان تحقيق عزام ص461 ؛ ومعجز أحمد ج4 ص 88 ، 90 عن النجوم الزاهرة 292/3

(2) راجع عبد الوهاب عزام ، ذكرى أبي الطيب ص117 ، ومعجز أحمد ج4 ص100)

يريد قصيدة مدح له ...! ياله من جبروت ...!! فكتبت هذه القصيدة التي أدوب فيه شوقاً لأيام
سيف الدولة ، وأصارع كافور بأنه طال الانتظار وحان الوقت ليحقق وعوده التي وعدنيها :

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب * وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب
أما تغلط الأيام في بأن أرى * بغیضا ثنائی أو حبيباً تُقرب
ولله سيري ما أقل تنيّة * عشية شرقيّ الحدالي وغرب
عشية أحفي الناس من جفوته * وأهدى الطريقين التي أتجنب

.....

ألا ليت شعري هل أقول قصيدة * فلا أشتكي فيها ولا أتعجب
وبي ما يزود الشعر عني أقله * ولكن قلبي يابنة القوم قلب
وأخلاق كافور إذا شئت مدحه * وإن لم أشأ ثملي علي وأكتب

.....

أبا المسك هل في الكأس فضل أناله * فإني أعني منذ حين وتشرب ؟
وهبت على مقدار كفي زماننا * ونفسي على مقدار كفيك تطلب
إذا لم تُنط بي ضيعة أو ولاية * فجودك يكسوني وشغلك يسلب
يضاحك في ذا العيد كل حبيبته * حذائي وأبكي من أحب وأندب

.....

وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا * لمن بات في نعمائه يتقلب
وأنت الذي رببت ذا الملك مرضعاً * وليس له أم سواك ولا أب
وكنت له ليث العرين لشبله * وما لك إلا الهندواني مقلب

.....

وأي قبيل يستحق قدره * معدن بن عدنان فداك ويعرب

وما طربي لَمَّا رأيتك بدعة * لقد كنت أرجو أن أراك فأترب⁽¹⁾
وتعزلني فيك القوافي وهمتي * كأني بمدح قبل مدحك مذنب

وبعد هذه القصيدة خلوت بنفسي ، أتأمل أحوالي وما صرت إليه في مصر ، وما كشفت عنه الأحداث من واقع أليم فقد ، سقطت الأقنعة المصطنعة ، وهذا الذي يبدو ناسكا عادلا كريما يمنح عطاياه للفقراء ويسخو على العلماء والزهاد ، هذ النموذج المثال ، تمثال سقطت عنه الأردية فكشفت عن ذنب شرس ، لا يرفع إلا ولا ذمة ، إن هي إلا مصلحته وملكه فقط وبعده الطوفان⁽²⁾

كيف ذلك ؟؟ ، بكل الوسائل ، حرامها وحلالها عنده سواء ... تبا لك يا كافور ... ضاع فيك أمني ...!

في هذه الفترة ، التي تتصارع فيها نفسي وأفكاري ، جاء عيد الأضحى ، فلم تطاوع نفسي أن أهنته به

(1) (قال ابن جني لما قرأت هذا البيت على أبي الطيب قلت له : جعلت الرجل أبا زنة ؟ فضحك . (وأبو زنة كنية القرد) . راجع معجز أحمد ج 4 ص 113 والديوان تحقيق عزام ص 467 عن الواحدي والصريح المنبي ص 117)

(2) راجع مصطفى الشكعة ص 372 وما بعدها ، حيث يتعارض رأيه مع ذلك بل يصل بكافور إلى مصاف الخلفاء الراشدين ...يقول : وإذا ما عرضنا للسلوك الشخصي لكافور وجدناه إنسانا شديد التدين ، كثير الصدقات ، وافر التواضع ، وقلمما توفرت مجتمعة في حاكم من حكام المسلمين باستثناء الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز...ص381 ؛ { بعض الرواة يرون أنه وراء وفاة شبيب مسموما وكذلك وفاة أنوجور مسموما وكذلك علي ابني الإخشيد !
(راجع طه حسين ، مع المتنبي ص 314 ، 315 ، إبراهيم الإبياري ، أبو المسك كافور . ص 129 }

ثم دخلت سنة ثمانٍ وأربعين و ثلاثمائة لله سرٌّ في علاك يا كافور

- يقولون يا أبا الطيب إن الروم قد دخلوا طرسوس والرُّها فقتلوا وسبوا وغنموا ورجعوا الى بلادهم ؟

- لعنهم الله . (1) نعم ينشطون عندما يرون الوهن والتشاحن بين المسلمين هذا دأبهم ...
- وقالوا أيضا في هذه السنة ، قلت الأمطار وغلت الأسعار في بغداد وما حولها ، واستسقى الناس فلم يُسقوا ، وظهر جراد عظيم في آذار ، فأكل مانبت من الخضراوات ، فاشتد الأمر جدا .
- بلاء من الله عظيم ، لأن الناس رضوا بالظلم واستسلموا له ، فها هي ثغور الخلافة تنن تحت ضربات الروم ، ويأتي معز الدولة إلى بغداد يدخلها دخول المنتصرين فقد أجبر ناصر الدولة على الركوع والانصياع لأوامره ، ويتجاهل ما يصنعه الروم بأطراف الخلافة ، ثم لا يكتفي بذلك فيقيم الأفراح والليالي الملاح ويزوج ابنته من ابن أخيه ويقيم ليالي من الأفراح الملكية ، ثم يسيرها إلى قصرها الملكي بالرِّي ، والناس تتضور جوعا في الشوارع ، حسبي الله ونعم الوكيل .

ومرت الأيام عليّ حزينّة كنيبة ما شعرت فيها أن عيدا جاء علينا هنا في مصر ثم مضى ! وما سألني كافور مدحا أوتهنئة به ، وربما تعجب أنني لم أمدحه ، ويبدو أنه تركني لنفسه بعض الوقت . وقد علم أنني لا أجبر على الشعر ، فقد وصلتته من أسباب فراق سيف الدولة أسباباً .
في هذه الأثناء جاءتني أخبار من حلب ، أن قوما أشاعوا عند سيف الدولة وفاتي بمصر ، فأخذوا ينعونني في مجلسه . مزقتني هذا الخبر تمزيقا ، وتحسرت على ما فات من عمري ولم أحقق ما صبوت إليه من آمال ورأيت يوما ينعاني فيه الناعون ...

(1) (راجع أحداث سنة 348 هـ البداية والنهاية بن كثير)

ولكني ها أنا ذا حيٌّ أرزق ومع هذا أنعى في مجلس الأحباب والأصحاب ، ولكنهم
الحساد يتمنون زوالي عن الدنيا ولو بالباطل ، فكتبت هذه القصيدة التي لم أنشدها الأسود وكان
ذلك في ربيع الآخر من هذه السنة (1) :

بما التعلل لا أهل ولا وطن * ولانديم ولا كأس ولا سكنُ
أريد من زمني ذا أن يبلغني * ما ليس يبلغه من نفسه الزمن
لا تلق دهرَكَ إلا غير مكرث * ما دام يصحب فيه روحك البدن
فما يُدِيمُ سرور ما سُررت به * ولا يرد عليك الفاءتَ الحزنُ
مما أضرَّ بأهل العشق أنهم * هووا وما عرفوا الدنيا ولا فطنوا

.....

يا من نعت على بُعدٍ بمجلسه * كلُّ بما زعم الناعون مُرتَهَن
كم قد قُتِلْتُ وكم قد مِتَ عندكم

ثم انتفضت فزال القبر والكفنُ
قد كان شاهد دفني قبل قولهم * جماعة ثم ماتوا قبل من دفنوا
ما كل ما يتمنى المرءُ يدركه * تجري الرياح بما لا تشتهي السفنُ
رأيتكم لا يصونُ العرضَ جارُكم * ولا يدر على مرعاكم اللبنُ
جزاء كل قريب منكم مللٌ * وحظ كل محبٍّ منكم ضغنُ
وتغضبون على من نال رفدكم * حتى يعاقبه التنغيص والمننُ

.....

سهرت بعد رحيلي وحشة لكم * حتى استمرَّ مريري وارعوى الوسنُ
وإن بليت بوذَّ مثل ودَّكم * فإنني بفراق مثله قمينُ(2)
أبلى الأجلة مُهري عند غيركم * وبُذل العذرُ بالفسطاط والرسنُ

(1) (راجع الديوان - تحقيق عزام - مرجع سابق ص 468)

(2) قال ابن جني : حكى أن سيف الدولة عندما سمع هذا البيت قال : سار وحقَّ أبي . راجع ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام -
عبد الوهاب عزام ، مرجع سابق ص 118)

عند الهمام أبي المسك الذي غرقت * في جوده مضرُ الحمراءُ واليمنُ

وإن تأخر عني بعض موعده * فما تأخر آمالي ولا تهن

هو الوفي ولكنني ذكرت له * مودةً فهو يبلوها ويمتحنُ

- ياه يا أبا الطيب حتى بينك وبين نفسك ما زلت تذكر وعود كافور ولديك أمل أن ينجزها ؟!

- لا ليس هذا ... أنت تعلم أن هذه القصيدة ستصل إليهم في حلب ، فمن المهم أن لا يشمتوا فيّ

بعدما ما طلني كافور ، ثم إن هذه القصيدة ستصل كافورا ، إن عاجلا أو آجلا ، فأردت تذكيره

بطريق غير مباشر بوعوده لعله يستجيب .

- ولكنها قاسية جدا على سيف الدولة !

- هو يستحق ، فهو الذي صنع بي هذا ، (وأعطاني لكافور بسوء تدبيره وقلة تمييزه)، واستمعَ

فيّ لأقوال الوشاة والحاquدين ، وقد حذرته فما استجاب ⁽¹⁾. ألم أقل له يوما :

أخا الجود أعط الناس ما أنت مالك * ولا تعطين الناس ما أنا قائلُ

طارت أشعاري إلى حلب ولم أدري متى وصلت إليهم ، ولم أدري ماذا قالوا ... ولكنني على يقين

أن سيف الدولة سوف يسعد أنني حيٌّ أرزق وأن نبأ وفاتي كذبٌ محض . وأظن خولة كذلك أما

من سواهما فلا أظن أن حياتي تسعدهم .

- يقال يا أبا الطيب إن ابن الفرات وزير كافور ذو مكانة عنده ، ويُقدّر رأيه ويحترمه ولو كنت

لجأت إليه أو مدحته لكان هذا بابك للولاية التي تنشدها ... !

- علمتُ هذه المكانة لابن الفرات ، ولكنني لا أستطيع مدحه بدون إذن من كافور الذي دعاني إليه

، ثم إن ابن الفرات ما كان يتوسط في ذلك دون أن أمدحه ...

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أنني لم أكن مقتنع بابن الفرات هذا ولا بما يدعيه من

علم بالأنساب .. وكان هو أيضا لا يراني أستحق المكانة التي أنا فيها ، خاصة أنني لم أخصه

بقصيدة أمدحه فيها وكان الشعراء غيري يفعلون ذلك . فكان شعور الازدراء بيننا متبادل ...

(1) راجع عزام ، ذكرى أبي الطيب ص 97 والصبح المنبي ، ص 99 ، 100

وأظنه كان له دخل في تأخر كافور في وفائه لي بالوعد بالولاية ... كنت أشعر بذلك ،
وما كنت أتحمّل أن أحطم نفسي إلى هذه الدرجة ... كافور دعاني ووعدني ويجب أن يحترم
وعده ... ولست في حاجة إلى أن أوسّط وزيره ابن الفرات أو غيره في شيء ... هكذا تكون
الأمور

- يبدو أنه لاتزال تلك الحالة من الاكتئاب والضجر والتبرم بالأحوال تعتريك !!
- نعم ، وقد مرّت الشهور ولم أقل شعرا في كافور وكان لا يمر شهران إلا وأقول فيه قصيدة ،
ولكنها نفسي تمنعني ولا أملك لها رداً .
ثم قلت بيني وبين نفسي هذه القصيد ولم أذكر فيها كافورا ولم أنشده إياها ، واحتفظت بها
وكانت في جمادى الأولى من هذه السنة (1) :

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا * وعناهم من شأنه ما عانا
وتولوا بغصة كلهم من*ه وإن سرّ بعضهم أحيانا
ربما تحسن الصنيع ليالي*ه ولكن تكدر الإحسانا

.....

ومراد النفوس أصغر من أن * تتعادي فيه وأن تتفانى
غير أن الفتى يلاقي المنايا * كالحاتٍ ولا يلاقي الهوانا
ولو ان الحياة تبقي لحي * لعدنا أضلنا الشجعانا
وإذا لم يكن من الموت بدّ * فمن العجز أن تموت جبانا
كل ما لم يكن من الصعب في الآن*ه فس سهل فيها إذا هو كانا
- يقال يا أبا الطيب إن شبيباً بن جرير العقيلي أراد أن ينقلب على كافور وهو في الأصل نائبه
على عمّان...!(2)

(1) راجع ديوان أبي الطيب ، تحقيق عزام ص (470)

(2) راجع معجز أحمد ص 135 ، 136 ، والديوان بتحقيق عزام ص 471 ، 472 (

- نعم كان شبيب هذا من القرامطة وفي حرب من حروب سيف الدولة ضد القرامطة طلب منه الأمان فأعطاه الأمان وولاه معرة النعمان ، واستمرّ بها مدة طويلة ، ثم سار إلى مصر فولاه كافور عمّان والبلقاء وما بينهما من البر والجبال ، فعلت منزلته وازداد نفوذه واشتدت شوكته وغزا السماوة وما حولها واجتمعت العرب حوله فأعلن عصيانه وخروجه من طاعة كافور ..

وقاد عشرة آلاف مقاتل إلى دمشق ليأخذها ، واصطنع الحيلة حتى اقتحمها وكان يتقدم فرسانه ، فقبل إن امرأة ألقت فوق راسه صخرة قتلتها وقيل بل سقط به فرسه وقيل كان مصابا بالصرع ففضى عليه حينئذ ، وقيل قبل ركوبه شرب سويقا دُس فيه سمٌ فقتله ، وهذا الأرجح ، فسقط من فرسه دون أن يمسه أحد .⁽¹⁾

و بموته فشلت حملته واندحر أصحابه وتفرقوا وأخذت رأسه ، وقد كانت نيتهم تتجه إلى مصر ليأخذوها ..

وقد سعد كافور بذلك سعادة غامرة ، وطلب مني أن أقول في ذلك شعرا ،

- هكذا بعد أن توقفت عن قول الشعر فيه..!!؟

- نعم بعد ما يقرب من ثمانية أشهر ، فقد كان طلبه هذا بعدما جاء الخبر إلينا في الفسطاط في ثاني جمادى الآخرة من هذه السنة 348 هـ 959 م فقلت هذه القصيدة :

عدوك مذموم بكل لسان * ولو كان من أعدائك القمران
ولله سر في علاك وإنما * كلام العدى ضرب من الهزيان
أتلتمس الأعداء بعد الذي رأيت * قيام دليل أو وضوح بيان
رأيت كل من ينوي لك الغدر يُبتلى * بغدر حياة أو بغدر زمان
برغم شبيب فارق السيف كفه * وكانا على العلات يصطحبان

.....

وما كان إلا النار في كل موضع * تثير غبارا في مكان دخان

(1) (راجع طه حسين ، مع المتنبي ص 314 ، 315)

فنال حياة يشتهيها عدوه * وموتا يشهّي الموت كلّ جبان
نفى وقع أطراف الرماح برمحه * ولم يخش وقع النجم والدبران
ولم يدر أن الموت فوق شواته * معار جناح محسن الطيران
وقد قتل الأقران حتى قتلتَه * بأضعف قرن في أذل مكان
أنته المنايا في طريق خفية * على كل سمع حوله وعيان
ولو سلكت طرق السلاح لردّها * بطول يمين واتساع جنان

- ما هذا يا أبا الطيب إنك تمتدح شبيبا وترثيه !! هل يبتلع كافورا مثل هذا ؟!
- كان بطلا ، وكان حريّ به أن يقلب الأوضاع ويعيدها إلى نصابها لولا أن الأقدار عاجلته
.. أرسل له كافور من دس له السم في السويق خفية ..!!
- ليس لديك دليل على ذلك يا أبا الطيب ، هل تظن أن كافورا لا يفهم مما تقول شيئا ؟
- أعلم أنه يفهم وقد رد عليّ حين وصلت لقولي :

وقد قتل الأقران حتى قتلتَه * بأضعف قرن في أذل مكان

فقال : بل بأشد قرن في أعز مكان ⁽¹⁾ ولا أدري لما أثاره هذا الشطر ، رغم أن الضمير في
قتلته راجع للموت في البيت قبله ، هل ظن أنني أقصده ، وهل له يد في قتل شبيب ، فيفخر أنه
قتل بأشد قرن في أعز مكان ،
- يبدو هذا وقد نسي نفسه .
- ألم أقل لك إنه أرسل من دس له السم .
- عندما فُسرّ هذا البيت قالوا : أضعف قرن أي السم ، وأذل مكان أي في غير الحرب والقتال ⁽²⁾
- كنت أعلم أن هذه الأبيات ستثير حفيظته فأثرت ترضيته وأعلنت نقمتي على شبيب الذي أنكر
الجميل الذي منحه إياه كافور وكفر بالنعمة وكان خليق به أن يحمدها ويشكرها له لا أن
يجدها ، فقلت له :

(1) راجع الديوان تحقيق عزام ص 473 ؛ وذكرى أبي الطيب ص 120

(2) راجع تفسير الواحدي ، وهامش معجز أحمد ج 4 ص 130

أتمسك ما أوليته يد عاقل * وتمسك في كفرانه بعنان
ويركب ما أركبته من كرامة * ويركب للعصيان ظهر حصان
ثنى يده الإحسان حتى كأنها * وقد قبضت كانت بغير بنان

.....

قضى الله يا كافور أنك أول * وليس بقاض أن يرى لك ثان
فما لك تختار القسي وإنما * عن السعد يرمي دونك الثقلان

.....

أرد لي جميلا جُدت أو لم تجد به * فإنك ما أحببت في أتاني
لو الفلك الدوار أبغضت سعيه * لعوقه شيء عن الدوران

..

فاتك الرومي بالفسطاط

بعد هذه القصيدة مباشرة تصادف مروري بقصر كافور فلاحظت تحركات غير عادية فأردت أن أستعلم الأخبار ، فقالوا إن أبا شجاع فاتك الرومي قادم إلى الفسطاط للعلاج من مرض ألمّ به ...

كنت أسمع عن فاتك هذا لكن معلوماتي عنه كانت قليلة منها ما ساقه التاجر الذي صحبته من الشام إلى مصر ، لو تذكر ذلك ، لكني هنا عرفت معلومات أكثر .

أبو شجاع فاتك هذا كان روميا أسير في بعض الحروب ورُبِّيَ في فلسطين رباه أحد الأثرياء ، وراه الأخشيد في بعض زياراته للرملة فطلبه من سيده ، لمّا توسم فيه الذكاء والنجابة والفروسية ، فأعطاه سيده للإخشيد مكرها دون مقابل ، وكان يعتز به ، أعطاه له بعد أن حرره نكاية في الإخشيد ، فأخذه حرا في جملة من العبيد ، وكان كريم النفس حراً الطبع بعيد الهمة ، فلما حدث ما حدث بعد وفاة الأخشيد ، لم يشأ الصدام مع الإخشيد وقد كانا صديقين ، وكان كافور يحسب له ألف حساب ...

ترك فاتك الفسطاط وأخذ الفيوم إقطاعا له وترك الجمل بما حمل لكافور ، وكان كافور يخافه ويكرمه فزعا لا رضا .

فلما مرض فاتك واستحكمت العلة فيه جاء إلى الفسطاط بإذن كافور للتداوي من علته ، الغريب أنه أرسل إلي الرسل يريد لقائي وكنت أستأذن كافور لأعود فاتكا في مشفاه ، فكان يُسَوِّف ويماطل وكأنه لا يريد أن يكون بيننا تواصل ، وكثرت رسل فاتك ، بل أرسل إلي ألف دينار ذهباً ، هدية دون سابق معرفة ، ثم أتبعها بهدايا قيمة ، فوجدت أنه ليس من اللائق ألا أرد على هذه الهدايا فاستأذنت كافور أن أزوره في مشفاه وأهديه قصيدة جزاء هذه الهدايا الجليلة التي بعثها إلي ، فأذن لي كافور ، فالتقيته وأنشدته هذه القصيدة وكان ذلك في التاسع من جمادى الآخرة من هذه السنة : ⁽¹⁾

(¹) راجع عزام ذكرى أبي الطيب ص 122 ، 123)

لا خيل عندك تهديها ولا مال * فليسعد النطق إن لم تُسعد الحال
واجز الأمير الذي نُعماه فاجئة * بغير قول ، ونُعمى الناس أقوال

.....

وما شكرت لأن المال فرحني * سيان عندي إكثار وإقلال
لكن رأيت قبيحا أن يجاد لنا * وأننا بقضاء الحق بُخَال
لا يدرك المجد إلا سيد فطن * لما يشق على السادات فعَال

.....

تدري القناة إذا اهتزت براحته * أن الشقي بها خيل وأبطال
كفاتك ودخول الكاف منقصة * كالشمس قُلتُ وما للشمس أمثال
القائد الأسد غزتها براسنه * بمثلها من عداه وهي أشبال
القاتل السيف في جسم القتيل به

وللسيوف كما للناس آجال
تغير عنه على الغارات هيئته * وماله بأقاصي الأرض أهمال
له من الوحش ما اختارت أسنته * عَيْرٌ وهَيْقٌ وَخَنَسَاءٌ وَذِيَالٌ⁽¹⁾
تمسي الضيوف مشهاةً بعقوته * كأن أوقاتهما في الطيب آصال

.....

أبو شجاع أبو الشجعان قاطبة * هول نمته من الهيجاء أهوال
تملَّك الحمد حتى ما لمفتخر * في الحمد حاءٌ ولا ميمٌ ولا دال

كان فاتك بطلا بمعنى الكلمة كريم النفس سخاؤه عجيب يكاد ينفق كل ما في يديه ، وكان
رغم مرضه تبدو عليه سيماء الأبطال دارت بيننا حوارات ونبش كل منا ذكرياته فكان
صافي النفس ليس من طباعة الغل أو الكرب ، بل كان متسامحا لأقصى درجة ، كان نفسا نقية
وزادها المرض نقاءً على نقائها ، لا يقارن إطلاقا بكافور ...

(1) العَيْرُ : حمار الوحش ، الهَيْقُ : ذكر النعام ، الخَنَسَاءُ : بقر الوحش ، الذِيَالُ : الثور الحشي)

كانت لي معه لقاءات بعد ذلك بعيدا عن عيون كافور وصرنا أصدقاء تلاقت جراحنا
ومآسينا ،

صبرني لقاء فاتك بعض الوقت ، لكن حالي عادت كما كانت في جوار كافور . ومازلت صامتا لا
أقول فيه شيئا

ومرت بي الأيام أثقل مما كانت ، لا أقول شعرا ولا أكتبه ، وساعات حالتي ، وأصابتني
الحمى وطرحنتي الفراش وكان ذلك في أوائل ذي الحجة من هذه السنة ، فشكوت حالي شعرا
وشكوت غدر كافور الذي خيب آمالي وقيدني بجواره دون أن يحقق ما وعدني به ، فغدوت
سجين الحمى والبيت وكافور :

ملومكما يَجُلُّ عن الملام * ووقع فعاله فوق الكلام
ذرائي و الفلاة بلا دليل * ووجهي والهجيرُ بلا لثام
فإني أستريح بذِي وهذا * وأتعب بالإناخة والمُقام

.....

ولا أمسي لأهل البخل ضيفا * وليس قرى سوى مخ النعام
ولما صار ودُّ الناس خِبا * جزيت على ابتسامٍ بابتسام
وصرت أشكُّ فيمن أصطفيه * لعلمي أنه بعض الأنام

.....

عجبت لمن له قدَّ وحدٌ * وينبو نبوة القضم الكهام
ومن يجد الطريق إلى المعالي * فلا يذر المطيَّ بلا سنام
ولم أر في عيوب الناس شيئا * كنقص القادرين على التمام
أقمتُ بأرض مصر فلا ورائي * تخبُّ بي الركابُ ولا أمامي
وملني الفراش وكان جنبي * يمل لقاءه في كل عام

قليل عائدي سقم فؤادي * كثير حاسدي صعب مرامي ⁽¹⁾
عليل الجسم ممتنع القيام * شديد السكر من غير المدام
وزائرتي كأن بها حياء * فليس تزور إلا في الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا * فعافتها وباتت في عظامي
يضيق الجلد عن نفسي وعنهما * فتوسعه بأنواع السقام
إذا ما فارقتني غسّلتني * كأنا عاكفان على حرام ⁽²⁾
كأن الصبح يطردها فتجري * مدامعها بأربعة سجام

.....

أبنت الدهر عندي كل بنت * فكيف وصلت أنت من الزحام
جرحت مجرحا لم يبق فيه * مكان للسيوف ولا السهام

.....

يقول لي الطبيب أكلت شيئا * وداؤك في شراك وال طعام
وما في طبه أني جواد * أضرب جسمه طول الجمام
تعود أن يغبر في السرايا * ويدخل من قتام في قتام
فأمسك لا يُطال له فيرعى * ولا هو في العليق ولا اللجام
فإن أمرض فما مرض اصطباري * وإن أحمم فما حمّ اعتزامي
وإن أسلم فما أبقى ولكن * سلمت من الحمام إلى الحمام

⁽¹⁾ كان للمتنبّي صديق بمصر وهو أبو نصر غياث النصراني الكاتب كان يزوره وهو مريض ويقضي له حقوقه فلما تماثل للشفاء غب عنه ، ثقة في صلاحه ولشغل شغله عنه فكتب إليه : وصلتني ، وصلك الله معتلا وقطعتني مُبلا ، فإن رأيت أن لا تحبب العلة إلى ، ولا تكدر الصحة عليّ ، فعلت إن شاء الله . راجع شاكر ص 693 / 4 ترجمة المقرئزي وهذا الخبر ذكر في ترجمة ابن العديم ، نفس المرجع ص 647

⁽²⁾ هذا البيت ساقط من القصيدة في شرح مصطفى سببتي ، ومثبت في معجز أحمد والديوان تحقيق عزام - وشرح البرقوقي وغيره (

وعندما تماثلت للشفاء وخرجت إلى الناس وجدتهم يتناقلون هذه القصيد وقد حفظوها ، وعلمت أنها وصلت إلى كافور فامتعض لها وساءته (1). وعندما لقيته لم يبتسم ويبش في وجهي كما العادة معي فعلت أن ذلك بفعل البيت :

ولما صار ود الناس خبا * جزيت عل ابتسام بابتسام (2)

فلم ألتفت كثيرا لذلك رغم أنه هنأني بالشفاء وشكرته على ذلك ، ولكني لم أقل فيه شعرا واستمر هذا الحال مدة طويلة .

- ألم تكن تذهب إليه يا أبا الطيب ؟

- كان يدعوني لمصاحبته في بعض زياراته وجولاته ، فكنت أذهب ولا أقول شيئا ، إلا إذ دعيت للحديث ، وتعمدت أن أمسك عن قول الشعر في هذه الفترة حتى أشعر كافور أنه أساء إليّ ، حيث لم يحقق وعوده على الرغم من طلبها منه تلميحا وتصريحا
ويبدو أنه قد بيت النية ألا يفي بشيء مما وعد ...!

(1) راجع عزام ، ذكرى أبي الطيب ص 122)

(2) يقول ابن جني : كان كافور يبتسم إليه ويبش إذا لقيه حتى أنشد هذا البيت ، فصار لا يبتسم إليه حتى افترقا . الديوان تحقيق عزام ص 476

ودخلت سنة تسعٍ وأربعين وثلاثمائة الأمَل يتجدد في الولاية

- يقال ياأبا الطيب إن سيف الدولة بن حمدان دخل بلاد الروم في هذه السنة 349 هـ ، فقتل من أهلها خلقا كثيرا ، وفتح حصونا ، وأحرق بلادا كثيرة...هل وصلتكَ هذه الأخبار ؟..
- نعم ... وسبى وغنم ، ولكنه لم يستفد من أخطائه السابقة
- كيف ..؟

- جاءتنا الأخبار بكل تفاصيلها هنا في الفسطاط ففي هذه الغزوة والتي أراد أن يثأر فيها من الروم وما فعلوه بمدن الثغور وميافارقين وسميسطاء وغيرها وفعل ما فعل وسبى وغنم ، وكرراً راجعا ، أخذت عليه الروم الدروب ، ربما للمرة الثالثة أو الرابعة على ما أذكر ، فمنعوه من الرجوع ، ووضعوا السيف في أصحابه ، فما نجا في ثلاثمائة فارس إلا بعد جهد جهيد .
ذَكَرْتُني هذه الغزوة بغزوة (الفنا) والتي نجوت معه ولم يبق معنا أنا وهو من الجيش بأكمله سوى خمسة وكان الجيش ثلاثين ألف مقاتل .
كنت ألاحظ دائما أن سيف الدولة يستبد برأيه ويتعمد أن يخالف مستشاريه ليثبت لهم دائما أنه الأعلم والأذكى وأنه دائما على حق ⁽¹⁾ ، كان خبيرا ولكن ليس في كل مرة تسلم الجرة كما يقولون .

هل تعلم كم تُقدر خسائر سيف الدولة في مثل هذه الغزوة ؟ آلاف الآلاف من الدنانير .
يبدو أنه الآن في ظروف مالية صعبة ، المشكلة أنه يجب عليه أن يستعد في أقرب وقت ممكن ،
وإلا وجد الروم أمام قصره في حلب ... كان الله معه

(1) (يقول صاحب خطط الشام ،محمد كرد علي : قال بن مسكويه في وقعة 349 هـ : وخرج أهل طرسوس من طريق آخر فسلموا ، والسبب في سلامتهم ومُصاب سيف الدولة ؛ أن هذا الرجل كان معجبا ، يحب أن يستبد برأيه ، وألا تتحدث نفسان أنه عمل برأي غيره ، وكان أشار عليه أهل طرسوس بأن يخرج معهم ، لأنهم علموا أن الروم قد ملكوا عليه الدرب الذي يريد الخروج منه وشحنوا الرجال ، فلم يقبل منهم ولجّ ، فأصيب المسلمون بأرواحهم ، وأصيب هو بماله وسواده وغلمانه . (ص 219 خطط الشام ج1)

ساعني ما حدث لسيف الدولة كثيرا ،

طال صمتي مع كافور ... وإذا به بعد ما يقرب من ستة عشر شهرا يسألني ... أين أشعارك يا أبا الطيب؟! أم نسيتني ... !

فاجأني طلبه صراحة بعد هذه المدة قلت في نفسي لعله يريد أن يمهد لشيء ما يخصني به ...
فأليت على نفس أن أكتب فيه وكتبت هذه القصيدة وكانت في شوال من عام 349 هـ 960 م :

منى كن لي أن البياض خضاب * فيخفى بتبييض القرون شباب
ليالي عند البيض فوادي فتنة * وفخر وذاك الفخر عندي عاب
فكيف أذم اليوم ما كنت أشتهي * وأدعو بما أشكوه حين أجاب
جلا اللون عن لون هدى كل مسلك

كما انجاب عن ضوء النهار ضباب

وفي الجسم نفس لا تشيب بشيبه * ولو أن مافي الوجه منه حراب
لها ظفر إن كل ظفر أعده * وناب إذا لم يبق في الفم ناب
يغير مني الدهر ما شاء غيرها * وأبلغ أقص العمر وهي كعاب
وإني لنجم تهدي صحبتي به * إذا حال من دون النجوم سحب
غني عن الأوطان؛ لا يستخفني * إلى بلد سافرت عنه إياب

.....

أعز مكان في الدنى سرج سابح * وخير جليس في الزمان كتاب
وبحر أبو المسك الخضم الذي له * عل كل بحر زخرة وعباب
تجاوز قدر المدح حتى كانه * بأحسن ما يثنى عليه يعاب
وغالبه الأعداء حتى عنو له * كما غلبت بيض السيوف رقاب

.....

أرى لي بقربي منك عيناً قريرة * وإن كان قربا بالبعد يشاب
وهل نفعي أن ترفع الحجب بيننا * ودون الذي أملت منك حجاب

.....

وفي النفس حاجات وفيك فطانة * سكوتي بيان عندها وخطابُ

وما أنا بالباغي على الحب رشوةً * ضعيف هوى يُبغى عليه ثوابُ

وما شئتُ إلا أن أدلَّ عوازلي * على أن رأيي في هواك صوابُ

وأعلمَ قوما خالفوني فشرقوا * وغرَّبتُ أني قد ظفرت وخابوا

أنشدته القصيد في مجلسه على مسمع من الجميع وبدأت على وجهه علامات الارتياح وعلى جلسائه علامات الاستحسان ، ثم انتظرت وانتظرت ... وطال انتظاري فقلت بيني وبين نفسي :

من أية الطُّرق يأتي نحوك الكرم * أين المحاجم ياكافور والجلمُ ⁽¹⁾

⁽¹⁾ يقول ابراهيم الإبياري صاحب كتاب - أبو المسك كافور - دار الفكر العربي 1962 ص 132 ، 133 (... من أجل ذلك لم يُدخل به (أي كافور وهو صبي) إلى القصور ، وإنما سيق إلى ما يوائم من في مثل خلقه فإذا هو ملك لتاجر من تجار الزيت يُسخّره في شئون شتى . وأكبر الظن أن أبا المسك حمل نير المعصرة على كاهله ، وداس الكسب برجليه ، وحمل الأواني على عاتقيه ، وجرَّ العجلات بيديه ، واقترب الأرض ، وتمرغ في الزيت ، وما نشك في أن هذا كله كسبه عطا وكسبه تقديرا ، لا ندري أمن أجل هذا طمع فيه غير صاحبه الزيات ، أم أن صاحبه الزيات استثقل منه خلته ، وضاق بقبحه ففرط فيه ...)

[التعليق : ذُكرني ما استفاض فيه الأستاذ الإبياري صاحب الكتاب في وصف حال كافور عند الزيات ، بقصة ذلك المحامي الذي ، تصيد زبونا من أمام المحكمة وخطف أوراق القضية ودخل للدفاع عن المتهم الفلاح والذي لم يسمع منه كلمة إلا أن جلسة المحكمة الآن ... نظر صاحبنا في الأوراق على عجل والتقط كلمة أن الفلاح متهم بسرقة عجلة . وأنه خباها في حظيرة الماشية ، فوقف أمام القاضي يدحض هذا الاتهام وأن موكله لم يسرق العجلة وأن العجلة تتبعته بمحض إرادتها لأنه كان يحمل برسيما على حماره وكانت العجلة جانعة فتبعته وهي تأكل من هذا البرسيم وهو لا يراها ، حتى دخلت وراءه البيت فاتهموه بسرقتها وهو لم يفعل ذلك فكان رد القاضي على دفاع هذا المحامي الأهوج قائلا : يا أستاذ المتهم سرقة (عجلة) ، وليس (عجلة) !!]

تسألني وما علاقة ذلك بكلام الأستاذ الإبياري ؟! أقول : إن كافور كان صاحبه (زيّانا) وليس (زيّاتا) والفارق كبير ...! والزيان من أدوات الحجام ، ويقال له أيضا الحجام .. ولو نظر الأستاذ الإبياري في أهاجي المتنبي في كافور لعلم ذلك .. يقول له من أية الطُّرق يأتي نحوك الكرم * أين المحاجم ياكافور والجلمُ

والمحاجم جمع مَحْجَمَة ، وهي أداة يُحجم بها الجلد ، والجلمُ أحد شقي المقرض (المقص) ، وهو مايستخدمه المزين فكان صاحب كافور حجاما (زيانا) وليس (زيّانا) ...! أما قول المتنبي في هجانه في قصيدة أخرى

جاز الألي ملكت كفاك قدرهم * فَعَرَّفُوا بِكَ أَنَّ الْكَلْبَ فَوْقَهُمْ
 لَا شَيْءَ أَقْبَحَ مِنْ فَحْلٍ لَهُ ذَكَر * تَقَوْدُهُ أَمَةٌ لَيْسَتْ لَهَا رَحْمُ
 سَادَاتِ كُلِّ أَنْاسٍ مِنْ نَفُوسِهِمْ * وَسَادَةُ الْمُسْلِمِينَ الْأَعْبُدُ الْقَزْمُ
 أَغَايَةُ الدِّينِ أَنْ تُحْفُوا شَوَارِبَكُمْ * يَا أُمَّةَ ضَحَكَتْ مِنْ جَهْلِهَا الْأُمَمُ
 أَلا فِتَى يُوْرِدُ الْهِنْدِي هَامَتَهُ * كَيْمَا تَزُولُ شَكُوكُ النَّاسِ وَالتَّهْمُ
 فَإِنَّهُ حَجَّةٌ يُؤْذِي الْقُلُوبَ بِهَا * مِنْ دِينِهِ الدَّهْرُ وَالتَّعْطِيلُ وَالْقَدَمُ
 مَا أَقْدَرُ اللَّهَ أَنْ يُخْزِي خَلِيقَتَهُ * وَلَا يَصْدُقُ قَوْمًا فِي الَّذِي زَعَمُوا
 وَرَغْمَ مَا قُلْتَ مَا تَزَالُ نِيرَانِي مُشْتَغَلَةٌ تَجَاهَهُ فَكُتِبَتْ :

أَمَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا كَرِيم * تَزُولُ بِهِ عَنِ الْقَلْبِ الْهَمُومُ
 أَمَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مَكَان * يَسِرُ بِأَهْلِهِ الْجَارُ الْمَقِيمُ
 تَشَابَهَتْ الْبُهَائِمُ وَالْعَبْدِيُّ * عَلَيْنَا وَالْمَوَالِي وَالصَّمِيمُ
 وَمَا أَدْرِي أَذَا دَاءٍ حَدِيثُ * أَصَابَ النَّاسَ أَمْ دَاءٌ قَدِيمُ
 حَصَلَتْ بِأَرْضِ مِصْرَ عَلَى عَبِيد * كَأَنَّ الْحَرَّ بَيْنَهُمْ يَتِيمُ
 كَأَنَّ الْأَسْوَدَ اللَّابِي فِيهِمْ * غَرَابَ حَوْلَهُ رُخْمٌ وَبُومُ
 أَخَذَتْ بِمَدْحِهِ فَرَأَيْتُ لَهَا * مَقَالِي لِلْأَحْيَمِ يَا حَلِيمُ
 وَلَمَّا أَنْ هَجَوْتُ رَأَيْتُ عِيًّا * مَقَالِي لِابْنِ آوَى يَا لَنِيمِ
 فَهَلْ مِنْ عَاذَرٍ فِي ذَا وَذَا * فَمَدْفُوعٌ إِلَى السَّقَمِ السَّقِيمُ
 إِذَا أَتَتْ الْإِسَاءَةُ مِنْ وَضِيع * وَلَمْ أَلَمْ الْمَسِيءُ فَمَنْ أَلُومُ ؟

وَيُذَكِّرُنِي تَخْيِيطَ كَعْبِكَ شَقَهُ * وَمَشِيكَ فِي ثَوْبٍ مِنَ الزَّيْتِ عَارِيَا

فتفسيره ان العبيد السود عندما يعرضون في السوق للبيع كانوا يدهنون بالزيت حتى يبدو سوادهم صافيا ، ترويجا لهم حتى يباعوا ..وبالطبع لاعلاقة لذلك بمن اشتراه فيما بعد ..

أنظر شرح ابي العلاء المعري - معجز أحمد ج4 ص 33 ، 34 ، 160 ، والديوان شرح مصطفى سبيتي ج2 ص 265 [

... وممر الشهر وراء الشهر ولا خبر يأتي من ناحيته بشيء ، وعاودتني الكآبة واليأس
وأحزنني ما حدث للحجاج عند عودتهم ، ففي هذه السنة ، رجع حجيج مصر من مكة ، فنزلوا
واديًا ، فجاءهم سيلٌ فأخذهم كلهم فألقاهم في البحر عن آخرهم ، فعمّ الحزن أهل مصر على
ماحدث لزويهم .

وفي أواخر هذه السنة حدث ما توقعته منذ فترة عندما دب خلاف بين أنوجور وكافور ...
توفي أنوجور بن الإخشيد صاحب مصر ، وقام بالأمر بعده أخوه علي . (1)
- قالوا كان أنوجور إذا شرب يهزي بكلام أزعج كافور وخشي على نفسه منه !
- نعم خاصة بعد ما قتل كافور أصحابه أمام عينيهِ وألقاهم في النيل . ففسد له السم في الشراب
فمات .

وبجبروته أخذ البيعة لأخيه (علي) من الناس ومن الخليفة . وماكان عليّ صغيراً حين ولي
الملك مثل أخيه أنوجور ، بل كان ابن ثلاث وعشرين سنة ، ولعله أدرك ما حدث لأخيه (2)
فترك الأمر لكافور إلى حين ، فاستمرت مقاليد الحكم بيديه

(1) يقول ابراهيم الإبياري : (....) ولكننا نعرف أن وصول كافور إلى مصر كان مع وصول كتاب الخليفة المطيع بتولية أنوجور
ولاية مصر والشام ، ونعرف أن أبا المسك كان له الأمر دون أنوجور ، وأن أنوجور حين مات سنة تسع وأربعين وثلاثمائة ،
بعد أن ولي مصر خمسة عشر عاماً أقام أبو المسك مقامه أخاه عليا ، وكان عندها ابن ثلاثة وعشرين عاماً ، وأقر الخليفة
المطيع ما أمضاه كافور . وظل كافور صاحب الأمر أيام عليّ كما كان صاحب الأمر والنهي أيام أنوجور ، ونعرف أن أبا المسك
حين مات علي بن الإخشيد سنة خمس وخمسين وثلاثمائة أعلن نفسه حاكماً على مصر ، وأن الخليفة المطيع ولاه إياها . بعد أن
أقصى عن الحكم ابناً كان لعلي صغيراً ، هو أحمد ابن علي .

راجع كتاب : أبو المسك كافور - ابراهيم الإبياري - القاهرة ط1 ص120 ، 121 دار الفكر العربي - 1962م
(2) ولقد ضاق الفتى (علي بن الإخشيد) بأمره فاتحدر إلى اللهو يلهو، ثم ضاق باللهو ولم يجد فيه سلوته فارتفع إلى العبادة
يتعبد ، ثم أرهقته العبادة فشمر لحقه يطلبه ، فإذا هو قد أفسد ما بينه وبين كفور فساده جديداً ، وإذا بكافور يستعجل به الموت
كما استعجله بأخيه (أنوجور) من قبل وإذا هو يدس له السم كما دسه لأخيه من قبل ، على أن يخرج من الحياة والسلطان معا
سنة خمس وخمسين وثلاثمائة ، بعد أن ولي مصر نحو من ست سنين . (أبو المسك كافور ، الإبياري ، ص 128)

زادت وحشتي في هذا البلد بعدما حدث لأتوجور وما أشيع أنه مات مسموما ... وكنت أداري كافورا ، أزور القصر من حين لآخر وأركب معه وأسير ، ولكن نفسي لم تكن تسمح أن أمدحه بعد ذلك.. فلم أقل فيه شعرا مادحا بعد ذلك ...

ودخلت سنة خمسين وثلاثمائة الهروب الكبير

.... كنت أظهر في القصر وأسير في المواكب ولكني لا أمدح الأسود طوال سنة 350 هـ
و كنت أعيش عيشة المغضوب عليه ؛ الذي أخذت عليه طرق الفرار ...
- أخذت عليك طرق الفرار !!.. كيف ؟
- أقول لك .. في هذه الفترة استأذنت كافور في الذهاب إلى الرملة ، لأقضي مالا كُتِبَ لي به فلم يأذن لي الأسود ، وأقسم عليّ لا أرحل ! وتكلف أن يقضي لي مالي .
قال في كتابه إليّ : لا والله ، أطل الله بقاءك ، لا تُكلفك المسير ولكن تُنفذ رسولا يأتيك به .
ومنذ ذلك الوقت لم أشك في أنني سجين كافور .
لما قرأت الجواب قلت في نفسي :

أتحلف لا تكلفني مسيرا * إلى بلد أحاول فيه مالا

وأنت مكلفي أنبي مكائاً * وأبعد شُقةً وأشدّ حالا

إذا سرنا عن الفسطاط يوما * فلقتي الفوارس والرجالا

لتعلم قدر من فارت مني * وأنت رمت من ضيمي مُحالا

ولم تمضي عليّ لحظة من وقتها إلا وترتيبات الفرار شغلي الشاغل نهاري وليلي، كان عليّ الإفلات من هذا السجن الذي ظن كافور أنه وضعني فيه .

وفي المحرم من هذه السنة جاءتنا أخبار من بغداد منها مرض معز الدولة بن بويه بانحصار البول ، وأنه خشي على نفسه الموت فقلق لذلك ، وجمع بين حاجبه ووزيره المهلبى ، وأصلح بينهما ، ووصاهما بولده (بختيار) خيرا ..

- وقالوا إنه عوفي من ذلك ، فعزم على الرحيل إلى الأهواز ، واعتقد أن ما أصابه من هواء بغداد ومائها فبنى بالأهواز دارا غرم عليها ثلاثة عشر ألف درهم ، فاحتاج لذلك أن يصادر بعض أصحابه وبعض البيوت المجاورة ليدخلها في داره...⁽¹⁾

- كان يحيى لنفسه فقط !!!..

- وجاءنا خبر غريب لأول مرة نسمع بمثله وأثار نوعا من الضيق حتى لدي الخليفة المطيع لله ، خبر قضاء بغداد ، فقد تولى القضاء (أبو عبد الله الحسن بن أبي الشوارب) ، وضمن أن يؤدي في كل سنة إلى معز الدولة مئتي ألف درهم ، فخلع عليه معز الدولة ، وسار ومعه الدباب والبولقات إلى منزله ، وهو أول من ضمن القضاء .

عندما سمع الخليفة المطيع لله بذلك لم يأذن لابن أبي الشوارب في الحضور عنده ولا في حضور الموكب لأجل ذلك .

- كأنه اشترى منصب القضاء من معز الدولة !!!..

- فعلا والأمر لا يعني معز الدولة بقدر ما يعنيه ما يمكن أن يُدرَّ عليه هذا المنصب من ذهب ، مثله مثل أي منصب في الخلافة ، هذا هو حال دار الخلافة يا سيدي ... لكنه يُحمد للمطيع لله أنه أنكر ذلك وإن كان بينه وبين نفسه ، ولم يأذن له في الحضور عنده أو حضور موكبه .

ولعل ذلك أقصى ما يستطيع أن يفعله الخليفة !

- ألا تصلكم أخبار عن سيف الدولة ؟

⁽¹⁾ ويقال إنه أنفق على هذه الدار ألفي ألف دينار ، ومات وهو يبني فيها ، وقد خرب أشياء كثيرة من معالم بغداد في بنائها ، وكان مما خرب فيه المعشوق من (سر من رأى) ، وقلع الأبواب الحديد التي على مدينة المنصور والرصافة وقصرها ، وحولها إلى داره هذه .. ومات قبل أن ينتهي من بنائها . راجع البداية والنهاية لابن كثير أحداث سنة 350 هـ

- بلا وصلنا أن أحد قواده واسمه (نجا) شن حملة على بلاد الروم فقتل وسبى وغنم ، ورجع سالما ⁽¹⁾ مناوشات وحروب لا تنقطع ، كان الله في عون سيف الدولة .

ونحن هنا في مصر بعيدين عن هذه المناطق المشتعلة .. حياة مصر هادئة وادعة ...
والحق إن كافور كان حكيما في سياسة هذه البلاد ويزن الأمور بحكمة مابينه وبين الشرق وما بينه وبين الغرب كان سياسيا على درجة كبيرة من الدهاء ..!

لكن هذا لا ينسيني أني سجيئه هنا في الفسطاط ...!!

كان عزائي الوحيد في هذه الفترة أن صحبت هذا الرجل فاتك أبا شجاع الرومي وكنت أزوره في مشفاه ، وقد ساءني أن أحواله الصحية تزداد سوءا ، ولم يأتي الثاني عشر من شهر شوال من هذه السنة إلا وقد فارق أبو شجاع فاتك الرومي الحياة ⁽²⁾ ، لأفقد بفقده آخر شيء أقدره وأحبه في هذه البلد :

الحزن يقلق والتجمل يردع * والدمع بينهما عصي طيغ
يتنازعان دموع عين مسهد * هذا يجيء بها وهذا يرجع
النوم بعد أبي شجاع نافر * والليل مغي والكواكب ظلغ
إني لأجبن من فراق أحبتي * وتحس نفسي بالحمام فأشجع
ويزيدني غضب الأعادي قسوة * ويلم بي عتب الصديق فأجزع

.....

قبحا لوجهك يا زمان فإنه * وجه له من كل لؤم برقع
أيموت مثل أبي شجاع فاتك * ويعيش حاسده الخصي الأوكع ؟
أيدٍ مقطعة حوالي رأسه * وقفأ يصيح بها الا من يصفع
أبقيت أكذب كاذب أبقيته * وأخذت أصدق من يقول ويسمع
وتركت أنتن ريحة مذمومة * وسلبت أطيّب ريحة تتضوع

⁽¹⁾ راجع البداية النهاية أحداث سنة 350 هـ)

⁽²⁾ راجع ذكرى أبي الطيب ص 134 عن المعري والواحي والديوان تحقيق عزام)

.....

قد كان أسرع فارس في طعنه * فرسا ولكن المنية أسرع

لا قَلَبَت أيدي الفوارس بعده * رمحا ولا حملت جوادا أربع

كرهت هذه البلد التي لا تقدر الناس حق قدرهم ، وليس أدل على ذلك من هذا الخصي كافور الذي يقود هذه الأمة وهي تنقاد إليه انقياد الأغنام ، وترضى به في وقت يتركون أبا شجاع فاتكا البطل الشجاع المقدام الحر ، يتركوه كالمنفى هناك في الفيوم ويرضخون لهذا الخصي الأوكع .⁽¹⁾

- ما معني الأوكع يا أبا الطيب ..؟!

- الأوكع هو الذي تميل إبهام قدمه على سبابتها ميلا شديدا فتبدو قاعدة الإبهام ناتئة كأنها عقدة وتبدو مشوهة المنظر .. وقد كان كافور كذلك ...

- هل كنت تقول فيه ما تقول لو أنه بَلَّغَكَ آمانيك يا أبا الطيب ؟!

- بالطبع لا ... لأنه وقتها يكون صادق الوعد ، يستحق كل تقدير ...

- حتى وهو العبد الخصي الأسود ... قاتل شبيب وأنوجور بالسم ..؟

- ربما جمَّله صدقه في عيني حينئذٍ ...!... وربما التمسست له العذر في قتل شبيب وأنوجور وغيرهم من الخارجين على طاعته ... ما يمسنني في الموضوع هو وعده الذي أخلفه ، وقد استقدمني به ..إلى هنا .

- كالطَّعم تصيدُ به الثعلب

- عموما ، كلامنا هذا تحصيل حاصل ، الواقع الأليم الآن ، أنني لم أعد أتحمل العيش في هذه البلد أكثر من ذلك ، وأخذت أدبر أمري بكل ما أستطيع ، للفرار بجلدي من هذا البلد ...

كنت أفعل ذلك في تخفٍ وتستر دون أن تلاحظ ذلك عيون كافور التي تكاد تسهر أمام بيتي كل ليلة تعد علي أنفاسي .

(1) راجع معجز أحمد شرح أبي العلاء المعري ج 4 ص 227

كان كافور يعلم أنني مللت البقاء ويعلم أنه لم يحقق وعده لي وكان يظن أنني ساكتفي بأعطياته وهداياه ، وكان يدرك تماما أنني إذا أفلتُ من بين يديه فسوف يسمع من أشعاري فيه ما لا ينساه ولا ينساه الزمان ...

كان يثق تماما في عيونه عليّ . ولكنه لا يعلم مدى ذكائي وقدراتي !!

رغم علمه أنني أحد السبعة الناجين من غزوة (الفنا) .

- لعل معرفته بك يا أبا الطيب عن هذا الطريق جعله يتوجس خيفة من فروسيتك وطموحك عندما تتولى ولاية... وثورة شبيب ليست ببعيد !!...
- أصبت في هذا ولعله رجع في وعوده لما رأى مني ما رأى ، وأعتقد أن ابن الفرات وزيره له دور ..

المهم .. لقد رتبت كل شيء ، الدواب والماء والزاد والمتاع ، وطريق الهروب من الفسطاط ...وانتظرت لحظة الرحيل المناسبة . ولم أجد أنسب من ليلة عيد الأضحى . القصر وكافور والحاشية والحرس والغلمان كلّ مشغول في ترتيبات ليلة العيد ويوم العيد ، عيد الأضحى حيث كان لكافور طقوس خاصة ، يرتب الجرائد التي تضم أسماء من لهم أعطيات وهدايا ومنح أميرية من الأستاذ وترتيبات السماط الضخم الذي يعدة لهذه المناسبة السنوية والتي ينفق فيها الآلاف من الدنانير نقدا وكساءا وأطعمة وهدايا لكبار القوم وكبار رجال القصر وكبار الجند والشرطة والقضاة والعلماء وأيضا المتصوفة والفقراء فالكل إما ينتظر العطاء وإما يساهم في الإعداد لهذه المناسبة .

ولا أحد يذكر أبا الطيب وربما لم أخطر على بال أحد يومها وليلتها . وكانت هذه فرصتي وقد أعددت كل شيء فانطلقتانطلقت ليلة العيد أسمع الزغاريد و الطرب و الأفراح بدخول العيد الكبير على الناس هنا في الفسطاط وأنا هارب منها ، وكان عيد الأضحى في هذه السنة 350هـ يوافق أول شباط فبراير سنة 961 ميلادية ومعلوم كيف يكون الطقس والأحوال الجوية في شهر فبراير شباط في مصر وفي الصحراء ، كانت الأحوال جميعها مواتية .⁽¹⁾

(1) راجع مصطفى الشكعة ص434

انتابتنى حالة من الحزن خرجت شعرا أقول فيه :

عيدٌ بأية حالٍ عدتَ يا عيدُ * بما مضى أم لأمر فيك تجديدٌ ؟
أما الأحبة فالبيداءُ دونهم * فليت دونك بيذا دونها بيدُ
لولا العلا لم تجب بي ما أجوب بها * وجناء صرَفَ ولا جرداء قيدودُ
وكان أطيّب من سيفي معانقة * أشباه رونقه الغيد الأماليدُ
لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي * شيئا تُثيّمه عينٌ ولا جيدُ
يا ساقبي ؛ أ خمرٌ في كؤسكما * أم في كؤوسكما همّ وتسهيّدُ ؟
أصخرُ أنا .. ما لي لا تحركني * هذي المدام ولا هذي الأغاريدُ ؟
إذا أردت كُمت اللون صافية * وجدتها وحبیبُ النفس مفقودُ !
ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه * أني بما أنا بأك منه محسودُ
أمسيت أروح مُثر خازنا ويدا * أنا الغنيّ وأموالي المواعيدُ
كانت في حلقي غصة من هذا الأسود الخصي فتذكرت حالي معه :
إنني نزلت بكذابين ضيفهم * عن القرى وعن الترحال محدود
جود الرجال من الأيدي وجودهم * من اللسان ؛ فلا كانوا ولا الجود
ما يقبض الموت نفسا من نفوسهم * إلا وفي يده من ننتها عودُ
من كل رخو وكاء البطن منفتق * لا في الرجال ولا النسوان معدود
أكلما اغتال عبد السوء سيده * أو خانه فله في مصر تمهيدُ
صار الخصي إمام الآبقين بها * فالحر مستعبد والعبد معبودُ
نامت نواطير مصر عن ثعالبها * فقد بشمن وما تفنى العناقيدُ
العبد ليس لحر صالح بأخ * لو أنه في ثياب الحر مولود
لا تشتري العبد إلا والعصا معه * إن العبيد لأنجاس مناكيد
ما كنت أحسبني أحيّا إلى زمن * يسيء بي فيه كلب وهو محمود

.....

جوعان يأكل من زادي ويُسْكِنِي * لكي يقال : عظيم القدر مقصود

.....

من علم الأسود المخصي مكرمة * أقومه البيض أم آباؤه الصيّد

أم أذنه في يد النخاس دامية * أم قدره وهو بالفلسين مردود ؟

أولى اللئام كويفير بمعذرة * في كل لؤم ، وبعض العذر تفنيد

وذاك أن الفحول البيض عاجزة * عن الجميل فكيف الخصية السود ؟

لم يكن ترتيب هروبي من مصر أمرا سهلا بل كان من المشقة بمكان ، ومشقته في الحذر وحسن اختيار من هم أهل الثقة ، وأقصد من أقصدهم ليقدّموا لي المساعدة في الطريق ، خاصة في بداية الرحلة ، لأنها أصعب مرحلة إن مرت بسلام فلا بأس علينا في باقي الرحلة ... انطلقت إلى الصحراء الشرقية من أرض مصر وشدت عزم من معي من العبيد والخدم وطوينا الصحراء طيا في هذه الليلة حتى وصلنا إلى بلبيس في وقت قياسي وكنت قد رتبت بعض الأمور من قبل مع شخص أثق به في هذا البلد وهو عبد العزيز بن يوسف الخزاعي ، عربي أصيل يقدر العربي من أمثاله ، فكان عند حسن اعتقادي فيه ، ورتب كل ما طلبت منه وزيادة..

وانطلقنا من هناك إلى الصحراء بعيدا عن الدروب المعروفة لنأمن الطلب من وراءنا .. لم أنس جميل هذا الرجل فقلت فيه :

جزى عربا أمست بلبيس ربها * بمسعاتها تقرر بذاك عيونها

كراكر من قيس بن عيلان ساهرا * جفون ظباها للعلا وجفونها

وخص بها عبد العزيز بن يوسف * فما هو إلا غيثها ومعينها

فتى زان في عيني أقصى قبيلة * وكم سيد في حلة لا يزينها

وتمكنت من الفرار من الرصد ودخلت صحراء التيه في سيناء ، ولم يعد هنا خوف إلا من قطاع الطرق في ليل الصحاري وكان ذلك أهون الأخطار فأنا أعلم كيف أواجه مثل هؤلاء

وكان معي من العبيد والفتيان ما يكفي لمثل هذه المواجهات ، ثم إنني لم أنسى الفروسية بعد ،
لقد كنت أتقدم الجميع .

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة الكوفة وبكاء الأحباب

وكانت لنا مواقف مع طلائع القبائل التي كانت تعترضنا على حدود قبائلهم وهؤلاء كان
التصرف معهم غير التصرف مع اللصوص ، فكل أسلوبه وكلامه .. ودخلنا قبائل بني سليم
فأكرمونا وذبحوا لنا وكذلك بني معن وسنابس ، أما اللصوص فقد استخدمنا اثنين منهم من بني
جذام كأدلاء على الطريق بمكافئة سخية

ودخلنا بعد ذلك إلى قبائل فزارة ، وكانت بيني وبين أميرهم حسان بن حكمة مودة
وصداقة فأخفانا عند جاره له اسمه وردان ابن ربيعة من طيء

ولكن وردان هذا كان رجلا سيئا أغوى عبيدي ليسرقوا له من متاعي ، لدرجة أن أحد
عبيدي سرق سيفا محلى كان لي ودفعه لآخر ليسلمه وردان وجاء ليأخذ فرسي ويهرب به
ففاجأته عند مربط الفرس فاراد أن يسبقني إليه فشهري سيفه وضرب رسن الفرس فشهرت
سيفي وضربته في وجهه فقتلته ، وقلت في وردان :

إن تك طيئ كانت لئاما ، * فالأمها ربيعة أو بنوه

وإن تك طيئ كانت كراما * فوردان لغيرهم أبوه

مررنا منه في حسمى بعبد * يمج اللؤم منخره وفوه

أشد بعريه عني عبيدي * فأتلفهم ، ومالي أتلفوه

فإن شقيت بأيديهم جيادي * لقد شقيت بمنصلي الوجوه

وبعد هذه الرحلة في الصحاري والتلال بين القبائل والجبال وصلنا إلى الكوفة وهي مقصدي منذ خرجت من مصر أشتاق إليها حقاً ، وأعلم أن الأحوال فيها والناس قد تغيرت لقد مر بي على فراقها أكثر من ربع قرن يوم أن ودعت جدتي للمرة الأخيرة ... ياه ... ما أسرع الأيام تجري بنا إلى نهايتها ولا ندري حتي نقف على حافتها ... الكوفة مسقط رأسي... وروائح الأحباب يرحمهم الله دخلتها في شهر ربيع الأول سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة فقلت :

الأكل ماشية الخيزلي * فدى كل ماشية الهيدبي
وكل نجاة بجاوية * خوف ما بي حسن المشي
ولكنهن حبال الحياة * وكيد العداة وميط الأذى
ضربت بها التيه ضرب القمار * إمال هذا وإمالذا
إذا فرغت قدمتها الجياد * وبيض السيوف وسمر القنا

.....

فلما انخنا ركزنا الرماح * فوق مكارمنا والعلی
فبتنا نقبل أسيافنا * ونمسحها من دماء العدى
لتعلم مصر ومن بالعراق * ومن بالعواصم أني الفتى
وأنی وفیت وأنی أبیت * وأنی عتوت على من عتا

.....

ونام الخويدم عن ليننا * وقد نام قبل عمى لا كرى
وكان على قربنا بيننا * مهامه من جهله والغبى
لقد كنت أحسب قبل الخصي * أن الرءوس مقر النهي
فلما نظرت إلى عقله * رأيت النهي كلها في الخصي
وماذا بمصر من المضحكات * ولكنه ضحك كالبكاء
بها نبطي من أهل السواد * يدرّس أنساب أهل الفلا
وأسود مشفره نصفه * يقال له أنت بدر الدجى

وشِعْرٌ مدحت به الكركدن * بين القريض وبين الرقا
فما كان ذلك مدحا له * ولكنه كان هجو الوري
وقد ضل قوم بأصنامهم * وأما بزق رياح فلا
ومن جهلت نفسه قدره * رأى غيره منه ما لا يرى

انتهينا إلى الكوفة في ربيع أول من سنة 351 هـ وكنا قد خرجنا من الفسطاط في يوم عرفات سنة 350 هـ فكان هذه الرحلة قد اقتضت منا ثلاثة أشهر تقريبا .⁽¹⁾
كانت سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة هي السنة المعروفة بدخول الروم إلى حلب ...
كانت كارثة للأمة الإسلامية ، إن حلب كانت حائط الصدّ الصلب في مواجهة أعداء الأمة المتربصين بها من الرومان .

وها هي سنة السقوط تأتي على حلب بل على الخلافة ومعز الدولة الذي لم يتورع عن إضعاف سيف الدولة وناصر الدولة وها هي النتيجة .. تسقط حلب تحت وطأة ضربات الروم المتكررة ... اتت هذه الأخبار التي فاجأتني مع بدايات إقامتي في الكوفة .. وكان لها تأثير سيء جدا على نفسي .. وقد كنت أظنني أنشد بالكوفة الهدوء النفسي والسكينة ...
ولكنه من أين .. والعالم حولي يمور بالأحداث الجسام ..؟!

(1) يقول الدكتور زكي المحاسني ص 36: وها هو ذا يرى الكوفة بعد ستة عشر عاما [335 - 351] غير عابئ بالشامتين والذين صدوه عن العودة إليها ظلما وحقدا و لا مكتثر لما ينتظره من مكاييد جديدة . وشاء تعاظمه أن يقول وهو ينيخ الركب ويلقى أوجه البلد :

فلما أنخنا ركزنا الرما * ح بين مكارمنا والعللا

[يذكر الرواة أن أبا الطيب عندما عاد إلى العراق يريد لقاء جدته منع من دخول الكوفة قالوا : لم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك) وماتت جدته حينئذ سنة 335 ورثاها بقصيدة مشهورة وعاد أدراجه إلى الشام ولم يذكر أحد أنه تمكن من دخول الكوفة أورويتها حينئذ حيث منع من ذلك ، وعلى هذا يكون قد غاب عنها من سنة 325 إلى 351 هـ أي ستة وعشرين عاما تقريبا وليس ستة عشر عاما كما يذكر الدكتور زكي المحاسني ، راجع محمود شاكر ، المتنبى ص 2/165 ، 3/ 170 ، ومقدمة قصيدة رثائه لجدته بالديوان ، معجز أحمد ، والديوان تحقيق عزام]

علمت أن الدمستق ملك الروم (الأرمن) ، لعنه الله، دخل إلى حلب في مائتي ألف مقاتل ، ورد عليها بغتةً ، فنهض إليه سيف الدولة بن حمدان بمن حضر من أصحابه فقاتله ، فلم يقو به لكثرة جنوده ، وقتل من أصحاب سيف الدولة خلقا كثيرا ، وكان سيف الدولة قليل الصبر ، ففر منهزما في نفر يسير من أصحابه .

وقالوا إن الدمستق استحوذ على دار سيف الدولة بالحلبة ظاهر البلد ، فأخذ منها أموالا عظيمة وحواصل ، وعُددا للحرب لا تُحصى كثرةًوأن المسلمين قاتلوا عن حلب قتالا شديدا ثم غلبت الروم على البلد فقتلوا خلقا كثيرا وانتهبوا الأموال والأولاد والنساء ، وخلصوا أسراهم . وأخذوا نحو من بضعة عشر ألف أسير من الصبيان والبنات والنساء ومن الرجال ألفين وخرّبوا المساجد وأحرقوها وأحرقوا كل شيء لا يقدرّون على حمله .

وكانوا قد دخلوا من قبل عين زربة في المحرم من هذه السنة .. وقتلوا خلقا كثيرا . وكسروا المنبر وهدموا الجامع بها . وقطعوا حول البلد أربعين ألف نخلة ، وهدموا سور البلد . وفتحوا الحصون حولها .. وأسرت الروم أبا فراس الحمداني نائب منبج . ثم ساروا إلى قيسارية وقتلوا أكثر جنودها ، ثم أدركهم صوم النصارى فانشغلوا به ، حتى فرغوا منه ، ثم هجموا على حلب بغتة كما بلغني ...

كل هذا يحدث وأنا في صحراء التيه أبحث عن طريقي ، الشام هنا مشتتة بنيران الحرب وأنا أشعل نارا في الصحراء ليلا أصطلى بها من البرد وأطرد بها الوحوش ...
..... حنانيك يا حلب ،،، يا قبله القصاد ... ماذا فعل بك الأوغاد ...

علمت بعد ذلك أنه بعد فترة قصيرة... استعداد سيف الدولة توازنه ، فأعاد بناء عين زربة ، وبعث قائده (نجا) في حملة إلى بلاد الروم فقتل منهم خلقا كثيرا وسبى جمعا غفيرا ، وغنم وسلم . وبعث حاجبه مع جيش طرسوس ، فدخلوا بلاد الروم ، فغنموا وسبوا ورجعوا سالمين

....

– ماذا عن اقامتك في الكوفة ؟؟

- أقمت في الكوفة تتقاذفني الذكريات أضحك حيناً وأبكي أحياناً ، تتنازعني مرة إلى حلب حيث سيف الدولة وخولة ومرة إلى مصر حيث يقيم كافور الذي خيب أمني... وأذكر فاتكا ..
كان تجربتي الأخيرة تجربة مريرة ، فقد انسقت وراء سراب .. لوح به هذا الكويفير .. وقد صدقتُ وعُودَه ، ولكنني أكتشفت الماذق الذي ألقى فيه نفسي بنفسي ودفعت الثمن :

وأسود أما القلب منه فضيق * نخببُ أما بطنه فرحيبُ
يموت به غيظاً على الدهر أهله * كما مات غيظاً فاتك وشبيب
أعدتُ على مَخْصَاه ثم تركته * يُتَبَّعُ مِنِّي الشمسَ وهي تغيب
إذا ما عَدِمَتَ الأَصْلَ والعقلَ والندى * فما لحياة في جَنَابِكَ طِيبُ

وتذكرت هذا البطل أبا شجاع فاتك الرومي ، وصفاءه ومودته وإنسانيته ورجولته وشهامته وكرمه وهداياه التي ماتزال لدي أنظر إليها فأذكره وأتذكر صفاته المحمودة :

يذكرني فاتك حِلْمُهُ * وشيءٌ من الند فيه اسمه
ولست بناس ولكنني * يجدد لي رَحَةً شَمُهُ
وأي فتى سلبتني المنون ؟ * ولم تدر ما ولدت أمه
ولا ما تضم إلى صدرها * ولو علمت هالها ضمه
بمصر ملوك لهم ما له * ولكنهم ما لهم همه
فأجود من جودهم بخله * وأحمد من حمدهم ذمه
وأشرف من عيشهم موته * وأنفع من وجدهم عُدْمُهُ

- كيف كانت أحوال الكوفة وحياة الناس حينئذ ؟

- كانت أحوال الكوفة تدعو للرثاء ، فبعد غارات القرامطة المتكررة عليها والإهمال الشديد من أولي الأمر في أن ينظروا في أحوالها أو إصلاح أمرها ... لم تقم لها قائمة ، وأصبحت الحياة فيها من الصعوبة بمكان ... أقمت بها بضعة أشهر ثم فكرت في الذهاب إلى عاصمة الخلافة لعل الحال هناك تكون أفضل حالا⁽¹⁾

(1)...يقول محمود شاكر في كتابه المتنبي 15/375

وصلت إلى صديقي علي بن حمزة البصري واستضافني مدة إقامتي في بغداد وكان رجلاً كريماً
يقدر للناس قدرهم وكان من علماء اللغة ومن أصدق من روى ديواني
- وكيف وجدت عاصمة الخلافة يا أبا الطيب ..؟

(لم يرد في خبر أبي الطيب ومدخله الكوفة في شهر ربيع الأول من سنة 351 شيء يمكن أن يتوجه به التاريخ في هذه الفترة إلى وجهة معينة . والذي في رواية الرواة أنه توجه بعدها إلى مدينة السلام (بغداد) ، ولكن من قبل رحلته حدث بالكوفة حدث حضره المتنبى ، وذلك أن رجلاً خارجياً كان قد ثار بالكوفة ، وكان من بني كلاب ، واجتمعت إليه فئة من المقاتلة من الخوارج ، فانتفض إليهم أبو الفوارس دلير بن لشكروز ، وانصرف هذا الخارجي قبل وصول دلير إلى الكوفة ، فمدحه أبو الطيب ، وأشد وهو في الميدان ، فحمله على فرس بمركب ذهب . ولسنا نعرف سبباً لمدح أبي الطيب هذا الرجل (دلير) ، ولم يرد في كتب التاريخ التي بأيدينا ذكر هذا الحادث ، ولا ذكر الخارجي الذي ثار بالكوفة في سنته تلك . وهذا مما يجعلنا نأخذ الحذر في القطع برأي (المتنبى ، محمود شاكر ، ص 15/375)

[التعليق : كلام شاكر مبهم و لتوضيح ذلك ما يلي : يقول صاحب البداية النهاية في أحداث سنة 353 هـ : وفي ذي الحجة منها خرج رجل بالكوفة ، فادعى أنه علوي ، وكان يتبرقع ، فسمي المبرقع ، وبعد صيته ، في غيبة معز الدولة واشتغاله بأمر الموصل وناصر الدولة بن حمدان ، فلما توطدت الأمور وعاد إلى بغداد اختفى المبرقع ، وذهب في البلاد ، فلم يفتح له أمر بعد ذلك.) ولم يذكر صاحب البداية والنهاية أن أحداً خرج بالكوفة منذ أن دخلها أبو الطيب في ربيع أول سنة 351 هـ حتى ذي الحجة 353 هـ التي خرج فيها المبرقع .

ثم يكمل الديوان المشهد في ترتيب زمني ، أن أبا الطيب هجا ضبة بن يزيد العيني في جمادى الآخرة سنة 353 هـ (عزام ، الديوان ، ص 514 ومعجز أحمد ج 4 ص 260 ، 261) ويذكر أيضاً بعد ذلك أنه : نجم خارجي من بني كلاب بظهر الكوفة وخرج أبو الطيب على الصوت من ناحية فطوان فلقية قطعة من الخيل في الظهر فقاتلها ساعة فانكشفت وجرح منها وقتل) وتذكر مقدمة القصيدة أحداث كثيرة مفادها أن أبا الطيب أبلى في هذه الحرب هو وغلماناه بلاءً حسناً ، حتى : وقعت الأخبار إلى بغداد فصار أبو الفوارس دلير بن لشكروز في جماعة من القواد فورد الكوفة بعد رحيل الخارجي عنها { ويبدو أنه علم بمن أبلى في هذه الحرب فأراد أن يكافئه ولا سيما إن كان المتنبى } ، فأنفذ إلى أبي الطيب ساعة نزل ثياباً نفيسة من ديباج رومي ومن خز ... ، فقال يمدحه وأنشده إياها في الميدان وهما على فرسيهما ، وكان تحت دلير فرس جواد أصفر وعليه حلبة ثقيلة مقلدة فقادها إليه ، وذلك كله في ذي الحجة سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة .. ، وفي بعض النسخ واتفق له ورود دلال بن يشكروز إليها لنصرة أهلها من قرمطي خرج في بني كلاب . حاشية الديوان ، عزام ، ص 519) = الشاهد هنا أن الخارجي الذي يشير إليه محمود شاكر هو الذي خرج بالكوفة في أواخر سنة 353 هـ وليس سنة 351 هـ لأنه من المعلوم حسب رواية الرواة أن أبا الطيب بعد بضعة أشهر من دخوله الكوفة خرج إلى بغداد وأقام فيها عند البصري عدة أشهر (راجع عزام ، ذكرى أبي الطيب ص 157، 160) ثم تركها في شعبان سنة 352 هـ عائداً إلى الكوفة وأقام فيها سنة ونصف ، هجا ضبة في جمادى الثانية 353 ، ثم يشترك في حرب الخارجي في ذي الحجة 353 ثم يخرج منها متوجهاً إلى دار السلام للمرة الثانية حيث تأتيه رسالة ابن العميد يدعوه فيها إلى أَرْجَان فيغادر دار السلام (بغداد) إلى أَرْجَان وذلك في المحرم سنة 354 هـ فالذي يقصده شاكر هنا هو الخروج الثاني أو إن شئنا الدقة الخروج الأخير لأبي الطيب وليس الخروج الأول. هذا للإيضاح.

- وجدت عجباً ..! وجدت سباباً وشتائم لمعاوية وأبي بكر وعمر وغيرهم من كبار الصحابة مكتوبة على حوائط المسجد الكبير جامع المنصور وغيره من المساجد الجامعة ، هل تصدق هذا ...!! الأغرب أن يحدث هذا بأمر أميري ، معز الدولة بن بويه هو الذي أمر بذلك ... ماذا يريد معز الدولة هل يريد أن يقتل الشيعة والسنة؟! هل يكون سعيداً بذلك ... ما هذا الهراء ... لصالح من هذا ؟ لا أدري ...!

- وماذا فعل أهل السنة ؟ (1)

- قاموا يحون ما كتبه الشيعة ونشبت المعارك بينهما ... بداية غير مبشرة في بغداد ...

لقد جاءتنا أخبار من قبل عن حدوث موجات من الغلاء وارتفاع شديد في الأسعار بفعل موجات الجراد التي دمرت المحاصيل وقبلها موجات الزلازل التي قتل فيها الآلاف وكان هذا واضحاً على وجوه الناس ... خارجون لتوهم من كوارث ومصائب ... ولكن الحياة لا تنهزم بسهولة ، الأمل في الحياة دائماً ينتصر ما دام في الصدر نفسٌ يدخل ويخرج .. هكذا هي الحياة ..!

هل تعلم أن الجراد الذي هجم على البقية الباقية من المزروعات الصيفية ، كان من الكثرة إلى درجة أن الناس كانوا يجمعونه ويبيعونه في الأسواق ..؟؟!!!

- يأكلون الجراد ..؟!

- نعم يأكلونه ... يتقوتون به من الجوع الشديد ...

(1) معز الدولة بن بويه يأمر سنة 351هـ بلعن معاوية وكبار الصحابة وكتب بعض الشيعة ذلك على حيطان المساجد ، فمحا الكتابة أهل السنة ، شوقي ضيف ، عصر الدول والإمارات ج5 ص266 عن ابن الأثير وأبي الفدا في حوادث عام 351هـ)

ثم دخلت سنة ثنتين وخمسين وثلاثمائة لطم الخدود بأمر أميري (عاشوراء)

مع مطلع هذا العام ، لم يلبث معز الدولة أن أمر أهل بغداد بالاحتفال بيوم (عاشوراء) في سنة 352هـ إحياءاً لذكرى اليوم الذي استشهد فيه الحسين رضى الله عنه ، وقد أصبح منذ هذا التاريخ أكبر عيد للشيعه ، وفيه أمر معز الدولة أن تُغلق الأسواق ويعطل البيع والشراء ولا يذبح القصابون ولا يطبخ الطباخون وأصحاب الحلوى ، والجميع ينوحون ويبكون الحسين وينصبون القباب ويتخذون المسوح وتخرج النساء منشورات الشعور مسودات الوجوه مشقوقات الثياب ويدرن في بغداد نائحات لاطمات الخدود على الحسين (1) وكأنه يريد أن يزيد الناس حزنا على حزنهم وكرهم ومعاناتهم ، فأمر الناس بالحزن ... - ما أغرب أن يكون للحزن احتفالاً بأمر أميري ، حزن بالأمر!

- أرايت هذا ..؟!

تبا لمعز الدولة الحزن في القلوب ، لا نحتاج لنخرج الكآبة من صدورنا على ملامحنا ومشاهدنا ، فنحيل الحياة سوادا على سوادها ... لكن الأمر وجد هوى في النفوس لتتخلص من أدرانها ..!

كانت هذه الأخبار غالب حديث علي بن حمزة البصري وضيوفه عند اللقاء الأول بيننا في بغداد ، ثم بدأ يتوافد عليّ بدار علي بن حمزة البصري كثير من الأدباء ومحبي الشعر من أبناء دار السلام ، وتحول منزل البصري إلى منتدى ثقافي يدور حول الشعر والشعراء وخاصة أشعاري وما قلته بعيدا عن العراق ، وكانت أمسيات ثرية بالفكر والثقافة والأدب والشعر ، كانوا يكتبون عني هذه الأشعار وكنا نتحدث في معاني المفردات الغريبة على أسماع البعض منهم وكنا نذهب كثيرا إلى اللغة والبصري ضليع فيها وابن جني كذلك ... (2)

(1). شوقي ضيف ، عصر الدول والإمارات ج 5 ص 266 عن ابن الأثير وابن تغري بردي في حوادث 352هـ)

(2). (معجز أحمد ج 1 ص 90) عن تاريخ بغداد ومعجم البلدان 202/5)

كانت سعادتي بهذه اللقاءات في ربض حميد حيث منزل البصري غامرة ، ولكنه من الضروري واللائق أن أزور الوزير المهلبى في ندوته التي يعقدها بداره .. ولم أقصد أن أكن أحد أعضاء هذه الندوة وإن كان المهلبى يُسعد هذا ، ولكنى قصدت بهذه الزيارة أن أفعل اللائق حتى لا يؤخذ على شيء من قلة الذوق ...وقد كان له كل أسبوع ندوتان ، إحداها للأدب والشعر ، والثانية للسمر واللهو وهي للخاصة من حاشيته وأصدقائه من رجال الدولة
والحق إن المهلبى رحب بي كما يجب الترحيب وأجلسني في مكان لائق وإلى جواره مباشرة ...
(1)

ولعله كان ينتظر أن أقول فيه قصيدة مدح ... ولكن هذا لم يكن في حُسباني ... ومضت الندوة كما تدور في عاداتها وكان فيها أبو الفرج الأصفهاني ، فقال مما ينشده :
سقى الله أمواها عرفت مكانها * جُراماً وملكوما وبئر فالعمر
فقلت : هي (جُراباً) وليست (جُراماً) فسألني أحدهم أتعرفها ؟ قلت نعم ، وهذه أمكنة قتلتها علما ، وإنما الخطأ وقع من النقلة ... وقصدي من ذلك أن الخطأ ليس خطأ أبي الفرج ، ولكن أبا الفرج أنكر قولي!!
وتعجبت لذلك ، وأكدت أنني علي يقين فأنا أعرف هذه البلاد جيدا ، ولكن أبا الفرج صمم على رأيه في تحدٍ واضح لا مبرر له إلا أن يكذبني أمام الحضور ، قال : هذا البيت أنشده أبو الحسن الأخفش صاحب سيباويه في كتابه ... ذُكِرَ (جُراماً) بالميم . وهذا الصحيح وعليه علماء اللغة .(2)

وكثر الأخذ والرد في هذه الجملة حتى انفض المجلس على ذلك ...
وأكد عليّ المهلبى أن أحضر سهرته في الغد والتي سيحضرها القضاة ورجال الشرطة وهي سهرة إلى الصباح ... فوعده بذلك ... وترددت كثيرا في الذهاب ولكنى ذهبت وبدأت السهرة بمسامرات في الشعر والشعراء . ومال عليّ أبو إسحاق الصابي وكان من بين الحضور قائلا :

(1) راجع عبد الوهاب عزام ذكرى أبي الطيب ص 157

(2) راجع عبد الوهاب عزام ، ذكرى أبي الطيب ص 157 ، 158)

ألم تكتب شعرا تمدح فيه المهلبى (1).. قلت له لم أعود على ذلك أنا لا أقول الشعر ثم أنتظر العطاء ... الملوك يبادرونني بهداياهم ثم ينتظرون مني الأشعار ... وأنا لا أغير عادتي ..فقال : إنه المهلبى .. قلت له : وأنا أقول لك الملوك يبادرونني ...ولا أبادرهم ...!!

وبدأت السهرة تدخل في الخفة والخلاعة والسخف ولم يكن ذلك مما يمتعني خاصة وقد رأيت هؤلاء القوم ممن هم أهل الوقار والهيبة نهرا يخلعون ثوب الوقار ويتحللون من كل وقار إلى كل ما هو هزل... فاستأذنت المهلبى وانصرفت عن قصره وأنا أعترم عدم العودة إليه ثانية ..

واكتفيت في مدة إقامتي عند البصري باللقاءات الشعرية التي تُعقد بالدار ويحضرها القاضي أبو الحسن محمد المحاملي أحد أبناء أسرة المحدثين والفقهاء الشهيرين ببغداد وابن

(1) يقول دكتور المحاسني : وفي بغداد أقام أبو الطيب كدأبه متعازما مُعَرَّضاً بالوزير المهلبى الذي زَيْن للشعراء واللغويين أن يكيدوا لضيف البصري في مطارحاته ومجالسه ، فتألبوا عليه بالهزاء وأعادوا إلى الخواطر تشبث المتنبي بادعاء العلوية فراخوا يلمزون نسبة من جديد ويصمون به بالشح والتقتير . (المحاسني ص 37)

[ملحوظة : (معرضا عنه) وليس (معرضا به) لأنه وهو في بغداد لم يكن يستطيع أن يعرض به في دائرة نفوذه ولم يذكر أحد من الرواة أن المتنبي فعل ذلك لأنه لم يقل فيه شعرا أصلا ، بل على العكس حضر بعض ندواته ولم يمدحه وأعرض بعد ذلك عنه وعن ندوته ، مما دعى المهلبى إلى أن يقلب عليه الشعراء ليهجو . راجع ترجمة المتنبي لابن العديم ، التي وردت بكتاب محمود شاعر ، المتنبي ، ص 639 ، وفي هذه الصفحة ملحوظة : على تعليق شاعر على ترجمة ابن العديم ، الذي يقول : ... وكان أبو محمد اعتقد أن يقطعه { أي المتنبي } بالفعال الجميل والحباء الجزيل عن قصد شيراز ... يعلق شاعر على ذلك ويقول : وهذا الوزير أبو محمد ، هو المهلبى .) والوزير فعلا هو المهلبى لكنه غاب عن شاعر توقيت الموقف . فهذا الموقف حدث قبل جمادى الثانية سنة 352 قبل مغادرة المهلبى بغداد إلى البصر بلا عودة حيث وفاته في نفس السنة ، ويقول ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ ج 7 ص 278 ط 1 / دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان 1987 ، أحداث سنة 352 (في هذه السنة سار الوزير أبو محمد المهلبى وزير معز الدولة في جمادى الآخرة في جيش كثيف إلى عمان ليفتحها ، فلما بلغ البحر اعتل ، واشتدت علته ، فأعيد إلى بغداد ، فمات في الطريق ، في شعبان . وحمل تابوته إلى بغداد فدفن بها ، وقبض معز الدولة أمواله وذخائره ، وكل ما كان له وأخذ أهله وأصحابه ، وحواشيه وحتى ملاحه ومن خدمه يوما واحدا ، فقبض عليهم وحبسهم ، فاستعظم الناس ذلك ذلك واستقبحوه ونظر في الأمور بعده أبو الفضل العباس بن الحسين الشيرازي ، وأبو الفرج محمد بن العباس بن فساجس من غير تسمية لأحدهما بوزارة .

أما قصد المتنبي شيراز وذهابه إليها فكان في صفر سنة 354 فالفارق ما يقرب من عام ونصف . فإقحام قصد المتنبي شيراز هنا تزيُّد من ابن العديم يصطدم بالتسلسل التاريخي. والدليل الفارق الزمني بين الحدثين .]

جني واللغوي أبو القاسم علي بن حمزة البصري صاحب الدار وأبو علي الفارسي (1) وعدد من شباب الشعراء والعلماء ... وعلي بن حمزة البصري لم يكن حد لإعجابه بشعري وحماسته له ، وكان يخف إلى هناك نفر من الشباب كأبي القاسم الحمصي، ومن العلماء محمد المغربي ، وعلي الكومي وخادمي أبو بكر الشعراني

والكل يكتب عني ديواني ونشرحه في جلساتنا المتتابعة ... (2)

ويبدو أن ما قلته وأنا في قصر المهلبى قد وصل إليه وكنت أتوقع ذلك ، فتعمد أن يُقَلِّبَ عليّ الشعراء يهجونني يتناقلون قصائد الهجاء فيّ ، حتى إنه حرّض عليّ ابن الحجاج فعلق بلجام دابتي في صينية الكرخ فالتفّ الناس علينا وهو لا يريد أن يترك الدابة كي أنصرف وأخذ ينشد :

ياشيخ أهل العلم فينا ومن * يلزم أهل العلم توقيره

فصبرت عليه وكظمت غيظي وتركته يقول ما يقول حتى انتهى وترك لجام الدابة فانصرفت إلى البيت ... (3)

وأنا أعرف ابن الحجاج هذا ... شاعر خليع ماجن هجّاء لا أعبأ بأمثاله فلم أعطه الفرصة في التمادي أو النيل مني إذا جاريته فيما يقول فأثرت الصمت ...

كنت أعلم أن وراء هذا وأمثاله ، المهلبى لأنني لم أمدحه .. وما كنت أمدح هذا الرقيع الذي يعيش في بذخ العيش والناس في بغداد وغيرها من الأمصار تتضور جوعا .. ولا يهتم سوى بخزائنه ملأى بالآلاف المؤلفة من الدنانير ... هذا همه ... وما فعله ابن الحجاج فعله ابن سكرة الهاشمي والحاتمي وأسمعوني ما أكره ، والحق إنهم ضايقوني مضايقة شديدة وأثقلوا علي ..

- من أشهر المساجلات التي دارت معك يا أبا الطيب وأنت بربض حميد عند البصري ما ذكروه عما حدث بينك وبين الحاتمي ونقلوه عنه يقول عنك : (4)

(1) راجع مصطفى الشكعة ص 443

(2) (وراجع معجز أحمد ج 1 ص 90) عن تاريخ بغداد ومعجم البلدان 202/5

(3) راجع عبد الوهاب عزام - ذكرى أبي الطيب ، ص 159

(4) راجع الصبح المنبي ص 129 وما بعدها

قصدت مجلسه فوافق مصيري إليه حضور جماعة يقرءون عليه شيئا من شعره ، فحين استؤذن لي نهض من مجلسه ودخل بيتا إلى جانبه ، ونزلت عن بغلتي وهو يراني ، ودخلت إلى مكانه ، فلما خرج إلى نهضت إليه ، فوفيته حق السلام غير مشاح له في ذلك ، وكان سبب قيامه من مجلسه لنلا يقوم لي عند الدخول إليه ، ولبس سبعة أقبية ملونة وكان الوقت أحرا ما يكون من الصيف وأحق بتخفيف اللبس ، فجلس وأعرض عني ساعة لا يعيرني طرفا ، ولا يكلمني حرفا ، فكدت أتميز غيظا ، وأقبلت أسخف رأيي في قصده ، وأعاتب نفسي في التوجه إلى مثله ، وهو مقبل على تكبره ملتفت إلى الجماعة الذين بين يديه ، وكل واحد منهم يومئ إليه ، ويوحي بطرفه ، ويشير إلى مكاني ، يوقظه من سنة جهله ، ويأبى إلا ازورارا ونفارا جريا على شاكلة خلقه .

ثم توجه إلي فوالله ما زادني على قوله : أي شيء خبرك ؟

قلت : ما جنيته على نفسي من قصدك وكلفت قدمي من السعي إلى مثلك .. ثم انحدرت عليه انحدار السيل وقلت : أبني لي عفاك الله ما الذي يوجب ما أنت عليه من العظمة والكبرياء ؟ هل هنا نسب يورثك الفخر ، أو شرفا ثوجت به دون أبناء الدهر ، أو علم أصبت فيه علما يقع الأيماء إليه ، أو مورد تقف الهمم عليه ، وهل أنت إلا وتد بقاع في أشر البقاع ؟ وإني لأسمع جعجة ولا طحن ...

فامتقع لونه ، وجعل يعتذر عن جانيته ، وأقول له يا هذا إذا أتاك شريف في نسبه تجاهلت عليه ، أو عظيم في أدبه صغرت قدره ، أو مقدم عند سلطانه لم تعرف موضعه ، هل العز تراث لك دون غيرك ؟ كلا والله ، ولكنك مددت الكبر سترا وضربته رواقا دون جهلك .. فعاد إلى الاعتذار ...

وأخذت الجماعة في تليين جانبي والرغبة في قبول عذره

ويحلف بالله أنه لم يعرفني فأقول يا هذا ألم يُستأذن عليك باسمي ونسبي ؟ أما كان في هذه الجماعة من يعرفك بي إن كنت جهلتنني ؟ وهب كان ذلك ألم تر تحتي بغلة رائعة يعلوها مركب ثقيل ، وبين يدي عدة غلمان ؟ أما شاهدت لباسي أما شممت نشري أما راعك شيء من

أمري أتميز به عن غيري ؟ وهو خافض جناح الذل ، وقد زال عنه ما كان فيه وأقبل علي وأقبلت عليه

ما كل هذا يا أبا الطيب ..؟

- حدث هذا فعلا وكان للحاتمي معي جولة كبيرة ...فأنا أعرفه وأعرف أنه من رجال المهلبي أقصد من كلاب المهلبي ...وتجاهلته بداية ، لذلك السبب ...

ولكني أعلم أنه عالم كبير من علماء اللغة والأدب وله باع فيهما ...وقد دخل بعد ذلك في مناقضتي ومراجعتي في بعض أشعاري قال أخبرني عن قولك :

إذا كان بعض الناس سيفاً لدولة * ففي الناس بوقات لها وطبول

أهكذا تُمَدِّح الملوك ؟ تَمْدَح سيف الدولة الملك وتقول بعض الناس سيفاً لدولة .!!وتقول :

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع * فإن لحت حاضت في الخدور العواتق

أهكذا يتشبيب بالمحبيب ؟ وعن قولك :

ولا من في جنازتها تجارٌ * يكون وداعها نفض النعال

أهكذا رثاء أم الملك ؟ والله لو قلت هذا في أدنى عبيدها لكان قبيحا .. وعن قولكواستفاض فقلت وأين أنت من قلبي :

كأن الهام في الهيجا عيونٌ * وقد طبعت سيوفك من رقاد

وقد صغت الأسنة من هموم * فما يخطرن إلا في فؤاد

وأين أنت من قلبي في وصف جيش :

في فيلق من حديد لو قذفت به * صرف الزمان لما دارت دوائره

وأين أنت من قلبي أيضا :

لو تعقل الشجر التي قابلتها * مدت محيبة إليك الأغصنا

... وأفضت ثم قلت : أما يكفيك إحساني في هذه وتغفر إساءتي في تلك ؟ قال ما أعرف لك

إحسانا في جميع ما ذكرت ، وإنما أنت سارقٌ مُتَّبِعٌ ، وآخذٌ مقصّرٌ ...وأفاض ...!

لقد أعجبني حقا حسن فهمه وسعة حافظة وطول باعه في النقد ، ولم أشأ أن أتمادى في ميدانه وأنا أعلم من وراءه ، فهادنته وقد استراح بعدما أخرج ما في جُعبته ، وشعر أن تماريه بعد ذلك بغي لا يُحتمل .. فلان جانبه في نهاية المطارحات وأقر لي بالحق في التقدم في صناعتي ، ولم يترك المجلس حتى مدح جميل أشعاري .

ورغب في المغادرة فشيعته إلى باب الدار ..وأنا أعلم أن كل ما دار في هذا المجلس سيصل إلى المهلبى ...!

- ولكننا يا أبا الطيب لم نتعود منك هذا ..! المعروف أنك تكيل الصاع صاعين ...!
- كان المهلبى ينتظر منى سقطة وكنت على حذر من ذلك ثم إنى قد فرغت من إجابتهم بقولي
لمن هم أرفع طبقة منهم في الشعراء :

أرى المتشاعرين غروا بذمي * ومن ذا يحمد الداء العضالا

ومن يك ذا فمٍ مرٍّ مريضٍ * يجد مرّاً به الماء الزلالا

وقولي لمن هم أعظم منهم :

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر * ضعيف يقاويني قصير يطولُ

لساني بنطقي صامت عنه عادل * وقلبي بصمتي ضاحك منه هازلُ

... وأنا مدة إقامتي ببغداد لم أمدح أحدا من علية القوم بها ، لقد مللت المديح وملني ...

سألني أحد كبار تجار بغداد بناءً على طلب أبي إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي وهو من وجهاء القوم ... أن أمدح أبا إسحاق بقصيدتين على أن يعطيني خمسة آلاف درهم ...فقلت له بِلَغَةٍ على لساني : (والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك ، . ولا أوجب عليّ في هذه البلاد أحد من الحق ما أوجبت ، وإن أنا مدحتك تنكر لك الوزير أبو محمد المهلبى وتغير عليك لأنى لم أمدحه ؛ فإن كنت لا تبالي هذه الحال ، فأنا أجيبك إلى ما التمتست ولا أريد منك مالا ولا عن شعري عوضا) فبَلَّغَهُ رَدِّي فافتنع ولم يعاود الطلب .⁽¹⁾

(1) راجع عبد الوهاب عزام ، ذكرى أبي الطيب ص 158 عن ياقوت ج 1 ص 346)

- يقال يا أبا الطيب أن ابن لنكك رغم أنه كان في البصرة إلا أن حقه وصلك ببغداد وقالوا إنه هجاء قائلا: ⁽¹⁾

قولاً لأهل زمان لا خلاق لهم * ضلوا عن الرشيد من جهل بهم وعموا

أعطيت المتنبى فوق منيته * فزوجه برغم أمهاتكم

لكن بغداد جاد الغيث ساكنها * نعالها في قفا السقاء تزدحم

- هل رأيت حقدا أو غلا يصل إلى هذه الدرجة ، ولم يكن بيني وبينه أى خلاف أو مشاحنة ، لم يكن سوى حسده الذي جعله يقتتر سما من فيه ... ماذا أقول هو الهجاء لا حدود له !! :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص * فهي الشهادة لي بأني كامل

انقسم الناس في بغداد بين مناصر لي مدافع عني وهؤلاء هم الصادقون مع أنفسهم وبالطبع فيهم رواد ندوة دار البصري ولأني لم أسء إلى أحد منهم ، إن كنت أسأت إلى أحد فإساءتي لأمثال المهلبى أو معز الدولة في أشعاري السابقة ولعلي شفيت بها غليل الناس الضعفاء في بغداد وغيرها من الأمصار ؛ أما المرتزقة من أمثال ابن لنكك وابن الحجاج والحاتمي فقد كانوا في الجانب المضاد ولا لوم عليهم ولا تثريب فهذه أرزاقهم وهذه حياتهم تحت أقدام المهلبى وأمثاله فماذا تنتظر منهم .

- لم تكن حياتك في بغداد هادئة كما كنت تتوقع ياأبا الطيب ...

- لم أتوقع أن تكون هادئة ولكن أيضا لم أتوقع أن تكون على هذه الدرجة من الغليان ..

علمت بعد ذلك أن المهلبى كان قد أعدّ هدايا قيمة لي وكان ينتظر أن أقول فيه شعرا فلما لم يسمع مني شيئا فرق هذه الهدايا والأموال في الشعراء حوله ، وأوعز إليهم بالخوض في هجائي ..

في شهر جمادى الثانية من هذه السنة 352 هـ غادر المهلبى بغداد في جيش كثيف إلى عمان وقال البعض إلى البصرة ... المهم أنني لم أره بعد ذلك لأنه لم يعد إلى بغداد حتى تركتها أنا في شعبان من هذه السنة ..

⁽¹⁾ راجع الصبح المنبى ص 144 ، 145

- تركت بغداد يا أبا الطيب ؟!

- نعم ما عدت أتحمّل البقاء فيها أكثر من ذلك ، فقد أخذ الناس عني أشعاري وأمليت ما أريد إملأه من مقدمات القصائد ورتبت ديواني وكانت محاورات ومجادلات ابن جني في اللغة من الأهمية بمكان حتى إني قلت له : أتحسب أنني أقول هذا الشعر للملوك والأمراء .. إنما يكفيهم منه البيت !.

فقال : لمن إذا ؟! قلت له : لك ولأمثالك يا ابن جني ...

أحسستُ أن البقاء ببغداد لن يضيف لي شيئاً سوى مزيد من حسد الحساد وحقد الحاقدين وربما يدبر لي كيدٌ بليد ... فآثرت العودة إلى بلدي الكوفةفعدت إليها في أوائل شعبان من هذه السنة .

الحق إنني لم أكن على ما يرام بعودتي هذه ، فقد كنت مهموماً وحزيناً تحسرت على أيام السعادة في جوار سيف الدولة في حلب ولحظات المودة مع أبي شجاع فاتك الرومي في مصر والذي كلما تذكرته ينتابني حزن عميق على فقد هذا الرجل والذي ما أحسست بفقد أحد بعد جدتي كما أحسست بفقده كأنه أخي ، فما كدت أصل الكوفة حتى وجدتني أكتب هذه الرثائية فيه:

حَتَّامَ نحن نساري النجم في الظلم * وما سراه على خُفٍّ ولا قدم
ولا يحس بأجفان يحس بها * فقد الرقاد غريباً بات لم ينم
تسوّد الشمس منا بيض أوجهنا * ولا تسود بيض العذر واللمم
وكان حالهما في الحكم واحدةً * لو احتكنا من الدنيا إلى حكم

.....

لا أبغض العيس لكني وقيت بها * قلبي من الحزن أو جسمي من السقم
طرَدْتُ من مصر أيديها بأرجلها * حتى مرقن بها من جوش والعلم

.....

في غلّة أخطروا أرواحهم ورضوا * بما لقين رضى الأيسار بالزلم

.....

قد بلغوا بقتاهم فوق طاقته * وليس يبلغ ما فيهم من الهمم
في الجاهلية إلا أن أنفسهم * من طيبهن به في الأشهر الحرم
ناشوا الرماح وكانت غير ناطقة * فعلموها صياح الطير في البهم
تَخْذِي الركابُ بنا بيضاً مشافرها * خُضراً فَرَّاسِئُهَا في الرُّعْلِ واليِّمِ
معكومة بسياط القوم نضربها * عن منبت العشب نبغي منبت الكرم
وأين منبته من بعد منبته * أبي شجاع قريع العرب والعجم
لا فاتك آخر في مصر نقصده * ولا له خَلْفٌ في الناس كلهم
من لا تشابهه الأحياء في شيم * أمسى تشابهه الأموات في الرمم
عدمته وكأني سرت أطلبه * فما تزيدني الدنيا على العدم
ما زلت أضحك إبلي كلما نظرت * إلى من اختضبت أخفافها بدم
أسيرها بين أصنام أشاهدها * ولا أشاهد فيها عفة الصنم
حتى رجعت وأقلامي قوائلي * المجد لل سيف ليس المجد للقلم
اكتب بنا أبدا بعد الكتابة به * فإتما نحن للأسياف كالخدم
أسمعتني ودوائي ما أشرت به * فإن غفلتُ فدائي قلة الفهم
من اقتضى بسوى الهندي حاجته * أجاب كلَّ سؤالٍ عن هل بلم
توهم القوم أن العجز قربنا * وفي التقرب ما يدعوا إلى التهم
ولم تزل قلة الإنصاف قاطعة * بين الرجال ولو كانوا ذوي رحم
فلا زيارة إلا أن تزورهم * أيدٍ نشأن مع المصقولة الخُدم
من كل قاطعة بالموت شفرته * ما بين مُنْتَقِمٍ منه ومُنْتَقِمٍ

.....

ولا تشكَّ إلى خلق فتشمتُهُ * شكوى الجريح إلى الغربان والرخم
وكن على حذر للناس تستره * ولا يغرك منهم ثغر مبتسم

غاض الوفاء فما تلقاه في عدة * وأعوز الصدق في الإخبار والقسم

سبحانَ خالقِ نفسي كيف لدُّثها * فيمَا النفوسُ تراهُ غايةَ الألم

لم يمض وقت طويل حتى بلغني خبر وفاة الوزير المهلبى وعلمت أنه بعد خروجه من بغداد متوجها إلى عُمان لم يعد إلى دار الخلافة على قدميه .⁽¹⁾

يرحمه الله ، توهم أن قربي منه في بغداد ضعف مني أو عجز مني الجأني إليه ، أو أنني كغيري من الشعراء يسيل لعابهم قبل أن تصلهم عطاياه ، لم يكن يعرفني جيدا ...

ما كدت أستقر بالكوفة حتى جاءتنا أخبار بأن الأرمن أغارت على الرُّها فقتلوا وأسروا وثارت الروم بملكهم فقتلوه ، وولو غيره ، وعلمنا أيضا بموت الدمستق ملك الأرمن واسمه النقفور ، وهو الذي أخذ حلب . أراحنا الله منه ومن شره ...⁽²⁾

ووعلمنا أن القاضي ابن أبي الشوارب عُزل ، ونقضت سجلاته ، وأبطلت أحكامه مدة أيامه ، وولي القضاء أبو عمر بن أكرم بلا رزق ، رفع عنه ما كان يحمله ابن أبي الشوارب في كل سنة .

وهكذا عادت أمور القضاء إلى نصابها .. القضاء لا يُشترى ... وإلا ضاع الأمان وضاع كل شيء في هذه البلاد!

⁽¹⁾ يقول صاحب البداية والنهاية في أحداث سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة : وفيها توفي الحسن بن محمد بن هارون ، أبو محمد المهلبى ، الوزير لمعز الدولة بن بويه ، (باقي المصادر تذكر وفاته سنة 351 وتقول: ومكث في وزارته ثلاث عشرة سنة ...) يتيمة الدهر 2 / 223 ، والمنتظم 14 / 142 ، ومعجم الأدباء 9 / 118 ، وفيات الأعيان 2 / 124 ، وسير أعلام النبلاء 16 / 197 - 197 / 16 وتاريخ الإسلام - حوادث ووفيات 351-380 ص 70 - عدا المنتظم أنه توفي سنة 352. ولم يذكر وفاته في يتيمة الدهر .

توفي أبو محمد المهلبى في هذه السنة عن أربع وستين سنة .

{ معلوم أن المهلبى الوزير خرج من بغداد إلى البصرة في جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة ، ولم يرجع إلى دار الخلافة فقد مات ، فالمرجح وفاته سنة 352 وليس 351 هـ . وكان أبو الطيب وقتها في بغداد حتى شهر شعبان من هذه السنة 352 هـ (عزام ذكرى ص 157) حيث خرج في شعبان قافلا إلى الكوفة ... وأنا أرجح أن أبا الطيب لم يعلم بوفاة المهلبى إلا بعد أن كتب رثائية فاتك الرومي في شعبان من نفس السنة لأن بها هجوما على المهلبى وتحليلا لموقفه منه ، وكان أبو الطيب في غنى عن ذلك لو علم بموت المهلبى قبل انشائها وكان إنشاؤها في شعبان سنة 352 هـ بعد عودته إلى الكوفة { ⁽²⁾ راجع أحداث سنة 352 هـ البداية والنهاية لابن كثير .

ثم حدثت مفاجئة لم أكن أتوقعها ؛ جاء إلى الكوفة أبو المكارم ابن سيف الدولة (1) يحمل إلى الهدايا الغالية بعثها معه سيف الدولة إلي في الكوفة ومعها دعوة منه إلي حلب!! كانت قد وصلتني منه أكثر من رسالة يصلحني فيها ويبعث بهداياه ويطلب مني العودة إليه (2) وإن كان ذلك منذ عام تقريبا عندما علم بعودتي إلى الكوفة لكنني كنت أعلم أن الظروف في حلب ليست على ما يرام ، والروم قد دمروا قصر سيف الدولة بظاهر حلب ونهبوه وكان ذلك من أصعب الأمور على نفسي .. وها هو سيف الدولة يعاود اتصاله ويرسل ابنه شخصا ، وهذا شرف عظيم لي

كان من الصعب أن أتخذ قرارا سريعا في ذلك وكان علي أن أترث وأنظر في أمري فشكرت أبا المكارم ولد سيف الدولة وحملت رسالة إلى أبيه ضمنتها هذه القصيدة وكانت في شوال من هذه السنة 352هـ 963م :

مالنا كلنا جويا رسول * أنا أهوى وقلبك المتبول
كلما عاد من بعثت إليها * غار مني وخان فيما يقول
أفسدت بيننا الأمانات عينا * ها وخانت قلوبهن العقول
تشتكي ما اشتكيت من ألم الشو * ق إليها والشوق حيث النحول
وإذا خامر الهوى قلب صب * فعليه لكل عين دليل

.....

لا أقمنا على المكان وإن طا * ب ولا يمكن المكان الرحيل
كلما رحبت بنا الروض قلنا * حلب قصدنا وأنت السبيل

(1) أشهر أبناء سيف الدولة أبو المعالي وأبو المكارم وأبو الهيجا الذي مات رضيحا وجاء ذكر أبي الهيجا في قصيد رثاء المتنبي له ، أما أبو المعالي فقد تولى الملك بعد وفاة أبيه ، وجاء ذكر أبو المكارم وأبي المعالي في ترجمة المتنبي لابن العديم الواردة في كتاب محمود شاكر ، المتنبي ، ص 608 برقم 5 والتي تذكرهما وتذكر أن ابن خالويه كان قائما على تأديبهما .
(2) راجع الديوان معجز أحمد ج 4 ص 579 يذكر أبو العلاء المعري في مقدمة هذه القصيدة : وقال يمدح سيف الدولة ، وقد أنفذ إلى أبي الطيب بعد مجيئه من مصر ، وهو بالعراق ، هدية مرة بعد مرة ، ومالا ، ذلك في شوال سنة اثنتين وخمسين وثلاث مئة ، وفي الديوان تحقيق عزام مقدمة القصيدة ص 426 ، 427)

فيك مرعى جياندا والمطايا * وإليها وجيفنا والذميل⁽¹⁾
والمسمون بالأمير كثير * والأمير الذي بها المأمول
الذي زلت عنه شرقا وغربا * ونداه مقابلي ما يزول
ومعي أينما سلكت كائي * كل وجه له بوجهي كفي

.....

تقتص الخيل خيله قنص الود * ش ويستأسر الخميس الرعيل
وإذا الحرب أعرضت زعم الهو * ل لعينه أنه تهويل
وإذا صح فالزمان صحيح * وإذا اعتل فالزمان عليل
وإذا غاب وجهه عن مكان * فبه من ثناه وجه جميل
ليس إلاك يا علي همام * سيفه دون عرضه مسلول
كيف لا تأمن العراق ومصر * سراياك دونها والخيول

.....

أنت طول الحياة للروم غاز * فمتى الوعد أن يكون القفول
وسوى الروم خلف ظهرك روم * فعلى أي جانبك تميل
قعد الناس كلهم عن مساعي * ك وقامت بها القنا والنصول
ما الذي عنده تدار المنايا * كالذي عنده تدار الشمول
لست أرضى بأن تكون جواداً * وزماني بأن أراك بخيل
نعص البعد عنك قرب العطايا * مرتعي مخصب وجسمي هزيل

.....

ما أبالي إذا اتقتك الليالي * من دهنة حبولها والخبول

(1) وجيف الخيل : عدوها ، الذميل من عدو الإبل .

كنت حزينا لما أصاب سيف الدولة وما حدث لحلب في العام الماضي ولكن أبو المكارم طمأنني على الأحوال هناك وأن الجيش أستعاد عافيته وأنهم تمكنوا من الروم في أكثر من غزوة بعد واقعة حلب ، وأن سيف الدولة أرسل قواده على رأس السرايا أكثر من مرة وعادوا منتصرين .

كنت أشعر بأنقباض لا أدري ما سببه وما استرحت لفكرة الذهاب إلى حلب فكان اعتذاري وكانت القصيدة

- وما أخبار بغداد بعدما تركتها يا أبا الطيب ؟
- يبدو أن معز الدولة البويهى شعر بقسوته على الناس بعاشوراء فها هو يقرر عيد فرح وسرور فرضه في الثامن عشر من ذي الحجة سنة 352هـ وهو عيد (الغدير) غدير خم ، والذي يعرف بأن الرسول صلى الله عليه وسلم عهد إلى علي عليه السلام بالخلافة قريبا منه وأنه قال (من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم والي من والاه ، وعاد من عاداه) . وقد أمر معز الدولة أن يستشعر الناس فيه الفرح ومظاهره من اتخاذ الزينة ⁽¹⁾.

- تقول هذا وكأنك لا تهتم على الرغم من كونك شيعيا نشأة وهوى ؟!
- أما النشأة فمعك حق وأما هوى ، فلا أظن أنني أبلغ مثل ما بلغ معز الدولة هذا ... أنا لا أتعصب لشيء ... التعصب انغلاق ... ولست كذلك . ألا تعلم أن سيف الدولة شيعي ، الحمدانيون كلهم شيعة ... وكيف ترى علاقته بمعز الدولة رأس المتعصبين الشيعة ؟! ... بينهما ما صنع الحداد .

يا أخي أصبحت العقيدة ستارا يختبئ وراءه كل مدع وكل أفاق وكل مرتزق ، أما الصادقون فقلة لا يعلمهم إلا الله .. لقد اختلط الحابل بالنابل ... لقد نفضت يدي من هذا كله ...

(1). ((شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، عصر الدول والإمارات ج5 ص266 ، 267 عن ابن الأثير وابن تغري بردي في حوادث 352هـ))

صدّقني قلبي وقد كان منقبضا ، لم يمض هذا العام حتى جاء أسوأ الأخبار قاطبة ، ماتت

الأمير خولة ... ماتت ست الناس !!!..

ماتت الإنسانه التي كانت تعطي للحياة طعما ... ماتت نسمة الهواء العليل في اليوم الصائف

شعرت عند سماع الخبر أن الدنيا أظلمت فجأة ... ولم أصدق ما أسمع ذهبت يمنة ويسرة

كالمفلوج أتأكد صحيح أن خولة ماتت ، أهذا خبر أكيد ، لقد أشاع البعض عني أنني مت ...

فهل هذا الخبر كذلك !!؟

ودخلت سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة رثاء أميرة القلب (ست الناس)

وتأكدت أن الخبر صحيح ... يا الله ماتت .(1).. عَمَّني الحزن عدة أيام ...كأن هموم الدنيا لا ترى غيري تطارده بالكواث والفواجع ، هي ذي أيامي وتلكم أقداري ..ويأتي المحرم من سنة 353 وأنا على حالي هذه وجدتني أقول :

يا أخت خير أخ يا بنت خير أب * كناية بهما عن أشرف النسب

.....

طوى الجزيرة حتى جاءني خبرٌ * فزعت فيه بآمالي إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقه أملا * شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي
تعثرت به في الأفواه ألسنها * والبرد في الطرق والأقلام في الكتب
كان فعلة لم تملأ مواكبها * ديار بكر ولم تخلع ولم تهب
ولم تردَّ حياةً بعد توليةٍ * ولم تغث داعيا بالويل والحرب
أرى العراق طويل الليل مذ نعيت * فكيف ليل فتى الفتيان في حلب
يظن أن فوادي غير ملتهب * وأن دمع جفوني غير منسكب

(1) ذكروا أن ست الناس خولة ماتت في شعبان من سنة 352 .. ويبدو أن الخبر لم يصل أبا الطيب إلا في المحرم من العام التالي 353 وقيل ماتت في جمادى الآخرة 352 وقال الرثاء في شعبان من نفس السنة . فيها خلاف . والذي ذكرناه هو ما نرجحه .وذلك أن ابن سيف الدولة زار المتنبى ودعاه إلى حلب وحمل قصيدة لأبيه وذلك في شوال 352 ولم يأت ذكر خبر وفاة خولة في تلك القصيدة مما يحسم أن خبر الوفاة وصل المتنبى بعد هذا التاريخ ويرجح خروج أبي المكارم من حلب إلى الكوفة قبل وفاتها وهذا ما أرجحه ، وعلى ما نرجح قد يأخذنا الخيال إلى أن خولة مرضت مرضا شديدا أشرفت فيه على الهلاك فطلبت من أخيها سيف الدولة أن ترى المتنبى . وإلا ما تفسير إلحاح سيف الدولة في دعوة المتنبى إلى حلب في هذه الفترة رغم الظروف القاسية التي تمر بها حلب والفالج الذي أصابه هو شخصيا ، وابن عمه أبو فراس في أسر الروم ، وضربات الروم المتكررة والتي لم تهدأ في هذه الفترة ، ويرى البعض (محمود شاكر) أن سيف الدولة كان يعلم بحالة الحب التي نشأت بين ست الناس والمتنبى ، وأنا أيضا أرجح ذلك) هذا خيال يقربه إلى الحقيقة هذه الملابس التي ذكرناها ... راجع الديوان تحقيق عزام مرجع سابق ص422 .

بلى وحرمة من كانت مراعية * لحرمة المجد والفُصَادِ والأدب
ومن مضت غير مروث خلانقها * وإن مضت يدها موروثه النشَبِ

.....

فليت طالعة الشمسين غائبة * وليت غائبة الشمسين لم تغب
وليت عين التي آب النهار بها * فداء عين التي زالت ولم تؤب

.....

ولا ذكرت جميلا من صنائعها * إلا بكيت ولا ودّ بلا سبب
قد كان كل حجابٍ دون رؤيتها * فما قنعت لها يا أرض بالحجب

.....

يا أحسن الصبر زُر أولى القلوب بها * وقل لصاحبه يا أنفع السحب
وأكرم الناس لا مستثنيا أحدا * من الكرام سوى آبائك النُجُبِ

.....

جزاك ربك بالأحزان مغفرة * فحزن كل أخي حزن أخو الغضب
وأنتم نفرٌ تسخو نفوسكم * بما يهين ولا يسخون بالسلب
حللتُم من ملوك الأرض كلهم * محل سمر القنا من سائر القصب
فلا تنلك الليالي ، إن أيديها * إذا ضربين كسرن النبع بالغرب

أرسلت هذه القصيد إلى سيف الدولة مواساةً له في مصابه ... فأنا أعلم مكانتها عنده ،
كانت عظيمة الشأن في حياته ، خاصة بعد وفاة أمه التي أوصته بأخيه خيرا .. ماتت الصغرى
من قبل وهذه هي خولة ست الناس تفارق دنيانا في ميافارقين بديار بكر ، بعيدا عن حلب ..
يرحمها الله ... إنا لله وإنا إليه راجعون .

- كيف كانت أيامك بعدها يا أبا الطيب ؟

- مرت بي الأيام في الكوفة بنوع من الحزن و الملل والرتابة أتردد على الوراقين وأذهب إلى
الجامع الكبير أحضر بعض الدروس في علوم الدين واللغة والأدب

وتأتي الأخبار هذه المرة من بغداد خلاف وصراع بين الرافضة والسنة حول عزاء الحسين وانتهبت الأموال وحدثت قلاقل ومشاكل على نطاق واسع في عاصمة الخلافة ...

هذا ما توقعته .. ماذا كان ينتظر معز الدولة ..! احتقان ثم انفجار وهذه هي النتائج .. دماء وضحايا .. ومع غياب السلطة ينتشر السلب والنهب وينشط اللصوص ... ومعز الدولة مشغول بأمور أخرى غير الأمن في بغداد ...!

ثم تأتي أخبار مزعجة من حلب عصى (نجا) غلام سيف الدولة عليه ، فقد صادر أموال أهل حران وهي كثيرة فتمرد بها وذهب إلى أذربيجان ودخل حربا ضد أبي الورد وقتل وأخذ أموالا كثيرة وقويت شوكته ، .. وسار إلي سيف الدولة وظن أنه لقمة سائغة ... لقد تعجبت جدا من هذا الخبر منذ أشهر قليلة قاد هذا الفارس جيشا إلى بلاد الروم وانتصر وغنم ثم عاد .. هل أصابه الغرور ...؟ ربما ، وهذه هي النتيجة .. أخذ سيف الدولة وأمر بقتله ، فقتل بين يديه ، وألقيت جيفته في الأقدار

- يقولون يا أبا الطيب إن الروم كثفوا هجماتهم على الشام خاصة ديار الحمدانيين فقد جاء الدمستق إلى المصيصة في جيش كثيف ، فحاصرها ونقب سورها فدافعه أهلها ، فأحرق رستاقها وقتل ممن حولها خمسة عشر ألف إنسان ، وعاثوا فسادا في بلاد أذنة وطرسوس ، وكروا راجعين إلى بلادهم

- هذا هو المتوقع أن يحدث من الروم ... ماذا تنتظر وقد ظهر لهم هذا الضعف والوهن بعد الضربات المتلاحقة منهم من ناحية ومن معز الدولة من ناحية أخرى ... تجرؤا على بلاد الإسلام .

ألا تعلم ماذا فعل معز الدولة في هذه السنة ؟!

- ماذا فعل ؟

- قصد الموصل وجزيرة ابن عمر فأخذها من يد ناصر الدولة ابن حمدان ، ثم سار في طلب ناصر الدولة ، فكر ناصر الدولة في جيش قد هياه ، فاسترجع الملك من يد معز الدولة ، فأخذ الموصل ، وأقام بها ، فراسله في الصلح فاصطلحا ... على أن يحمل الخراج كل عام وأن يكون

(أبو تغلب) بن ناصر الدولة وليّ عهد أبيه من بعده ، فأجاب معز الدولة على ذلك ، وكرّر راجعا إلى بغداد

هل هذا صراع من أجل الصالح العام للخلافة والمفترض أن يكون كذلك ... !!؟
إنه صراع مصالح كلّ يرتب لنفسه وبنيه .. ويظن أنه مخلص وبئس ما يظن ... لو دامت لغيره ما وصلت إليه ..!

ثم يعاود الروم غزوهم وقد استمرعوا اللعبة وأصبحت النتائج مضمونه .. وإن ربك لبالمرصاد ... أنظر ، قصد ملك الروم ، وفي صحبته الدمستق ملك الأرمن بلاد طرسوس فحاصروها فأخذ الوباء فيهم فكروا راجعين وقد مات منهم الكثير ...

- يقال يا أبا الطيب إن القرامطة نشطوا في هذه السنة مرة أخرى وتجاوزوا الحدود فقد قصدوا مدينة طبرية ليأخذوها من يد الإخشيد صاحب مصر والشام ، وطلبوا من سيف الدولة أن يمدّهم بحديد يتخذون منه سلاحا ، الغريب أن يستجيب لهم سيف الدولة ويساعدهم وقد كانت بينهم حروب ...

- لكنه مادام ذلك ضد الإخشيديين الأعداء فلا بأس ... أعتقد أنه قال ذلك في نفسه ... فقلع لهم أبواب الرقة - وكانت من حديد حتى أخذ أواقي الباعة ، وأرسل بذلك كله إليهم حتى قالوا : اكتفينا . هاهي إمارات الدولة العباسية تتناحر ويساعد البعض أعداءها على البعض ..!

- ألا يعلمون أن المعبد إذا انهدم سوف ينهدم على رؤسهم جميعا ... عجباً !!!
- مرت الأيام بي في الكوفة وذهبت إلى بعض أصدقاء لي بالطّف ، وتصادف ذهابي إليهم ركوبهم إلى ضبة بن يزيد العيني ، وكان من أنصار الخارجي الذي نجم في بني كلاب والتفّ كثير منهم حوله يناصرونه وكان ضبة من أنصاره وقد بدأ أذاه يطول أشراف الكوفة ، فخرجوا إليه ، فقد نالهم منه أذى كثير .. فقاموا إليه ليؤدّبونه على سوء صنائعه بهم ، فلما علم هذا العبد بقدومهم وعلم نواياهم ، دخل إلى الحصن وامتنع به

فحاصروه أياما ، ولم يكن له سلاح إلا أن يشتمهم بأقبح الشتائم وكان يسمى كل واحد منهم باسمه وطالني بشتائمه وسماني فغازني وأراد القوم أن يجيبوه بمثل ألفاظه ، وسألوني ذلك فسببته بشعر من جنس ما يقوله ويفهمه .

- قد كان تصرّحا لاتلميحا يا أبا الطيب ، تقول :

ما أنصف القوم ضبة * وأمه الطرطبة

.....

وما عليك من القت * ل إنما هي ضربة
وما عليك من الغد * ر إنما هي سبة
وما عليك من العا * ر أن أمك قحبة
وما يشقُّ على الكل * ب أن يكون ابن كلبة
ما ضرها من أتاها * وإنما ضرَّ صلبه

.....

هذا قليل من كثير ، ما هذا يا أبا الطيب ؟! هل تصل بهجائك إلى هذه الدرجة ؟
- الهجاء هو الهجاء ثم إنه لم يكن ليفهم إلا بهذا المستوى من الشتائم ، فهو نفسه كان يشتمنا فاقدع من ذلك ، ولكن هذ قدرُ الشعر ...
وما ندمت على شعر قلته مثل ندمي أن قلت هذا الهجاء ، وتمنيت لو لم أضطر إلى هذا ... لكنه هذا ما حدث .

- يذكرون يا أبا الطيب أنه من أحداث هذه السنة وبالتحديد في ذي الحجة خرج رجل بالكوفة ، فادعى أنه علوي ، وكان يتبرقع ، فسمي المبرقع ، وبعد صيته ، في غيبة معز الدولة واشتغاله بأمر الموصل وناصر الدولة بن حمدان ، فلما توطدت الأمور وعاد إلى بغداد اختفى المبرقع ، وذهب في البلاد ، فلم يفتح له أمر بعد ذلك.

- نعم هو صاحب ضبة فلم تمض أشهر على ما حدث بيننا وبين ضبة حتي بدأ المبرقع الخارجي يدفع أعوانه لمهاجمة الكوفة على عادة القرامطة وأخذوا ينتهبون البيوت ويسرقون الأموال جهارا نهارا وبدأ هجومهم الصريح في شهر ذي الحجة من هذه السنة ...

وكان علي أن أتصدى مع أهلي من الكوفيين لهذه الحملات القرمطية ؛ الغريب أن كثيرا من الفقراء والمعدميين انضموا إلى المبرقع واشتركوا معه في الهجوم على الكوفة ، أصيب في هذه الحروب أحد غلماني وقتل فرس من خيلي أصيب في لبتة بسهم فسقط ولكننا جالدناهم مجالدة شديدة ورددناهم مدحورين عن الكوفة . تواكب ذلك مع قدوم أبي الفوارس دلير بن لشكروز من قبل الخليفة ليرد هذا الخارجي عن الكوفة ووصل إلى الميدان وأخبره الناس بما بلوناه في هذه الحرب ..

وعلم أني ساهمت في هذا النصر أنا وغلماني وفرساني وأنا بلونا بلاءً حسنا فيها ، فشكر لي ومنحني عطايا نفيسة من ثياب من ديباج وخز وكان يركب جواد أصفر أصيل بمركب ثقيل مذهب ، فنزل عنه وساقه إليّ ، فأحسست أنه يقدرني تقديرا خاصا وأن كرمه تجاوز الحد فقلت في مديحه وقد ركب كل منا فرسه وأنشدته إياها في الميدان :

كدعواك كلٌ يدَّعي صحة العقل * ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهل

لهتّك أولى عاذل بلامّة * وأحوج ممن تعذلين إلى العذل

تقولين ما في الناس مثلك عاشق * جدي مثل من أحببته تجدي مثلي

.....

تريدين لقيان المعالي رخيصة * ولا بد دون الشهد من إبر النحل

.....

شفى كل شاك سيفه ونواله * من الداء حتى الثاكلات من الثكل

عفيف تروق الشمس صورة وجهه * فلو نزلت شوقا لحاد إلى الظل

شجاع كأن الحرب عاشقة له * إذا زارها فدّته بالخيل والرجل

وريان لاتصدى إلى الخمر نفسه * وصديان لا تروى يداه من البذل

فتمليك دليـر وتعظيم قدره * شهيد بوحدانية الله والعدل

وقد ذكّرني الموقف بقصيدي في العيد التي أنشدتها سيف الدولة في ميدان حلب ... أيام ...

- لعل ما حدث بالكوفة يقربك أكثر من معز الدولة ومن الخليفة .

- لست حريصا على القرب من معز الدولة ، ثم إنني ذكرتهم في قصائدي بما يكرهون ، ولا شك

وصلهم ماقلته فيهم . فلن تصفو نفوسهم ، من ناحيتي ، ولست أسعى إلى إصفائها ، فأنا في

غنى عنهم جميعا ، ولعلمهم يخشونني أكثر مما أخشاهم ، فهم يعلمون كيف هجائي !!

ما كادت حرب الخارجي المبرقع تضع أوزارها ، حتى وصل إليّ رسول من قبل سيف

الدولة محملا بالهدايا ومعه رسالة منه بخطه يشكرني عل رثائي خولة ويؤمني ويدعوني إلى

حلب وكان ذلك أواخر ذي الحجة من هذه السنة .

وكنـت أعلم أن دعوته وإلحاحه فيها هي دعوة للصديق قبل الشاعر وكان يعلم أن جرحي منه

كصديق كان جرحا غائرا فعلا ولم يندمل بعد ... رغم مرور السنين .

فضلا عما بلغني من الأحوال السيئة التي تمر بها حلب وتكالب الروم عليها ، وأحوال سيف

الدولة الصحية السيئة ، فقد أصابه الفالج ، ثم خولة التي فارقت دنيانا وتركت ألما في مهجتي

أعمق غورا من جرح سيف الدولة ، ولم أكن أريد أن أجدد أحزاني بالذهاب إلى حلب ثم إن

ذهابي لن يضيف جديدا ولن يفده شيئا ، ثم لاتنس أني عرّضت به في بعض أشعاري في كافور

فكنت في خجل من لقائه ، فكتبت إليه قائلا :

فهمت الكتاب أبر الكتب * فسمعا لأمر أمير العرب

وطوعا له وابتهاجا به * وإن قصّر الفعل عما يجب

.....

وما عاقني غير خوف الوشاة * وإن الوشايات طرق الكذب

وتكثير قوم وتقليلهم * وتقريبهم بيننا والخب

وقد كان ينصرهم سمعه * وينصرني قلبه والحسب

.....

أرى المسلمين مع المشركين * من إماما لعجز وإماما رهبا
وأنت مع الله في جانب * قليل الرقاد كثير التعب
كانك وحدك وحدته * ودان البرية بآبن وأب
فليت سيوفك في حاسد * إذا ما ظهرت عليهم كئيب
وليت شكاتك في جسمه * وليتك تجزي ببغض وحُب
فلو كنت تجزي به نلت منك * أضعف حظ بأقوى سبب

ودخلت سنة أربع وخمسين وثلاثمائة دعوة لزيارة حنة ابن العميد

لم ينته هذا العام حتى وجدت أنه من الممكن أن تكون الإقامة في بغداد أكثر ملاءمة الآن ،
خاصة بعد وفاة المهلبى وانفراط عقد حاشيته بوفاته فرأيت أن أعود إليها ثانية ... وكان ذلك مع
مطلع عام 354 ونزلت على أبي الحسن علي بن حمزة البصري العروضي بربض حميد وعادت
أمساتنا الشعرية والأدبية الفكرية واللغوية من جديد (1)

في أمسية من هذه الأمسيات دخل علينا هرون بن المنجم وجلس وتطرق الحديث إلى وصف
الحروب والخيال ، فقال هرون : أقول كما قال الشاعر :

أخاف عليك من سيف ورمح * طويل العمر بينهما قصير

فأعجب الحضور بما جاء به من الشعر فأطرقت ثم قلت على البديهة أجيزه :

فإن أغمدت ذا وكسرت هذا * فإن كثير ما أبقي يسير

(1) راجع محمود شاكر ، المتنبي ، يقول شاكر : إلى أن بدأت سنة 354 هـ فارتحل إلى بغداد وكان الوزير المهلبى قد مات . (شاكر ص 377 / 15) ص 602 عن ترجمة الربيعي حيث يذكر دخول المتنبي بغداد دخوله الثاني .

فصق الحضور إعجابا على سرعة البديهة وحسن المعنى ومناسبته وأفاضوا في ذلك...⁽¹⁾
ومع استقراره في بغداد وشيوع أخبار إقامتي بها وندوات ربض حميد.... لم يمض الشهر حتى
جاءني رسول من (أرجان) من ابن العميد وزير ركن الدولة بن بويه يدعوني فيها لزيارته
بأرجان ..⁽²⁾

⁽¹⁾ راجع محمود شاكر ص 602

⁽²⁾ (شوقي ضيف - تاريخ الأدب العربي ج 5 ص 350 - دار المعارف)

يقول الدكتور المحاسني : وقد شاء أبو الطيب أن يخرج من بغداد إلى بلاد فارس مصطحبا صديقه ورواية شعره (عليا بن حمزة البصري) فعلم بخبره أبو الفضل بن العميد وزير عضد الدولة الحسن بن بويه الديلمي مراغما للوزير المهلبى وأرسل ابن العميد يدعوه لزيارته بأرجان في طريقه إلى فارس وكان هذا الوزير كاتباً أدبياً طمع في لقاء أبي الطيب ومودته ، فلما وصل إلى أرجان رآها حقيره متواضعة فأرسل إلى ابن العميد يعلمه بوصله ، وكان أبو الفضل تواقاً إليه ، فخرج بموكب لاستقباله وكان ذلك عام 354 هـ ولما رأى أبو الطيب هذه الحفاوة فاضت قريحته تمذحاً بالمحتفي وتعبيراً عما يخالجه من جوى واعتزاز بنفسه فقال الرائية التي أولها :

بادِ هواك صبرت أم لم تصبر * وبكاك إن لم يجردمك أو جرى

(المحاسني مرجع سابق 39)

[التعليق : هذا الكلام غير دقيق من عدة نواح : أولها : كيف يراغم المهلبى و المهلبى قد مات قبل ذلك في سنة 352 هـ ، ثم إنه لم يخرج من بغداد إلى بلاد فارس إلا تلبية لطلب ابن العميد . وإن كان يفهم من رواية الصباح المنبى (ص 146) أن ابن العميد لم يرسل إليه يدعوه وفي بعض نسخ الديوان أنه أرسل إليه يدعوه (راجع الديوان تحقيق عزام ص 537 الهامش ، نسخة ابن جني) وفي نسخة تاج الدين بدار الكتب يقول : ثم خرج أبو الطيب من الكوفة إلى العراق [لعله يريد بغداد] فراسله ابن العميد أبو الفضل محمد بن الحسين وزير ركن الدولة من أرجان فسار إليه) والكلام هنا غير دقيق والذي عليه معظم الرواة أن ابن العميد دعاة إلى أرجان فخرج من بغداد وكان قد دخلها دخوله الثاني مع مطلع سنة 354 هـ . فعلم ابن العميد بخروج أبي الطيب إلى بلاد فارس أو العراق كما تذكر نسخة تاج الدين ثم مراسلته للزيارة لا معنى له في إطار ما يذكره الرواة . (راجع طه حسين ، مع المتنبي ص 358 ، 359 وترجمة الربيعي ، محمود شاكر ، مرجع سابق ص 602 والتي تشير لدخول المتنبي بغداد دخولا ثانيا ، ونرى أنه بعد حرب الخارجي في الكوفة التي اشترك فيها المتنبي وكانت في ذي الحجة سنة 353 هـ فالمرجح كان هذا الدخول الثاني في المحرم من سنة 354 هـ)

ثانيا : لم يخرج ابن العميد بنفسه وإنما أرسل حاجبه ، الذي جمّع كل من لقيه في طريقه كأمر ابن العميد فاستقبل أبا الطيب بوفد كبير ، حيث كان شديد الاهتمام ببلقائه . (راجع عبد الوهاب عزام ، ذكرى أبي الطيب ص 167) ويقول شوقي ضيف : ويكاتبه ابن العميد سنة 353 هـ متوددا إليه آملا في زيارته ويقدم عليه في أرجان سنة 354 هـ . (شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ج 5 ص 350 ...

.. وقد كانت دعوة لم أتوقعها ، فهو وزير ذو مكانة رفيعة في دولة البويهيين فضلا عن ما يشاع عنه من أنه رجل فكر وأدب وبلاغة رفيع المستوى وكان يكرم الشعراء والعلماء ويقربهم ، ويجود عل المبرزين منهم ، وكان كاتباً من الطراز الأول ، ويطلقون عليه الجاحظ الثاني ...

كانت دعوة من الصعب ردها ، وقد كان مهذباً في دعوته ، وهذا في حد ذاته شرف لي ، إنه أصلاً لم يكن يسمح لأحد بالدخول عليه ، إلا بشق الأنفس فقد كان ذا مكانة رفيعة في الدولة .

حزمت متاعي وأخذت ولدي محسداً وأهلي ومن في خدمتي ، ودعوت معي من يسعدني صحبته من الأصدقاء ، فكان معي ابن جني وعلي بن حمزة البصري والشعراني خادمي وتوجهت قاصداً أرجان في بلاد فارس إلى ابن العميد ⁽¹⁾ ، وودعت بغداد (دار السلام) ..

وربما لو لم يكن ابن العميد ⁽²⁾ قد أرسل إلي لسعيت أنا إليه ...!! وتحرك الركب إلى أرجان

⁽¹⁾ ابن العميد : هو أبو الفضل محمد بن أبي عبد الله الحسين بن محمد الكاتب المعروف بابن العميد ، كان وزير ركن الدولة بن بويه ، والد عضد الدولة ، وقد تولى وزارته سنة ثمان وعشرين وثلاث مئة ، وكان متوسعا في علوم الفلسفة والنجوم ، وأما الأدب والترسل فلم يقاربه فيه أحد في زمانه ، وكان يسمى الجاحظ الثاني ، وذكر الثعالبي في كتابه اليتيمة 2/3 أنه كان يقال : بدنت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد ، وكان سائسا مدبرا للملك قائما بأموره ، وقصده جماعة من مشاهير الشعراء ومدحوه بأحسن المديح .. (معجز أحمد ج4 ص275 هامش ، عن ابن خلكان ترجمة ابن العميد 57/2)

⁽²⁾ يقول محمود شاكر: وكان المتنبي حين دخل بغداد في طريقه إلى عضد الدولة بشيراز [الصواب في طريق إلى ابن العميد] ، قد ترفع عن أن يمدح الوزير المهلبى ، فأغرى المهلبى به الشعراء وغيرهم ، كآبي علي الحاتمي صاحب الرسالة العجيبة المعروفة بالحاتمية ، ذكر فيها سرقات المتنبي ، وزعم أنها قد وقعت كما قيدها بينه وبين المتنبي . (شاكر ص 145 / 1) [هناك خطأ وقع فيه شاكر وهو أن المتنبي حين ترك ببغداد في طريقه لابن العميد سنة 354هـ لم يكن المهلبى بها لأنه كان قد توفي سنة 352] ، أما مايقصده شاكر هو ما كان من إقامة المتنبي الأولى ببغداد قبل عودته إلى الكوفة في شعبان سنة 352 توفي وإقامته فيها ما يقرب من عام ونصف من شعبان سنة 352 حتى ذي الحجة سنة 353 وقبل أن يغادرها المهلبى متجهاً للبصرة أو عمان في جمادى الثانية من نفس السنة 352هـ حيث لم يعد إلى دار الخلافة لأنه توفي . ثم دخل أبو الطيب بغداد للمرة

... وصلنا (أَرْجَان) في صفر من سنة 354هـ

- بما تفسر مراسلة ابن العميد لك ..يستزيك ؟

- رجل يقدر الناس ويعرف مقامي بين الشعراء ، ولعله علم بما حدث لي من المهلبي قبل وفاته ، وأراد أن يصلح ما أفسده ، ويقربني من بني بويه أصحاب الملك والسلطان في هذا الزمان ، ولا يفوته شرف مديحي له بعدما طبقت شهرتي الآفاق

علمت بعد ذلك أن أَرْجَان هذه منتجع يذهب إليه ابن العميد كل عام مرتين ، أما إقامته الدائمة فكانت بالري مقر ملك ركن الدولة بن بويه ، عندما وصلت إلى حدود أَرْجَان وجدتها ضيقة البقعة والدور والمساكن ، فأظهرت امتعاضا ولم أدخلها وأرسلت غلاما لي إلى ابن العميد وانتظرتة خارج البلد

لم تمضي ساعة من النهار حتى رأيت حشدا من الناس جاء إلي يستقبلني وفي مقدمتهم حاجب ابن العميد ، فاستقبلني أحسن استقبال وقال إن مولاي مشتاق إليك وفي شرف استقبالك بقصره وقادنا إلى داخل البلد وحولنا هذا الحشد من الناسكان ذلك في شهر صفر من هذه السنة .

عرفت بعد ذلك من غلامي أنه لما وصل إلى قصر ابن العميد وأخبره بقدومي خارج البلد ، وكان وقت القيلول وهو مضطجع في دسسته ، ثار من مضجعه وتثبّت منه الخبر وأمر حاجبه

الثانية مقيما بها (راجع ترجمة الربيعي التي تشي إلى دخول ثان للمتنبّي بغداد - محمود شاكر ص 602) في المحرم من سنة 354 هـ في هذه الفترة وصلته رسالتان إحداها من سيف الدولة ، فأرسل له قصيدة والثانية من ابن العميد ، حيث سافر إليه تاركا بغداد]

ويقول شاكر : ..وهذا الشيخ التنوخي يقول : إنه سأل المتنبّي عن نسبه فما (اعترف له به) وكان إذ ذاك شابا في السابعة والعشرين ، وكان المتنبّي قد نيف على الخمسين ، فما تظن أن القاضي التنوخي كان يجرؤ أن يسأل المتنبّي عن ذلك ، لبعد ما بينهما ولتعالى المتنبّي وترفعه ، حتى على الخلفاء والوزراء ، وأيضا لما يعلم من صلة القاضي بالوزير المهلبي . وتحققه بخدمته (كما قال عن نفسه) (شاكر ص 146 / 1)

الأستاذ شاكر فاته أن المهلبي كان قد توفي سنة 352 قبل ذهاب أبي الطيب إلى فارس وقبل أن يترك بغداد ويقينا علم المتنبّي بذلك قبل سفره . وهذا الحوار المذكور جاء عند قفول أبي الطيب عائدا من شيراز قبل وفاته بأيام فلا معنى لذكر المهلبي هنا

!!!

أن يركب إليّ فوراً ويأخذ معه من يلقاه من الناس ليكونوا في استقبالي حتي يستعد هو لاستقبالي بقصره

وصلت إلى القصر وأخذتني أبهة الملك .. وقد قام أبو الفضل ابن العميد من دسسته قياماً وقوراً مستويا وطرح لي كرسيه عليه مخدة من ديباج ، وقال : كنت مشتاقاً إليك يا أبا الطيب ...⁽¹⁾ وأكرمني إكراماً عظيماً وذكرت له المخاطر التي واجهتنا ونحن في طريقنا إليه والتي فقدت بسببها سيفاً قيماً

فقد احتمله غلاماً لي وشذ عنا .. وأخرجت من كمي درجاً فيه القصيدة التي أولها :

بادِ هواءك صبرت أم لم تصبرا * وبُكاك إن لم يجر دمعك أو جرى
فإذا به يوحى إلى حاجبه بقرطاس فيه مئتا دينار وسيف غشاؤه فضة ، وقال هذا عوض
عن السيف المأخوذ... ثم أفرد لي داراً أنزلها أنا وأهلي .. واسترحت من عناء الرحلة ، وكنت
أتردد عليه وأحضر ندواته وكان يقرأ علي ديوان اللغة الذي جمعه ، وعجبت من غزارة علمه
وملكة الحفظ عنده ⁽²⁾

بادِ هواءك صبرت أم لم تصبرا * وبُكاك إن لم يجر دمعك أو جرى
كم غر صبرك وابتسامك صاحباً * لما رآه وفي الحشا ما لا يرى
أمر الفؤاد لسانه وجفونه * فكتمنه وكفا بجسمك مخبراً

.....

أعطى الزمان فما قبلت عطاءه * وأراد لي فأردت أن أتخيراً
أرجان أيتها الجياد فإنه * عزمي الذي يذر الوشيح مكسراً
لو كنت أفعل ما انتهيت فعالة * ما شقَّ كوكبك العجاج الأكدرا
أمي أبا الفضل المبرِّ اليتي * لأيمناً أجل بحر جوهراً
أفتى برويته الأنام وحاش لي * من أن أكون مقصراً أو مقصراً

⁽¹⁾ راجع محمود شاكر ، مع المتنبي ، مرجع سابق ص 378 ، 379

⁽²⁾ راجع عبد الوهاب عزام ، ذكرى أبي الطيب ص 167 ، 168

صغت السوار لأي كفٍ بشرت * بابين العميد وأي عبدٍ كبراً
إن لم تغثني خيله وسلاحه * فمتى أقود إلى الأعادي عسكراً

.....

يا من إذا ورد البلاد كتابه * قبل الجيوش ثنى الجيوش تحيراً
أنت الوحيد إذا ركبت طريقة * ومن الرديفُ وقد ركبت غضنفرأ
قطف الرجال القول وقت نباته * وقطفت أنت القول لَمَّا نوراً
فهو المشيعُ بالمسامع إن مضى * وهو المضاعفُ حسنه إن كرراً
وإذا سكتَ فإن أبلغ خاطبٍ * قلمٌ لك اتخذ الأنامل منبراً

.....

من مبلغ الأعراب أني بعدهم * لاقيت رسطاليس والإسكندرا
وسمعت بطليموس دارس كتبه * متملكاً متبدياً متحضراً
ولقيت كل الفاضلين كأنما * رد الإله نفوسهم والأعصرا
ومضت بنا الأيام عند أبي الفضل ابن العميد هادئة جميلة ، وكان بليغا حتي إنه عارضني
في بعض معاني هذه القصيدة ، وكان حريّ به أن يعرف طبيعة شعري فمن بيت لبيت أتغير من
حال إلى حال وقد قلت له ذلك فيما يبدو أنه تعارض في المعنى أو نقض له كما في البيتين
الأولين من هذه القصيدة ⁽¹⁾
واستمرت إقامتنا في هذه الجنة ، حتى أتى النيروز وهو عيد فارسي يحتفلون فيه بقدوم الربيع.
والطبيعة هناك في هذه الفترة غاية في الجمال ، فأخذتني أخذا شديدا ، فرأيتني أذكرها في
تهنئته بقدوم النيروز فأقول :

جاء نيروزنا وأنت مراده * وورّت بالذي أراد زناده
هذه النظرة التي نالها من *ك إلى مثلها من الحول زاده
ينثني عليك آخر اليوم منه * ناظرٌ أنت طرفه ورقاده

(1) راجع شاعر ، المتنبي ، ص 379

نحن في أرض فارس في سرور * ذا الصباح الذي نرى ميلاده
عظّمته ممالك الفرس حتى * كل أيام عامه حُسّاده
ما لبسنا فيه الأكاليل حتى * لبستها تلاعه ووهاده
عند من لا يقاس كسرى أبو سا * سان ملكا به ولا أولاده
عربيّ لسانه فلسفيّ * رأيّه فارسية أعياده

.....

يقسم الفارس المدجج لا يسـ*لم من شفرتيه إلا بدّاه
جمع الدهر حدّه ويديه * وثنائي فاستجمعت آحاده

.....

هل لعذري عند الهمام أبي الفضـ*ل قبولٌ سوادٌ عيني مدّاه
أنا من شدة الحياء عليل * مكرمات المُعلّة عوّاده
ماكفاني تقصير ما قلت فيه * عن علاه حتى ثناه انتقاده
إنني أصيد البُزاة ولكن * أجلّ النجوم لا أصدّاه
ربّ ما لا يُعبّر اللفظ عنه * والذي يضمّر الفؤاد اعتقاده
ما تعودت أن أرى كأبي الفضـ*ل وهذا الذي أتاه اعتياده
إن في الموج للغريق لعذراً * واضحا أن يفوته تعداده
للندی الغلبُ إنّه فاض والشعـ*رُ عمادي وأبْنُ العميدِ عماده

.....

خلق الله أفصح الناس طرّاً * في مكان أعرابه أكراده
وأحقّ الغيوث نفساً بحمدٍ * في زمان كل النفوس جرادّه
مثلما أحدث النبوة في العا * لم والبعث حين شاع فساده
زانت الليلَ غرة القمر الطا * لع فيه ولم يشنّها سواده

- ما هذه الاعتزازات والانتقادات التي تتحدث عنها في القصيدة ؟

- كان ابن العميد قد أرسل إليَّ بعضَ ندمائه فأبلغني قوله إنه كان يبلغنا شعرك بالشام والمغرب ،
وأن الشعر الذي سمعناه منك هنا في أرجان دون ذلك... فلم أستطع الرد ... والحق أنني بالغت
في التصنع في قصيدتي الأولى لما أعلمه عنه من ثقافة واسعة فحاولت أن أتأنق ، فجاءت
القصيدة كما رأيت ..

- أنت تعترف إذا يا أبا الطيب ؟!

- نعم فقد تجوزت في قولي وأعفيت طبعي واعتنمت الراحة منذ فارقت آل حمدان ، وفيهم من
يقول :

تُسالنني من أنت وهي عليمَة * وهل بفتى مثلي على حاله تُكرُ
فقلت كما شاعت وشاء لها الهوى * قتيالك قالت أيهم فهمُ كُثرُ

ويقول :

صبورٌ ولو لم تبق مني بقية * قوولٌ ولو أن السيوفَ جوابُ
وقورٌ وأحداث الزمان تنوشني * وللموت حولي جبهةٌ وذهابُ

ومن يقول :

وقد علمت بما لاقته منا * قبائل يعربٍ وبني نزار
لقيناهم بأرماح طوال * تبشرهم بأعمارٍ قصار (م)

وقد انتظرت حتي جاء عيد النيروز فكان في قصيدتي بهذه المناسبة ردِّي واعتذاري عن
التقصير في الأولى....

وقد استبان لأبي الفضل بن العميد ما أنا عليه من ثقافة من خلال لقاءاتنا وندواته التي
يعقدها وأحضرها بالطبع ، فكان الإعجاب بيننا متبادل ، فقد أدهشني سعة اطلاعه وغزارة علمه
ومعارفه وعمقه في فهم ودراسة الفلسفة .

وكان معجبا بي وبشعري وتمكني من اللغة وسعة اطلاعي في علوم اللغة والفلسفة
وقدرتي الفائقة في حفظ دواوين الشعراء الكبار ، سيَّء شعرهم وحسنه على السواء .

(¹) راجع مصطفى الشكعة - أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين ص 540

سألني يوما عن كتاب الجماهرة لابن دريد ، قلت له أحفظه عن ظهر قلب .. فدهش أبو الفضل وقال تحفظه تحفظه .!!؟ قلت نعم ... فقام من دستانه وأخذني وأقعدني مكانه .. وجلس بين يدي وقال : إذا فاسمع مني ... وأخذ يقرأ عليّ كتاب الجماهرة ..!!⁽¹⁾

كانت جلسات أبي الفضل بن العميد مفيدة جدا فقد كان شخصية ثرية بمعنى الكلمة ... قضيت هناك شهرين يا أبا الطيب ؟

- نعم كنا في الجنة!! ثم جاء رسول من قبل عضد الدولة بن بويه بشيراز إلى ابن العميد يدعوني لزيارته والمسير إليهوبقدر ما أسعدني ذلك بقدر ما أربكني ... لأنني أعلم الملوك ، فقد خبرتهم ... سيف الدولة وكافور الإخشيدي .. ولست في حاجة كي أكرر المعاناة التي تجاوزتها بشق الأنفس وكنت في الحالين على شفا الهلاك وأنت تعلم ذلك .. فمالي والملوك.⁽²⁾

- ماذا فعلت إذا يا أبا الطيب ؟!

- لم أسارع إلى تلبية الدعوة ، وأظهرت لابن العميد عدم رغبتني في الذهاب إلى شيراز وقلت له : (إنني مُلقٍ من هؤلاء الملوك ، أقصد الواحد بعد الواحد ، وأملكهم شيئا يبقى بقاء النيرين ، ويعطونني عرضا فانيا ولي ضجرات واختيارات ، فيعوقونني عن مرادي ، فأحتاج إلى مفارقتهم على أقبح الوجوه !!).

فتفهم أبو الفضل وجهة نظري وأرسل بذلك إلى عضد الدولة فورد الجواب منه أنني مملك مرادي في المقام والظعن ...

قرأ ابن العميد خطاب عضد الدولة .. ثم أغراني بالذهاب قائلا إن ما يمكن أن أناله من عضد الدولة أضعاف أضعاف ما نلتته منه ، وإنه الملك الشاب القادم على العراق ...

⁽¹⁾ (راجع ترجمة المتنبي لابن العديم ، كتاب شاكر ص 629) ؛ خلاصة المتنبي د. عبد الجيد دياب ، ص 43 دار سعاد الصباح 1992

⁽²⁾ (راجع محمود شاكر ، المتنبي ص 381، 382 / 16 ؛ ويرى مصطفى الشكعة ، مرجع سابق ص 490 عكس ذلك تماما يقول : لا يكاد أبو الطيب يتسلم كتاب عضد الدولة الذي يدعو فيه إلى زيارته حتى يهرول في السير إليه) [التعليق : لم يذكر الشكعة مصدر نرجع إليه في هذه العبارة .. ولا نعلم أحداً من الرواة أو الكتاب ذكر هذه العبارة بل ذكروا العكس !! المرجع المذكور وكذلك عزام - ذكرى أبي الطيب ص 172 .. الخ]

وذكرني بأحوال معز الدولة الذي يصير نجمه إلى الأفول بعد تدهور صحته . وركن الدولة والد
عضد الدولة الشيخ الكبير... وأن المستقبل لعضد الدولة وعلي أن أنتهب الفرصة مع هذا الملك
الشاب أول من سُمي (شاهنشاه) أي ملك الملوك في الإسلام ..⁽¹⁾ وما أدراك ما ملك الملوك
في هذا العصر ...

اقتنعت بكلام أبي الفضل وقررت تلبية الدعوة وكان من اللائق أن أودع أبا الفضل ابن العميد
بهذه القصيدة :

نسيت وما أنسى عتابا على الصّد * ولا خفرا زادت به حمرة الخدّ
ولا ليلة قصّرتها بقصيرة * أطلت يدي في جيدها صحبة العقد
ومن لي بيومٍ مثل يومٍ كرهته * قرّبتُ به عند الوداع من البُعدِ
وَألا يَخُصَّ الفقد شيئا لأنني * فقدت فلم أفقد دموعي ولا وجدي
تمنّ يلذّ المستهام بذكره * وإن كان لا يغني فتिला ولا يجدي
وغيظ على الأيام كالنار في الحشا * ولكنه غيظ الأسير على القدّ
فإمّا ترينني لا أقيم ببلدة * فأفّة غمدي في دلوقي وفي حدّي

.....

أأحزمَ ذي لبٍّ وأكرمَ ذي يدٍ * وأشجعَ ذي قلبٍ وأرحمَ ذي كبِدٍ
وأحسنَ معتمً جلوسا وركبةً * على المنبرِ العالي أو الفرسِ النّهدِ
تفضلت الأيام بالجمع بيننا * فلما حمدنا لم تدمنا على الحمدِ
جعلن وداعي واحدا لثلاثة * جمالك والعلم المبرّح والمجدِ

.....

فجد لي بقلب إن رحلتُ فإنني * مخلفٌ قلبي عند مَنْ فضله عندي
ولو فارقتُ نفسي إليك حياتها * لقلتُ أصابت غيرَ مذمومةِ العهدِ

⁽¹⁾ راجع البداية والنهاية أحداث 372 هـ سنة وفاة عضد الدولة بن بويه ، وفي ترجمته أنه أول من سمي بشاهنشاه أي ملك
الملوك وراجع محمود شاكر ، المتنبي ص 16/384 فيقول : إنه أول من خطب بالملك في الإسلام . كذلك الصبح المنبي هامش
(ص 160)

وشددنا الرجال إلى الشاهنشاه

وشددت الرجال إلى شیراز حيث الشاهنشاه عضد الدولة ابن بويه

الغريب أن يصلني رسول برسالة من قبل صاحب بن عباد ، وهو بعد كاتب لم يستوزر بعد يطلب مني أن أمدحه ويشاطرني ماله ، فقلت لرسوله أنا لا أمدح سوى الملوك ... فحملها ابن عباد في نفسه ..⁽¹⁾

- يقال أن عضد الدولة كان يتمنى قدومك عليه .. !

⁽¹⁾ هو كافي الكفاة اسماعيل بن عباد . من أهل الطالقان : ولاية بين قزوين وأبهر .

ولد عام 326هـ لأبيه عباد بن العباس الطالقاني ، وكان يعمل مع ابن العميد في ديوان ركن الدولة بالرّي وعني به ، فوصله منذ نعومة أظفاره بأحمد بن فارس اللغوي ، حتى اتضحت فيه مخايل الأدب ألحقه بابن العميد . فكان يصحبه دائما ، مما جعل الناس يطلقون عليه لقب صاحب ابن العميد ، وظل هذا اللقب علما عليه ، وقيل بل صاحب مؤيد الدولة بن ركن الدولة منذ صباه وسماه صاحب ، فاستمر عليه اللقب واشتهر به ...

منذ أن فتك مؤيد الدولة بابي الفتح علي بن أبي الفضل بن العميد سنة 366 هـ ولاه وزارته وظل وزيرا له حتى إذا توفي سنة 373 هـ وخلفه أخوه فخر الدولة أقره على وزارته ، وكان مبجلا عندهما ومعظما نافذ الأمر ، وكان حسن السياسة مديرا للملك كما كان قائدا شجاعا مما رفع منزلته عندهما إلى أقصى حد ، حتى قيل كان من يؤذن له في الدخول عليه يظن أنه قد بلغ الآمال ، ونال الفوز بالدنيا والآخرة فرحا ومسرّه ، وشرفا وتعظيما ، فإذا حصل في الدار وأذن له في الدخول إلى مجلسه قبل الأرض عند وقوع بصره عليه .

ولم يكن يقوم لأحد من الناس ولا يشير إلى القيام ولا يطمع أحد منه في ذلك .

ومازال وزيرا لفخر الدولة حتى توفي سنة 385 هـ ، كان يقول : مُدحت بمانّة ألف قصيدة عربية وفارسية ؛ يذكر ياقوت أن عطايه للأدباء والشعراء والعلماء والأشراف كانت تزيد على مائة ألف دينار في العام الواحد .

(تاريخ الأدب العربي ، شوقي ضيف ج 5 ص 658 ، 659)

ويقول د . المحاسني : ولقد ابتلي الشاعر الذي لم يسأله الدهر حيثما كان ، بأن تعرض له وهو بفارس أبو العباس الصاحب بن عباد ؛ ظامعا في زيارته إياه وهو بأصبهان والحصول على مدحه واجرائه مجرى مقصوده من رؤساء الزمان وهو إذ ذاك شاب ولم يكن قد استوزر بعد كما يصف ذلك أبو منصور الثعالبي في اليتيمة . وضمن له شطر ماله ؛ فلم يقم له المتنبي وزنا ولم يجبه عن كتابه ولا إلى مراده فحقّد الصاحب عليه وأقام الدنيا وأقعدّها يتسقط مثالبه في شعره . (المحاسني - مرجع سابق ص 40)

- بلغني هذا ، فقد كان جالسا في البستان الزاهر في يوم زينته ، وأكابر حاشيته وقوف حوله ، فقال أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف الحكاري : ما يعوز مجلس مولانا سوى أحد الطائيين ، يقصد أبا تمام والبحثري ، فقال عضد الدولة : لو حضر المتنبي لناب عنهما (1)

سافرنا من أرجان إلى شيراز فلما كنا على أربعة فراسخ منها ، وجدنا عضد الدولة قد أرسل من يستقبلنا وهو أبو عمر الصباغ أخو محمد الأبهري صاحب كتاب حدائق الآداب ... فحيّانا أحسن تحية هو ومن معه ، واستقبلنا أحسن استقبال ... فلما سرنا معه إلى دار أعدت لنا خصيصا ، قال لي ونحن في الطريق : ... إن عضد الدولة يريد أن أبلغه قصيدة من أشعارك ... قلت له : الناس يتناشدون فاسمعه . قال : هو يريد أن تنشدي شعرا لك أبلغه إياه ... كان طلبا غريبا فيه قدر من الاستخفاف بي ...!

فأثرت أن أبتلع هذا الموقف وانتظرت ما وراه .. وتخيرت له القصيدة المناسبة كأبسط رد عندي :

فلما أنخنا ركزنا الرماح * بين مكارمنا والعلا

وبتنا نقبل أسيافنا * ونمسحها من دماء العدا

لتعلم مصر ومن بالعراق * ومن بالعواصم أني الفتى

وأنني وفيت وأنني أبيت * وأنني عتوت على من عتا

كنت أعلم أن هذا ردا قاسيا وإن عضد الدولة لن يتلق القصيدة بمحمل حسن في المعنى ، ولكنني ما كنت لأرد بأقل من ذلك ، وحتى يعلم عضد الدولة ، من هو الشاعر الذي بعث هو في طلبه ؛ ثم يريد أن يسمع من أشعاره أولا قبل أن يلقيه ، وكأنه يريد أن ينظر في مستوى شعري قبل أن يقرر ... وكأنني نكرة كانت مقدمة غير مريحة ...

ثم قادنا أبو عمر الصباغ إلى الدار التي فرشوها وهيوها لنا ، ورجع أبو عمر إلى عضد الدولة يخبره بوصولي ... وينشده ما أنشدته !!

(1) راجع عبد الوهاب عزام - ذكرى أبي الطيب ص 172 عن الإيضاح.

ثم لما استرحنا ونفضنا غبار السفر ركبنا إليه ، فقدمت له واجب التحية فأحسن استقبالي وجلست معه ودارت أحاديث عن رحلتي من مصر و سألني عن سيف الدولة بن حمدان .. ثم عدت بعد ذلك الى الدار وفي اليوم التالي كان عضد الدولة قد أمر بمد سماط ضخمة على شرف استقبالي حضره هو وجميع الحاشية وكل من صحبني في هذه السفارة وكان على هذا السماط ما يفوق الخيال ... وكانت قصيدتي الأولى في عضد الدولة :

أوه بديلا من قولتي واها * لمن نأت والبديل ذكراها
أوه لمن لا أرى محاسنها * وأصل واهاً وأوه مرآها
شأمية طالما خلوت بها * تبصر في ناظري محياها
فقبّلت ناظري تغالطني * وإنما قبّلت به فاها
فليتها لاتزال آوية * وليته لا يزال مأواها
كل جريح ترجى سلامته * إلفؤادا رمته عيناها
تبّل خدي كلما ابتسمت * من مطر برقّة ثناياها

.....

أحب حمصا إلى خناصرة * وكل نفس تحب محياها
حيث التقى خدها وتفاح لب*نان وتغري على حمياها
وصفت فيها مصيف بادية * شتوت بالصّحّصان مشتاها

.....

وقد رأيت الملوك قاطبة * وسرت حتى رأيت مولاها
ومن مناياهم براحتيه * يأمرها فيهم وينهاها
أبا شجاع بفارس عضد الدو * لةفنا خسرو شهنشاها
أساميا لم تزده معرفة * وإنما لذة ذكرناها
تقود مستحسن الكلام لنا * كما تقود السحاب عظمها
هو النفيس الذي مواهبه * أنفوس أمواله وأسناها

لو فطنت خيله لنائله * لم يرضها أن تراه يرضاه

.....

تشرق تيجانه بغرته * إشراق ألفاظه بمعناها

دان له شرقها ومغربها * ونفسه تستقل دنياها

تجمعت في فؤاده همم * ملء فؤاد الزمان إحداها

فإن أتى حظها بأزمة * أوسع من ذا الزمان أباها

فلما انتهيت من قصيدتي هذه أمر عضد الدولة فحملت إلي أنواع الطيب في الأردية والأمنان ، من بين الكافور والعنبر والمسك والعود ، وقاد إلي فرسه الملقب بالمجروح ، وكان قد أشثري له بخمسين ألف شاة ، وبدره دراهمها عدلية ، ورداء حشوه ديباج رومي مفصل ، وعمامة قومت بخمسائة دينار ، ونصلا هنديا مرصع النجاد والجفن بالذهب ... غمرني من اللحظة الأولى بكرم لم أشهده من قبل ، وصدق ابن العميد حين قال : ملك الملوك وما أدراك ما ملك الملوك !.

كنا قد مررنا في طريقنا إلى شيراز بشعب يسمى شعب بوان وكان غاية في الروعة وجمال الطبيعة ، وتجوّلنا فيه ساعة من نهار وأخذني جماله ... فكتبت أذكره وأمدح أبا شجاع فنا خسرو عضد الدولة :

مغاني الشعب طيبا في المغاني * بمنزلة الربيع من الزمان

ولكن الفتى العربي فيها * غريب الوجه واليد واللسان

ملاعب جنة لو سار فيها * سليمان لسار بترجمان

طبّت فرساننا والخيّل حتى * خشيت وإن كرم من الحران

غدونا تنفض الأغصان فيها * على أعرافها مثل الجمان

فسرت وقد حجب الحرّ عني * وجئن من الضياء بما كفاني

وألقى الشرق منها في ثيابي * دنائيراً تفر من البنان

لها ثمر تشير إليك منه * بأشربة وقفن بلا أوان

وأمواء تصلّ بها حصاها * صليل الحلي في أيدي الغواني
ولو كانت دمشق ثنى عناني * لبيقُ التردّ صينيّ الجفان

.....

منازل لم يزل منها خيالٌ * ويشيعني إلى النوبند جان
إذا غنى الحمام الورق فيها * أجابته أغانيّ القيان
ومن بالشَّعب أحوج من حمامٍ * إذا غني وناح إلى البيان

.....

يقول بشعب بوان حصاني : * أعن هذا يُسار إلى الطعان
أبوكم آدم سنّ المعاصي * وعلمكم مفارقة الجنان
فقلت : إذا رأيت أبا شجاع * سلوت عن العباد وذا الزمان

.....

بعضد الدولة امتنعت وعزّت * وليس لغير ذي عضدٍ يدان
ولا قبض على البيض المواضي * ولا حظ من السمر اللدان

.....

ولا تحصي فضائله بظنٍ * ولا الإخبار عنه ولا العيان
أروض الناس من ترب وخوفٍ * وأرض أبي شجاع من أمان

.....

ولم أر قبله شبليّ هزبرٍ * كشبليه ولا مهري رهان
أشد تنازعاً لكريم أصلٍ * وأشبه منظرأً بأب هجان

.....

وكنت الشمس تبهر كل عينٍ * فكيف وقد بدت معها اثنتان
فعاشا عيشة القمرين يُحيا * بضوءهما ولا يتحاسدان
ولا ملكا سوى ملك الأعادي * ولا ورثا سوى من يقتلان

.....

ولولا كونكم في الناس كانوا * هراءً كالكلاب بلا معان

وفي احتفالية بمناسبة جلوس عضد الدولة للملك ، وكان يوماً عظيماً من أيام احتفالات
عضد الدولة نثر علينا الورد حتى غرقنا فيه وسألني أحد ندماء أبي شجاع عن قلبي في هذا
اليوم فقلت : ما خدمت عيناى قلبي مثل اليوم فوصل قلبي هذا عضد الدولة فاستحسن مني هذا
وأنشدته في هذا اليوم :

قد صدق الورد في الذي زعما * أنك صيرت نثره ديما

كأنما مائج الهواء به * بحرٌ حوي مثل مائه عَنَمَا

ناثره الناثر السيوف دما * وكل قولٍ يقوله حكما

والخيل قد فصل الضياع بها * والنعم السابغات والنقما

فلما أنشدته هذه القطعة أعطاني فرسا وخلعة وبدره كان كريما .

- إذا فقد كانت الإقامة في شيراز مثمرة .. !

- حقا من كافة الوجوة ، فخلال مدة إقامتي كان يجتمع إليّ كثيرٌ من الشباب والشعراء والكتاب
والأدباء ويقرؤون عليّ ديواني وكنت أصحح أو أضيف أو أفسر كما كان يحدث في بغداد ..
فذكرني ببلادي

كانوا يسألونني في كثير من الأمور الخاصة باللغة وبالشعراء ودواوينهم التي أحفظها ...⁽¹⁾

كان علي بن عيس الربعي من أكثرهم حرصا على متابعتي وحضور ندواتي في شيراز
حتى رأى نسخة من بعض أشعاري بخط ابن أبي الجوع المصري فأعجبه الخط جدا ، ...
وله حق فخط ابن أبي الجوع المصري من أجمل الخطوط ولذلك كنت أحتفظ به معي ... كان
يدوّن كل شيء ...⁽²⁾

وجاءتنا الأخبار من بغداد بوفاة عمّة عضد الدولة وقد حزن لذلك ، فقلت أعزّيه فيها :

⁽¹⁾ راجع ذكرى أبي الطيب د. عبد الوهاب عزام ص 175

⁽²⁾ (معجز أحمد ج 4 ص 90 عن ابن عساكر ص 253)

آخر ما المَلِكُ مُعَزَّى * هذا الذي أثر في قلبه
لا جزعا به أنفأ شابه * أن يقدر الدهرُ على غصبه
لو درت الدنيا بما عنده * لاستحيت الأيام من عتبه

.....

نحن بني الموتى فما بالنا * نعا ف ما لابد من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا * على زمان هي من كسبه
فهذه الأرواح من جوه * وهذه الأجسام من تربه

خرجت مع أبي شجاع عضد الدولة في رحلة صيد في موضع حسن للصيد علي عشرة
فراسخ من شيراز وكان يوما رائعا كثير الصيد ، ثم قفلنا عائدين إلى شيراز وكان ذلك في رجب
من هذه السنة فقلت في ذلك :

ما أجدر الأيام والليالي * بأن تقول ما له ومالي؟
لا أن يكون هكذا مقالي * فتى بنيران الحروب صالي
منها شرابي وبها اغتسالي * لاتخطر الفحشاء لي ببال

وصلت إلينا أخبار من الشام في هذا الشهر شهر رجب ، قالوا إن ملك الروم دخل
بجيوش كثيفة إلى المصيصة ، ففتحها قصرا ، وقتل من أهلها خلقا واستاق بقيتهم معه أسارى
وكانوا قريبا من مائتي ألف إنسان ...

وجاء طرسوس ، فسأل أهلها الأمان فأمرهم بالجلء عنها واتخذ الجامع إسطبلا لخيوله
، وحرق المنبر ، ونقل قناديله إلى كنائس بلده

وقد عزم ملك الروم على المقام بطرسوس ليكون أقرب إلى بلاد المسلمين ، ثم عن له ،
فسار إلى القسطنطينية ، وفي خدمته الدمستق ملك الأرمن ...

أحزنتني هذه الأخبار نحن هنا في مرح ولهو والناس تُقتل في الشام ، لم يتأثر كثيرا
عضد الدولة بهذه الأخبار وكأن الأمر لا يعنيه باعتباره ملك في دولة الخلافة ودولة الإسلام

....ساعني منه أن أرى هذا البرود في ملامحة لما يحدث للحمدانيين والمسلمين ولبیوت الله في الشام ، وقد حولها الرومان إلى اسطبلات لخيولهم

أحسست بحنين جارف للديار ، وتذكرت أيام البطولة والفداء مع سيف الدولة ، وأنه المدافع البطل عن حمى الإسلام ... والباقي يشاهدونه من بعيد أو عن كثب ولا مانع من تحريض القبائل عليه لا مانع من تحريض الروم عليه ولا مانع من تحريض القرامطة عليه لإجهاض قوته ما استطاعوا .

ولا مانع من الدخول ضده في معارك من أجل الخراج ، الذي يتأخر به ناصر الدولة على خزينة معز الدولة في بغداد ...!!

أوه .. أين أنت يا بلادي الغالية ... هنا لا يشعرون بأزمة أحد ... أشتاق إلى العودة .. وعزمت عليها وكان علي أن أستأذن أبا شجاع فناخسرو عضد الدولة بن بويه ...!

استأذنت عضد الدولة في السفر إلى الأوطان بحجة أنني أريد أن أرثب بعض أموري هناك ولأجمع أهلي ثم أعود إليه ... قال : أنت مملك في الإقامة والظعن ... أليس هذا عهدنا ...! فشكرته على روعة وفادته وضيافته ووعدته بالعودة إليه مرة أخرى وكانت قصيدة الوداع في أوائل شعبان سنة 354 هـ 964 م أقول فيها : (1)

فدَى لك من يُقَصِّرُ عن مداكا * فلا ملك إذا إلا فداكا
ولو قلنا فدَى لك من يُساوي * دعونا بالبقاء لمن قلاكا
وأمنا فداءك كل نفس * ولو كانت لمملكة ملاكا
ومن قد ظن نثر الحب جودا * (وينصب تحت ما نثر الشباكا)

.....

أروحُ وقد ختمت على فؤادي * بحبك أن يحل به سواكا
وقد حملتني شكرا طويلا * ثقيلا لا أطيق له حراكا
أحاذر أن يشق على المطايا * فلا تمشي بنا إلا سواكا

(1) راجع ذكرى أبي الطيب ص 178 عن ابن خلكان

لعل الله يجعله رحيلا * يعين على الإقامة في ذراكا
فلو أني استطعت خفضت طرفي * فلم أبصر به حتى أراك

.....

إذا التوديع أعرض قال قلبي * عليك الصمت لا صاحبت فاكا

.....

و أنى شئت يا طريقي فكوني * أذاة أو نجاة أو هلاكا
فلو سرنا وفي تشرين خمس * رأوني قبل أن يروا السماكا
يشرد يمن فنا خسر عني * قنا الأعداء والطعن الدراكا
وألبس من رضاه في طريقي * سلاحا يذعر الأعداء شاكا
ومن أعتاض منك إذا افترقنا * وكل الناس زور ما خلاكا
وما أنا غير سهم في هواء * يعود ولم يجد فيه امتساكا
حيي من إلهي أن يراني * وقد فارقت دارك واصطفاكا

كنت قلقا وفي حيرة من أمري ، فقد بلغتني عن عضد الدولة أقوال تثير الشك فيما يفعل
معي ⁽¹⁾، ففي عيد الجلوس والذي سبحنا فيه في بحر من الزهور ، كما قلت لك ، وكان احتفال
لهو وخمر وغناء ، ولم يكن لي في الخمر كما تعلم ، ولكني كنت أشارك لَمَمًا حتى لا أنتقد ..

⁽¹⁾ يقول محمود شاكر : وبقيننا أن أبا الطيب حين وجد ذلك ، من إكرام عضد الدولة له ، وكان قد بلغه طرف من أخبار الكيد
الذي يكاد به ، عرف ما يريد عضد الدولة ، وما يراد به ، ولذلك أشار في آخر قصيدة مدحه بها - وهو مفارقة في أول شعبان
سنة 354 هـ إشارات كثيرة منها : قوله :

ومن قد ظن نثر الحب جودا * وينصب تحت ما نثر الشباكا

وهذا المثل ، هو مثل لما نراه قبل من أمر عضد الدولة ، ثم انظر إلى ياس أبي الطيب ، وقد علم أنه قد أحيط به ، وأنه مقتول لا
محالة ، إذ يقول :

وأيأ شئت يا طريقي فكوني * أذاة أو نجاة ، أو هلاكا

ويقول : وما أنا غير سهم في هواء * يعود ، ولم يجد فيه امتساكا

(شاكر ص 390 / 17)

مال علي أحد ثدمائنه بعدما غمرني عضد الدولة بعتاءٍ وفير عندما أنشدته مقطوعة صغيرة بهذه المناسبة قال هذا الرجل وقد مال على أذني وكان قد أخذ السُكْرُ : هل تظنه سفيهاً .. سوف يسترد كل ذلك منك ...!!

فنظرت إليه في دهشه ... وتعجبت مما يقول . ولكنني أخذت أفكر فيما قال .. هل يمكن أن يفكر عضد الدولة هكذا ولما يُغدق علي في الأصل إن كان يريد أن يسترد ما أغدق ..؟!

لعله يخشي لساني .. لماذا إذا دعاني وصمم على ذلك وقد علم عدم حماستي للذهاب إليه ..؟! لعله كان يريد ألا يفوته مديحي .. وها قد مدحته وغمرنا بعتائه وشكرنا له ذلك كما ينبغي الشكر ... لقد ألقى هذا الرجل في قلبي الشك .. ربما يكون قد سمع بأمر يدبر لي ... ! ولكن تذكرت أن أحدهم قال لي : إن عضد الدولة قد ساءته القصيدة التي ذكرتها لأبي عمر الصباغ في أول قدومك شيراز واعتبرها كأنك تتهدده . ! أخذت الخيوط تتجمع في ذهني...

هل سخاؤه العظيم هذا يخفي وراءه كيداً لي ... وهل يحتاج مثله أن يدبر لمثلي .. إنه يستطيع أن ينهي حياتي في لحظة ... وهل مثله يخشى شيئاً ... قلت في نفسي : ليس إلى هذه الدرجة .. ثم راجعت نفسي لا لا.. إلى هذه الدرجة وأكثر لقد سمعت أنه كان يعشق جارية لديه عشقا شديدا وكانت تأخذه عن النظر في شؤون الملك ، وزادت المشاكل في المملكة ولما أفاق مما هو فيه أدرك أن هذه الجارية هي السبب فلم يتورع أن أخذها وأغرقها في الماء بيديه رغم أنه يذوب فيها عشقا ...⁽¹⁾ ملك جبار ويفعل أي شيء ، ويقال إنه مصاب بداء الصرع يأتيه من حين لحين ... ولكنني لم ألحظ ذلك ... فقط في أحيان قليلة كان القصر يمر بحالة غير عادية من

وأيضاً فقد ورد في سبب قتله : أنه لما ورد على عضد الدولة ومدحه ووصله بثلاثة آلاف دينار ، وثلاثة أفراس مسرجة محلاة بالذهب ، ثم دس له من يسأله : أين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة ؟ فقال أبو الطيب : إن سيف الدولة / كان يعطي طبعا ، وعضد الدولة يعطي تطبعا . فبلغ ذلك إليه فغضب ، فلما انصرف من أرضه ، جهز إليه قوما من بني ضبة فقتلوه ، بعد أن قاتل قتالا شديدا ، ثم انهزم فقال له غلامه أين قولك !

الخيل والليل والبيداء تعرفني * والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فقال قتلتنى قتلك الله ، ثم قاتل حتى قتل) فمثل هذه الرواية لها تأويل وسياق ، فيما قدمناه لك . (شاكر ص 390 - 392 /

(17

(¹) راجع البداية والنهاية أحداث 372 هـ سنة وفاة عضد الدولة .

السكون .. دون مبرر وقد سألت عن ذلك فلم أجد إجابة شافية ... وكنت حينها لا أرى عضد الدولة .. ربما كانوا يخفون ذلك لكنه لا شيء يخفى على أحد ..
هل حقا يريد عضد الدولة أن يسترد ما أعطانيه؟! إن ما أعطانيه كثير...!! ولكني لم أقصر في مديحه لقد مدحته حتى الآن بست قصائد ... بما فيها قصيدة الوداع التي قتلها منذ قليل .. والتي ظهر فيها قلقي وخوفي .

و أنى شنت يا طريقي فكوني * أذاة أو نجاةً أو هلاكا

وقد أخذنا نستعد لمغادرة شيراز وقد أمر عضد الدولة أن يخلع علينا خلعا خاصة من هدياه لنا عند مغادرتنا فأتحفنا بآلاف الدنانير و غيرها من الهدايا الثمينة ، وقد زادت هذه الهدايا الزائدة عن الحد شكوكي ، لقد وصلنا الكثير في فترة إقامتنا عنده بشيراز ، التي استمرت ثلاثة أشهر تقريبا ...

ولكني قلت في نفسي إن هذا الرجل يقدر الشعر الشعراء على أحسن تقدير ... ولا يجب أن نسيء الظن بهإنه ملك الملوك الشاهنشاه فيجب أن يليق عطاؤه به ...
واسترحت لهذا الخاطر .لقد تركت شيراز وأنا شاعر ملك الملوك الشاهنشاه .

هل تعلم كم بلغت ميزانية مملكته هذا العام ..؟! وصلت بأرقامكم الآن إثني وثلاثين مليون دينار ذهب .(1).... كان غنيا

وقد يطلبني معز الدولة هو أيضا لأمدحه كما مدحت ابن أخيه . لم لا .. وتنصلح علاقتي بأمرير الأمراء وبالخلافة في بغداد بعد ذلك ... لا شك أن هذا من الآمال التي تحدوني للسفر من شيراز إلى بغداد...(2)

(1)راجع في ذلك د شوقي ضيف تاريخ الأدب العربي ج5 ص 253)

(2)يقول طه حسين :واطمان (أي المتنبى) إلى أنه بعد اتصاله بعضد الدولة قد أصبح شاعر الدولة الإسلامية غير مدافع ، لا شاعر أمير في شمال الشام أو في مصر ، بل شاعر السلطان الأعظم . وما أستبعد أنه قد تمثل المستقبل المشرق ، فإذا هو يرى نفسه وقد ظفر من عضد الدولة بالمال الذي لا يكاد يبلغه الإحصاء ، والتأييد الذي لا حد له ، وعاد إلى بغداد مقربا إلى معز الدولة برغم المهلبى وأشباع المهلبى..

أخذنا نحزم متاعنا ونشدُّ على الجمال ما حصلنا عليه من عضد الدولة ونجهز الخيول ونرتب ما سوف نأخذه من مؤن لنا ولدوابنا من الخيل والبغال والجمال وغلماي الذين صحبوني في رحلة الذهاب وقد اشتريت معهم المزيد من شيراز وقد اخترتهم اختياراً ممن يُعتمد عليهم في الدفاع والكر والفر والحراسة كانوا ما يقرب من العشرين جميعاً زودتهم بالسلاح من سيوف وحراب ودروع .

أشار بعض الأصدقاء في شيراز على بأن آخذ المزيد من الحرس ولو بالأجر ، وأن هذا العدد من الغلمان غير كاف ، فلم أقتنع برأيه لأنني أرى أن هذا العدد كاف وزياده ، ولأنني أعرف كيف حال لصوص الصحراء ، وخبرتي في ذلك عريضة ، فقد سافرت في الصحراء كثيراً ... وتحركت القافلة بعد يوم كامل من الإعداد والتجهيز رتبتُ كلَّ شيء .. ما معي من كتب ومتاع وأموال وهدايا نفيسة .. كان أهل شيراز القريبون منا يتابعون ما نقوم به من ترتيب وتجهيز للقافلة وكنت ألمح في العيون الحسد .

كنت أعلم أن أرض عضد الدولة آمنة ولا خوف علينا إلا من عضد الدولة نفسه إن أراد غدرا ، وإن لم يبدو عليه أي ملمح لذلك إلا ما وصلني من كلام عنه يحتمل الصدق ويحتمل الكذب .
- ولكن ما الحيلة يا أبا الطيب إن كان الكلام صادقا ...؟! -

- لا شيء .. أمرنا إلى الله ..! ماذا أفعل وقد احتط لأمر في الظروف العادية ومع غلمان شجعان ، ألم تسمع قولي فيهم من قبل :

في غلما أخطروا أرواحهم ورضوا * بما رضيت رضا الأيسار بالزلم
تبدو لنا كلما ألقوا عمائمهم * عمائم خلق سوداً بلا لثم
بيض العوارض طعانون من لحقوا * من الفوارس شلالون للنعم
قد بلغوا بقتاهم فوق طاقتهم * وليس يبلغ ما فيهم من الهمم

(مع المتنبي ص 368 ، 369) . [ملحوظة : المهلب توفى قبل زيار المتنبي لعضد الدولة بعامين أي قبل أن يفكر حتى في زيارة بلاد فارس ، توفي سنة 352 هـ وهذه سقطة وقع فيها كبار كتابنا عن المتنبي ، فلا اعتبار هنا للتشفي منه وهو غير موجود أصلاً ...!]

في الجاهلية إلا أن أنفسهم * من طيبهن به في الأشهر الحرم

ومزقني الكلاب بسيوفهم

تحررنا وكان المقصد بغداد ، فالكوفة

كانت الأهواز في طريقنا فملنا إليها نلتمس بعض الراحة لمواصلة المسير وللتزود للطريق ، فمن المهم أن أراعي من معي من الغلمان أما معظم الرفاق فبعضهم سبقني إلى العراق وبعضهم بقي في شيراز يرتب تجارة له فتأخر عنا ، وجاء معنا علي بن حمزة البصري⁽¹⁾. ثم واصلنا المسير من الأهواز في طريقنا إلى واسط والأمور تسير عل ما يرام ولا شيء يدعو للخوف أو حتى القلق ...

وقد انتهينا إلى واسط في شهر رمضان من سنة 354 هـ بعد أن تركنا الأهواز . دخلنا واسط نقصد الراحة و التزود بما تحتاج القافلة .

وفي مقامنا بواسط أخذ عني علي بن حمزة البصري القصيدة الكافية قصيدة وداع أبي شجاع عضد الدولة وكذلك القصيدة قبلها ، لأنه أراد أن يمكث بعض الوقت في واسط لبعض شأنه ... فودعته ثم انطلقنا إلى بغداد

والطريق من واسط حتى بغداد يبلغ أربعين فرسخا وكان طريقنا إلى الشرق من دجلة وكان مبتدأ سفرنا من واسط يوم السبت سابع عشر من رمضان . وبعد مسيرة سبعة عشر فرسخا وصلنا جبَل فنزلنا على رجل من أعيان هذه الناحية ، كنت أعرفه ويعرفني وبيننا صداقة قديمة ؛

(1)راجع عبد الوهاب عزام ، ذكرى أبي الطيب ص183 عن نسخة بغداد ، حيث تذكر النسخة أن البصري كتب عن المتنبي قصيدة وداع عضد الدولة والقصيدة التي سبقتها وهم بواسط .

هو أبو نصر محمد الجبلي ، استقبلنا هذا الرجل وكان كريما فأحسن وفادتنا أنا ومُحَمَّدُ ابني والغلمان والخدم .

استراحت القافلة كلها عنده عدة أيام وكان لنا سهرات ومسامرات وتبادلنا أطراف الحديث ⁽¹⁾ وفي الختام عندما أزمعنا الرحيل قال لي : يا أبا الطيب ، على أي شيء أنت مُجمع ؟ قلت له : على أن أتخذ الليل مركبا فإن السير في الليل يخف عليّ ، ثم إننا في رمضان ...! قال : هذا هو الصواب حتي يُخَفِّيك الليلُ فلا تصبح حتي تكون قد قطعت بلدا بعيدا ... إنني أرى أن يكون معك من رجالة هذه البلدة الذين يعرفون هذه المواضع المخيفة جماعة يمشون بين يديك إلى بغداد ..

فارتبت في كلامه وسألته لما قلت هذا القول ؟! فقال لتستأنس بهم ..قلت : أما والسيف معي فما بي حاجة لمؤنس غيره ... قال : الأمر إليك ، والرأي كما أشرتُ عليك .. قلت : تلويحك يُنبئني عن تعريض وتعريضك يُنبئني عن تصريح ، فعرفني وبين لي الخطب ..قال : إن الجاهل فاتكا الأسدي كان عندي منذ ثلاثة أيام ، وهو غير راضٍ عنك لأنك هجوت ابن أخته ضبة ⁽²⁾ وقد تكلم بأشياء توجب الاحترار والتيقظ . ومعه أيضا نحو العشرين من بني أعمامه وقولهم مثل قوله .

⁽¹⁾ راجع عزام ، ذكرى أبي الطيب ص 179 وما بعدها .

⁽²⁾ يقول محمود شاكر : فلما فصل أبو الطيب من شيراز ووصل إلى دير العاقول ... اجتمعت عليه بنو أسد وبنو ضبة ، فقتلوه وقتلوا غلمانه وقتلوا ولده محمّد وقد قدمنا لك إن سيف الدولة كان قد أوقع بعمر بن حابس من بني أسد ، وبنو ضبة ، وبنو رياح من بني تميم ، وذلك سنة 321 هـ ، وقد هجاهم أبو الطيب في مدحه لسيف الدولة في تلك السنة ، وكان ذلك المدح وهذا الهجاء سببا في أن أحفظ عليه هؤلاء القوم من بني أسد وبنو ضبة ... قال أبو الطيب لسيف الدولة سنة 321 هـ مهلا ألا لله ما صنع القتا * في عمرو حاب ، وضبة الأغتام يريد عمرو وحابس من بني أسد .

لما تحكمت الأسنة فيهم * جارت ، وهنّ يجرن في الأحكام
فتركتهم خلل البيوت كأنما * غضبت رؤسهم على الأجسام
أحجار ناس فوق أرض من دم * ونجوم بيض في سماء قتام
وذراع كل أبي فلان كنية * حالت فصاحبها أبوالأيتام

رد غلامي مُفلح وكان قريباً يسمع كلام الجبلي : الرأي ما يراه أبو نصر نأخذ عشرين رجلاً يسرون معنا إلى بغداد ...

فزجرت الغلام وشتمة أن تدخل في الحديث ... وقلت : والله لا أَرْضَى أن يتحدث الناس بآني سرت في خِفارة أحد غير سفي ...⁽¹⁾

قال لي : أنا أوجّه قوماً من قبلي يسرون بمسيرك وهم في خفارتك ...
قلت : والله لا فعلت شيئاً من هذا .

أتخوفني من بخرء الطير هؤلاء !!.. ولا بني أسد كلها تجرء أن تفعل معي شيئاً ... معاذ الله أن أشغل فكري بهم لحظة عين

- لم تتفكر في الأمر ملياً يا أبا الطيب وتسرعت في اتخاذ قرارك !!

- لا لم أتسرع على ما أعتقد ، فأنا أعرف أمثال ضبة وخاله ورأيت أن أبا نصر يبالغ حتى آخذ خِفارة من رجالته إلى بغداد والواقع أنني لست في حاجة إليهم فقد سافرت هذه المسافات

- وليس يبعد أن يكون كافور هو الذي أمدهم بالمال ليقتلوا الرجل ، وتوسط له في ذلك أصحابه من أهل العراق العباسيين ، أو الفاطميين .

، هذا هو مختصر القول في مقتل أبي الطيب في 27 رمضان من سنة 354 هـ ، أما ما يروونه من (السخف) في حكاية مقتله بسبب القصيدة التي أولها :

ما أنصف القوم ضبة * وأمه الطرطبة

وإنما قلت ما قلت * رحمة لا محبة

إلى آخر الفحش القبيح الذي ورد بها ، فلنا في نقده ونقضه وجوه في كتابنا [يقصد القادم] (شاكر ، المتنبي ، مرجع سابق ص 390 ، 391

[التعليق : إذا كانت هذه القصيدة في هجاء ضبة وأمه وقومه والمثبته في الديوان والتي قيلت في جمادى الآخرة سنة 353 أي قبل مقتله بسنة وثلاثة أشهر وهي تحوي أقذع ما قاله المتنبي من هجاء وفيها ما فيها من طعن في عرضه وعرض بني أسد قوم أمه (مريم) . يعتبرها سخفاً ان تكون السبب في مقتله . فماذا نسمى القصيدة التي قيلت سنة 321 ؟ أي قبل مقتله بثلاث وثلاثين سنة والتي يمدح فيها سيف الدولة ويهجو أعداءه بني أسد وضبة ويعتبرها شاكر سبباً في مقتله . أيهما أقرب وأولى أن يعزى إليها السبب في قتل المتنبي ؟؟؟ !! ولو قال شاكر: إن هجاء لهم للمرة الثانية أحفظهم عليه وزادهم رغبة في الانتقام ، لكان أولى وأكثر موضوعية ..]

(1) راجع الصبح المنبي ص 172 وما بعدها

الطويلة ولم يحدث شيء يذكر ، ورأيت أن غلماني معي وعددهم كاف لفاتك ولأمثاله وأنا معي
سلاحي ولم أهرم بعد كي أدافع عن نفسي ومن معي ...

هل نسيت أنني فارس خضت حروبا مع سيف الدولة ... وحياتي كلها في الصحراء
والمفاوز والفيافي ..؟؟!

وخرجنا من جبّل قاصدين إلى بغداد ثم مررنا بمحازاة النعمانية وهي في منتصف
الطريق بين واسط وبغداد إلى الغرب من دجلة ...

لكننا سعدنا أننا تجاوزنا نصف المسافة وأن سفرنا هانت متاعبه ، ثم واصلنا المسير
فمررنا (بجرجرا) ، ثم تقدمنا حتى جاوزنا الصافية وبينها وبين بغداد ستة عشر فرسخا ،
متوجهين إلى دير العاقول ...وقد أشرقت الشمس علينا ودخل علينا الضحى وأحسست أن الخيل
والبغال والإبل تحتاج إلى بعض الراحة فملنا إلى جانب الطريق نلتمس بعض الراحة ، قبل
مواصلة المسير كان ذلك يوم الأربعاء الثامن والعشرين من رمضان من هذه السنة سنة
أربع وخمسين و ثلاثمائة ، لا أنسى هذا اليوم ..(1). فهو يومي ..

لمحت خيلا قادمة من بعيد وكان عددهم كبير حوالي الخمسين أو يزيدون قليلا ، معظمهم
ملثمون ، خاصة من منهم في المقدمة ... قلت في نفسي هؤلاء ليسوا لصوصا ... اللصوص لا
يتحركون بهذا الجمع الكبير ولا يقطعون الطريق نهارا .. أ يكون فاتك وأتباعه ... ولكن أبو نصر
قال إنهم في حدود العشرين ... زاد شعوري بالخطر ففزعت في الغلمان : هيا إلى سلاحكم
فانطلقوا إلى سلاحهم استحضر غلامي سراج الدرع وألبسنه على عجل وامتطيت فرسي
المجروح وقبل أن نكمل استعدادنا إذا بهم يحيطوننا وكشفوا عن وجوههم القبيحة ...فاتك بن
أبي جهل الأسدي وفراس بن بداد وضبة وجماعة من بني أسد وكلاب ...وشهروا سيوفهم في
وجوهنا ...

بادرني فاتك قائلا قبحا لهذا اللحية يا سباب ... أنت من يقول :

الخيال والليل والبيداء تعرفني * والطنع والضرب والقرطاس والقلم

(1) راجع د. عزام ، ذكرى أبي الطيب ص 188 ما بعدها و ص 194

أرني نفسك إن كنت عند قولك ..!

قلت : أنا عند ذاك يابن اللخناء العفلاء ...

لم يكن لدينا فرصة لأي اختيار ...

واشتبكت السيوف وعلا الغبار والتفوا حولنا وكنت أدور في المعركة مثل الذئب المسعور مدافعا عن نفسي ومالي وولدي كالمجنون ...ومعي غلماني ... طعنت اثنين منهم فسقطا عن فرسيهما وجرحت اثنين ففرا ثم واجهت فاتك ودارت بيننا مبارزة حامية الوطيس تطاير الشرر منها تطائرا لو كنا ليلا لأضاء المكان ... لكنها كانت الظهيرة وكنا على حال من التعب شديد قبل المعركة ...

لكننا كلنا صحنونا صحوة المذعور من الموت ولكن الموت كان قريبا جداً

ضربني فاتك ضربة قوية في ذراعي اليسرى وبها درعي فانكشفت بلا درع ، وملت على فرسي فطعنني في مَقْتَلٍ فسقطت أرضاً فتكاثروا عليّ كالكلاب ومزقوني بسيوفهم ومال فاتك فحز رأسي وفصله عن جسدي

وحولي عدد من غلماني قتلى ... سراج ومفلح وغيرهما سقطوا قتلى

وقبض أحدهم على ولدي محسد الذي لم يتركني ويهرب وكان يستطيع ذلك كما هرب باقي الغلمان عندما سقطت عن فرسي ...!

ولكنه رجل ...كَتَفَهُ أَحَدُهُمْ وجاء به حيا فقال ابن بداد اقتله أتريده حيا يطلب دم أبيه... فضرب عنقه ... فسقط على الأرض بطلا مثل أبيه

يرحمك الله يا ولدي .. يرحمك الله يا مُحَسَّدَ ... ويرحمني أنا أيضا ...! عشنا غريبين وغريبين قَتَلْنَا ...!

والتفتوا إلى متاعنا وخيلنا وإبلنا ، فأخذوا كل ما أملك ، وفروا هاربين من المكان وتركونا على قارعة الطريق تسقي دماؤنا الثرى ، قد فارقتنا أرواحنا إلى ربها ... فإننا لله وإننا إليه راجعون

إننا لله وإننا إليه راجعون

رمانبي الدهر بالأرزاء حتى * فؤادي في غشاء من نبال
فصرته إذا أصابتنني سهام * تكسرت النصال على النصال
وهان . فما أبالي بالرزايا * لأنني ما انتفعت بأن أبالي

أبو الطيب المتنبي

الخاتمة

لم أكن أتوقع عندما ذهبت أجمع المادة العلمية التي تُعِينني على كتابة عمل مسرحي عن حياة المتنبي وقد بدا لي من القراءة الأولى لها أنها تصلح نواة لعمل مسرحي جيد ، فأحداث حياته من وقت ميلاده يتيما فقد أمه وحتى مقتله عند النعمانية بالقرب من دير العاقول و التي مرت به وبالخلافة الإسلامية في نهايات الدولة العباسية في هذه السنوات التي امتدت من سنة ثلاثمائة وثلاثة هجرية حتى ثلاثمائة وأربع وخمسين ..أحداث درامية بالدرجة الأولى ، وهي تنتشر انتشارا على صفحات المراجع والكتب التي تناولت هذا الشاعر العبقرى ، وكذلك التي تناولت أحداث الزمان في هذه الفترة من التاريخ ..

بعدما أتاح لي تنسيق هذه الأحداث التاريخية وترتيبها مع حياة المتنبي سنة بسنة وما قاله من شعر بحسب أرجح الآراء في القسم الأول من الديوان ، وبحسب التواريخ المدونة في القسم الثاني من الديوان ، بداية من لقائه سيف الدولة سنة 337 هـ ، وبحسب أقوال الرواة والمؤرخين عن حياته وأسفاره ؛ أقول لم أكن أتوقع أن تقع عيني على هذه الزلات التي وقع فيها بعض كبار الكتاب ، بحسب ما بين يدي من مراجع ..

فتقدّمت دراسة أيام المتنبي مسرحيته في ترتيب أولوياتي ... واقتضى هذا بالضرورة مناقشة هذه الزلات حتى يكون القارئ على بينة من أمره ، منها :

- 1 - يرى محمود شاكر أن المتنبي بقي بالكوفة إلى سنة 317 هـ والرجح أنه فر صغيرا هو وأبوه من وجه القرامطة وهو ابن تسع سنين ...سنة 312 هـ إلى بادية الشام .⁽¹⁾
- 2- يرى شاكر أن عيدان ليس أبا المتنبي بل قد يكون جده لأمه ، وهذا فرض غير منطقي

(1) المتنبي ، محمود شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ط 1987
تاريخ الأدب العربي ، د . شوقي ضيف ، عصر الدول والإمارات ج 5 ص 342 دار المعارف ط 4 / 1996

يعوزة الدليل ، فكيف يفر عيدان بحفيده المتنبي (على هذا الفرض) من وجه القرامطة إلى السماوة ويترك زوجته جدة المتنبي لأمه في الكوفة تواجه القرامطة ! ولو قال جده لأبيه لكان أقرب للعقل ..ولكن لا دليل على ذلك (1)

3 - يذكر د . الشكعة والمستشرق مسينيون أن شهرة والد المتنبي (عبدان السقا) والراجح غير ذلك فشهرته (عيدان السقا) . (2)

4 - يرى محمود شاكر أن المتنبي شريف مهضوم الحق في نسبة والرأي غير ذلك . (3)

5 - يرى د . شوقي ضيف أن المتنبي عاد إلى الكوفة وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، وهذا لا يستقيم من حوادث سنة 315 هـ وما دأب عليه القرامطة من قطع الطريق على الناس والحجيج وما دار حول الكوفة من معارك في هذا العام . (4)

6 - يرى د . شوقي ضيف وبعض الرواة أن الذي قبض على المتنبي كان لؤلؤا والي حمص من قبل الإخشيد ، وأثبتت المراجع التاريخية أن الإخشيد لم يكن له ولاية على حمص في هذه الفترة . (5)

7 - يذكر د . طه حسين أن المتنبي قرمطي أو جاسوس من جواسيسهم ، وينفي محمود شاكر هذه التهمة عن المتنبي نفيا باتا . والرأي عندي غير ما ذكره طه وشاكر .. (6)

8 - يرى د . طه حسين أن المتنبي مشكوك في نسبه ويشعر بالضعة من هذه الناحية ..

(1) محمود محمد شاكر في كتابه المتنبي ص 171 / 3 هامش
(2)

شاكر ، المتنبي ، ص 55 ، 137 ، 138 / 1 عن ابن عساكر عن الربيعي ، ترجمة بن العديم ، وهامش معجز أحمد ص 79 هامش المقدمة . الصبح المنبي عن حيثة المتنبي - يوسف البديعي - تحقيق مصطفى السقا - ص 20 دار المعارف 1994 ط 3

(3) شاكر ، المتنبي ، مرجع سابق ص 171 / 3 ، ص 197

(4) شوقي ضيف - تاريخ الأدب العربي ج 5 ص 342 - 344 انظر البداية والنهاية ج 11 أحداث 315 هـ
(5)

شوقي ضيف - تاريخ الأدب العربي ج 5 ص 345 - دار المعارف ط 4 / عبد الوهاب عزام ، ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام ، دار المعارف ، ص 60 ، 61 / 1996 النجوم الزاهرة ج 3 ص 268 ، 269 ، 288 ، سنة 321 هـ ، التاريخ العباسي والفاطمي . احمد مختار العبادي ، بيروت ص 140 / 141 ، 1992 ، صبحي عبد المنعم ، تاريخ مصر السياسي والحضاري من الفتح حتي نهاية عهد الأيوبيين ، القاهرة 1999 ص 71

انظر زوائد شعر المتنبي تحقيق عزام - مرجع سابق
(6) ...

مع المتنبي طه حسين ص 97 ط 12 - دار المعارف ، وانظر الدكتور عبد العزيز الدسوقي . في عالم المتنبي ص 39 دار الشروق 1988 الطبعة الثانية وابن سيده ، شرح المشكل من شعر المتنبي ص 49 الهيئة المصرية العامة للكتاب 1976 ،

وينفي محمود شاكر ذلك نفياً قاطعاً ويرى العكس تماماً وأنه من الأشراف العلويين ، و
الرأيان متناقضان ويصطدمان بالسند التاريخي على ألسنة الرواة والذي يثبت نسب
المتنبي إلى الحسين الجعفي وليس إلى الحسين رضي الله عنه ، بما يضعف
أي فرض آخر ليس عليه دليل ولم يذكر من هجا المتنبي بأنواع الهجاء بأن
المتنبي ابن زنا . !! ⁽¹⁾

- 9 - يؤكد مصطفى الشكعة ما ذكره بعض الرواة أن المتنبي كان خفيف الدين وأنه ماصلي
ولا صام ولا قرأ القرآن .. والرأي عندي غير ذلك . راجع الدراسة ⁽²⁾
- 10 - يذكر شاكر أن قائل عبارة { رد الدولة من العرب إلى العجم } هو (بجكم) ،
ولكن المراجع تقول إنه (مرداويج) ملك الديلم . ⁽³⁾
- 11 - يرجح شاكر أن المتنبي تزوج بعد خروجه من السجن وعودته إلى الكوفة
سنة 325 هـ ، وأرى أنه تزوج حوالي سنة 329 وهو بجوار بدر ابن عمار . ⁽⁴⁾
- 12 - يرى شاكر أن قصيدة المتنبي في المغيث بن بشر العجلي (لما أقمت بأنطاكية)
يرى أنها قيلت سنة 327 هـ والرأي أنها قيلت سنة 328 بالدليل التاريخي . ⁽⁵⁾
- 13 - يذكر ابن كثير في البداية والنهاية أن من أحداث 335 هـ محاربة تكين التركي
ناصر الدولة الحمداني ، والصواب أنه محمد بن تكين ، حيث مات تكين سنة 321 هـ
و ابنه محمد هذا أثار مشاكل عدة مع ابن طغج من قبل في ولايته الأولى على مصر . ⁽⁶⁾
- 14 - يذكر د شوقي ضيف أن أول لقاء بين سيف الدولة والروم كان سنة 336 هـ ولكننا

⁽¹⁾ راجع محمود شاكر ، المتنبي ، ص 167/ 3 وما بعدها

⁽²⁾ انظر د مصطفى الشكعة - أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين - الدار المصرية اللبنانية ط 2/ 2004 ص 35 وما بعدها د عبد
الله التطاوي ، مداخل فكرية ونفسية إلى المتنبي ص 9 وما بعدها - مكتبة الأنجلو 1991 ، الصبح المنبي ص 95 ، وانظر شاكر
ص 164، 165/ 2

⁽³⁾ انظر كتاب شاكر ص 72 هامش وانظر البداية والنهاية أحداث 322 هـ و 323 هـ وكتاب الأوراق للصولي ص 62 ج 2 سلسلة
الذخائر 123 والذي يرجع إليه شاكر يذكر مرداويج وليس بجكم .

⁽⁴⁾ شاكر مرجع سابق ص 240/ 7

⁽⁵⁾ شاكر مرجع سابق ص 240/ 7 ، عبد الوهاب عزام ، ذكرى أبي الطيب ص 197 ط 3

⁽⁶⁾ راجع البداية والنهاية أحداث 321 هـ

نجد له ذكر في أحداث 335 هـ حيث تم تبادل الأسرى بينهما بواسطة نصر التملي أمير الثغور.⁽¹⁾

15 - يذكر دكتور/ مصطفى السقا عن (السري الرفا) أنه قصد سيف الدولة بحلب وأقام عنده مدة ثم انتقل بعد (وفاته) إلى بغداد ومدح الوزير المهلبى وهذا يخالف الثابت وهو أن وفاة المهلبى قبل وفاة سيف الدولة بأربع سنوات.⁽²⁾

16- يؤكد الشكعة في أكثر من موقع ، أن قصيدة (وا حرّ قلباه ممن قلبه شيم ...) كانت قصيد الفراق بين المتنبي وسيف الدولة ، وهذا غير صحيح فقد قيلت قبل ذلك بخمس سنوات وبالتحديد في رجب من سنة 341 هـ وثابت أن الفراق بينهما كان سنة 346 هـ.⁽³⁾

17- التصور المقبول والمنطقي لحالة الحب التي نشأت بين المتنبي وست الناس (خولة) أخت سيف الدولة وقد ظهر ذلك في شعره ، وما نتج عنها من مشاكل وذلك يتضح خلال الدراسة.⁽⁴⁾

18 - يرى طه حسين أن قصيدة المتنبي

(أيا راميا يصمي فؤاد مرامه * تربى عداه ريشها لسهامه)

أرسلها إلى سيف الدولة تعمية قبل الفرار من حلب إلى مصر .. والرأي غير ذلك فقد قيلت قبل ذلك بسنتين ، ولم تكن آخر ما قاله المتنبي في حلب .⁽⁵⁾

19 - يرى ابراهيم الإبياري أن الذي اشترى كافور الصبي قبل الإخشيد كان (زياتا) وهذا

⁽¹⁾ راجع شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، ج 6 ، ص 21 ، 22 وراجع البداية والنهاية لابن كثير سنة 335

⁽²⁾ شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ج 6 ص 223 ، 224 ، / مصطفى السقا ، الصبح المنبي ، ص 79 دار المعارف سلسلة ذخائر العرب ط 3 هامش

⁽³⁾ مصطفى الشكعة في كتابه ابو الطيب في مصر والعراقين ص 109 راجع الديوان تحقيق عزام ص 322 هامش ومعجز أحمد لأبي العلاء المعري ج 3 ص 247 هامش عن العرف الطيب 341

⁽⁴⁾ الصبح المنبي ص 87 ، راجع الديوان تحقيق عزام مرجع سابق ص 422

⁽⁵⁾ مع المتنبي ص 269 - راجع ترتيب الديوان تحقيق عزام ص 397 وما بعدها ، وترتيب الديوان شرح مصطفى سبيتي ص 158/ 159 ومعجز أحمد ص 485 - 488 ج 3 270 راجع محمود شاكر وكتابه المتنبي في هذه الجزئية

غير صحيح .فصاحبه قبل الإخشيد كان زيانا (حلاقا) ⁽¹⁾

20 - نقض الرواية التي تذكر دعوة كافور للمتنبى بعد علمه بخروجه من حلب وذهابه إلى دمشق ثم الرملة حيث وصله كتاب كافور ، وهو ما عليه بعض الرواه .
راجع الدراسة ⁽²⁾

21 - يذكر أبو العلاء المعري - صاحب معجز أحمد ، في مقدمة القصيدة :

(حسم الصلح ما اشتتهه الأعادي * وأذاعته ألسن الحساد)

يقول : (واتصل قوم من الغلمان بالصبي مولى الأسود) [يقصد بالصبي أنوجور ؛
أنوجور وقت هذه القصيد سنة 347 هـ لم يكن صبيا بل شارف السابعة والعشرين
لأنه تولى ملك أبيه محمد الإخشيد بعد وفاته مباشرة سنة 334 هـ
ولم يكن تجاوز الرابعة عشرة إذا فلم يكن صبيا وقت هذه القصيدة كما يقول أبو العلاء
المعري ..! ⁽³⁾

22 - ترتيب الأحداث من دخول المتنبى الكوفة بعد خروجه من مصر ودخوله الأول إلى بغداد
ثم عودته للكوفة ودخوله الثاني إلى بغداد وهي فترة مضطربة عند شاعر... وغيره
حيث تم ترتيبها من شعره ومن أحداث التاريخ ..وروايات بعض الرواة . ⁽⁴⁾

23 - حسم توقيت وفاة الوزير المهلبى سنة 352 هـ مما صحح كثير من اللبس عند بعض
الكتاب مثل د . طه حسين ومحمود شاعر و د . مصطفى السقا و د . زكي المحاسني
وغيرهم حيث رتبوا اعتبارات لا محل لها لوقوع أحداثها بعد وفاة المهلبى ،
فوجب التصحيح . ⁽¹⁾

⁽¹⁾ ابراهيم الابياري ، ابو المسك كافور . دار الفكر العربي 1962 ص 132/ 133 انظر شرح ابي العلاء المعري - معجز أحمد ج4 ص 33 ، 34 ، 160 ، والديوان شرح مصطفى سببتي ج2 ص 265

⁽²⁾

طه حسين ص 277 عزام ص 101 / 102 شوقي ضيف - مرجع سابق ص 348 راجع شاعر ص 362 ، 363 / 14

⁽³⁾

راجع عبد الوهاب عزام - ذكرى أبي الطيب ص 116 ؛ والديوان تحقيق عزام ص 461 ؛ ومعجز أحمد ج4 ص 88 ، 90 عن
النجوم الزاهرة 292/3

⁽⁴⁾ (شاعر ص 377 / 15) ص 602 عن ترجمة الربيعي، المتنبى ص 2/242 ، 2/165 ، 3/ 170

- 24 - يذكر الشكعة أن المتنبي هرب إلى عضد الدولة عندما أرسل إليه...!! دون سند !!
والرواية الراجعة على العكس تماما (2)
- 25 - لم يذكر أحد أسباب تركه عضد الدولة وقد أشرنا إلى ذلك ربطا بالأحداث والحروب (3)
- 26 - رأي شاعر أن بني ضبة قتلوا المتنبي بسبب قصيدة مدح لسيف الدولة بعد انتصاره عليهم قالها سنة 321 وكان قد هجاهم فيها. وهذا الرأي يفتقر إلى الدقة ،
والراجع غير ذلك .(4)

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل ..

وما توفيقي إلا بالله

المقطم في الثاني والعشرين من يناير 2009

لطفي عبد الفتاح شمعون

المصادر و المراجع

-
- (1) راجع الكامل في التاريخ لابن الأثير ج 7 ط 1987/ لأبي الحسن علي الشيباني المعروف بابن الأثير - دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان أحداث سنة 352 ص 278 ، البداية والنهاية أحداث 351 هـ شاعر ص 146 / 1 يتيمة الدهر 2 / 223 ، والمنظم 14 / 142 ، ومعجم الأدباء 9 / 118 ، وفيات الأعيان 2 / 124 ، وسير أعلام النبلاء 16 / 197 / وتاريخ الإسلام - حوادث ووفيات 351-380 ص 70 - عدا المنتظم أنه توفي سنة 352. ولم يذكر وفاته في يتيمة الدهر .) عزام ذكرى أبي الطيب ص 157 ، مع المتنبي ص 368 ، 369
- (2) راجع محمود شاعر ، المتنبي ص 381، 382 / 16 ، راجع عزام ص 172 والشكعة مرجع سابق ص 490
- (3) شاعر ص 390 / 17 راجع البداية والنهاية أحداث 372 هـ سنة وفاة عضد الدولة
- (4) شاعر ص 390 ، 391 ، 392 / 17

- 1 - القرآن الكريم
- 2 - أبو الطيب المتنبي في مصر و العراقين ، مصطفى الشكعة ، المصرية اللبنانية 2004
- 3 - أبو المسك كافور ، ابراهيم الإبياري ، القاهرة ط1 دار الفكر العربي 1962م
موقع المصطفى .
- 4 - البداية والنهاية ، ابن كثير الدمشقي ، طبعة مكتبة الصفا ، بدون تاريخ .
- 5 - البداية والنهاية لابن كثير ، تحقيق د . عبد الله التركي ، دار هجر ط1/ 1998
موقع المصطفى .
- 6 - الصبح المنبي عن حيثة المتنبي ، يوسف البديعي ، تحقيق ، ط 3 دار المعارف 1994
- 7 - صاحب بن عباد ، الوزير الأديب العالم ، د . بدوي طبانة ،
سلسلة أعلام العرب 27 مكتبة مصر
- 8 - الصديق أبو بكر ، د . محمد حسين هيكل ، ط 12/ 2004 دار المعارف
- 9 - الفرق بين الفرق للبغدادي ، طبعة محيي الدين عبد الحميد ، نشر إلكتروني ،
موقع المصطفى
- 10 - الكامل لابن الأثير دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان 1987 نشر إلكتروني ،
موقع المصطفى
- 11- المتنبي ، سلسلة نوابع الفكر العربي 15، د.زكي المحاسني ،
دار المعارف ط 6 / 2007
- 12 - المتنبي ، محمود شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ط 1987
- 13 - المختار من شعر المتنبي ، بمقدمة العقاد ، مكتبة الأسرة 2001
- 14 - النجوم الزاهرة في ملوك مصر لابن تغري بردي الأتابكي دار الكتب العلمية ،
لبنان بيروت 1413 هـ 1992م موقع المصطفى .
- 15 - تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول ، شوقي ضيف ، ج 3 ط 9

دار المعارف 1986

16- تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الثاني ، شوقي ضيف ، ج4 دار المعارف

ط 12 / 2001

17 - تاريخ الأدب العربي ، عصر الدول والإمارات ، شوقي ضيف ، ج 5 دار المعارف

ط 4 / 1996

18 - تاريخ الطبري ، نشر إلكتروني ، شبكة الإنترنت . موقع المصطفى .

19 - تاريخ مصر السياسي والحضاري من الفتح حتي نهاية عهد الأيوبيين ، صبحي عبد

المنعم ، العربي للنشر والتوزيع القاهرة 1999 موقع المصطفى .

20 - خطط الشام ، محمد كرد علي ، المطبعة الحديثة دمشق 1343 هـ 1925م

موقع المصطفى

21 - خلاصة المتنبي ، د. عبد الجيد دياب ، دار سعاد الصباح 1992

22 - ديوان أبي الطيب المتنبي ، تحقيق د. عبد الوهاب عزام ، سلسلة الذخائر 1

هيئة قصور الثقافة

23 - ديوان أبي الطيب المتنبي ، شرح مصطفى سببتي ، دار الكتب العلمية بيروت -

لبنان ط 1 / 1986

24 - ديوان شيخ شعراء العربية أبي الطيب المتنبي ، مكتبة مصر بتحقيق

د . عبد المنعم خفاجي بدون تاريخ

25 - ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام ، د. عبد الوهاب عزام ، دار المعارف ط 3 / 1968

26 - شرح ديوان المتنبي ، عبد الرحمن البرقوقي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ،

لبنان ، بدون تاريخ

27 - شرح ديوان المتنبي ، الواحدي ، نشر إلكتروني شبكة الإنترنت مكتبة مشكاة .

28 - شرح المشكل من شعر المتنبي ، علي ابن إسماعيل بن سيدة، ت مصطفى السقا،

الهيئة المصرية للكتاب 1976

- 29 - في التاريخ العباسي والفاطمي ، احمد مختار العبادي ، النهضة العربية ، بيروت ، 1992
موقع المصطفى
- 30 - في عالم المتنبي ، د. عبد العزيز الدسوقي ، دار الشروق ، بدون تاريخ
- 31 - كتاب الأوراق ، لأبي بكر بن يحيى الصولي ، تحقيق ج . هيورث . دن . الذخائر 2004
هيئة قصور الثقافة
- 32 - لسان العرب لابن منظور ، طبعة دار المعارف ، بدون تاريخ
- 33 - مداخل فكرية ونفسية إلى المتنبي ، د عبد الله التطاوي ، مكتبة الأنجلو 1991
- 34 - معجز أحمد ، شرح أبي العلاء المعري ، تحقيق د. عبد المجيد دياب ،
دار المعارف ط2 / 1992
- 35 - مع المتنبي ، طه حسين ، دار المعارف ط 12 / 1980

الفهرس

- 1 - لقاء مع أبي الطيب
- 2 - ودخلت سنة ثلاث وثلاثمائة .. (الكوفة والخروج إلى الدنيا)
- 3 - ودخلت سنة عشر وثلاثمائة .. (القرامطة ديث المدينة)
- 4 - ودخلت سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة (هجوم القرامطة والفرار إلى السماوة)
- 5 - ودخلت سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة (القرامطة يستبيحون الكوفة)
- 6 - ودخلت سنة خمس عشرة وثلاثمائة . (سنوات في السماوة)
- 7 - ودخلت سنة ست عشرة وثلاثمائة (انكسار القرامطة والعودة إلى الجدة)
- 8 - ودخلت سنة سبع عشرة وثلاثمائة. (القرامطة يأخذون الحجر الأسود ويقتلون الحجاج في الحرم)
- 9 - ودخلت سنة عشرين وثلاثمائة (الخروج إلى الشام)
- 10 - ودخلت سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة . (ثائر في بلاد الشام)
- 11 - ودخلت سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة .. (أيام السجن ولياليه)
- 12 - ودخلت سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة .. (الخروج إلى النور)
- 13 - ودخلت سنة أربع وعشرين وثلاثمائة .. (اللاذقية وحسد الحساد)
- 14 - ثم دخلت سنة خمس وعشرين وثلاثمائة . (العودة إلى الكوفة الجدة)
- 15 - ودخلت سنة ست وعشرين وثلاثمائة (الشام من جديد طلبا للرزق)
- 16 - ثم دخلت سنة سبع وعشرين وثلاثمائة .. (صراع الكبار في بغداد)
- 17 - ودخلت سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة .. (مداح الولاة)
- 18 - ثم دخلت سنة تسع وعشرين وثلاثمائة (سنوات مع صائد الأسود)
- 19 - ثم دخلت سنة ثلاثمائة وثلاثين (هروب الخليفة من دار السلام)
- 20 - ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة (الحمدانيون يفرون من بغداد)

- 21 - ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة (الخليفة يترك بغداد غضبان أسفا)
- 22 - ثم دخلت سنة ثلاثٍ وثلاثين وثلاثمائة. (الخليفة يفقد عينيه والخلافة)
- 23 - ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة (البويهيون في دار السلام)
- 24 - ودخلت سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة (أبو الطيب ممنوع من دخول بلده)
- 25 - ودخلت سنة ست وثلاثين وثلاثمائة. (وابتضت أيام المتنبى بعدها)
- 26 - ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة (وبدأت سنوات البطولة)
- 27 - ودخلت سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة. (أكرمني سيف الدولة)
- 28 - ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة. (حرب الروم انتصار وانكسار)
- 29 - ثم دخلت سنة أربعين وثلاثمائة. (المتنبى يحرض المسلمين على القتال)
- 30 - ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة (الهروب من الموت)
- 31 - ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة (معركة معارك سيف الدولة)
- 32 - ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة (عام آخر من الانتصارات)
- 33 - ثم دخلت سنة أربع وأربعين وثلاثمائة (المتنبى في إقطاعه بمعرة النعمان)
- 34 - ثم دخلت سنة خمس وأربعين وثلاثمائة (نجم سيف الدولة في سعود)
- 35 - ثم دخلت سنة ست وأربعين وثلاثمائة (وداعا سيف الدولة ، أهلا كافور)
(المتنبى وكافور على ضفاف النيل)
- 36 - ثم دخلت سنة سبع وأربعين وثلاثمائة (كافور يكشف عن وجهه)
- 37 - ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة (لله سر في علاك يا كافور)
(فاتك الرومي بالفسطاط)
- 38 - ودخلت سنة تسع وأربعين وثلاثمائة (الأمل يتجدد في الولاية)
- 39 - ودخلت سنة خمسين وثلاثمائة (الهروب الكبير)
- 40 - ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة (الكوفة وبكاء الأحباب)
- 41 - ثم دخلت سنة ثنتين وخمسين وثلاثمائة (لطم الخدود بأمر أميري، عاشوراء)

42 - ودخلت سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة (رثاء أميرة القلب (ست الناس)

43 - ودخلت سنة أربع وخمسين وثلاثمائة (دعوة إلى جنة ابن العميد)

(وشددنا الرحال إلى الشاهنشاه)

(ومزقني الكلاب بسيوفهم)

44 - الخاتمة

45 - المصادر والمراجع

46 - الفهرس

المؤلف في سطور

- * لطفي عبد الفتاح شمعون
- * مدير عام الرقابة والمتابعة قطاع القنوات الاقليمية
- * مدير عام البرامج الثقافية والخاصة - قناة القاهرة - القناة الثالثة سابقا .
- * ليسانس الحقوق - جامعة عين شمس 1983
- * دبلوم الدراسات العليا - كلية الإعلام جامعة القاهرة (تليفزيون) 1989
- * دبلوم الدراسات العليا - معهد النقد الفني - أكاديمية الفنون 1997
- * مذيع بالإذاعة المصرية (شبكة البرنامج العام) بداية من أكتوبر 1984 حتى 1985
- * مذيع بالتليفزيون المصري (القناة الثالثة) منذ إنشائها في أكتوبر 1985 حتى الآن .
- * مقدم برامج سياسية وإخبارية وثقافية ودينية على شاشة القناة الثالثة قناة القاهرة .
- * عضو مؤسس ورئيس لإذاعة شباب الاعلاميين سابقا على الموقع :

www.alphraeen.com

الإبداع الخاص :

- 1 - ديوان (قاس يا بحر) شعر فصحي الهيئة المصرية العامة للكتاب 2004
- 2 - مسرحية شعرية (شيطان الحلم) شعر فصحي الهيئة المصرية العامة للكتاب 2007
- 3 - المسرحية الشعرية (صريع القوافي) شعر فصحي دار الأجيال المصرية 2012
- 4 - أيام المتنبى بين البداية والنهاية - تأريخ فني لحياة أبي الطيب المتنبى

الجوائز وشهادات التقدير :

- 1 - جائزة الهيئة العامة لقصور الثقافة للإبداع المسرحي (النص الطويل)
عن مسرحية شيطان الحلم 2007
- 2 - شهادة تقدير أكاديمية الفنون مع دبلوم الدراسات العليا - معهد النقد الفني 1997
- 3 - شهادة تقدير دورة حقوق الإنسان من UNDP سبتمبر 2004

- 4 - ميدالية أكاديمية الإعلام بالسادس من أكتوبر مقر دورة حقوق الإنسان سبتمبر 2004
5 - درع محافظة القليوبية للمشاركة في إعادة جريدة القليوبية للصدور ،
ورئاسة صفحة الثقافة والفن لعدة سنوات . احتفالية المحافظة 2001

النشاط الثقافي :

- 1 - عضو اتحاد كتاب مصر
- 2 - عضو منظمة الكتاب الأفريقيين والآسيويين
- 3 - عضو أتيليه القاهرة
- 4 - عضو جمعية أنصار التمثيل والسينما
- 5 - عضو الهيئة العربية الدولية لحماية حقوق الملكية الفكرية .

للتواصل : البريد الإلكتروني lotfytv @ yahoo . com

عنوان الفيس بوك : Facebook . Com / lotfy.a.shamoon.

المحمول : 01224781476 / 01001751622
